ألف ليلة وليلتان

رواية

هاني الراهب

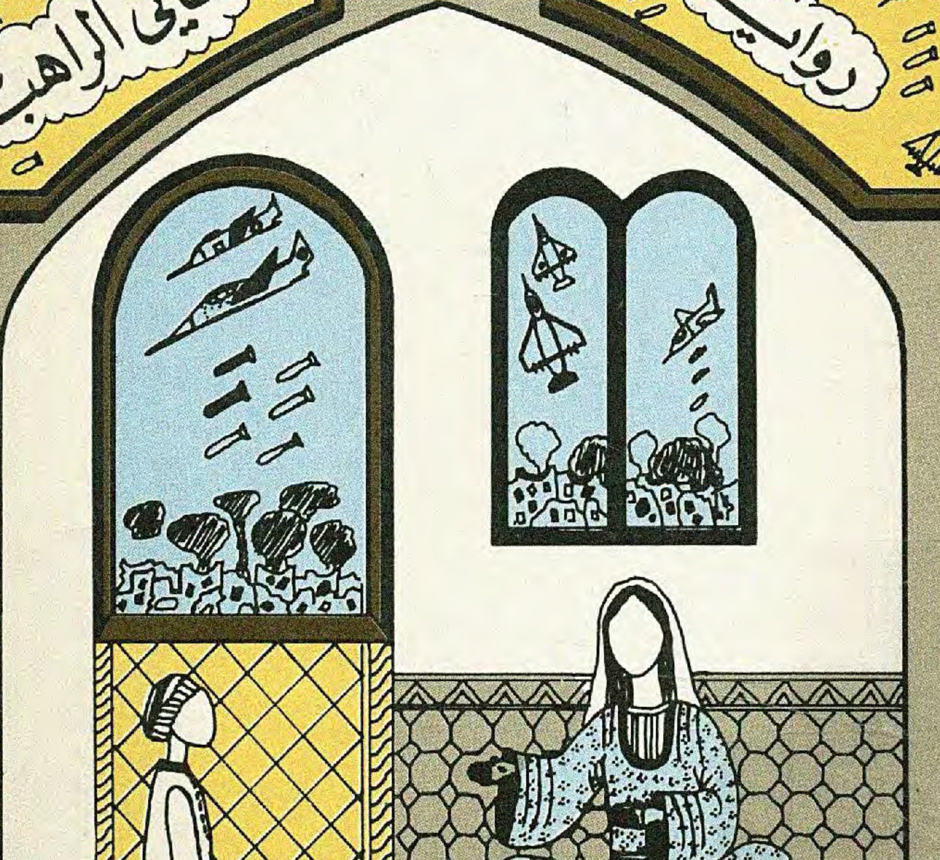

دار الآداب

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٨٨ م

هاني الراهب

ألف ليلة وليلتان

رواية

دار الآداب - بيروت

ان اختلاط الازمنة في الرواية مقصود به الاشارة الى استمرار عالم الف ليلة وليلة العربي خلال الف سنة وسنة، وان هذا الاستمرار بلغ ذروته عام ١٩٦٧ عبر هزيمة حضارية ازاحت العرب عن طرق الزمن ووضعتهم في الليلة الثانية بعد الالف : وهذا الزمن الجديد الذي تنتهي الرواية ببدايته سيكون سداة رواية قادمة •

لي زمن ما يفيقون · كلّ بحسب أجله ·

يقول عبّاس : « يا إلّهي ! رصاصة طائشة رأيت فيها وجه الموت » · يقول نوّاف : « رؤية فقط ؟ أنا صارعت الموت طيلة ثلاثة أشهر · خمسة عشر ألف ليرة · أخوات الداشرة · لو أنهم يصرفون المال لقهر السرطان بدلاً من تبذيرها على النابالم والقمر » ·

كانوا قد تجمّعوا بين جدران ضيّقة فتحت نوافذها الى الحد الأقصى · غاصوا في كنبات وثيرة والعرق ينزّ من جلودهم ·

يتحسّس عباس جرحاً ملتئماً شقّ فيما مضى نصف الدائرة من بطنه · يجثم عليّ فوق كرسيّ الخيزران متكوّراً متقوّساً · تتجلّد أميّة مضمومة الساقين والركبتين طلباً للحشمة · يغير نوّاف من جلسته ·

في بيروت بكت الممرّضة وقد أيقنت أن الطبّ عاجز · صاحت صيحة مفجوعة: أما من أحد يردّ عنها الموت ؟ اخترقتها عينا نوّاف الجامدتان دون أن تراها : لقد انتهى كل شيء · في الليل أفاقت العليلة لتستبدل ملابسها ، فأصابها البرد والردى ·

تدخل عائدة رزينة باسمة · تمسح بالمنديل عرق جيدها · يهبّ نسيم مفاجىء ، يعبث بشمرات النحاس على ظهر أميّة ويحملها الى الصدر الصغير · لذلك تضطرب هي · يتحرّك بؤبؤا عينيها · ينفكّ التفاف الساعدين حول

الوسط • يستقرّ الساعدان على ذراع الكنبة • ينظر عباس الى مكان جرحه • يتحسّسه من فوق الثياب •

منذ تسعة أشهر أسرعت رصاصة المسدس الى اختراق الحيّز الضيّق بين ضلعيْ عباس وعبرت خطاً دموياً فوق المعدة وتحت الكلية لتخرج من العجز • قال الطبيب لكأنّ شرطياً كان يوجّهها لئلا تمزّق الأحشاء • عندما أوصل الى المشفى تجمّعت في جوفه ثلاثة لترات من الدم وأسلمته لغيبوبة الموت • بالمصادفة حدث كل شيء • مات وعاد الى الزمن • في الليل أفاق ، وعلم أنه استبدل حياة بحياة •

يقول نوّاف : « أنت تعيش حياة ما بعد الموت • ماذا تظنّ ؟ أليست الصدفة مرعبة ؟ » يقول عبّاس : « لو أن كل إنسان ينتبه • » « الآن سوف سوف تترك الأشياء الكبيرة هذه • ستّون جهنماً على كلّ شيء • » « ولمن تترك البلد ؟ للأوغاد والجواسيس والرجعيين ؟ » « الرجعية ما تزال أقوى من الجميع • » « الرجعية ؟ نشفت عروقها • أنت تتكلّم عن طبقة تبدّل في عروقها الدم فصار قيحاً • » « أنا شخصياً لم تعد تقنعني دعاوى البشر كلهم • الأفكار والفلسفات • • كلّها للهرب من الزمن والموت • لا شيء يستحقّ الأسف وضياع الوقت • تمتّع بحياتك قبل أن تموت » •

تقول عائدة : « لماذا لا تقصّين شعرك ؟ دارج قصّ الشعر • ومريح من مئة باب • » تقول أميّة : « لا يسمح لي • يقول أحلى هكذا • أنا لا أحبّه • نوّاف لا يقبل • » « الرجال كلّهم يحبون الشعر الطويل ولا يقبلون إذا قصّته نساؤهم • سبحان الله منكم أنتم الرجال • تفرضون مزاجكم علينا كأنه لا يحقّ لنا أن نرى أنفسنا مثلما نريد • » « لا أعرف • أنت تحبّينه قصيراً ؟ » « طبعاً ! تصوري كم أروح ، وأسهل في الحمّام والتمشيط وشغل البيت ومئة وجه » •

وكانوا قد أكلوا الفواكه من صحن بلّور مستفيض • تبادلوا التعليقات المازحة اللازمة إذ رفض نوّاف استعمال السكّين : قضمة أولى وثانية ، هوت بعدهما التفّاحة الى جوفه ، ومسح السائل عن شفتيه بمنديل ورقي • أقسمت عائدة فتناولت أميّة خصلة عنب • انتقى عباس أضخم درّاقة : « كرمى لي • » وتناولت أميّة الدراقة •

تعبر نظرة من عبّاس بوجه أميّة السادر المنصت • تتجوّل عيناها بين جدران الغرفة • يعود وجهها الى صمته • يعتم نقاؤه في الظلّ • تسكن القامة الناحلة • تتدلّى الأصابع على منحدر الكنبة • وتتدلّى نحو الأفق شمس العصر الساطعة • مستتراً ، يرسل عباس ابتسامة الى الوجه الطفل • مستتراً ، يستقبل رداً عليها •

يقول نوّاف : « أميّة طفلة • سحبتها من المدرسة •• من الكفاءة • الآن عمرها اثنان وعشرون •••/وقف على الرصيف الآخر طويلا فسيح الصدر ضخم العظام/ عندما رأته تراخت مفاصلها/تأبطت ذراعي ليلى ولمياء /استدرن الى جهة أخرى ومشين/غداً سوف ينزع عنها سربال المدرسة ويحملها بذراعيه الى رياض العالم/قالت أمها جاء نوّاف ليراك فاختبأت في المطبخ ونحبت نحيباً شديداً ارتجفت من قمّة رأسها الى أخمص قدميها وأمسكت بالصنبور لئلا تقع/ فجأة سمعت أزيز طائرة في الجوّ ورأته يحوم فوق البيت وكيف سيعرف هذا البيت الطينيّ الحقير لكنه كان يعرفه/

تدخل عائدة وهي تسحب كتلة جسمها كأوزّة داجنة • يشفط نوّاف رشفة من فنجان قهوته • يطلق آهة قصيرة • يشعل سيجارة ويطلق دخانها نحو السقف • يقول عبّاس : « أنت غلطان • الحكم بيدنا الآن ، فما الذي يمنعنا من صنع الثورة ؟ أي قوة تستطيع أن ترفع رأسها بوجهنا ؟ عليك أن تحمل

سلاحك وتقاتل • نحن لا نعرف متى يخطفنا الموت • بعد إصابتي صرت أكره الأسئلة • ولكن عليّ أن اقاتل • » تقول عائدة : « الن تبصّري لي بالفنجان ؟ هيّا ، خذي فنجاني • » تغمغم أميّة : « أنا لا أعرف • أنت تعرفين ؟ » « نتعلّم ، طالما نحن جيران • أنت تبصّرين لي وأنا أبصّر لك ، ونرى ما الذي خبّأه لنا الله • » « تؤمنين بحسابات القهوة ؟ كلّها زعبرة • » « يا الله ! نتسلّى • ألا تسمعين حديثهم عن الموت ؟ أفزعونا • » « اي والله • لكن فنجان القهوة لا يردّ الموت • » •

يقول عليّ بقحة : « ما دمت حزيناً لفقدان المرحومة الى هذا الحدّ ، لماذا تزوّجت ؟ » يقول نوّاف رابط الجاش : « لأجل هؤلاء الاطفال ، تيتّموا ويحتاجون لمن تعتني بهم • » ويتخيّل رصاصة تخرج من مسدسه الى رأس علي ثقيل الدم •

ثم يسترخون بانتظار جفاف البنّ في الفناجين الضيّقة الجدران : داخل هذه الاشياء الخزفية يكمن المصير • وكيف لا تكون حياتهم رائعة ، وقد عبروا بحر ظلمات الغيب على ظهر خطوط وبقع يرسمها البنّ ؟

وراء بحر الظلمات يجلس الرئيس جونسون مادّاً ساقيه الكاوبويتين على الطاولة • منذ ساعات طويلة استيقظ • وها هو الآن يتثاءب • يقول لجلسائه المطيفين وسبابته تبرم خارطة مجسّمة مثبتة على حامل : « يمكننا الآن أن نخرج انقلاباً عسكرياً مسلّياً ببضع رصاصات وحفنة من الدولارات » •

يصيح شيش بيش بدون تثاؤب : « أنت جاسوس • عميل مباشر للمخابرات الأميركية • أنت مثل من يعطي للصّ سرق قميصه إيصالا بشرعية امتلاكه للقميص • » يقول سليمان ، نصف مخذول ولكن مصمماً : « اللصّ سرق القميص يا ابن القحبة ، وأنت لا تستطيع استرداده • نحن ننفق سبعين بالمئة

لأجل حرب لا تقوم . » يقول علي دون أن ينظر اليهم : « اسمعوا يا أفندية . رجاء ، لا تحوّلوا نقاشكم الى داحس وغبراء . »

عند حلول الظلام جاؤوا وتمدّدوا على الكراسي الجلدية . الطاولة أمامهم مستطيل مجلّل بكؤوس الخمر . المساء النافر بوجه المصابيح المنيرة يتدفّق في الفضاء الأغبر ، يلمس أبصارهم كمارد اعتمر طاقية الإخفاء : عبر ثناياه تمضي عيونهم نائمة ومفتوحة ، تمضي وتعود . في الصمت الغفل تُولد كلماتهم وتموت ، تحضر اليهم الأشياء محمولة على رمل الخاطر . وبين اللحظات يبدّلون نوع جلوسهم واتكائهم . يحتسون مزيج العرق الأبيض ، وبعضهم يوحوح مستطيباً مذاق المزيج البرود .

يقبل شيش بيش عائداً من دورة المياه وهو يمسح أنفه . ينبر كرسيّاً ويسقط عليه . يشتم جلوس رفاقه الكليل ويطلب اليهم أن يكفّوا عن كونهم جِيَفاً وينطلقوا لتحرير فلسطين . يلوي رأسه الى الخلف ويصيح : « أين كأسي يا أبو نادر ؟ » ويلتفت : « لو توجد كتلة عربية واحدة تريد أن تحرّر سيحارب معها الشعب جائعاً عارياً . » يقول سليمان : « أنت تحلم بطريقة ديماغوجية . أنت تنسى أن أمريكا لا تبتهج كثيراً بحروب التحرير . » يصيح شيش بيش : « أميركا ؟ ومن قال لك إني سألان عن أميركا ؟ » يصرخ الملك : « أنتم نسيتم شيئاً يا أولاد الزانية . نسيتم أنكم قمل . أنتم لا تملكون الحرب ولا الثورة . الأبراج هي التي تملكها . » .

يتابعون تقدّم امرأة أطلت من يمين الرصيف وألقت عليهم عناء جديداً . كل شيء فيها جميل ومستطاب . ينقر بعضهم على الطاولة . بعضهم يرفع الكؤوس ويشرب بلا تعابير . يقول عليّ : « هذه لشيش بيش . » يعترض شيش بيش : « مؤخرتها أضخم قليلاً مما أريد . » يؤكّد عليّ : « هذه تماماً

ذوقك الجمالي ، أو الجنسي بالأحرى • » أنا لست ضدها • اعترضت فقط لأسجّل موقفا • أنتم تسيئون الى سمعتي » •

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنـــة تحـــت الطـــراف المعمّـــد

/لو تتقدّم من الشباك وتفتحه ليتدفّق النور محمولاً على نسيم قويّ يجعل الستارة تخفق والاندساس تحت اللحاف أمتع وأكثر دعوة/ورمت ثيابها قطعة قطعة وأقبلت اليه وكان جسده منشدّاً فأخذت يداه ووجهه تجتاح كثبانهـا ووديانها وأجواءها وتفرك جلدها وتطويه/وامتدّ عليها فشهقت وجداً وشهق على اثرها •

يقول سليمان : « أنت انفعالي وحياتك كلها قائمة على وهم • وهم أنك مناضل أو فهمان ، أو ابن آدم • وأنت فقاعة صابون • » يهمهم شيش بيش : « يوم كانت شرطة أديب الشيشكلي تطاردنا أين كنت أنت ، سيد سليمـــان الفأر ؟ » يقول علي دون أن ينظر اليهما : « من فضلكم اخرسوا ، أنتم الاثنين • » يقول سليمان : « كنت أفكر في المتوهين أمثالك الذين يرفضون الاعتراف بتخلّفهم عن مسيرة التاريخ • » « أرى الغبار غطّى على قفاك لكثرة ما ركضت وراء التاريخ • » ينبر الملك : « دقيقة صمت واحدة يا أولاد الزانية ، حداداً على روح الزمن التي تقتلونها • » يقول شيش بيش : « أنت غارق في مستنقع الخلاص الفردي ، هذا هو كل شيء • » يصرخ الملك : « يلعنك ويلعـــن خلاصك • » يزيح كرسيه • يدفع بالطاولة فتميل نحو علي • تترنح الكؤوس والزجاجات ويندلـق الخمر • تنزلق الصحون وتهوي • يقفز علي بعيـــدا ويغادرهم • يمضي بارد العينين ، مضاء الخاطر بنور أسود •

قيس بن زهير صاحب داحس تراهن هو وحذيفة بن بدر على عشرين بعيراً وجعلا الغاية مئة غلوة • فوضعت بنو فزارة رهط حذيفة كميناً في الطريق

فردّوا داحسا ولطموه في الطريق ، وكان سابقاً ، فهاجت الحرب بين عبس وذبيان أربعين سنة ٠

يسقط في الليل ووحشة العالم المحايد ٠ يشعل سيجارة ويمضي بحـذاء الأشجار الصامتة والبشر الصامتين ٠ يشاهد أقدام الرجل الأبيض تخبّ على تراب بلاده المديد محتمية بأيام العرب ومسرّات الخليفة ٠ يتحسّس وقعاً مكنوناً لانهيار لا يراه أحد ٠ وراءه يهمهم شيش بيش : « أما كان أحسن يا صاحب الجلالة لو أنك قلبت وجهك بدلاً من الطاولة ووفرت علينا خمسين ليرة ؟/قال مؤخّرتها ضخمة قال/فليحفر قبره في كثبان عالج/ليس غير الملك من يعرف قيمة اللحم المكنون الصلب/يقترح سليمان : « مفروض أن نختار بسرعة ، السينما أو أم تحسين ٠ » يقول الملك : « سينما ؟ الساعة الآن الحادية عشرة ٠ أم تحسـين ٠ سيأتي الأشخاص أنفسهم الذيـن قشّطونا أموالنـا الأسبوع الماضي » ٠

عائدة : ساعدان معقودان تحت الصدر ، جذع منتصب ، رأس مستدير الى اليمين ، نظرة جامدة على البلاط ٠ يسألها عباس ماذا حدث فلا تجيب ٠ يعيد السؤال ، ثم يعيده ٠ « لا شيء ٠ » « ولماذا يبدو وجه حضرتك على هذه الصورة ؟ » « وجهي يشع ومقرف ٠ شيء غير وجوه العاهرات الواقفات على الشرفة ٠ » « ماذا تقصدين ، سيادتك ؟ » « لا شيء ٠ » « أفهم أنك تقصدين جيراننا في البناية تلك ؟ » « لا تفهم شيئا ٠ حسرتي فقط على أب لأربعـة أطفال لا يستحي من تذبيل عينيه لعاهرة ٠٠ أنا لست أجيرة في البيت ٠ لم أعد أحتمل ٠ تهدّمت صحتي في المسح والغسل والجلي والطبخ ووو ٠ » « سوف تمزق هذا العمر الشقي ضربات سكين التفاهة وصغر النفس ٠ الرجال الذين أرادوا منذ الطفولة أن يصنعوا شيئاً عظيماً تقولبوا أخيرا كالأحذية وامتصّتهم

الالتزامات . إن تاريخاً جديداً يفد الى البشرية ، ونحن هنا مطروحون على أرض الحياة اليومية كخيوط المنكبوت . يجب أن نبتر هذا السرطان بالطلاق.» ويسقط رأس عائدة على نحرها بعويل طويل .

تقرير صحيفة أسبوعية :

ـ « التبعية والبؤس هما الكلمتان اللتان يسمهما وصف البيرو . الشركات الاجنبية تسيطر على مجمل القطاع المنجمي تقريبا .. وعلى معظم إنتاج السكر والصيد البحري ، وعلى تسويق القطن والبن وعلى ٩٠ بالمائة من وسائط النقل وعلى أكثر من ٩٥ بالمئة من إنتاج النفط وتكريره وتسويقه .. وعلى أربعة من المصارف الستة الكبرى وعلى شركات التأمين المرتبطة بها .. وعلى ٧٠ بالمائة من رأسمال ١٧٠ مجموعة صناعية لها بعض الأهمية ... وربما استطاع رقم واحد أن يدلّ على حجم هذا النهب : بين ١٩٦٠ و ١٩٦٥ وظّفت الاحتكارات الاميركية ٥٨ مليوناً من الدولارات وحصلت منها ١٤٧ مليوناً .

« أما البؤس ، فإن تحقيقاً أجري عام ١٩٦٣ يقدّم عناصر لتقييمه : في ذلك العام الذي لم يكن أسوأ من سواه ، على الصعيد الاقتصادي ، كان يموت طفل عمره أقل من سنة كل عشر دقائق ، بسبب مرض قابل للشفاء في الغالب . وفي ليما ، وهي مدينة ذات امتياز بالقياس الى الداخل ، كان اثنان بالمئة فقط من الأطفال يتناولون الحليب . وقد أظهر تحقيق حديث هذا العام وجود أكثر من أربعمئة ألف طفل متخلّف عقلياً و ٢٥٠ الف من مدمني الكحول ومليون من مدمني الكوكا .. » .

« تضاف الى ذلك نسبة رهيبة من الأمّية ومن البطالة وشبه البطالة وثقافة سحقت بعد أن عمّرت آلاف السنين » .

« أما قاعدة هذا النظام فتتشكّل من ملاكي الأرض والشركات الأجنبية وضبّاط الجيش • وكانت تحرسها بركة « التحالف من أجل السلام » وهي الصيغة التي أرساها جون كينيدي للسيطرة على أميركا اللاتينية • »

تتحوّل الحياة الى أرقام : خمس ، عشر ، ثلاث عشرة ، عشرون بعد المئة • تأتي الكلمة الحاسمة : صولد • ويعقبها الصمت العصبي ، حسوات العرق واقتسام النقود • يستأنفون التوزيع • تصمت سرائرهم ، يتغلغل الليل في أجسادهم ، والخمر والدخان • تتّسع أمام أعينهم طاولات اللعب كمجرة طرزتها الأرقام والصور • فوق رؤوسهم يتدلّى مصباح الكهرباء ، وينعقد الدخان والجأ بعضه في بعض متكاثفاً حتى ليغدو قواماً صلباً • تحت مظلّته تشحب ملامحهم وتتقلّص ، تنحلّ الأصوات والكلمات • وبين جدران أربعة ، حيث يسقط الفضاء ويمّحي المدى ، يلتصقون بكراسيهم الخشبية ، كل على النحو الذي يهييء مسامه وخلاياه لدورة الورق الأصم • شيئاً فشيئاً تختفي دعابات شيش بيش وزمجرات الملك ، تختفي تحت طمي من الصمت الهزيل • يتكوّر الملك على كرسيّه مطرقاً عاقد الجبين • ينكمش عليّ وقد أحرجته الليرات القليلة التي ربحها • يتحرّك بؤبؤا سليمان الكسولان المتحفّزان : من محجريهما تمتلكان الطاولة والورق والغيب المصنوع بأنامل عمياء • يتكيء شيش بيش على مسند الكرسي المخلّع ، ينقر بأصابعه على اللوحة الجلديّة وبقدمه على الأرض • يصفر • يمدّ رقبته نحو أوراق الآخرين • ينقر ويصفر ويمدّ ويحسو ويتفحّص • والى يمين الزمن الهارب بالمال والعافية يسدّدون سهم أمل مجنّح بلحظة كسب قادمة ، آن تندرج الارقام والصور تحت الأسماء الرابحة • يراوغون قلقهم الأبتر بالاهتمامات العابرة وبالرجاء ، يفرغونه في شحنة صمت • يتوهّمون ويخيّل اليهم • تربض في أعينهم الخمرة والأرق • يتوجّسون

من الغد المقبل حاملا معه عطية الأمس ، ويتمنّون لو يصير الزمن الى ليل لا صباح بعده ·

ومع التراتيل الأولى لصلاة الفجر يتقطّع حبل الكلمات وتنفد أحاسيسهم الآدمية · يستلقون على كراسيهم كحبّات رمل محكومة بالعزلة في مدينة الرمل· والمساحة ضيقة وشاسعة ، تلتطم فيها المناكب وتتلاقى العيون وتتصافح الأيدي ، وكل عالق بين الخيطين الأبيض والأسود في رحلة غريبة مختومة بخاتم سليمان ·

يسير عليّ مرتكساً معتكر الفؤاد · يتوغّل في الليل والشوارع · تتسلّل اليه سكينة الرمق الأخير من الليل وتسربله · الضوء المنبثق من واجهة فرن عريضة تنير أمام عينيه أرغفة الخبز المولودة من صلب النار : من بين جميع الأفلاك والمجرّات تدور هذه الكرة الصغيرة كل يوم وكل عام حاملة معها الحياة والثمار الى ما لا نهاية · ولماذا لا يكون الإنسان سعيداً وبين يديه هذا الخير والجمال ؟ يخلّف وراءه الضوء فتعود اليه الأشجار وروائح الياسمين · تصافحه البيوت الجميلة وطعم دمشق ، الهواء وتراتيل المآذن وأبراج السماء القصيّة · على غير توقّع يرى أمامه الحيّ الذي يسكن فيه : شارع ضيق يفصل السوق وبيوت الطين والأزقة الغبراء عن العمارات والجنائن المنزلية وموجّهات التلفزيون · يسمع أصوات تسبّح وتتلاشى في رحاب الكون ·

في بهمة الليل شاهد الخليفة امرأة تحرّك محتويات قدر يتصاعد منها البخار ، وأطفالها الثلاثة يبكون حولها · « لماذا يبكي أطفالك يا امرأة ؟ » سألها · « جوعاً . » قالت ولم تلتفت · « وما الذي في قدرك هذا ؟ » « حجارة وماء · » وصرخ الخليفة بصوت عظيم : « ويل لعمر من امرأة كهذه يوم القيامة · » ·

في المدخل يلمح جسداً متمدّداً . ينتبه بسرعة الى حمار أبيض مربوط الى دولابين توازيا حول برميلي قمامة . يستدير نحو الشاب الغافي : جسم تمدّد على قطعتي كرتون كبيرتين ، ورأس أشعث الشعر التصق خدّه ببلاط العتبة . ليس تحته فراش ولا فوقه لحاف : قميص وبنطال مرقّع وقدمان اختفتا تحت مكنسة . يدخل عليّ محاذراً . يجلس على الدرجة الثانية وراء قدمي الشاب . يتكيء على ركبتيه ، وبينهما تتهدّل يداه .

يقترب الفجر من المدينة ويهبط الى أعالي الدور . تتوقّف الترتيلات تاركة صمتاً موحشاً . يرى علي الى أزهار الياسمين في حديقة جيرانه والحمار الأبيض الجاثم في منتصف الشارع . آنئذ تشقّ السكون زقزقة حادّة غزيرة تفيض من عصافير الدوري الهاجعة في الشجر . يتذكّر عليّ اللغو الحادّ الغزير في المطعم والشارع والمقمرة . أخيراً ينهق الحمار الأبيض ثابتاً في وقفته الشجيّة . ينتفض الكنّاس من مرقده . يتحسّس شعره بيده ، وإذ يرى عليّاً يبتسم : « مساء .. صباح الخير ، أستاذ . » يحيّيه بمودّة هادئة . يراقبه وهو ينهض ويجمع قطعتي فراشه الكرتوني . يسأله : « ألم تبرد ؟ » يقول : « الدنيا صيف . » يتكيء بيديه على المكنسة . يسترخي جسداهما المتعبان وتلتقي أعينهما الساهرة . يبتسمان ، يتثاءبان ، يفكران ، يبدوان حريصين على استمرار اللقاء الودود ، لكنهما لا يجدان حاجة الى نسج الكلمات المسموعة . ستحيل العبارة هذا الوداد الى حزن مبضعي ، صور محترقة . هؤلاء سكان السوق ، يصحون عندما ينام الناس ، وينامون عندما نور الله يضيء على عباده . وهؤلاء أبناء الزمن المنسيّ . بهارات وتوابل على طبخة فسدت . يضعون ربطات العنق كما توضع الأرسان حول رؤوس الحمير ، لكنهم ليسوا من كنّاسة الشوارع . وقال جبلة بن الأيهم : « يا أمير المؤمنين ، أتقضي بيننا وأنا ملك وهو سوقة ؟ » فقال عمر : « لقد ساوى بينكما الإسلام » .

« وجاء في القرار الظنّي أن المغدورة زينب لم تكن منسجمة مع عريسها ، فحاولت المستحيل لتحاشي الاختلاء به أو التحدّث اليه ، مما جعله يثور ويظنّ بها الظنون ويتّصل بذويها مهدّداً متوعّداً ومتّهماً إياها بخيانته · ويظهر أن تذمّر الزوج وجد قبولا في نفسية أخي الزوجة غالب الذي حقد على شقيقته ظنّاً منه أنها انحرفت عن الطريق القويم وأنها تعاشر بعض الأشخاص · ويوم الحادث رافقت زينب زوجها الى مغارة جعيتا وكانا على وفاق · وفي طريق العودة طلبت اليه أن يعرجا على منزل ذويها لزيارتهم فوافق ، وعند وصولهما أرادت زينب الدخول من الباب وما ان شاهدها شقيقها حتى فقد أعصابه فتناول مسدسه الحربي وأطلق عليها النار فأصابها بعدة رصاصات كانت كافية للقضاء عليها ، ثم استسلم لرجال الأمن حيث تبيّن له فيما بعد أن شقيقته كانت عذراء » ·

« قلت لك لا تعذّبي روحك · · أخبريني من هو عشيقك أو اختاري بأي المسدّسين تموتين · » « نوّاف ، كرمى للنبي · ما عاد بوسعي الوقوف على قدمي · أبوس حذاءك ، أنا أموت من البرد · قميصي وجسمي يقطران ماء · راسي تورّم · اتركني أغيّر قميصي على الأقل · » « تعرفين أنهما كاتمان للصوت ، وأية رصاصة منهما تكفي لنثر دماغك على الجدار · » « آه يا ربي ! ألا تكفي خمس ساعات ؟ » « من هو عشيقك ؟ » «من أين يجيئني العشاق والشبابيك مغلقة ليل نهار ؟ » « كان مفتوحاً ورأيته من الطائرة · » « هذه غرفة ابنتيك ، نوّاف · محبة بالله ، قلتها لك مئة مرة · » ينهض اليها · يرفعها ككتلة من عجين ويلصقها بالجدار · تمسك يداها بكتفيه ويتهدّل رأسها · يتّحد قوله بالفعل على نحو لم تأت به نبوءة فنجان القهوة : « تكلّمي · » صفعة · « ما اسمه ؟ » صفعة · « من أين تأتيك النقود ؟ » صفعة · « من اشترى لك الفستان ؟ » صفعة · « أين تلتقيان ؟ » صفعة · أخيرا تنكفىء فوق ذراعه

متأرجحة اليدين • يمدّدها على الطاولة • قبل أن يستدير يشدّه منظر فخذيها وقد انحسر عنهما القميص • يقف • يغتلي في صدغيه بخار حارّ خفيّ • تمشي نظرته فترتطم بالثدي : من فتحة القميص نفر مضغوطاً بالساعد الهامد • « بنت الحرام ، » يغمغم وهو يتّجه الى المغسلة ، هائجاً ولكن متماسكاً • يملأ جردلا بالماء ويعود • يفرغ الماء على الرأس والثديين والفخذين • يتنفث هياجه • تفيق أميّة للمرة الثالثة •

كذلك تفيق أم خلف • تلبس عباءتها وملاءتها وتقصد البهو • يسألها علي : « أيقظتك ؟ » تدس أصابعها في شعره الأشعث : « لا • هذه العصافير • أنت عصفور ؟ » يبتسم محرجاً ومغتبطاً • « ألن تترك عادة السهر هذه وترحم صحّتك ؟ » « وقت تدلّينني على عروس حلوة • » « نم الآن ، وستبوس يدي بعدئذ وتقول : بارك الله فيك يا أم خلف • نم الآن • وسنذهب الى المنجد بعد الظهر • » يمضي الى غرفته ، وتتّجه هي الى المطبخ • تتوضأ • تعود الى البهو • تمدّ حصيراً عتيقة ، تقف، ترفع يديهاحول أذنيها ، وتقرأ من الذاكرة• والقرآن صوت من ضوء يجلو خاطرها المخمّر بغثاء النوم ، يفتح نفسها للفجر القادم من وراء الصحراء • والذاكرة وعاء • تنحني ، تركع ، تسجد وتقرأ • تسلّم الى اليمين ، وتسلّم الى اليسار فترى أشجار الزيتون المتقصّفة في حقل أبي مروان الصغير/فقال يورام آهارون جئنا نبلغكم أن هذه التلة ومنحدراتها حتى وادي الأقطم صارت ملكاً لنا وهذا هو عقد البيع/مطلوب منكم أن ترحلوا الى مكان آخر/فقال أبو خلف من باعها لكم/قال يورام الآغا فتح الله ترخان باعها لنا وهذا هو ختم ولاية بيروت فالبيع تم في بيروت/وعلى سفح التلة تمدّد أبو خلف وخلف ورفاقهما وقد اختلطت الدماء بعضها ببعض وبالتراب/أبي أبي آخي ومن بعيد وقف يورام ورفاقه وبأيديهم بواريد لامعة أبي أخي وكان منظر الدم مروّعاً وطعمه منفّراً وفيما الأيدي ترفعها عن الجثث نظرت الى

يورام نظرة مختلفة أيقظتها من حلم طويل لتريها كابوساً حقيقياً/وشدّوا على يديها وجذعها ليمنعوها من الرجفـان ولكن كم كان وهماً كبيراً ذلك الاستيقاظ/كانت نهاية النوم الحقيقية بعد عشرين عاماً/يا للمدّة الطويلة / يومها لم يقل لها يورام ولا غيره من البشر مطلوب منكم أن ترحلوا الى مكان آخر فالجليل كلها صارت لنا/البواريد والمدافع تكفّلت بالكلام وكانت هي عقد البيع الجديد/آه ويل للمصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون.غفرانـك يا رب لو أنهم فقط تركوا لها زوجها أبا خلف أيضا/أو فقط شيئاً من جثته / لكان أفضل لو أنها رمت هذا الجسد الفاني ليذوب ويختفي في النيران معه ومع الأهالي والبيوت ويسلّم خلف والقرية بأجمعها ومحمود الصغير يصرخ والقرية تصرخ والجليل يصرخ والعالم يصرخ والعالم كابوس/تركع وتغمس وجهها بيديها كمن لا تريد أن ترى · تتنهّد بعمق ، تشدّد عضلات وجهها لئلا ينزّ منها الدمع · تقيم الصلاة من جديد ·

يهبط الفجر على قنّة قاسيون ، يحبو نحو سفوحه · نجمة الصبح تشعّ وتنتظر الصبح لكي تختفي · عينا أقدم مدينة في العالم ما تزالان مكحّلتين ببقايا الليل · تحت جفنيهما تدبّ يقظة كسول وترتسم الصور · الشوارع الفيحاء تتعرّى للضوء المقبل ، ورؤوس أشجارها تهتزّ كالذوائب أمام هبوب الهواء · يتمعّن الملك في ما حوله من أشياء الكون ويغمر وجهه بيديه : يا لهذا الكابوس الذي لا ينتهي · سوف يراها مستيقظة ولابسة ثياب الخروج · لا يفهم لماذا تقيم له هذه الطقوس ·· فوق هذا تستقبله بانحناءة عميقة تليق بملك حقيقي ، وهو المضروب على أمّ رأسه بسياط مصنوعة من إبر الإسكافيين · يمشي على الرصيف الترابي صعداً باتجاه البيت · وقد يخطر لها فتربط حول خصرها شالاً وفي الدقائق الخمس التالية تتمايل برقصة هزّ البطن ثم تفرد أصابعها على كشحيها وتسأل : هل أعجبت مولاي جاريته الحقيرة الشان ؟ ينظر الـى

بساتين الغوطة الموصولة بالأفق • أو قد تسأل : كيف كانت معطيّة الليلة يا صاحب الجلالة ؟ يتلمّس جيب سترته ويتنهّد : لا سجائر ولا نقود • أو : هل جدت بما في بيت مال أطفالنا على أم تحسين وزبائنها ؟ يتطلّع الى حيث يختفي بيته بين البيوت البعيدة • أو : هل يأمرني مولاي فأنضوه من ثيابه وأغسل قدميه ليرتاح من وعثاء السهر ؟ فجأة ينعطف نحو اليمين ويمشي نحو الحقل الصغير العاري باتجاه الشرق • الشرق القديم الدائخ بقدمه المتدروش بشعاع الشمس المهترىء في الزمن المسخسخ بحريمه الكبير بموائده المستنقع صبابة الجاف ريحاً المسوس عقلا الصدىء سيفاً المثلوم كرامة المهدور إنسانية المتشقّق المتعفّن المتهدّل الممسوخ المنخوس المعقور المبهور المهجّن الخلاسي • يمضي قدماً ، يتغلغل بين الأشجار ، يبلغ أخدوداً طويلاً غطّته أوراق الجوز • ينظر الى اليوم الطالع من وراء الصحراء ويتمتم ببطء : ما لنا كلنا مغلول بشيء حدث في الماضي • يرمي حافظة أوراقه ، يرتمي ويوسّد رأسه عليها •

تشرق الشمس ؛ يغفو الملك •

استيقظت دمشق ونامت • استيقظ الغبار ونامت الحساسية • صهلت عروق وحشرجت نفوس • استيقظت اللغة ونامت أوراق الجوز • ولمعت الشمس على صلعة قاسيون •

في شارع الصالحية يمشي عباس للمرة الاولى منذ شهور • تزدحم في جبهته الانفعالات كأعشاب بريّة • الحوانيت القديمة ، الصبايا الدمشقيات ، السرّ الهادىء المكنون في قلب الضجيج وفوضى المرور ، وجميع دمشق • دمشق المستلقية على حضن الجبل وقدميه كفتاة تدثّرت بأحلامها المثيرة الخفيّة • لأمر ما لم يدركه ، يتوقّف عند (البوابة) مستسلماً لدهشة نجلاء • ها هي ذي دمشق أميرة وأسيرة ، نسيج متقاطع من كريستيان ديور وتكية السلطان سليم ،

يعرضه التاجر • لكن الرجل يشير ، وقد صارت ابتسامته أكثر غموضاً ووداعة، الى الاعلان الصغير : (السعر محدود) • ويخشى عباس مزيداً من الجدل يعرض شخصيّته للازدراء ، فابتسامة الرجل الواقف أمامه تستطيع في كل لحظة أن تكتسب معنى جديداً دون أن تتغير •

وهكذا يبتاع الفستان • يقول لنفسه : سوف تسرّ به عائدة أكثر لأن ثمنه مرتفع •

في البهو العاتم تجلس عائدة وتبكي • لم تعد الحياة أملاً مرجوّاً ، والعمر ضائع وحزين • لماذا تحوّل كل شيء على هذا النحو الغريب ؟ وما الذي حدث كي يجفّ الحبّ والعروق ؟ هل كانت حياة الناس دائماً هكذا ؟ ثم تتحدّر الدموع ، سودا بسبب الكحل ، وتخطّط وجهها النضير • كانت أجمل فتاة في المدينة • كان طولها رائعاً ، وكانت بشرتها وتقاطيعها كذلك • وكان قد ركع أمام كندرتها جميع وجهاء البلد • وليت اللواتي يشمشم حولهن في مستوى ظفرها جمالاً • لكن نفسه دنيئة ولا يقيم وزناً لغير الجنس • تمسح وجهها وعينيها ، وتنظر في المرآة الصغيرة : لقد ذاب الكحل • « قل لابن عمك إني ما عدت أتحمل هذه الحياة • سأترك أولاده يربّيهم ، وبيته يطبخ ويمسح ويغسل فيه • سأرجع الى بيت أهلي • أنا عشت عمري كلّه في الدلال ولست خادمة لأحد • صحّتي أهمّ عندي من الدنيا كلها • أحياناً تغبش الكتابة أمام عيني والكتابة على التلفزيون لا أقدر أن أقرأها • ولست أدري ماذا حدث لاذنيّ • الله يعلم ماذا فيهما • أنا لا أسمع نصف الكلام الذي يقال لي ، وكله بسبب إهمال ابن عمك وقلة أصله • » يقول علي : « الرجل عادة يفتقد شيئاً روحياً ، مثالاً من نوع ما ، لست أدري • يمكن ، لو راجعت نفسك ، وحاولت أن تعرفي ماذا يريد ، وكنت هذا الشيء الذي يريد •• » « ما هو هذا الشيء

الروحي ؟ ماذا يريد غير الجنس ؟ جميع من يركض وراءهن أبشع من القرد ، فأين هي الروح ؟ » ثم تخضلّ كلماتها بالدموع · يخرج صوتها نحيلاً ناحباً · تسند جبهتها على راحتها وتبكي ، فيما يدها الأخرى تعبث بعود الكبريت · تركن حزينة ومغلوبة على أمرها · حتى مع جارتها أمّية ، يحاول · من يتصوّر أمية تخون زوجها ؟ شاب يعادل اثنين من عباس ، اشترى لها بيتاً وسيارة ، حوائجها من موسكو ولندن وباريس ، يحضرها بنفسه ، وروما ·

يتأمل عليّ حجم جسمها الذي تضاعف بفعل السنين · يتحيّر نصف مذعور أمام عمى الجمال القصير وبهاء اللون العابر : أهذا هو التاريخ ؟ لأمر ما يعميا عن مشاركتها وتخيفه قسوته : لقد تخلّت عائدة عن النضال ، تعلّقت بمثال الحب وعميت عن عالم شرس التغيّرات ! لعلّها رأت ولم تعترف ، واندفعت في بؤسها وعريها الخفيّ تضبط قوانين الشعور بالوصايا العشر ، ثم تنفر أملاً باستعادة الزمن الأول ، حتى اذا أضناها الحساب والغفران ترتمي على مقعدها وتصدّ بكلتا يديها لجّة اليأس المقبلة ، وجلة من الآتي وآملة ، تاركة عمرها مشبوحاً على شعرة التأجيل أو الموت ·

يرنّ جرس الباب فتتنهّد · تمسح وجهها وعينيها جيداً : « هذه أمّية ثقيلة الدم ، تتكلم كأنها ترى حلما ، ثرثارة وطفلة في وقت واحد · » عند الباب تبدأ المرأتان عتاباً عنيداً · أمّية تتأخّر عامدة لأنها تعرف شوق عائدة لها · وأمّية تقسم يميناً على العكس · عائدة ترفض الحجج : « من الطابق الثاني الى الثالث يؤخذ إذن ؟ » « أنت لا تعرفين نوّاف · » « ادخلي الآن ، نشرب القهوة ونحسب بالفنجان · » تدخل أمّية الى البهو باسمة · تحيّي عليّاً وتجلس على كنبة متطرفـــة / جلس متصالب الساقين ممـــدود الزندين على ذراعي الكنبة/قال يا أم إمام عيب الكلام عن المال / هل يتزوّج الانسان ليطلّق / أمّية

تساوي أكثر بكثير من عشرة آلاف / قالت أم إمام يا ولدي الدنيا غدارة وأميّة لا معين لها غير الله / لا أستطيع تزويجها إذا لم أطمئنّ الى مستقبلها / إذا لا سمح الله لا سمح الله عشر مرات / حدث شيء / يكون معها مبلغ تتدبّر به / وكيف التدبّر الآن يا أم إمام الآن وقد جاء غدر الدنيا من اتجاه آخر / لكنها لن تقبل بالطلاق ما لم يدفع عشرة الآلاف / عشرة آلاف للمؤجل / هي تساوي عشرة آلاف ٠

يدخل عباس وعائدة معا ٠ يتبختر أمامها وهو يحمل الفستان ويغطّيها بنظرات مفحمة ٠ تبتسم هي ، مغلوبة على أمرها وراضية ٠ تخبّ نحو غرفة النوم لتعود بحمالة خشبية تعلّق بها الفستان وتعود ثانية ٠ يصيح عباس : « ماذا ؟ ألن تجرّبيه ؟ » فتتوقّف ٠ تنظر الى عليّ نظرة مستطلعة ٠ يصيح عباس ثانية : « كيف ؟ جرّبيه الآن ٠ لعلّ به خطأ فنصلحه قبل بدء السهرة ٠» تقول أمية : « ها هو يدلّلك ٠ لماذا استحيت من الدلال ؟ لو انتظر عباس قليلا لرأيت الفستان في فنجان القهوة ٠ » عندئذ تسحب عائدة الحمّالة ٠ تلقي بها على الكنبة ٠ تقول : « يا إلّهي ! كلّ هذا المبلغ ! » تدخل وأميّة غرفة النوم وتوصد بابها بإحكام ٠ يقول عليّ : « لماذا كلّ هذا المبلغ ؟ كان كافياً لشراء ثلاثة فساتين معقولة ٠ » يتأنّى عباس قبل أن يجيب ٠ يطفو على وجهه كدر عابر وعبوس ٠ يقول : « ليس في خزانتها ثوب يلبس ٠ لم أشتر لها شيئاً منذ شهور ٠ » « يمكنك أن تشتري لها كل شهر واحداً من الفساتين الثلاثة ٠ أرى أن لديك تطلّعات بورجوازية » ٠ « احتمال غير بعيد ٠ لكنني لا أعرف كيف تحمل البشرية وجود التجار وهم الطفيليات الماصّة السامّة في الحياة الإنسانية ٠ كان ابن الحرام يبتسم لي بطريقة ٠٠ أثارت بي شعوراً بالدونية ٠ ليس أنا فقط ، وكل ما أمثّله ٠ أوّل

ما دخلت حانوته ظننتني متفضّلاً عليه • وابن عمك كما تعرف فخور بمركزه ومبادئه • ولكن •• يا إلهي • كنت أصلّي في أعماقي لدمشق وأتعبّد ، أوسّدها قلبي وأقلب صفحاتها • عندما دخلت حانوته شعرت أنه هو المالك الحقيقي للتراب والشجر وحتى الهواء • هذا الإنسان الذي ليس شيئاً • محطة بين المنتج والمستهلك • » « أنت اشتريت ثوباً من النوع الذي يقدّمه هو لزوجته • » « ولهذا أنا آسف لشراء الفستان • علينا أن نعيش فقراء حتى يوم يستطيع الفقراء الحقيقيون شراء فساتين لزوجاتهم • فساتين يصنعونها وتوزّعها الدولة ويتفرّج عليها هؤلاء الأراقط ،فلا يستطيعون شراء مثلها لانهم لايعملون• »

يقرع الباب • يفتحه علي ويرحب بالقادمين : قامتان متوسطتا الطول مبطنتا ضمن شروالين وصدارين ، وشابّ يرتدي بنطالاً رثّاً وقميصاً مشرئبّ الياقة • يدخلون الى غرفة الضيوف وأعينهم تجوس فيها برهبة واضمحلال • يشدّون على يد عباس ، ويقفون الى جواره بارتباك • يطلب اليهم الجلوس فيظلّون واقفين • يطلبون كراسي الخيزران فيحلف ويحلفون • أخيراً يستسلمون : ارتباك واضح يغلغل في ودّهم المكتوم • تحدّق اليهم عينا عباس بإحساس شخصي بالمهانة : بالكاد تستّرت حاجتهم وراء الشوق والقلق فأفسدت بساطتهم النبيلة • لقد تركوا الأرض والقرية الى أسفلت المدينة الصلب ، وزادهم الاتّضاع والتوسّل • يلحّ عليهم أن يقولوا ، فيتلكأون • يتبادلون نظرات خانقة ، والشاب مطبق الأسارير • أخيراً يحمحم أبو فهد مطرقاً ، ويصمت عباس : « والله يا أبو لؤي •• جئناك خجلانين •• الله يلعن الحاجة كم تذلّ ابن آدم •• » « أعوذ بالله يا أبو فهد • ما هذا الكلام ؟ » يتابع أبو فهد بقوة مفاجئة : « لم يعد الزمان زمانا يا أبو لؤي والظروف شدّت الحبل على رقابنا • صار الشباب يركضون وراء الوظيفة ويتركون الأرض • صار بودّهم البدلات والكرافتات • وعندنا هالولد • فهد ، تعرفه • رفضوا تشغيله

هذه السنة في المدرسة · وأنت تعرف الحال · يد من خلف ويد من قدام · مئة وعشرون ليرة ، الله لا يكسرك · كانت تشيلنا · وقلنا ليس لنا الا أبو لؤي · » بسرعة يكتب عباس رسالة الى مدير التربية ويوقّعها · بعناية ، يضعها في المغلف ويناولها أبا فهد : « سلّم على الاستاذ فاضل وقل له سأزوره بعد عشرة ، خمسة عشر يوماً · » عندئذ يسمعون دقة واحدة من إصبع خلف زجاج الباب الداخلي · ينهض علي ويأتي بفناجين القهوة · من جديد يلهج أبو فهد بالثناء ويتلعثم بالاعتذار · يهتف بصوت شجيّ : « من قبـل يا أبو لؤي كنا نأتي للافنـدي نطلب واسطة ، يحتقرنا ويهيننا ، ويطلب ثمناً لكل شيء · الآن نشكر الله ، صار واحدنا يطلب حاجته بغير ذلّ · وأنتم لا تطلبون ثمن شيء · نشكر الله · الله يطول عمر الحكومة · » يمضي في رشف قهوته بسرعة ، ويحذو حذوه ابنه وأخوه ·

بعد آخر شفّة من فنجان القهوة ينهضون · يودّعهم عباس حتى الباب ، وهم يحلفون عليه ألا يفعل · يخرجون ، وتتناول يدا فهد دجاجتين سمينتين مربوطتين على فسحة الدرج · ولأن عبّاساً يعرف العادة ، يحلف بالطلاق أنهما لن تدخلا البيت · تقف الكلمات في حلوق الرجال الثلاثة ، وأيديهم في الهواء · لقد سبقهم · يعاتبه أبو فهد مستسلماً ، وعباس يؤكد له أن عصر الرشوة المهين قد انتهى الى الأبـد · يمضي الرجال نصف متعثّرين على الدرج اللولبيّ · يستدير عباس فيرى عائدة واقفة بين ضلفتي الباب · تتقدّم ومن ورائها أميّة · يطلق علي صفيراً أزعر · يقول عباس : « أعجبك الفستان ؟ » تقول عائدة : « حلو ؟ » وتبدو أشبه بأوزة مغرورة · تقول أمية : « سيد عباس ، والله طيّب الدجاج البلدي · » ·

يبتسم بفيض صغير : « نحن لا نقبل الرشوة يا سيدتي » ·

« أصحابك يملكون سيارات وبيوتاً وفي جيوبهم دفاتر شيكات • والأرذال منهم ، لكل واحد عشيقة وعشيقات • ويأكلون دجاجاً بلدياً • » •

« هؤلاء سيتساقطون على الدرب الذي لا يرحم أحدا • على كل حال ، نحن مستعدّون لدعوتك لتناول دجاجتين ، وليس دجاجة واحدة » •

« اي ، موافقة • بشرط أن تصالح عائدة وتدلّلها • مالكم أنتم الرجال ؟ والله مثل عائدة لا يوجد في بلادك كلها » •

« من قال إن الأمر غير ذلك ؟ أنا مدين لها حتى يطفىء الموت هاتين العينين وأمدّد على التراب • » •

تلتفت نحو عائدة : « سامعة ؟ سامعة ؟ » للحال تضيء في خاطره فكرة داكنة : من أين لأمّية هذه المعلومات ؟ ينظر الى عائدة ، ورغم احتدامه الخفي يلمح في غبطتها أسى وانكسارا •

تنسحب المرأتان لإتمام زينتهما • يقول عباس : « عجبت ، لماذا هذه النوافذ مغلقة كلها ! منذ أيام وأنا أراقبها • تصوّر ! لا أحد يفتح نافذة • » « هذا تعبير عن النفسية • نفسية خلدية • » « خلدية ، قلت لي ؟ » « نعم • » « وماذا يعني كلامك يا ضوء عيني ؟ » « يعني نفسية انغلاقية • نفسية الخوف الموروث من العصر العثماني الذائب كالملح في شخصيتنا • » « مفهوم وغير مفهوم • لا تؤاخذني • » « لا مؤاخذة • » « قل لي ، ماذا تفعل بوقتك كله ؟ » « أدرّس أربع ساعات في اليوم • أفكّر والعب شطرنج • » « تفكّر وتلعب شطرنج ؟ لماذا لا تلعب النرد ، مثلا ؟ مسلية أكثر ولا تحتاج لحصر الفكر • » « النرد لعبة تافهة • لعبة الشعوب المتخلّفة • بالأســاس تقوم على الحظ ، والهزيمة فيها دائما مبرّرة • » « يعني أن طاولة النرد دخلت في تصانيفك • »

« اذا كنت تناور لأجل شوط أو شوطين فأنا مستعدّ لك • » « سآتيك بآخرتك • » « لا أريدها الآن • ما تزال للعمر بقية ضرورية • » « وماذا لو هزمتك هزيمة نكراء تحمرّ لها خجلا ؟ » « لن أبالي بضربة حظّ سيئة • » « ضربة حظّ ؟ ألم يصل الى علمك الواسع أني بطل العالم بلعب النرد ؟ بأية لعبة تريد أن أسحقك ؟ » « لكي لا نتعارك بالكلمات ، ارْمِ حبّة النرد وأنا أرميها ، والذي رقمه أكبر يقرّر اللعبة • » « لا • اختر اللعبة التي ترى نفسك أقوى فيها » •

أمام المرآة تجلس أمّية وتتلمّس جلد رأسها الورم • أيّ عشيق سترتاح يده للمس هذه التلعة القبيحة ؟ سوف تتساقط أصابعه قرفاً • أيّ عشيق ؟ عشيق ! قبضة عباس تضغط على يدها بقوة ، ولكن بلا حركة لئلا تلحظها عائدة • عباس ؟ وع ! تنهض بغتة وتهرع الى النافذة • تمد أصابعها الى صدرها وتتنفّس مغمضة العينين : النافذة مغلقة • نهايتك مع عشيق ، يا ست أمّية ؟ / واشتدّ زعيق الأبواق حتى بدا لها أن المدينة كلها تزغرد / عشرون سيارة وانقطعت حركة المرور / تعود الى مرآتها وتضرب بالمشط في شعرها • تنظر الى عينيها برهة ثم تمدّ لسانها • تعجبها الصورة ، فتقلب وجهها بأشكال متعدّدة • / وكان الفستان الأبيض طويلا فضفاض الذيل والشال مشكولا بالشعر الحرير •

بعدئذ يجلسون • يطردون الصغار من بينهم ويحشرونهم في الغرفة الأبعد • بغير ما انتباه تتوزّع النساء في جانب والرجال في جانب • أصوات وتقاطع كلمات • أفواه تتحرّك وأخرى تنتظر الحركة • يقبل عباس وعائدة وعلى وجهيهما ابتسامة الرضى : حقاً إن يوم ميلاد عائدة عيد : هدايا بآلاف الليرات : عقد ياقوت نفيس ، سشوار مع مشط كهربائي ، ساعة يد من ذهب

وفضة ، قدّاحة دربون ذهبيّة حفر عليها اسم عائدة ، قارورة إسانس مدام روشا ، قنديــلان نحاسيّان بشكل امرأتين عاريتين أعينهمــا فيروز ، وغير ذلـك ٠

والتسريحة جميلة والخصل متناثرة ٠ والشعر قصير وغادة تحبّه طويلاً ٠ الحذاء من محلات جيريكس وقد ابتاعه بثماني وتسعين ليرة ٠ ربطة العنق من باريس ٠ الفستان من تصميم ساش موديل ٠ نطاق الساعة فضّة خالصة ، والساعة من طراز أوميغا كونستسلاسيون ٠ السيارة مرسيدس ٢٥٠ س٠ي ٠

غير أن الحياة لم تعد تسمح بمشاهدة السينما ٠ خمسة وثلاثون أسبوعا والجماهير تحتشد أمام الفلم الهندي (جنكلي) لكن الاستاذ محمد لم يستطـع الذهاب ٠ فلم ممتاز ٠ وأفلام الكاوبوي المثيرة ! أفلام الفروسية ! كلها فات عباساً ٠ ومنذ عامين لم تشاهد عائدة فلماً عاطفياً ، فلم حب وحرمان وعذاب وإخلاص وتضحيات ٠ ذلك واحد من ذنوب عباس ، لقد عشق الصيد ووظيفته وأشياء أخرى ، كل شيء عدا بيته ٠

سؤال عن التحرير يزيح الستار عن أم المشاكل : اقتربت ساعة الخلاص من العدوّ الغاشم ٠ معروف أن الجندي العربي يتصدّى لخمسة ــ ان لم نقل لعشرة ــ من جنود العدوّ ٠ وقريباً سيوضع حدّ للكابوس عندما يفيقون ذات صباح على هدير الطائرات وقصف المدافع ٠ لقد حان وقت استرداد الارض ٠ نحن أيضا نقف أمام الكون ولدينا أسئلة عن المصير الإنساني ٠ في أنفسنا مشاعر ومواقف عن العلاقات الإنسانية ٠ أيجب أن يكون علينا ، من بين بني البشر ، إفناء عمرنا لكي نصحّح جريمة اقترفها الاستعمار بينما تنتظرنا آلاف المهمات الحضارية في صنع الانسان الجديد ؟ نحن الوجود الأصيل ولا يمكن اقتلاعنا ٠ خمسة آلاف سنة من العطاء الحضاري ٠

ثم يخلدون الى الراحة • يلتقطون أنفاسهم • يخرج الأستاذ محمد قداحته الذهبية ويشعل غليوته • يشعلون السجائر ، وتتشجّع عائدة فتشعل واحدة • تثبت غادة عقد اللؤلؤ في الوضع الأنسب • تتحسّس سناء لمة شعرها البرونزية • تتساءل عائدة إن حان وقت الأكل ، فينشم أبو تغلب • عندئذ تقود الطريق الى غرفة الطعام : في الوسط طاولة عرضها متر وطولها أربعة ، صفّ عليها عشرة عشر نوعا من الطعام • يقول أبو نزار : « ست عائدة ، بودّك أن تنتهي سهرتنا في المستشفى ؟ » يقول الاستاذ محمد : « هذه مائدة تقصّر عنها موائد ألف ليلة وليلة • » تقول أم نزار : « ليس فقط أنواع الطعام • يسلم لي الذوق • أكلت في مطعم مكسيم بباريس ، ووالله ليس طعامه أشهى • » يملأون صحونهم الواسعة واحداً بعد الآخر • تنتشر الرائحة العبقة في خياشيمهم • يدور الطعام المشبع لحماً وصنوبراً وسمناً بلدياً في أفواههم المتمجّجة • تنشط غددهم وعضلات وجوههم • تتكاثف فيهم غبطة حسّية تكاد أن تبلغ النشوة • يتذوّقون الطعام ويحسّون أن الحياة لذيذة ورائعة • تنشرح صدورهم وتزداد نسبة المزاح في حديثهم • العقل السليم في الجسم السليم والجسم السليم في الطعام الجيد • في الحقيقة ان سورية جنة العالم • أنواع الخضار والفاكهة كلها موجودة فيها • الهلال الخصيب ولا غرو !

ينظر أبو تغلب الى عبّاس وكأنه يتذكر سيرة التحرير : « أعن هذا يراح الى الطعان ؟ » •

من عادة أم خلف ألا تغصّ ، خاصة وأن أغلب طعامها الكبيس والزيتون • لكنها الآن تسعل • تقول لنفسها : صار حنكي رخواً • وتحاول إيقاف اللقمة التي انزلقت دون أن تبتلع عندما استرسلت في تذكراتها / جئنا نبلغكم أن هذه التلة ومنحدراتها حتى وادي الأقطم صارت / وجهه كامد وممسوح كنحاس

مطروق / طفر الدم من صدر أبي خلف كنافورة انبثقت من أرض صخرية • تضرب على صدرها ضربات خفيفة ، تزيح صحني الزيتون والكبيس جانباً / كم غراباً يا ترى أكل من لحمه / • ثم تنهض الى المغسلة وهي تسعل / لو يتزوّج محمود هـذه الشيطانة أسمى فينعم بالجمال والعافية • تفتح الصنبور / ظلّ الدم يتدفق حتى لعلع الرصاص ثانية وتدفّق مزيد من الدم وترك الرجال أبا خلف مضرجاً بدمه • تحسو حسوتي ماء : « يا رب عفوك • » / جاؤوا في جنح الظلام وكان أهل القرية نياماً وفي الصباح قال يوسيف أهارون • ينتابها السعال من جديد / يورام يفتح فمه ببطء ويقول اتركوا القرية اذا كنتم حريصين على حياتكم • ويأخذ بها فيختلّ توازنها وتقع : « نفحة هواء أوقعت كل هذا الجسم ؟ نشكر الله ، أم إمام ليست هنا / في الصباح أفاق الناس ورأوا أن قريتهم الجميلة صارت غولة تندفع من جسدها ألسنة النار ومن فمها أعمدة الدخان والناس والزيتون تنشوي داخل أوارها الحرّان والأصوات تفرقع في الجوّ كمفرقعات الأطفال سوى أن الامر كان جدّياً ورجال الإنقاذ يحاولون إطفاء النار فتنهش أجسادهم وتعجزهم وأبو خلف يطفىء النار في البيوت أولا فتعجزه ثم في جسده ثم في عظامه ثم في روحه التي كانت الناجي الوحيد وذهبت الى بارئها راضية مرضية • تنقل استرخاءها على عجزها الأيسر الى الأيمن وتتنهّـد •

لهذه الاسباب يحب السيد فؤاد س.من بيروت السفر بطائرات سابينا :
١ ـ المضيفات الحلوات ، ٢ ـ رؤية ساحات بروكسل الشهيرة ، ٣ ـ أنواع الأطعمة الشهية التي تغريه ، وهو العربي الذوّاقة ، بالسفر لمجرد تناول أفخر المأكولات • سافروا بطائرات سابينا •

يعودون الى الكنبات ، وسرعان ما تأتيهم القهوة • يتقدّم عبّاس من جهاز

التلفزيون - لحظات وتمتلىء الشاشة الصغيرة بوجه المطربة وصدرها العامر • اليها تنتقل العيون وباتجاهها تعتدل الأجسام • يحرّك نوّاف كنبته ليتمكن من الرؤية الجيّدة • يفرك عباس أنفه • تدير النساء رؤوسهن • الصمت • مزيج من صوت المطربة الرنّان وأصوات الصغار يغلغل في الأسماع • قارع الدربكة يوقع عليها ضربات شيطانية • المصوّر يتفنّن في عرض الجسد الشرقي من زوايا افقيّة وعلويّة وتحتيّة • وعينا المطربة الوحشيّتان تغمزان ، رأسها يميل ، شعرها يمرج ، ذراعاها الناضران يمتدان كأنما لاستقبال قادم حبيب • لاتدري عائدة ما الذي يعجبهم في المرأة التلفزيونية • ويسارع الرجال الى وصف جسدها المترهّل وصدرها الضخم ولحم حنكيها - شيء واحد فقط يعجبهم : صوتها الأبح المظلوم • صوتها فقط • تقول عائدة : « صوتها يخلب العقل • ولكن جسمها ! أعوذ بالله ! مثل الدبّة تماما • » غادة تخالفهم الرأي • تؤكد للنساء جمال المرأة ، بهمس يسمعه الرجال • تلتفت نحوها العيون المذكرة ، تقع عليها ، تنهض وتقع ثانية ، تصعد وتهبط من قمة رأسها البرتقالية الى قصبتي ساقيها الورديتين ، مرورا بمنحدر الفخذيـن وخانق الصدر ومرج الصدر ورطب الفم • الصمت •

على الناصية يقعي ويراقب العالم الصغير أمامه • لا أحد يدري من قطع ساقيه ، وكيف قُطعتا على هذا النحو الذي أظهر فجاجة تدويرة الركبتين • ولا أحد يدري كيف تدبّر هذا الرقّ تحت مؤخرته وقطعتي الخشب المجوّفتين اللتين نتأ فوقهما ما بقي من فخذيه • منذ ستة وعشرين عاماً يشاهده الناس مقعياً على هذه الناصية ، وجهه باتجاه قاسيون وجذعه منتصب أبداً كخابية من الفخار • لا صوته يستعطي ولا عيناه • أمامه ترقد طاقيته ، وعلى القطع الفضية المرمية فيها يلمع ضوء مصباح الشارع • فجأة تعلو أصوات صفارات الشرطة وكأنها في كل مكان ، ويتراكض الفتيان كخراف مذعورة وقد ارتفعت

وراء مناكبهم شعورهم الطويلة • يتدافعون بعضهم ببعض • يتّجهون نحو الناصية • يسقط من أحدهم مذياع • يقفز أولهم من فوق المتسوّل • يتعثّر به آخرون • تدركهم الشرطة • يلتحم الراكضون • يهوي الجذع المنتصب ويتدحرج الى الشارع • تمسك الشرطة بخمسة من الشباب • يتوقّف المشاة ، يتجمهرون • يتقدّم منهم اثنان ، يلتقطان إبطي المتسوّل ويرفعانه • يسدبّ المتسول بفخذيه على الشارع فالرصيف • يستأنف جلسته الاولى • تزداد قطعه الفضّية • من مجلسه يراقب العالم الصغير أمامه : رجال الشرطة يمسكون بالفتيان من شعورهم وياقاتهم ، يمتشقون مقصّات نحيلة ، يدسّون مقصاتهم في الشعور فيجدعونها ، وفي البناطيل الطويلة السيقان فيشقّونها •

يغمز أبو نزار لعباس ، وينفرد الرجلان في الغرفة الجنوبية • بغير ما سؤال يشرح عبّاس لصاحبه حقيقة الأمور : ما يزال ثمة ارتياب في ولاء أبي نزار السياسي ، لكن عبّاساً ضمنه على مسؤوليته ، والتعيين سيتمّ قريبا • يعودان بسرعة لئلاّ تذهب بالضيوف الظنون •

عندئذ يطقطق قبقاب غوار الطوشة ، معلناً عن حلقة أخرى من مقالب الحمّام التركي • تظهر أسنانه وراء تكشيرته الأليفة الحاقدة • ويبدأ حبكته ضد حسني البورظان وأبي صياح • ينسلّ من صدور المشاهدين احتقان خفيّ : بعد دوخة الأصوت الأبح والصدر الوثير يسلّمون أنفسهم للبلاهة الفكهة والضعف الخبيث • يضحكون ملء أفواههم • يحلّلون المواقف ، ويتنبأون • غوّار فنّان عظيم : يستلهم أبطال التراث الشعبي : الشاطر حسن وعمر العيار : يعبر عن الحياة •

ثم يصمتون • الصغار أيضاً يصمتون ، بعضهم يوارب باب الغرفة ويتسرّق السمع والمشاهدة • ويتمدّد الكبار في بركة مسرّاتهم الصغيرة • يبتسمون

وينهنهون ويحدّقون • يدخّنون السجائر - يلتهمون أطباقا إضافية من الفواكه ، ويشربون القهوة مرة أخرى • يمنحهم الجهاز حجماً من الضجيج ضرورياً لكي يفقدوا ما بقي من حيويّتهم • واذ يبدأ المسلسل الأجنبي ، تخفت الحركة والكلام والفرح • يسترخون ، وشيئاً فشيئاً يتسلّل الى وجوههم تعب غامض •

عندما يتعب سليمان لا يسترخي ، يتصلّب • المشكلة تكمن في عقله الناشط أبداً ، لا في جسده : كيف يمكن إصلاح العالم ؟•• نصف سؤال لا يكتمل قط لان ثمة أكثر من نصف ثانٍ له : كيف يمكن إصلاح العالم وشيش بيش الرائع غارق في جاهليته ـ وابنة أخته سوف تُزوّج لابن خالتها لمجرد أنه ابن خالتها ـ وأم سليمان ترى العالم بعينين ضيّقتين ـ ومأساة فلسطين قد شوّهت حياة العرب ـ الخ ـــ أنصاف تتزاحم في ذهنه لاحتلال المركز الثاني حتى ليعجز عن اختيار أيّها • منذ سنوات أدرك أن الحكيمة عاقلة لا تستطيع أن تمحو غوغائيات شيش بيش عن صفحة دماغه ، كما فعلت عندما تعرّض الملك سيف ابن ذي يزن لطلاسم السحرة والكهان • وكذلك لم يعد ثمّة عيروض بن الملك الاحمر ليأمره فيختطف ابن أخته الرقيع ويرمي به في وادي الغيلان • وهو أيضاً عاجز عن تحرير فلسطين • لقد انتهى عصر الجنّ وبدأ عصر أمريكا •

يتجرجر نحو بيته بهدوء وبلا قلق : لن يبرز من قلب العتمة حامل مسدّس يطالبه بما في جيبه من نقود • لم تصل أميركا الى حواري دمشق ، بعد • أمام مدخل المبنى يفيق فيه إحساس مألوف بالعجز ، يزداد بصعود الدرجات فيغدو إحساسا بالقنوط • تزداد أيضاً أصوات النسوة والأطفال ، وعند الباب تغدو دويّاً • لا عجب من أن حنك العربي أكبر جزء في جمجمته • يطلق زفرة حرّى وهو يولج المفتاح في القفل : كيف تستطيع ستة أفواه أن تتكلم في وقت واحد ! يمدّ ساقه الى الداخل فيتلاشى الضجيج ، ويمدّ ساقه الثانية فتتسمّر

النسوة والاطفال . يشعر بالرجّة المألوفة لغضبه المقعد : أية إنسانية بقيت في هؤلاء ؟ روح الحريم في نفوسهم وكأنهم ما يزالون في عصر ألف ليلة وليلة . يزيده المساء ضيقا ، فيدخل غرفته ويغلق الباب . كل شيء مرتّب في مكانه كقبور المدافن . صورة أبيه تتصدّر الجدار الأوسط كشاهدة ، بعينين تشبهان عيني المهلهل بن ربيعة / رأيتك يوم ضرّجك بدمك أبناء من ضرّجتهم بدمهم . الطاولة تجثم تحت الصورة وعليها تجثم الراديوات العتيقة والأشرطة والمفكات. الصورة : شاربان انجدلا فوق خطّ الفم كقوس الحب . لو أن موصلا كهربيا من هذه الأشرطة دسّ فيهما لاهتزّا غضباً / لماذا لم تغضب يوم اكتشفت أنك خُدعت / قالوا لك : يا أبو سليمان صحيح أن الشاب طائش ، ولكنه ابن أخت وزجتك ، وعندما يتزوّج يعقل ويجد عملا مناسبا يعيش منه / وقالوا لك : ابنتك تحب فلاحا وقد افتضح أمرها فاسترها بالزواج / وقالوا لك : أين الشرف يا أبو سليمان تريد ابنتك أن تتزوج من تحب وترفض ابن خالتها من لحمها ودمها / ثم اكتشفت أنهم خدعوك فلذت بالصمت / عشر سنوات وأنت تطارد مزاحميك على الأرض وتقتنصهم لتنسى أنك خدعت وأخطأت . ويوم خذلك الجميع ، وقف الفلاح العاشق الى جانبك ، وحده ، صامتاً ، غير مطالب بشيء ، فانفطر قلبك ندامة ومتّ بلا أسف على نفسك / صامتاً عشر سنوات : كيف يعترف بالخطأ ومثله يلعب بأعناق الرجال / ويوم قتلك أبناء مقتوليك كان خطّ الفم ممدوداً بابتسامة رضى شيطانية .

تشقّ أم سليمان الباب وتقف في فتحته : « تتعشّى الآن ، يا حبيبي ؟ » ينظر الى عينيها الضيقتين وأنفها النافر من بين وجنتيها / ما الذي أعجب السيد المهلهل منك يوم أحبّك/ألم يحفر هذا الأنف وجهه/صحيح أن المتميّزين يعشقون نساء لا دلالة لهن . « لست جائعاً . » تبقى في مكانها . « سأضع الطبخ على نار خفيفة فيكون ساخناً عندما تجوع . . » « لست جائعاً ، لست جائعاً . هاتي

لي شوّية لبن • » تبرم رأسها الى الخلف : « هاتي كأس لبن لخالك يا بنتي • » تدير رأسها : « جاء ابن أختك وسأل عنك • » « قلت له سأقرف رقبته إن يدخل البيت ؟ » « يا بني ، برضاي عليك • هو ابن أختك من لحمك ودمك • ومستعدّ أن يبوس يدك • » يجلس على الكنبة متصلّباً خالياً من الانفعالات : « قولي له اذا جاء مرة ثانية : خالك سيقرف لك رقبتك / يبوس يدي / لكأنني مغرم بلعابه القذر أو مخاطه الترابي / مثلما فعل أبوه من قبله يفعل هو الآن / خدعوك يا مهلهل ببوسة يد سفحوا أمامك جردلا من الضراعة فسفحت لهم حياة ابنتك وشبابها • نادي لي سلمى ، لتأتي هنا ، وسخّني أنت الأكل • » /أي إصلاح يرجوه العالم وهذه الكائنات تدبّ في نومها الأبدي داخل قواقع السلاحف وتنبهر بأزرار التلفزيون / من عجب أنها لم تنقرض وهي لا تفيق أبداً / فقدت مقوّمات الحياة / « والله يا ابني تحيّرنا وتنغّصت عيشتنا • لا أحد يستجرىء على الحديث معك • تدخل البيت ، لا سلام ولا كلام • تغلق عليك باب غرفتك ، لا أكلاً تأكل ولا كلمة تقول • اذا تحرّك أحد في البيت تصيح : كفى ضجّة ، واذا سكتنا قلت : أنتم موتى • لا يعجبك العجب ولا الصيام في رجب • الله يرضى عليك يا ابني ، كل لقمة ، واحك معنا كلمة ، وخفّف عن روحك الهم • » « سخني الأكل وابعثي لي سلمى » •

تخرج أم سليمان وتدخل سلمى حاملة كوب اللبن • « أغلقي الباب ، خالي ، وتعالي هنا • » تتقدم الفتاة حانية الرأس فوق الكوب • تقف أمام سليمان ولا تراه • يتأمل يدها البضة ووجهها الوردي بامعان ساهم • يتناول الكوب ويمسك باليد فيسحبها نحو الخوان • تجلس سلمى ببطء وهدوء ، تشبك أصابعها في حجرها ، وتركز ذقنها على نحرها • يتأمّلها مفعم الصدر بحنان عكر • ولكيلا يحرجها يجرع اللبن متمهّلا ، يتلمّظه ليشعرها أنه غير ناظر اليها • يقترب منها ويحتوي شعرها الخرنوبي الغزير بيدين حانيتين ،

يرفعه عن نهدها ويرده الى الخلف فيلمس رأس اصبعه وجهها الناعم • تبتسم هي ، وللمرة الاولى تنظر اليه • يشعر أن شيئا ما في صدره ينفغر • يجلس الى جانبها وقد أصابته عدوى الابتسام • يحتوي تدويرتي كتفيها بيديه : « ماذا قرّرت ، خالي ؟ » تضطرب الابتسامة على وجهها ، والنظرة المحبّة المسدّدة اليه : « لا أعرف • » « اسمعي حبيبتي • حكينا في الموضوع من قبل ، والآن نحكي فيه بإيجاز • أنت في الصف الحادي عشر • اذا قبلت بالزواج من ابن خالتك ، كما تريد أمّك وستّك ، يعني أنك ستتركين المدرسة وتصيرين خادمة لهذا الرقيع ابن خالتك • هذا شابّ غير مسؤول ، وأنت مستقبلك عظيم • أنت جميلة وذكية ، وسوف تكونين امرأة متحرّرة ورمزاً اجتماعياً • لو أن كل فتاة مثلك أصرّت على بناء نفسها وقرّرت أن تكسب عيشها بعرق جبينها لكانت حياتنا أسعد وأغنى • فكّري أن القضية ليست قضيتك وحدك • أنت مثال لغيرك • فكّري أن عمرك سبعة عشر فقط ••• » « تقول ستي إنه فاتت سنتان على زواجي • » وتضحك بشيطنة متلذّذة ثم تعضّ على نصف شفتها وتسكن • « لذلك تنوي تزويجك من هذا المائع • اسمعي ، سلمى • حاولي أن تقرّري لنفسك بنفسك • رأيي ورأي ستّك معروفان الآن ، لا تقولي : لا أعرف • لن تخرجي من هنا حتى تقرّري • » تنعقد الجدّية في عينيها وهي تنظر الى الراديوات العتيقة : خالها شاطر بإصلاح الراديوات • ينظر اليها مستفهما ، فيربكها انتظاره : « لا أعرف ، » تقول وتلتفت اليه بضراعة مبهمة • يكظم فورة غيظ نفرت في رأسه ، وتغدو الفورة ضباباً يغشي جبينه اذ يهزّ سلمى من زنديها العاريين ، ويهتف بضراعة قاسية هادئة : « لن تخرجي من هنا حتى تقرّري • انفضي عن عينيك غيبوبة المراهقة يا سلمى » •

وقالت أم إمام : « فكّري في الموضوع على مهلك يا بنتي • أنت ما تزالين صغيرة على الزواج ، وسيتقدّم لك في المستقبل شباب أحسن من نوّاف • »

أحسن من نواف ؟ مستحيل · وفوق ذلك ستنزع صدرية المدرسة وتلبس أفخر الثياب ، وسيحوم نوّاف بطائرته بينما هي تلوّح له بمنديل أبيض/وعندما يأتي الى البيت ستتعلّق بعنقه وترفع ساقيها الى الخلف ويسير بها الى غرفة الطعام حيث سيجد وجبة شهيّة بانتظاره / وفي المساء يذهبان الى الكازينو ويرقصان على أنغام التانغو الى أن تنبت لهما أجنحة بيضاء ويطيران في غسق السماء البعيدة · « لكن لا تقولي في المستقبل : أمي زوجتني صغيرة وكنت لا أفهم · » لكن أميّة اندفعت نحو أمها فطوّقت جيدها بيدين خافقتين وبلّلت صدرها بدموع فرح غزيرة : « أشعر كأني أفيق على عالم جديد يا أمي · خائفة ولكن سعيدة » ·

تغلق أميّة وراءها الباب وتتقدّم · لا تلتفت · تعبر المعبر الصغير الى المطبخ ، مترفّقة الخطى ، لجيمة الكبرياء · تصيح عائدة : « الحمد لله على السلامة · عاش من شافك · » ثم تصمت فجأة : ترى في عيني صديقتها شروداً موحشا ونقطتين حمراوين · « ماذا جرى ؟ » فتنظر الى عائدة بابتسامة عابثة · تبين أسنانها مطبقة على كلمات لن تقال · لأول مرة تعترف عائدة بجمالها ، وقد أشفّه الآن حزن رقيق · « الله يلعنك · أنت تخبئين أسراراً · » « لا والله ، وقعت على الشباك · » « ولماذا لا تأتين ؟ صار لك يومان · » « آتي بهذا الشكل ؟ أبشع من أبو بريص · مثل البومة · » « ابقي للغداء معنا · » « لا ، شكراً · لازم أن أطبخ للأولاد · نوّاف سافر الى نيويورك على عجل ونسي أن يترك نقوداً كافية ·· » « تريدين نقوداً ؟ عبّاس !! » « لا ، لا ، عائدة · ملعقتي ملح · طلبوا نوّاف للسفر في غير نوبته · ومن ضيقه نسي النقود وكنا نائمين · » يقبل عباس · يسمع الكلمات الأخيرة فتهرع يده الى جيبه وتستلّ ما فيها من نقود · تصيح أميّة وتقسم · تتناول فنجاناً وتملؤه ملحاً · تسرع نصف هاربة ، ملوّنة الوجه بخجل غضوب · عند باب المطبخ يلتقط

عباس يدها ويدسّ فيها ورقة مالية . تسرع هي لا تلوي على شيء . عند باب البيت تضع الورقة على قاعدة النافذة وتفرّ الى الخارج .

تنبر عائدة : « كان ضرورياً أن تمسكها بيدها ؟ دخيلة على الله أنسا . رأيت وجهها ازرق من ضرب زوجها لها . وتركها بدون قرش واحد ، قهراً لها . ولماذا تمسكها بيدها ؟ » « لماذا ضربها ؟ من قال لك ؟ » وتجيبه أنها سمعتهم : سمعت صراخها وعويلها فنزلت الى باب بيتهم وسمعته يتكلم عن حسابات السمّان واللحّام . وسمعت صوت الكرسي يقع على الأرض بعد أن ضربها وأوقعها . قال نوّاف : بقيت عشرة أيام لانتهاء الشهر ومع ذلك انتهت المئة والخمسون ليرة المخصّصة للسمّان واللحّام . قال إنها مستهترة وعاجزة عن التدبير وستخرب له بيته . سألها لماذا هذا المصروف كله وقال إنها ترسل لأهلها نصفه وتأتي بهم الى البيت ومعهم شباب من العائلة تتباسط معهم في الحديث وأنه سيكسر رجل أمّها إن هي دخلت البيت ومن الآن فصاعداً لن يعطيها مفتاح البيت وسينظر من الطائرة ليرى اذا كانت الشبابيك مغلقة أم لا وأنها ستموت جوعاً اذا لم تتدبّر أمرها بالمئة والخمسين . « لماذا شبابيك البيت ؟ » « لأنها ترى منها أولاد الجيران ويرونها . » « وكيف وقفت على الدرج ؟ لعل أحدهم فتح الباب ورآك ؟ » « كنت أتابع صعودي كأني راجعة من الخارج . » يدرك عباس أن هذه فرصته لدفع شكوك زوجته . يقول بنبرة حاسمة : « على أي حال ، أنا لم أرتح لهما من الأوّل . زوّجوها أهلها لأجل المال ، وتزوّجها هو بالمال : صبية في الثانية والعشرين وهو في السابعة والثلاثين . وهي دمشقية ليس لها أخلاق الريف ، وليس مستبعداً أن تخونه . أنا لا أحبّ تردّدها الى بيتنا . » « دخيلة على أخلاق الريف أنا . لماذا تبصبص اليها وتغازلها كلما حضرت ؟ » « أنا ؟ أنا أغازل هذه الجلد على عظم ؟ أنت

فقدت عقلك • » « أنا مجنونة خلقة • ويلي منكم أنتم الرجال ، تقتلون القتيل وتحملون نعشه » •

عندئذ يفرّ عباس • يقبل الى حيث ينتظره عليّ رخيّ البال وراء طاولة النرد • يهمهم وهو يتّخذ مجلسه : « كنّا بغيرنا ، علقنا نحن • » يتناول حبّتي النرد فيقذف بهما على منبسط الرقعة • يقول : « ستعلم يوم ينقشع الغبار ، يا سيد عليّ • » « من غامض علم الله سقطت عليّ خمسون ليرة • جديدة وطازجة • اسمع صوتها • » ويموّجها بكلتا يديه فتهسهس • « أنا أسمح لك باعادتها اليّ • أعطيتها لأميّة ولم تأخذها • هذه المرأة ستخون زوجها يوماً • هو بخيل واستبدادي ، وهي امرأة من دمشق • » « ولماذا أنت حزين ؟ حسبتك سترشح نفسك للقيام بالمهمّة معها • العب بنج وسي • » « يجب ألاّ تخون المرأة زوجها • الشقاق العائلي أكل هواء لا بدّ منه ، ولكن أخلاق الزوجة يجب الاّ تنهار • » « كل امرأة تخون زوجها تفعل ذلك مع رجل يخون زوجته ، ما معنى حكمتك الأخلاقية إذن ؟ العب بنج وسي • لماذا لا تلوم الرجل أيضا ؟ » « يلعن أسلاف البنج وسي • مرتين ؟ الأخلاق يا عزيزي ، ألا تعرف ما هي الاخلاق ؟ » « كلا • » « أعوذ بالله ! الأخلاق يا أفندم ، الشرف والكرامة والكرم وعزّة النفس • الوفاء والشهامة والمروءة • هل آتيك بجدول يعدّدها لك ؟ » « هذه مصطلحات رجعية أو برجوازية • بنج وسي • » أعوذ بالله من هذا الحظّ ! وكيف هي كذلك يا ضوء عيني ؟ » « عندما تنهار علاقات الإنسان مع العالم الذي حوله ومع التاريخ يصبح الشرف عقوبة • ثم قل لي ما معنى الكرم في المجتمع الاشتراكي ؟ » « هل تريد أن تقول إنك بلا أخلاق يا سيد علي ؟ العب بنج وسي » •

يضحك الاثنان • يغتبط عبّاس للإصابة المحكمة ، فيسدّد الى ابن عمه

نظرة ظافرة • يقول عليّ ببرود مفاجيء : « الأخلاق وعدمها لن ينقذا الإنسان من غربته • العب شيش بيش • ما لم تنشيء في حياتنا أخلاق العمل ونؤمن بالاشتراكية العلمية فسوف لن تُبقي الولايات المتحدة بيننا لا الاخلاق ولا الرجال لكي يؤمنوا بالاخلاق • » « الاشتراكية العلمية ؟ تعني الماركسية ؟ أنت فقدت عقلك • الاشتراكية العلمية تفقدنا خصائصنا القومية • » « عندما يكون الجنون هو الحلّ الوحيد لمشاكلك فعليك أن تفقد عقلك • ولكن مصيبتنا أننا لا نتّخذ قرارات حاسمة » •

ينظر اليها عليّ ، مستغرقاً في خمسين عاماً هي كلّ ما خلّفته لها الحياة • تسأله وهي تقدم له فنجان القهوة : « قرّ قرارك على الزواج ، والا تريد الانتظار حتى تصير عجوزاً مثلي ؟ » ينجلي له وجه التجارب العتيق تاركاً في وهلة شوق دعابة قنّعته بعابر الكلام • تفيض من نفسها وهلة ووهلتان تطفوان على لجة الزمن ، تستحثّان الخطى نحو زوجة وبيت وأطفال يستقرّون في الخاطر المتعب ويمنحون النكهة والطعم لمأدبة الحياة والموت • ينصت اليها حتى وهي لا تتكلم ، ووجهه مستلقٍ على يده • تعبر خياله الصور على مدى خمسين عاماً وعيناه عالقتان بوجهها ، كأنه يراه لأول مرّة • ينهض من مجلسه ويرمي أرض البهو بخطوات طويلات • يقف ويبتسم : « ألست أنا يا أم خلف من طلب إليك الوساطة ؟ خبّريني عن هذه العروس ولك الأجر والثواب » •

تأمره بالجلوس ، فيجلس • تصف له العروس بيديها ووجهها ولسانها ، تكوّنها مقطعاً مقطعاً ، وإذا هي تحفة مكتملة الجمال : الشعر والصدر والقوام ، العينان والفم والأسنان والعنق والأصابع ، الشرف والطاعة والخبرة بشغل البيت ، قارئة كاتبة ، عائلة فقيرة ولكن نظيفة • « البنت فائرة الآن ، لكنها ستهدأ بعد الزواج • » ويسأل « هل هي مهتمّة بالقومية العربية ؟ »

الجواب : لا دخل لها في السياسة ، ولن تعارضه في آرائه ، حتى أنها لن تتكلم إلا باشارته • فتاة نادرة • « أنا أعرف • اعتمد عليّ • عندما بعث أبو خلف أمّه لخطبتي فصّلتني تفصيلا • جربت أسناني بالجوز ، قبّلتني لتشمّ رائحة فمي ، وصافحتني لتعرف ليونة أصابعي ، وشربت قهوتي لترى قوامي وشطارتي في صنع القهوة • وأنا عملت هذا وأكثر لأجلك • وبعد يومين سآخذها الى الحمّام التركي وأفحص جسمها ـ أنت مثل ابني ـ كل مغزّ إبرة وأعرف هل في جسمها عيوب ، مع أنه ليس فيها ولا عيب » •

يشبك أصابعه أمام فمه ويبتسم : قالت إنها متعلمة • طبعا ، أخذت الثانوية منذ عامين ، لكن أباها قال كفى ، خوفاً على أخلاقها من كثرة العلم وجوّ الجامعة ومن شباب هذه الأيام السائلين في الشوارع • « ولكن يا أم خلف ، يجب أن أراها أنا • أنت تجعلين مني العريس الآخر من يعلم ، وأنا شابّ مثقف يا أم خلف ، لا أقبل الزواج من وراء ستار •• » تقاطعه : « معلوم ! كيف إذن ؟ سأدعوها الى هنا بعد الحمّام • لن آتيك ببضاعة قبل أن أفحص دمغتها • اعتمد عليّ بعد أسبوع تكون هنا • ولكن يجب أن تسعى بالأثاث • جهّز الأثاث وضعه في بيتنا حتى يوفّقك الله ببيت • » وتضيف منذرة : « لكن ، اسمع • البنت لا تعرف شيئا عن الموضوع ! » ويقول هو : « البنت والشاب • ولكن اسمعي أنت أيضا • هذه عمرها عشرون • يعني أنا أكبرها بعشر سنين ، فكيف ستحلّين هذه المشكلة ؟ » « أية مشكلة ؟ عندما يكون عمرك خمسين تكون زوجتك ما تزال شابّة • هل هذه مشكلة ؟ » •

من الحمّام يعلو صوت محمود طالباً منشفة • تنهض الأم بمشقّة ، تغيب في الغرفة اليمنى لحظات ، وتعود حاملة لابنها ما طلب • بغير مقدّمات يغيض من وجهها الاهتمام والفرح • ينسحب على قامتها المبلة ظلّ لعدم اكتراث

قديم · كل شيء في تلك القامة ممتلىء وأعزل ، حتى حزنها المراوغ وتقاطيع عمرها المرصوف · وإذ تغيب في المطبخ يغمض عينيه ويتحسّس وقع انهيار بعيداً : صورة مضطرمة تنفرش أمامه بلونها الأشهب واستقلالها الجليدي · يتكىء على حزنه المنيق ، ثم يلفّ ساقاً على ساق ويقبع متّصلا ومنفصلا كالظلّ · عبر النافذة التي أخذت ثلثي الجدار يتسلّل ضوء الشمس الغريب صامتاً محايداً ·

تعود أم خلف بابتسامة · يسألها : « ماذا وراء ابتسامتك الممنوعة من الصرف ؟ » تقول : « رايتك · تفرك شعرك وتصفن · أنا أفهم · تريد العروس · هيّا بنا الآن الى المنجّد لتوصي على غرفة النوم · وستقول غداً : بارك الله بأم خلف ، دبّرت لي عروسة ليست كالعرائس » ·

تضع على جسمها رداء أسود ، وعلى رأسها ملاءة سوداء ، تكسو وجهها بنقاب الحشمة الأصيل · تختفي وراء ستارة القرن السادس عشر ، الا الوجه واليدين والكاحلين · تنزل وراء عليّ درجات المنزل بخطوات داوية ثقيلة · يقول : « ولكن لماذا تفكّرين بتزويجي وتتركين ابنك ؟ وهو أحقّ باهتمامك · » « محمود ؟ محمود يا ابني قرّر أنه يتزوّج الطبقة العاملة · ويحرّر فلسطين بجيش من العمّال ، لذلك يرفض الوظيفة والحياة ·· ماذا تسمّونها ؟ البرجوازية ؟ » ·

يضحكان · يمضيان قدماً باتجاه السوق : شارع بلا رصيف إلا ما تكوّم عليه من غبار وقشور فواكه وحثالات · على جانبيه ارتصّت حوانيت الطين تحت نوافذ نتأت فوق الشارع · في جوّه المبهور تتقلّب الأصوات والغبار والذباب · غير بعيد عن المدخل ، تربّع شيخ أعمى الى جانب صندوق صغير نضدت فوقه خمس من علب الكبريت ومثلها من قطع النقود · يصيح الشيخ

بنبرة منهنهة : « الله ‧‧ الله ‧‧ الله ‧‧ الله ‧‧ » ويميل رأسه الضخم ثم يعيده الى مكانه مع كل « الله » ‧

قبل أن يتخلّف صوت الأعمى عن مسمعيهما يتصاعد صوت أم كلثوم : يا ريت زماني ما يصحّنيش ‧ وتصدح كوكب الشرق من حانوت الى آخر ، فتسبغ على خليط البشر المتنافر نعمة الطرب والآهات والحبّ المذيب ‧ تعطّل مفاجيء في حركة المرور يوقف سيرهما الصامت وينحي الصوت الإلّهي : حنطور يحمل صفائح خشب ، موقوف أمام أحد الحوانيت ، وسيارتان عريضتان موقوفتان الى جانبيه تطلقان زميراً عصبياً ، والحمار جاثم يغمز بعينيه غمزات ناعسة فيبتعد عنهما الذباب ‧ يغمغم عليّ ضجراً : « ما الذي جاء بنا الى هنا ؟ » تشير له أمّ خلف أن يسكت : « سوف تدفع القيمة لحمدي الببش وتأخذ أحسن غرفة نوم ‧ » وعبر الفسحة الصغيرة بين شدقي الحمار والحائط تمرق أم خلف بمهارة ، وقد ظنّ عليّ أن المكان لن يتّسع حتى لساعدها ‧ ينسلّ متفاديا الشدقين الرطبين والجدار الأغبر ، فيتلوّث بنطاله بهما ‧ تغيب أم كلثوم ‧ يستمرّ زمير السيارتين شرساً متصاعداً ‧ ويميل علي الى جارته ضائق الذرع : « يجب أن أعلن على رؤوس الملأ أن للبرجوازية حسناتها ‧ » لا تلتفت اليه ‧ تتابع سيرها النشيط ، وبعد قليل تهمهم : « أمه ؟ » ‧

تستأنف أم كلثوم تغنّيها بما بدا لعليّ أمنية سهلة التحقيق : يا ريت زماني ما يصحّنيش ‧ يخيّل اليه أن صوتها ينطلق من كل فتحة من هذا المكان المحشوّ ، ومن جهات دمشق الأربع ‧ النوافذ الطويلة المغطّاة بورق الصحف ، ترسله أو تنصت ، الشرف الناتئة فوق دعامات خشب منخور ، تبدو وكأنها انتفخت به ، وجميع صور الطين والرحرحة والرثاثة والبلهنية ، تمتصّه وترتشح ‧ هنا وهناك تنتصب موجّهات التلفزيون ، ولعلها الوحيدة التي ظلّت قاصية عن مداه ‧

في الحانوت الصغير المزدحم بنماذج الأثاث ، تستقبله أم كلثوم بالأمنية نفسها من جوف المذياع المتربّع على الرفّ الأيمن • يرتطم صوتها بلوحات كتابية صغيرة علّقت على الجدران : يا ربّ سترك ـ الحسود لا يسود ـ هذا من فضل ربّي ـ لا تكن للعيش مجروح الفؤاد انما الرزق على رب العباد ـ الله يرزق القائم والنائم والمتكيء على جنبه • في مكان بارز علّقت لوحة مؤطّرة لآية الكرسي ، وغير بعيد عنها صورة لعين مفتوحة اخترقها سهم •

يطلّ حمدي الببش من خلف بطنه الوسيع ويرفع الصوت ترحيباً بالقادمين• حفلة استقبال بدستة من التحيات والأسئلة الحميمة • لفتة طيبة من الأستاذ عليّ وخلق كريم : لقد شرّف بزيارته المكان • تبتدره أم خلف بالحديث : غرفة نوم يجب أن تكون افضل ما صنع ، أن يعتبرها لأم خلف • ويعلن لها : « لا يكن لك فكر • ما دام أن أم خلف شرّفت المكان ، ومعها الاستاذ ، فستأخذ أتقن الشغل وأجود البضاعة » •

يتحدّثان ، وينصرف عليّ الى تقليب الدليل • تفاجئه النماذج الرائعة ، ويفاجئه أكثر أنها من ألمانيا الغربية • ثم تفاجئه الكازوزة وفنجان القهوة • أخيراً يشير الى الطراز المرغوب • يمسك بحبل الحديث ويسلّه من حنجرة أم خلف المتفتّحة • يقدم للببش خمسمئة ليرة وينتزع منه وعداً بإنجاز عمله في وقت محدّد • يشدّ الببش على ذقنه لتوكيد كلمة الشرف : « بعد شهرين يكون السريران في بيت أم خلف جاهزين للاستعمال وعلى أحسن ما يرام » •

ينهض عليّ فتنهض أم خلف بوداعة • خلال كلمات الوداع الحارّة لا تنسى التوكيد على إتقان العمل ، مطلقة جميع ما في جعبتها من سهام الصداقة والمراعاة • يعودان وتعود معهما أم كلثوم ، تقترب وتبتعد من حانوت الى آخر ، وقد أدركت الشمس ساعة الأصيل ولم يدركها الصمت • عند المدخل

يعبران بالشيخ الأعمى ، كبريتاته ما تزال في موضعها ، رأسه يميل يمنة ويسرة ، وصوته النادب المنهنه ما يزال يهتف : « ألله ·· ألله ·· ألله ·· ألله ·· » ·

وتتنهّد أم خلف لغير ما سبب واضح : « الله وليّ الأمر والتدبير · » ويعلو صوت المؤذن الرخيم : « ألله أكبر! ألله أكبر » ويتضرّع متسوّل آخر في ساحة الشهداء : « من مال الله ! ألله يدفع عنكم البلاء ! » ويصيح صوت أمام مبنى المجلس النيابي : « ألله سبحانه وتعالى أعمى قلبك · » ويلصق بائع الذرة الصفراء على كراجته اعترافاً مكتوباً : يا عالما بحالي عليك اتكالي · ويأمر صاحب عمارة ذات طوابق سبعةبأن يحفر على الحجر فوق المدخل شيء مثل : الملك لله وحده ، أو غير ذلك · وتتنهّد عائدة متعبة من التفكير في المستقبل : « لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا · » ويحمحم شيش بيش حانقاً : « ألله يرزقني دو شيش لأريك كيف يلعب النرد · » ويعلو صوت محمد عبد الوهاب : « واللي انكتب عالجبين لازم تشوفه العين · » وتتنهّد دمشق ·

خبر اجتماعي أوردته إحدى الاسبوعيّات تحت صورة صاحبه (وهي صورة تتميّز بابتسامة منهمكة وسترة ذات ياقة عريضة مدروزة العافة) : ملحم شلهوب ·· قرّر أن ينقل نشاطه الاجتماعي هذا الموسم من بيروت الى فاريا ومن الساحل الى الثلج ··· فقد استأجر هناك شاليه بمبلغ عشرين ألف ليرة لبنانية ··· والشاليه من عدة طبقات ، ويعتبر فيللا قائمة بحد ذاتها ··· وللمناسبة فإن الاقتصادي الشابّ يملك في فاريا قطعة أرض كبيرة سيبني عليها في السنة القادمة فيللة ستكون فريدة بهندستها المعاصرة ·

تقترب متسوّلة في السابعة من شيش بيش وتمسك بكم سترته فيفيق من سباته النردي · « اشتر ورقة يانصيب ، الله يربّحك · » « يربّحني أنا ؟

أنت تمزحين • لم ينظر في وجهي منذ ثلاثة وثلاثين عاما • لو يبعث لي دو شيش فقط • » ويقذف بحبّتي النرد متوتّراً فتطفر إحداهما وتهوي على الأرض • تمسك الفتاة بكمّه الثانية : « الله يوفّقك • أعطني فرنكين إذن • » ينظر اليها وقد تدفّق غضبه باتجاهها : « ان لم تخرجي من هذا المقهى خلال سبع ثواني ونصف مصمت رقبتك » •

تبتعد الفتاة ويأتي النرد لشيش بيش بستتين فيكسب الشوط • يصيح : « أنا ملك الطاولة • » ينهض متشامخاً ويسوّي قميصه داخل بنطاله • يتأمّله الآخرون مبتسمين ، بعضهم معجب وبعضهم حانق • يتناول علبة الدخان ثم تتبدّل وقفته وانطباعة وجهه : « أين القدّاحة ؟ من أخذ القدّاحة ؟ » تكتسي الوجوه بالحيرة والتساؤل ، ولا يطول بهم الوقت فيخمنون أن المتسوّلة الصغيرة قد ربحت الجولة • « لو أنك أعطيتها فرنكين لوفّرت ثمانين ليرة • » « ما كنّا نعرف أن بين العرب من هم على هذا البخل • » « يا إلّهي ! لو أنها انتظرت دقيقة لأعطيتها ليرة ، أو لو ألحّت مرة أخرى » •

ينزجّ في الشارع بغير ما أحاسيس واضحة • لا يشاء اللحظة أن يستبطن ما في نفسه ، فيرمي بخلجاتها في بئر خاطرها المنسيّ • من فم الشارع الجانبي تبرز مجموعة من الفتيان بضحك وصخب شقّا سكون الليل • يتحركون أمامه نشيطين فوضويين ، ويطنّ في مسمعه لغط كلماتهم المتقاطعة • أكبرهم سناً يصغره بخمسة عشر عاما : يقود جلبتهم ويتحرك معهم بكل الحرية التي يملكونها • يدير للفتيان ظهره • يمشي غير مجروح تماماً ، آملاً خاملاً • يتداح في الليل ورذاذ المطر ، مخلّفاً وراءه شارعاً إثر شارع • عند الناصية يتوقّف • عليه أن ينتظر إشارة المرور الخضراء ، وأيضا أن يعرف وجهة مسيره • ينظر الى البلّورة الحمراء المحسوب عمرها بالثواني ، ثم الى البرتقالية

وقد لمعت فجأة وبلا مقدمات لتعلن الانطفاء الآتي للأولى • ثم تضيء الخضراء • تنطفيء لحظة أن تتوهّج البرتقالية • تنطفيء البرتقالية لتضيء الحمراء • حمراء ، برتقالية ، خضراء • خضراء ، برتقالية ، حمراء •

وسرعان ما يدير ظهره لدوّامة الزمن والموت • يبتاع من أحد الحوانيت كبريتة ويشعل سيجارة • / مستلقية على سريرها وقد انحسر القميص عن فخذيها • يشعل سيجارة مرة ثانية / لو أستطيع أن أمسح بأصابعي على صفحة البحر الملساء • يحيّيه أحد العابرين : « كيف الصحّة ، دكتور ؟ » « ممتازة • كيف أحوالك ؟ » « ان شاء الله بخير ؟ » « نحمد الله • كيف الأهل ؟ » « بخير الحمد لله • دعنا نراك • » « بين الأيادي • الى اللقاء • » « الى اللقاء / لو أن هناك وسيلة •

ينعطف باتجاه بيته • ينفض السيجارة فتنفصل عنها الفوامة المحترقة وتتعلّق بخيط من التبغ • يشعل السيجارة من جديد ، وقبل الدخول الى المبنى الضخم يتأمل بيتها الطينيّ الأعوج ويزفر / من الشبّاك ثم أقترب منها وهي تنظر اليّ بتوقّع شرس / لا تخافي مني إنما جئتك متعبّداً / يغوص أنفي بين التدويرتين الصلبتين / آه يا أمّ شهوات الزمن التي لا تخبو • يغلق الباب ويقصد الغرفة اليمنى ، الطفلة وجدّتها نائمتان • يدخل الى غرفته • يغلق الباب ويسند ظهره عليه / يا ليل الينابيع الغائرة في قعر العالم ألبس الأشواق الوضّاحة ثوباً أسود / عسى أن تكون نائمة الآن • يهييء لنفسه قدحا من الوسكي • يتقدّم من النافذة • يفتح باصبعه فرجة في الستارة المعدنيّة فيتسمّر جسداً واصبعاً : لم تنم بعد • يهوي على الكنبة القريبة ملتهب الجبين ، فيعجنه تعب مفاجيء وشعور بعجز مغيظ • وبدلاً من أن تغرف أصابعه من ماء البحر ، تنقبض على ذراع الكنبة وكأنها تبكي / أبطال الوثب

الطويل لا يقفزون أربعة أمتار من شباك الى شباك لكن اللوح المسحور يحكم على مارد من الجانّ مستعدّ لمساعدتك فاذا معكته أتاك المارد وحملك أنت وأسمى الى بلاد أخرى فاذا شعرتما بالبرد أو بالحرّ انقل زمردة الخاتم الى اليسار فلا يهمّكما البرد ولا الحرّ واذا اردتما النوم انقلها الى اليمين يأتك سرير وثير واسع واذا جعتما فهزّ هذا القدح يحضر أمامك سماط زاخـر بأشهى ألوان الأطعمة وبعد الاكل احتملهما المارد فوق السحاب وطار بهما الى جزر واق الواق واذا بالجزيرة الاولى مليئة بأشجار وطيور وغزلان تنطق وتتكلّم باسم الحبّ واذا بالجزيرة الثانية حافلة بثمار تكوّنت على أشكال الرجال والنساء وبالثالثة متلعة بالصخور والصخور مساكب أزهار علت في الجوّ وتفرّعت في أديم الشمس فزاحمت رائحتها الهواء / اريد أن أطير فرحا وأقول لك ما أجملك ما أجمل روحك الشفافة ونفسك الصافية وما أجمل العالم لأنك وُجدت فيه وما أجمل هذا البيت الطيني المعشّش بالبقّ لأنك تعرّين فتذيك عفواً في إحدى غرفه لك تقام صلاة الحبّ وللمس جسدك الحريري تهفو الخلايا وتتأطّر في الخاطر المنهور صور أبدعتها رخاوة ألف ليلة وليلة يا جسد النور الممسوس بالشبق ويا حرم الصبوات المضطهدة يا عريشة اللحم المزهر طيباً وطعماً ولوناً ولمساً يا غبوق المساء وصبوح الفجر • ينهض الـى الستارة • يتجشّأ فيحسو بعض الوسكي • يفتح في الستارة فرجة • تدخل عينه في الفرجة • تتكتك رقاع الستارة • يمتدّ الساعد العاري على الخصر الغائر • يمتدّ الفخذ العاري على السرير الغائر • تمتد عينه العارية عبر الشباك الغائر • يدخل في الغور • يغور في الغور • يغور فيه الغور / أسمى لا تخافي إنما جئتك متعبّداً وتزجره عيناها القاسيتان اللافحتان لماذا لا تضعين ستارة كثيفة على نافذتك كل ما أملكه وسأملكه رهـن إشارتك / تتحرّك تسحب القميص فوق البحر / أنا ذو الربطة النفيسة والنظارتين المهيبتين أتصمّغ

على جلدك واقرأ فيه سفر التكوين يا ماء زهر الجسد المسفوح على ترابة تنمو فيها أزهار الموتى وتعلو فنشمّ رائحتها بغبطة ربداء وتتشوّف فيها خوالج الحياة والموت ٠

فجأة تومض في خاطره فكرة مخيفة : إنّه بلا تاريخ ، إنّه يفتقر الى ذلك النوع من الحكمة الذي ينحدر الى الإنسان من أصلاب القرون والصناعة المستمرّة للحياة ٠ هذه الأمة ، لماذا توقّفت طيلة ألف عام ؟ ها هو ذا ، طبيب أخصائي ، شاهد العالم وآب الى دمشق وليس فيه شيء أعمق حقيقة من رغباته البدائية ٠ يشعر أن كثيراً قد فاته ، وفات أجداده ، مئات الرغبات الصغيرة والكبيرة ، وأن تاريخه يبدأ الآن : مع أول تلبية لأول رغبة ، وأن هذا الاستمرار سيصنع بالفعل تاريخاً حقيقياً ، عندما تتراكم الإشباعات فتغدو في وجدانه حقيقة صلبة كهذا البيت الذي يعيش فيه ٠ وما التاريخ بعد كل شيء سوى تفجّر بدائي للحياة وتلبية مستمرّة لها ٠ كلما تفجّرت رغبة بدأت حضارة ٠ وهذا الرجعيّ سليمان لا يفهم أن طهر النفس ونقاءها من الرغبات يعني ببساطة : الموت ٠

يريحه جرس التفاؤل والحيوية الذي انتهى اليه ٠ ألف عام لا علاقة له بها ، محسوبة عليه وهو لا يريدها ٠ لكأنه نام خلال هذه الفترة المروّعة كلّها ثم أفاق وقد صار كاريكاتورا : عقلاً كامل الإمكانات ، خيالاً حرثته الأحلام ، وجسداً جائعاً ٠ لكأن عقله نام ليلاً واحداً فقط بعد أن مات المتنبّي ، وخياله أسبوعاً ، وجسده هذا الأمد الأميد المديد ٠ ثم أفاق فنهض يبحث عن الطعام بسعار آكل ٠ أيّ جوع ! وأية فظاظة !

قبل أن ينام يكون قد نسي خوفه من التاريخ ٠

تتقلّب أسمى على سريرها ٠ تطفىء النوّاسة ٠ تتدثّر باللحاف حتى

قمة راسها . تتكوّر تحت اللحاف وتدسّ يديها بين ركبتيها . تغمض عينيها . تهمد . تقذف باللحاف على الأرض . تثب الى النوّاسة وتضيئها . تهرع حافية القدمين الى المطبخ . تقف في الفسحة الضيّقة : الصحون والأواني تلمع على رفوف الخشب المتآكلة / سلمت يداك يا ست أم إمام صحونك وطناجرك نظيفة حتى من الغبار ومن أين يأتيها الوسخ ؟ تلتفت الى حيث خشيت أن تلتفت : في الركن ترى صحن البامياء الذي أرسلته أم خلف . تستدير بنبرة الى الصنبور . تعبّ من الماء حتى يغبّ على قلبها . تضرب بيدها على تدويرة السرّة وتفركها . بنبرة تغلق الصنبور . في أحشائها توتّر يمنع عنها الهدوء . تتقدّم بخطى وئيدة الى صحن البامياء . تمد إصبعها وتمسح بها الحافة الملوثة . تتلوّث الإصبع فتلحسها ، تقلبها بين شفتيها وتتلمّظ . تنظر عبر النافذة المشرشرة متوجّسة من أحد يراها : لا شيء سوى موجّهات التلفزيون على الطرف الآخر من العالم / هذه المدينة صحراء فيها تجوع أسمى ابنة العشرين ربيبة بيت الطين لسوف ألقّن المدينة درساً.

تلتفت واذا إمام بالباب واقف . « أرى أن الجوع زادك رشاقة ، » يقول لها . تعدو داخل البيت وتعود مؤتزرة بجلّابية . « لم أقصد شيئاً ، ولكن تعرفين أباك . » « وانما الأمم الأخلاق ما بقيت . » « رأسمال البنت شرفها . » « الأخلاق أهم من الجوع . » « تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها . » تنقضّ على الصرة الناتئة من يده ، تختطفها وتهرع الى الطاولة المتآكلة . رائحة الكنافة الساخنة تتغلغل في أنفها محمولة على بخار خفيف . تجلس على الكرسي وتوقّع بقدميها ضربات سريعة قصيرة : « صدغي يرتجف ترحيباً بالكنافة . » .

خلال دقائق يلتهمانْ طعامهما بصمت : اذا حضر الطعام بطل الكلام . تثب عن الكرسي وتنقل الصحون والملاعق الى المجرى . يقول إمام : « أخيراً

تكرّموا علينا ببعض المال • » « كم أعطوك ؟ مئتين ؟ » « لا يخطر لك أن عاملاً اتّحاديا متفرّغاً يعطي مئتين • أعطوني يا ستّي ثمانين • ست عشرات وعشرين معدنيّة • » تختطف المغلّف وتنبش محتوياته • تذرو الأوراق في الهواء ، تطير الأوراق ، تترنّح وتتهاوى • تغرف القطع المعدنية وتقذفها في الهـواء • تلتقط بعضها وتقذفه كرة أخرى • في ثوان تتناثر القطع وتدرج على أرض المطبخ • تختفي في الشقوق والزوايا إلا قليلاً •

يقول إمام : « مثلك من يقود الطبقة العاملة في أمّة العرب نحو أهدافها • » « سـوف ترى • يومـاً ما سأرشّ عليهم أطناناً من المـال • » « ولكـن المال ليس هدف الطبقة العاملة • » « المال جانب مهمّ وأنا سأتكفل به • » « حتى يأتي ذلك اليوم ، تعالي نجمع فلوسنا ونفرح بوجودها طول هذا الليل وعرضه • » تغيب الابتسامة عن وجهها : « لماذا ؟ ستدفعها غداً ؟ » « خمسا وستين فقط • وغداً نذهب الى السينما • » يظلّ وجهها كامداً • « ماذا ؟ » « لا شيء • يبدو أننا لن نشبع الخبز أبـداً • » تستدير الى المجلى فتخبط الصحون والملاعق ، وتتعالى قرقعة • يبتسم إمام • يدسّ يده «داخل سترته الكاكي ويسحب فستاناً • يجمع الفستان على هيئة مقلّة ، وبحذر وخفّة يسلته حول رأسها ويفرشه على الكتفين • تهرع الى المنشفة فتمسح يديها • ترمي بالجلابية على الأرض • تسوّي الفستان على جسمها ، تقفل سحّابه وتسوّيه ثانية • تتناول مرآة الحلاقة الصغيرة ، تعاين الفستان ، والمرآة تعلو وتهبط بيدها كالمروحة • ترمي بالمرآة وتثب على إمام : ذراعاها حول عنقه وساقاها حول خاصرتيه • يترنّح الاثنان • يتقهقر هو الى الخلف ويداه تتطوّحان في الهواء •

في زمن ما يفيقون • رحمة من الله ، أو علامة من هذا النوع ، تدركهم •

ثم يخلدون الى النوم أو يطفئون المصابيح ويندسّون تحت الألحفة · شيش بيش لا ينام · يتذكر رواية بهذا العنوان قرأها ذات مرة ، أو بعنوان قريب منه · أربعة أمتار فقط من مدى العالم تفصله عن النوم ، لكنهـا لا تنقص أبداً · شارع قزم طولاً وعرضاً يفصله عن النوم · كلما رآها في الشارع وتابعها حتى ليكاد أن يمسّها ، لجمت لسانه تلك المسافة الشرّيرة · في تحرّكها العادي النابض ، قوة تدفعه عنها وتجذبه اليها ، تعقل الشوق المتمطّي في عروقه المفيقة · قيل إن الأبنية على الجانب الآخر ستهدم وستنهض مكانهـا أبنية جديدة كالتي يسكنها · ما الذي سيحدث عندما تتحضّر هذه الفلاّحة الغجرية وتسكن بيتاً جديداً في مكان جديد ؟ سوف تزداد الأمتار ، وسيكون للنوافذ ستائر تغطّي عري الفقر المفضوح في البيوت العتيقة · يضغط على جسده الخوف ، ودون أن يعي يتمنّى لو تبقى بيوت الطين الى الأبد ، لو يقيم الفقر فتبقى النوافذ مكشوفة وجسدها بدون قميص نوم · لكن ، ثمة فرصة دائماً ، وسوف تقبل دعوته ذات يوم · ذات يوم ، وسيمطرها بأشواق أكثر حياة من حلمتيها ، بحبّ واهب وخلاّق ، سيغنيها عن الكدح لأجل اللقمة ، سيغطّي جسدها بالحب وبالثياب ، سيارة وأسفار ، أميرة بيت رحيب وراحة أبدية ·

وعندما يخلد شيش بيش الى النوم يشعر أن شيئاً ما ينقصه · ليس الرجولة بين الرجال ، ولا حبّ الحياة ، بل شيء أشبه بالشمل المتّقد : حين تنغل الخمرة في العروق وتلهبها الى ما هو أبعد من حدود البشر ، وتتلكأ الفزيولوجيا فيتأكد أن كل ما قاله الأغبياء القدماء عن ازدواجية الروح والجسد صحيح لا سخيف ، وتغدو الخلايا مرساة ثقيلة تنزل باللهب المستعرّ الى قاع المحيط ·

ولكن ما هو هذا الشيء ؟

سليمان لا يعرف إجابة · يعتقد أن السؤال غير وارد أصلاً وأن الوضع

البشريّ عكس ذلك تماماً : أن الانسان رأس في قعر ميناء بلا أمواج ، وأن ذلك الشيء المجهول يجذبه من قرارته الى أعلى فينجذب ، يسحبه فينسحب ، يقوده عبر شوارع العالم فيقترب • وعنـد الباب يتناول من جيبه مفتاحاً يدسّه في القفل بتؤدة وحذر فلا يصدر صوتاً • يدخل ويغلق وراءه الباب • يعبر البهو بلا خوف : إن يلق الزوج أمامه يضربه بقوة الخلايا العمياء ويكوّمه على السجادة الكاتمة • لكن القادم غادة دائماً • غادة ذات الساقين البرتقاليتين، صبوة الرجال وأنشوطة غبّاس • المـرأة ذات القميص الحريريّ كجسدها والشعر المسفوح صوب نحرٍ خال من النتوءات ، غواية الأرض التي يحكمها شيطان من مملكة النفس • تستقبله بضمّة حرّى وعينين مغمضتين تتصمّغان على صدره الخنزيري • في الوقت المناسب تخلع عنه القطعة المناسبة ، وتضمّه • لا يعرف كيف يجتاز المسافة بين البهو والغرفة ، كيف تحرّكه غادة ، ترفع ذراعه ، تقوده • يعرف أن ذراعيه لا تغادران خصرها الا الى الظهر إثر كل اندفاعة من جسدها •

ينتهي طقس التعرّي : هو ثابت في وقفته الخشبية وهي تتلوّى أمامه وبين يديه كالأفعى • أخيراً يلفّ شعرها حول يده ويسحبها الى الفراش المنبسط على أرض الغرفة •

وتكون تلك حركته الوحيدة • تسيطر عليه بالتواءاتها وشبقها فتسمّره • وفيما يحسّ بامسّاح جلدها الأملس العنبيّ على أعشاب جلده السوداء ، يتساءل عن السرّ الخفيّ للحياة التي تمتلكها خلايا يمكن دائماً أن توضع تحت المجهر • متى سيكتشفه العلم ؟ وإذ ينتشله الشبق من قعر مينائه الراكد يشعر كأنه سمكة انبثقت من جوف البحر في نوبة لعب مفاجئة • سمكة تريد أن ترمق العالم المتكاثف فوق الماء دون أن تخسر عالمها التحتيّ • لكن خوفاً غامضاً

يفاجئها لحظة دخولها غيبوبة الخروج ـ خوفاً رائعاً مروعاً • ويشعر سليمان بشيء ينسلّ كاللهب ليدخل من الباب الضيّق للحياة العريضة المخيفة ، وأن غادة تقتنص هذا الشيء بأنانية مطلقة وشبق رجيم •

ولكن ما هو ذلك الشيء ؟

يرمي سليمان ثيابه بتمهّل كثيف ويندسّ في الفراش • يرمق صورة أبيه بصلابة وكدر قديم • ويرمق عبّاس جسد غادة المضيء في فضاء غرفته المظلم ، ووجهها الناضج لوناً ورغبة : قبل أن يستلم زوجها مشروعه الجديد سيستلم هو جسدها المعافى • وتؤمئم عائدة متهدّلة الحنك على حافة الوسادة • وقبل أن تسترخي أسمى للمسة النوم تتلمّظ طعم الكنافة • ويضع الملك قلمه في الغمد ثم يطفيء الضوء مطلقاً آهة طويلة • وتتلملم أميّة تحت لحافها •

ويتثاءب الليل • في زمنٍ ما يتناسون • في زمنٍ ما يتعبون من الضوء والحركة أو يخافون • لكنهم لا يموتون • دمشق لا تموت • كلما استكانت فيها الأشجار وهمدت أنفاس الناس ، هبّت عليها موجات الريح الشرقيّة ودغدغت جسدها الغيور برمال الصحراء • تثور الريح والصحراء فتغصّ المدينة بذريرات ميتة • ينعقد الغبار في الجوّ ، ينسرق عبر النوافذ والمسافات ليلتصق بمسام البشر وأجفانهم • وآن يخلدون الى النوم يغيم الغبار فوق أعينهم وينسج غلالات رقيقة قاتلة • يتحرّك فيهم عكر قديم شبيه بلجّة حبيسة فيحيل البطيخ الأصفر وزهر الياسمين الى رؤى • يصير الناس غباراً • يجوبون فضاء المدينة كما تجوبه عينا عبّاس في بحثهما عن الصحوة الأكثر شبقا لجسد غادة • العذاب هو أن يمتليء الخيال بصور لا تكتسي لحماً ودماً : صور كاهنات المعابد في بابل اللواتي يعلمن دين الرب عبر الجسد المقدس ، غبار الخماسين فوق الوطن الصحراء الذي ما زال يغتصب التاريخ منذ خمسة آلاف عام ، اللحم

والدم اللذين ليسا صورة بل مجرّد كثافة تتحرّك في البيت وتهمد على السرير كمقدار رصاصيّ · يتعلّقون بكل بخيرة سابحة كما تتعلّق أميّة بحلم حياتها الأفل · منذ سنين والبخيرات تتجمع فينتفخ بطن السماء بسحب لا تمطر الا في عينيها اللتين تراوغان الحزن · لا تدري ما الذي قد يحدث بعد نصف ساعة ، وخير لها ألا تتوقّع شيئا فملاك الربّ لن يزورها · لكن الحلم صار حقيقتها الوحيدة · وهي تتبادل مع عائدة نخبه كما فكّتا عقال الكلمات · ليس مطلوباً منه أن يتجسّد بل أن يعزّي · بين فراشها واللحاف يترقرق كنسيم دافىء تسلّل عبر جدران الغرفة الباردة : حلم المرأة الصغير بأن يكون الرجل جديراً بالحبّ ·

بوجه الغبار تغلق عائدة الأبواب والشبابيك ، ثم تجده مستوطناً شرفات أضلاعها · أيّ سديم يتزحزح في لبّ خاطرها الذي رجّته الانهيارات · يوم فتح الشك أصابع قبضتها فوجدت لا عبّاسا ، وإنما غبار عبّاس ، مادت تحت قدميها الأرض واحترقت أجفانها · وتسأل نفسها الآن : ألم يكن افضل ياربّ لو أنك خلقت الرجل وفيّاً ؟ ثم تستغفر الله · وتنظر الى ظهر عباس المتمدّد على السرير فتجد طيناً هلامياً ثقيل الوطأة ، زوبعة جوفاء ، صندوقاً عاهراً ، بالوناً نفخته ريح السموم ، نرجسة وَرَبماً خالياً ·

وتحت خيمة الغبار يتناول إمام خبزه كفاف يومه · ويوم يتجمّع في جوفه وجوف أم خلف ، في باطن جميع المتعبين المدعوين الى راحة المسيح ، تصير البخيرات غماماً وتسقط مطراً ينقر الجدران والأرض بحبّاته الضخمة الهاوية · الحياة هي أن تكسو صورة المستقبل لحماً ودماً حاضرين · الموج ينبش تراب الصخور ثم يكسوها بحلّة خضراء · وأبو إمام صخرة عرّتها المياه المالحة وألقتها في بيت من الطين يعشّش فيه الله والفقر · القليل الباقي من إنسانيته يتمشق كجذوع مكدودة على نتوءاته الجارحة · مثل هذا الوضع البشري علّم إماماً

أبجدية الثورة : صراع طبقات الزمن الذي يتمسّك فيه الموتى بقتل الاحياء ·
أم إمام وآمنة ضحيّتان · إمام وأسمى كسبا الجولة الاولى · أم خلف ارتفعت
من حياتها غدوات الموج وروحاته على أديمها المتشقّق · محمود ذو العينين
الخرساوين والقلب المتوهّج سيطحن في المستقبل إما أعداءه وإما نفسه · سيزخّ
المطر بين يديه وينقر مجاري تحمله الى لباب الصحراء ·

ينقر عليّ على سطح الحياة المصمّغ المصفح ويمدّ أطراف التاريخ الى مدى
ألف عام آتٍ · الناس مهمومون بالخبز والصناعة ومحمومون بالكلمات · لو
ينزعون الصفيح يجدون كم هي تافهة ومضحكة حركاتهم البهلوانية وصخبهم
الكرتونيّ : فالشقوق المتعمّقة في النفس صارت بؤراً للظلام بدلاً من أن تكون
مصائد لؤلؤ · الشرخ حدث منذ بدء الخليقة ، مذ رفض آدم وحواء أن يحدّدا
مطلق حرّيتهما بطوق من التفاح · ما الذي يبقى من هذه التشكّلات والصيغ
والنواميس بعد ألف عام ؟

الأسئلة عقبات يفرزها عقل كسول · ليس لدى شيش بيش وقت يضيعه
في الأسئلة · شيش بيش يمطر حباً وكرماً وشهوة · ليست الحياة لعبة ممثّل
مسكين ، كما يقول مكبث ، بل مجد الحركة والعيش المستغرق لجميع الثواني
والخلايا والاهتمامات · إنها إطلالة الفارس العربيّ من فوق صهوة جواده على
أفق الصحراء الأرحب · ويثب عن كنبته الى الستارة المعدنيّة متهيّباً ولكن
جسوراً · يشقّ بين رقاق الستارة أفقاً ضيّقاً يعبره بعينيه · لأمرٍ ما يريحه
الظلام الكثيف في الغرفة المقابلة · يتنفّس الصعداء ويتناول من كأسه جرعة ·
يضيء النوّاسة ، ويمضي الى درج طاولته فيسحب مجموعة من الصور · من
درج آخر يتناول عدداً من الإطارات يرتّبها على الطاولة · يثبت الصور في
الإطارات ، ويجرّ الى جانبها كرسياً · يجلس على مهل ، وفي ضوء النوّاسة

البرتقالي تصافح عيناه جسد أسمى اللافح متمدّدا ، ملتوياً ، متفتّحاً ، متكوّراً •

يهوي سليمان بأسئلته المزمنة على وجه أبيه وعلى قبائل كليب وربيعة : لقد تركتم في لحمنا شللا ، أهذا ما كنتم تبغون يوم احترفتم سفك الدماء ؟ لقد اتّخذتم من الحركة ديدنا ، وكلّما تحركتم ضرب سيف سيفاً ، فما الذي يدفعكم الى أن تفصدوا من عروقكم سلامها وراحتها ؟ ولماذا تكون غادة حفيدة هند ، ولماذا ترفض السلام داخل بيت تخفق الأرواح فيه ؟ أيّ إشباع تجده في العهر ؟ ما الذي يغريكم بوعورة الصخر وجوب الفيافي ؟ فجأة يلمع في ذهنه سبب العطل في المذياع • يتزحزح من سريره وينير الغرفة • يفحص المذياع المعطّل بتؤدة • يفصل زوجين من الأسلاك عن بعضهما بعضاً ويصلهما ثانية في مكان آخر • يولج الآخذ بالمأخذ ويفتح الراديو • في آخر هزيع الليل تنبعث موسيقى القرب مبثوثة من إذاعة ما في هذا العالم • أهي قرب البدو في شرقيّ الاردن أم موسيقى الكرنفالات في اسكتلندة ؟ ويسترخي على قماش كرسيّه الطويل منصتا •

لو أن أسمى تنهض من نومها الآن وتسير تحت المطر • لو أن شيش بيش يلتقي بها ماشياً في الاتّجاه المعاكس ورافعاً ياقة معطفه الى أذنيه • لو أنهما ، دونما كلام ولا تساؤلات، يلصقان كفاً بكف وزنداً بزند • ويدلجان في الليل والشآبيب • لو أن المطر يبلّل يديهما فيبعث في خلاياهما رعشة منتشية • لو أن الشوارع تتّصل وتمتدّ ، ودمشق تبقى نائمة • بل لو أن أسمى عاهرة تقيم في أحد مواخير بيروت ، وهو زائر ليلي يلتقي بها مصادفة فينكر كل منهما معرفته بالآخر ، ويرمي معطفه المبلّل فيما نظرته تسري عبر مواجع لحمها المكنون ، عاريان صامتان ، راغبان ، كل منهما ينكر معرفته بالآخر •

وتسقط يد شيش بيش الملوّثة ، تسقط نظرته وانتباهه •

يمخر الملك عباب المطر شاهراً قلمه • « مطلوب من كل كلمة أن تكون رصاصة • ليس فقط أن بين ظهورنا عدوّاً من صنع أسلاف الرئيس جونسون ، فتلك كليشة تسهل قراءتها صباح كل يوم في عناوين الصحف • الأهم من ذلك أنه حتى طواحين الهواء لا تجد من يطعنها • كان دون كيشوت يعيش خارج الزمن ، أما هؤلاء فلا يعيشون إطلاقا • فليوجد من يدسّ قلمه في أقفية عقولهم المتكلّسة • فلتنفضْ البكارات كلّها ، لأنها أغشية على العيون • لو يبصرون يرون أنياباً صفراً وليس فقط طواحين هواء • غير أن • • •

ينتبه : مقبض الباب يدور نحو الأسفل ، الباب ينفتح ، على العتبة تنتصب ستّ الحسن بعينيها الغامضتين وقبقابها العمسلاق • تبتسم بعذوبة وتتقدّم بالتقرير التالي : « وليّ العهد ، يا مولاي ، برّح به وجع ضرسه ، وهو في حاجة فورية الى مراجعة الطبيب ، فمساك أن ترمي بيجامتك وتلبس ثيابك وتمضي الى الدكتور شيش بيش • » ويقول الملك : « أما عندنا بعض المسكّنات ؟ أعطيه بعض المسكّنات • » تقول ست الحسن بنظرة ذات معنى : « المسكّنات لم تعد تفيد شيئاً يا سيدي • » عندئذ ينكمش خاطر الملك وتمتدّ يده الى ثياب الخروج •

وبينما ينامون تنعقـد الرؤى فوق دمشق ، والكوابيس في شقوقها وتلافيفها • في عوالمهم السرّية يتشرنقون ، بدون أقنعة يتحرّكون • يفصلهم عن ضمير النهار الأسود شعور رغيد بأنهم غير مراقبين • عيون النهار انطفأت الآن في المدى العاتم لعواري دمشق وليلها المجنون • والمدى والليل اذا سجى عيون محرورة تنعلق عن الهوى وتنشد نعيم الحياة الدنيا • يتخذون الليل لباسا ـ لا لأجسادهم بل لضمائر أثخنتها ضرورة الحب والزنى •

وفي زمن ما يفيقون فينبسط أمامهم عالم مختلف • يسعون في مناكبها مستقبلين يوماً جديداً ، عاماً جديداً ، دهراً جديداً • كلّ يمنحهم إحساساً بالانتقال ، كأنهم كانوا في موضع وصاروا في آخر ، أو في بقعة ضيّقة من الأرض أمست أوسع وأضوى • ويمسح إمام وجهه بيديه ، ويتمطّى مستعذباً ذلك الإحساس • كذلك يفعل عبّاس • تتقاطع خواطر الرجلين في المدينةالمتّشحة بالضوء الجديد ، في أزقّة البؤس والكدح التي تعبرها عينا إمام ولا تعبر ، وفي غرفة عباس المزينة بالأرائك والشعارات وأجهزة الهاتف • كلاهما غرز رجليه في الوحل ، أيّام الصبا • كلاهما يشكو من بدايات الروماتزم • لقد شبعا جوعاً وعرياً • لهذا يستعجلان الزمن • يرتديان الصباح الآهل جلباباً حاكته الآمال الكبار ووشتّه التوقّعات الصغيرة • وينشم عباس متّجهاً نحو سيّارته ، ثم ينطلق بها الى مقرّ عمله : لقد أعفي السائق من عناء الاستيقاظ الباكر ، ليس فقط لأنه يعشق قيادة السيارة ـ وأية قيادة ـ وإنما ليمنح ذلك الكائن البائس مزيداً من الراحة • لقد تمنّى دائماً أن يغدو الى مقرّ عمله ماشياً ، لكن الوقت من ذهب وركوب السيارة ضرورة عمليّة • في صباه كان يمشي خمسة كيلومترات ذهاباً الى المدرسة وخمسة أخرى إياباً •

وكلّ صباح يرفع إمام ياقة سرباله الى أذنيه العريضتين وينطلق • الممرّات نفسها والحارات العتيقة ، لكن نبضها لا يضعف أبداً ، نبض الطين والتبن اللذين نهضا من التراب وصارا بيوتاً ووطناً للجياع • عند الناصية يلتقي بمحمود أو ينتظره • يسلّمان بكلمات قليلة وابتسامة مستمرّة ، وينطلقان • ليس عالم هذا الصباح مختلفاً حقاً بالنسبة لهما • إنه عالم قديم مشرّش ، لكنهما جديدان فيه •

عالم متماثل ويوم آخر ـ على الأقلّ بالنسبة لأمّ خلف وأميّة وعائدة •

منذ الأزل والمرأة تحسن الحلاب والصرّ ، فما الذي سيجدّ الآن ؟ في الزمان الأوّل كان الشعراء يمتدحون المرأة المترفة ، نؤوم الضحى ، المتحرّكة بتثاقل وكأنها لا تتحرّك . وفي الزمـان الأوّل قامت الحرب لأن امـرأة صاحت : « وامعتصماه ! » أما الآن ، فلا الشعراء ولا غيرهم يمتدحون أيّة امرأة . إنها تفطس عملاً في البيت ويلتعن أبوها تعباً ، وليس من يسمع خفقات الشوق الى ابتسامة محبّة . عندما لا تكون نوافذ البيت مغلقة تكون نوافذ القلب . ومتى تفتح هذه أو تلك اذا كان الرجل رتاجها الصديء ؟ في الصباح تنهض أميّة من فراشها وهي تعلم أنها لن تنتخب ملكة لسعداء العالم . أمامها طفلان يزعقان ، وابنتا امرأة أخرى توفّيت منذ سنوات . وتعلم أنها بعد قليل ستلتقي بعائدة وستنعقد بينهما المشاورات حول طبخة اليوم ، وستتقاطع أصواتهما عندما تتحدّثان معاً وفي وقت واحد ، وسوف ، وسوف . تماماً كما سيحدث بين أمها وامّ خلف ـ إذا ما توفّرت للمرأتين النقود لشراء أضاميم السبانخ وأوقية اللحم .

لكن هذه الاهتمامات الصلبة كحقيقة دمشق ، ليست حقيقية . على نحو ما يتحسّسون غطاء مدّه النهار فوق رؤى الليل ليقي العيون هجير إناراتها . وأي خير يأتي من كشف الغطاء والاحتراق بحقائق النفس التي لا يمكن أن تغدو حقائق الحياة ؟ لتتراكم إذن أغطية السماء المنزلـة ، ولتتخذ شكل كلمات وتضاريس عن جنّة كالحلم ولكنها حقيقة ، مكان محسوس قصّرت عن وصفه ألف ليلة وليلة ، تشبع فيه الرغبات وتتحقّق الأماني ، يباح في حياته العليا كل ما حرمته الحياة الدنيا ، يهلك فيه الجوع . ولكن الى متى يستمرّ التستّر الزاني على الرغبة في الزنى ؟ لن يجيب النهار عن سؤال من هذا النوع . حسبه أن يمدّ الغطاء ويمنح فرصا : فرصة لسليمان كي يغدو الى الأجهزة الكهربائية المعطلة ، وأخرى لشيش بيش ليتنـاول معوله ويحفر في أسنان

خارجها نهار وداخلها ليل ، وثالثة للملك أن يشهد موكب الجماهير الزاحفة في عري جوعها الأبدي ، ورابعة لعليّ كي يحكم بالهلاك على طقوس وشعائر لن يبقى منها بعد مئتي عام سوى الذكرى •

لا يعرفون تماماً : أهم يراوغون الليـل وبياض حرّيته أم النهار وسواد واقعيته ، أم أنفسهم وتداخل الوانها • يعرفون أن خطأ ما قد حدث ، تكرّر وتراكم ، أن صيحة « وامعتصماه ! » التي لبّاها الخليفة بجيش لجب لا تجد من يلبّيها • من تراه يغير على الروم لأنهم أذلّوا امرأة عربية ؟ يعرفون أنهم افاقوا على هذه الصيحة • وشيش بيش واثق من نهار ينعقد في فضائه غبار الفرسان المنطلقين الى عمورية • يتخيّلون ظفراً مقبلاً ومجداً طارفاً • يتّسع الخيال وتزداد التوقّعات حتى تسلّمهم في أوائل الليل الى الحلم • عندئـذ ينفلت الفرح من ربقة القهر ويمشون على مياه السنـين الى زمن اليقظـة الصافرة •

وبعدئذ يفيقون •

يفيقون بحشود كثيفة من عشرات الملايين ، بجوع مزمن الى خبز الأفران وخبز المسيح • مئة عـام وهم يفتحون أعينهم على هـذا النحو ، يشيلون ويحطّون • كان أجدادهم متسوّلين رعاعا ، تنهرهم عصا الوالي والأفنـدي والآغا أن يبتعدوا عن حبّة القمح التي زرعوها والزيتون الذي غرسوه • وهكذا لاذت أم خلف بالفرار من وجه يورام أهارون الذي اقتطبته روح دعابة سمجة وجدّية زعاف • القهر يتجمّع ، يتراكم • سقط العرش • قتـل الخليفة • أبيدت بغداد • أغرقت الكتب • انساح التتار على الأرض الدافئة • ثم راح البشر يتضاءلون • ملايـين نفقت كالكلاب الجائعة ، ووئدت تحت الرايـة الخضراء المرفرفة في اسطمبول • صار الوطن مقبرة • وبقي الباقون لأن الموت

تعب وكلّ ، لان الوالي والأفندي والآغا كانوا في حاجة الى من يتقوّس ظهره كدحاً وخنوعاً والى من ينفلع لحمه تحت مداعبات السياط الحانية • ثم جاء الجنرالات ، وجاء الدولار •

ويقول سليمان : « افتح عينيك جيّداً • ماذا ترى ؟ » •

يقول شيش بيش : « ماذا أرى ؟ أرى الجماهير تشقّ طريق الحياة • عجيب سؤالك ! أرى نمشاً كبيراً يصنعه الكادحون للامبرياليين • أنظر اليهم • من هذا الشباك ترى وجوههم الحازمة ، وأسنانهم الناصعة التي ستنهش المستغلّين ـ ليس لأني طبيب أسنان ••• » •

يقول سليمان : « إذن ، أنت لا ترى سوى الضباب • الوجوه الحازمة هذه ، كلها آلات تنقصها البراغي ، آلات صدئة ، أسلاكها مقطّعة مثل تلافيف دماغك النوغائي » •

يقول شيش بيش : « يا ابن ستين أب ، ما دخل دماغي في الموضوع ؟ أفكار مقابل أفكار ، ما دخل دماغي في الموضوع ؟ أنا أقول الثورة ماشية ، ماشية كالنار في الهشيم ، وجهد الامبريالية أن تعوق انتشارها ، لا أن تخمدها • ألم نتفق أنه في النقاشات الموضوعية نتجنّب الجوانب الشخصية ؟ » •

يقول سليمان : « بهذه الضبابيّات التابعة لك ، تسمّيها نقاشات موضوعية ؟ أنت تمسك المجهر بالمقلوب وتنظر من الناحية الغلط • أصلا أنت رأسك على الأرض ورجلاك في الهواء » •

يقول علي دون أن ينظر اليهما : « من فضلكم اخرسوا ، أنتم الاثنين » •

يقول سليمان : « والله معك حق • لا فائدة من محاورة إنسان لا يميّز بين

الافكار التي في رأسه والحقائق التي في الواقع . يتغزّل بهذه الوجوه الميتة - ناس لا يحسّون بقيمة الزمن ، أو بقيمة العمل ، أو بقيمة أيّ شيء — يتغزل بهم ، ويقول : ثورة » .

يقول شيش بيش : « طول عمره الإنسان يرفض الواقع . وإلّا ما معنى الواقع ؟ هل الحياة جهاز راديو معطّل من النوع الذي تشتغل به؟ أو أسنان منخورة من النوع الذي أشحذه كل يوم ؟ نحن نتعامل مع الجانب المطلوب من الحياة ، معلّمي . نحن لا نصنع الحياة . إنما تطلّع الى هؤلاء الأطفال . أنت ! افتح عينيك جيّداً . وقل لي ماذا ترى ؟ » .

« الموت ، » يقول سليمان . « بعد ألف سنة يمكن أن نصير بني آدم . الآن ! الشابّ يحلم ببنت يغتصبها ، والبنت تحلم بعريس ، لا يهمّ علمه ولا أخلاقه . هذا هو كل شيء . الثورة في بلادنا لا تعني سوى خلق فوضى جديدة توصلنا الى الموت بطريقة جديدة . أنظر الى الثوّار كيف يتساقطون . أو بالأحرى كيف يرتفعون : مال وجاه وبيوت ونساء وسيارات . متعهّدين صاروا ، أصحاب أرصدة . وأنت من أنت حتى تتكلّم في الثورة ؟ ومن أنا ؟ نحن نملأ فراغات في آلة برجوازية البلد . العمال صاروا كُمّاً لسترة السلطة ، والفلاحون الكُمّ الثاني . بعد ألف سنة يصير الفلاح ثورجي » .

يقول الملك : « أيها السادة القمل ، يا سيد داحس ويا سيد غبراء ، اتركوا العمال والفلاحين لهمومهم وكلوا هواءكم بالشوكة والسكين » .

لكن كلمات الملك تزول من الوعي لحظة زوال أصواتها . سليمان يفتقر الى رؤية تاريخية ، يقول شيش بيش ، الى أن يضع المرحلة في موضعها الصحيح على خارطة التاريخ . سليمان سيفعل ، يقول ، عندما يكفّ شيش بيش عن

انتهاك عرض الكلمات الكبيرة : خارطة التاريخ ! تشرّفنا ، وهي خارطة بالألوان أيضاً • بالألوان ، طبعاً ، يقول شيش بيش ، وكل لون رمز لقيمة معيّنة • هذه أمّة دخلت التاريخ كذا مرة وخرجت منه كذا مرة •• لكن هذا كلّه مضى ، يقول سليمان ، ولم يبق على خارطة التاريخ ـ يقولها متهكّماً ـ سوى حقوق اليهود في فلسطين ونساء هرون الرشيد الأربعمئة •

ثم تأتي لحظة الوعي المزدوج • يصعد الاهتمام بالنقاش الى السطح وتحته تمور اسرائيل والنساء • العرب ، يفكر سليمان ، عاجزون عن إيقاف التاريخ الصهيونيّ ، ليس لديهم صلاح الدين ولا حتى سيف الدولة :

وسوى الروم خلف ظهرك رومٌ فعلى أيّ جانبيك تميل

يهتف شيش بيش : « هذه هي مشكلتنا الآن • غزو مباشر من الخارج ، وعُقد جنسيّة من الداخل • وأمراضنا الجميلة هي أمراضنا • أيام العزّ لم يشبع هرون الرشيد من النساء ، فكيف بأيام العزاء • يستحيل أن يشبع الإنسان من النساء • وظيفته أن يعبّ لا أن يشبع ، والحياة هي حبيبتي الفائرة المضطجعة على سريرها • » يقول علي : « نشكر الله أن التاريخ لن يسجّل سخافاتكم • سيأتي يوم تصير فيه الأمة العربية معافاة وتنسى حوار الطرشان التابع لكم • » يقول سليمان كاظماً : « الاشياء المريضة والسلبية ، دائما كانت تسيّر التاريخ • مجتمع ألف ليلة وليلة ، دائما كان المجتمع الحقيقي ، في كل العصور والبلدان • عبد الناصر ، قال • ماذا يمكنه أن يفعل بشعب من التنابل والحشّاشين ؟ سيحوّلونه الى لاعب أكروبات • » يقول شيش بيش مستبشراً : « سيأتي ، بعد ألف ليلة وليلة ، أيها السيد المحنّط ، يوم ترى فيه جماهير العمّال والفلاحين حاملة مشاعل الثورة العربية وتهتف للنصر • وسيعلم البرجوازيون أيّ منقلب سينقلبون » •

يشيح سليمان برأسه مستضيعاً مزيداً من الكلام · ويقول الملك وهو باقٍ على جلسته : « أيها السادة القمل ، يا سيد داحس ويا سيد غبراء ، اتركوا العمال والفلاحين لهمومهم ، وكلوا هواءكم بالشوكة والسكين » ·

ويكون إمـام ومحمود منصرفين الى همومهما · على أنهما ليست الآن من النوع الذي يوقد ضمير الملك ورفاقه · ليست تحرير الأرض ولا نضال الطبقة العاملة · في دمشق ما يزال التاريخ يقعي ويوصوص أمام الدكاكين · ما تزال الفواتير والإيصالات وظهر الجمعة تعطيه الضوء الأخضر · كذلك إمام ومحمود · سيمضيان الى الدكاكين ، وسيطلبان الخبز والخضار واللحم عشرة أيام أخرى قبـل أن يدفعا ما لن يكفي لرسم الخطّين المتصالبين على رقبـة ديونهما · ويتمتم محمود : « يزعجني عليّ بأريحيته البرجوازية · إنسان آدمي وعلى قدّ حاله · لكن كرمه الحاتميّ لا يعجبني » ·

يسأل إمام وهو يشعل سيجارة : « ما الحكاية ؟ » ·

« الخميس المـاضي عرض على أمي دفع إيجار الغرفة ثلاثـة شهور سلفـا » ·

« ولماذا أنت محقون ؟ » ·

« طبعا محقون ! جاء السمّان يطلب فلوسه ، وتبهدلنا · قام السيد عليّ وعرض فلوسه فبهدلنا هو الثاني » ·

« أنت كبرياؤك ستأتيك بآخرتك ، يا ابني » ·

« بسلامة تواضعك ، أستاذ إمام » ·

« أنا لا أكابر وقت تكون النتيجة زيادة روابطي مع الناس » ·

يفهم محمود المعنى التحني لكلمات رفيقه • كذلك يشعر بصفائه الأصيل بعد كل شيء هي أخته ، وهما قطعة من بلاد الله الشرقية •

يخبر بنفاد صبر محبّ : « هات سيجارة، هات » •

« ما معي سجائر • حتى تخفف عنجهيتك التافهة شوية • صحيح هي طالبة وانتم فقراء ، الاثنين • لكن ، وماذا يعني ؟ أسرة نموذجية مؤسسة على دين العمل ، وقت تتخرّج هي تتحسّن حياتكما تحسّناً كبيراً » •

« زوج الدكتورة ؟ يا حبيبي ! هذا ما كان ناقصاً • وأنا سأكون مسرضاً ، سأناولها المخارز والكماشات » •

« أنت رجعيّ حقيقيّ » •

« أنا عامل • العامل في بلادنا السعيدة لا يتزوّج دكتورة » •

« تريدها لفتاية لتتزوّجها ، إذن ؟ ستقضي على مستقبل البنت يا غبيّ • لن ينتظرك أبو إمام الى الأبد • هناك من يحوم حول البنت » •

يتوقّف محمود عن المسير ويتفحّص رفيقه : أهو جادّ أم يرمي قنبلة اختبارية ؟ يتابع إمام سيره متعمّداً • يسرع محمود اليه ويلتقطه من ساعده :

« ماذا تعني ؟ أنت تتبع أساليب المخابرات » •

يتوقف إمام ، يداه في جيبيه ووجهه جادّ وحزين : « أعني جارنا ، طبيب الأسنان ، يلقبونه شيش بيش • اذا تقدّم ، لن يقول له أبو إمام : كلا • عمره ثلاث وثلاثون ، ماتت زوجته منذ أربع سنوات ، وتركت له طفلة تعتني بها ستّها » •

يتهيّج محمود دفعة واحدة ، ويهزّ ذراع رفيقه : « أنت مجنون ! لن تقبل بهذه الصفقة . وإلا كنت خائناً » .

« ولماذا تقبل أنت ؟ تفضّل ، البنت جاهزة » .

يطرق : « أنـا ؟ لن أتزوج أسمى . هـذا نهائي » . ويحتدم ثانية : « اتركوها تشقّ طريقها ، يا أخي . هذا ما بودّها » .

يتابعان المسير صامتين متكدّرين . ينظر إمام الى الشمس الغاربة ويطلق زفيراً . بعد قليل يتمتم : « ما بودّها ليس أهم شيء عند أبو إمام » .

يعقب محمـود بغضب كظيم : « لا تقل لي إنك عاجز عن منع هـذا الزواج » .

ويدرك شهرزاد الصباح . يصمت الرفيقان وهما يتابعان سيرهما الوئيد . تتلاشى أصواتهما في همهمة المدينة الخافتة . تغيب الشمس ، ثم تحمل اليها بقايا ضوئها . تلمع أضواء السيارات والنجوم البعيدة . تتراكض الغيوم في السماء ، وفي قلوب البشر . ويلقي المساء بثقله على الشوارع ، فيغلق محمود باب غرفته ويشتم في سرّه المساء . هذا ما كان ناقصاً : أسمى في ثوب الزفاف الأبيض جالسة في السيارة الفخمة ويدها بيد الدكتور ، ورتل من السيّارات يطلق من أبواقه أصوات العرس البرجوازية المنفّرة . يتناول من رفّ الكتب مجلة ويجلس على الكرسي مادّاً ساقيه على الطاولة . يصرخ : « أمي ! اعملي لي قهوة / متأسّف يقول أبو إمام البنت طالبة جامعة وبودّها تصير دكتورة مثلك ومن تظنّ نفسك أنت هذا ما كان ناقصا / ولكن لا ، أبو إمام لن يقول ذلك / المؤخر يا ابني ٢٠ ألف ليرة - يفتح المجلة لا على التعيين : السياسة العربية أمام منعطف حاسم / إنما لا تنعطف أبداً . ينهض بالمجلّة ويعيدها الى رفّها .

تدخل أم خلف حاملة فنجان القهوة : « كنت أغليها لك ، » تقول له • يترك كتاباً همّ بتناوله ، ويعود الى أمه : « يا أغلى أمّ في الدنيا ، » يقول ضاحكا ويقبّل يدها الحاملة للفنجان • يرشف شيئاً من القهوة ويحمحم معجبا • لكن (مسرحيته) لا تنطلي عليها • ترمقه مستبطنة وتبتسم • تغلق وراءها الباب •

بهدوء يترس الباب ويمضي الى درفة خزانته المقفلة • من هناك يتناول كتلة خشبية مقمطة ، وإزميلاً ومطرقة وورقة برداخ • يضع أشياءه على الطاولة ويسدل الستائر • يقف أمام الستارة ، فيما تصله أصوات المدينة الحيادية الخافتة • يضع يده في راحة يده الأخرى ، وفي رأسه تساؤل مبهم بلا كلمات ، حيرة كدرة • تلوح أسمى في ركن من مخيلته ، في مكان ما من المدينة ، ثم تنتقل الى ركن آخر ومكان آخر • تلوح كخطوط أولية لرسمة انشغل الفنّان عن متابعتها بالتهجد لها فبقيت في خاطره الولوع • لكنها ليست أبداً في البؤبؤ من عينه الداخلية • لسبب ما ، لخوف او شغف أو تعب ، تبقى بعيدة عن مرمى البصر • تظلّ في تلك الزاوية مرئية وغير مرئية ، ويظلّ خاطره راشحاً بوجودها ممتنعاً عن التوجّه اليها • ومن يدري فقد يسمدها الدكتور • بيت من حجر نحيت ، ودخل وفير • يقولون إن الحبّ غشاوة من بلاهة وعازة ، وبعد حين تنجلي فيصير المرء عارفاً بما يريد • هي ، ماذا ستقول ؟ ستبقى حيويتها حرزاً يصونها من الاستنقاع • ستظلّ أقوى وأجمل •

يعود باطمئنان رقيق الى الطاولة •

ينزع القماط ويبدو رأس ارتسمت منه معالم وجه مؤنّث وعنق ممدود وصدر عارٍ • في البداية فكّر أن يضع عليها وشاحاً نصف شفّاف يكسبها خفراً وغموضاً • ثم سقطت الفكرة • قال لنفسه إن الخفر هو الاسم الطليّ للعبودية ،

والغموض ليس الوصف الأحب للحياة · لان أسمى هي الحياة ، والعري والحرية ، والريعان والعنفوان · وهي البراءة · وأسمى ستظل فراشة رداؤها جناحاها ، وحقيقتها ألوان بشرتها الزاهية وملمسها الورديّ ·

تحمل يداه الإزميل والمطرقة وتقتربان بثبات من كتلة الخشب · تقتربان فتتوالد فيهما شدّة متوتّرة ويهمّ بهما الارتعاش إلا قليلاً · ببطء يمتدّ راس الإزميل الحادّ نحو الكتف المغطى بشعر مبهم ، ببطء يلمسه ويستقرّ عليه ·

عند العصر تلقي أسمى بنظرتها الاخيرة الى مرآة الحلاقة المربعة في المطبخ · تدسّ يديها في جيب معطفها وتنطلق · في الشارع ترشقها قطرات المطر ، فتثب من مكان الى مكان موحومة ونافرة · تستدير باتجاهها الرؤوس وتحدّق الأعين · وفي منتصف شارع صغير ، يثبت شيخ عكازه على الرصيف المسقوف ويدفدف اليها وهي تنطنط ثم تهشل · يبتسم متهدّل الذقن ·

وفي البهو الوسيع يجلسان · بينهما والمطر زجاج لا لون له ، وأنفاس الرطوبة المنعشة · وأمام المجلى تقف أم خلف : الى يمينها هضبة من الصحون والأواني وبيدها قطعة الاسفنج الراشحة صابوناً مذاباً ·

عتمة خفيفة وسكون كثيف · حركة صغيرة لا تجرح صمتاً : يقدم عليّ للفتاة سيجارة ، ويفاجأ بتناولها لها · يشعل السيجارتين · يرمق الوجه المنير وحب الشباب المتفرّق عليه ، الشعر الأشهب السابل وتدويرة الأنف الصغيرة البارزة · ابتسامة تتفادى الحرج ، وكلمتا سبّ للمطر تعبران الصمت بلا صدى : كيف يفهم الأمور بين سيجارتها وهذا الحياء ، الانكماش الشرقي ونظرة العينين الثابتة ؟ تعب من سيجارتها بانتظار هادىء ·

حتى الآن ما يزال الجسر قائماً · لكنه بغير عابرين ، بغير عابرين سوى

تأمّلات تفر من عينيه ويعجز عن ضبطها · يشعر بهـا تفلت بلهفة الماء الى المصبّ : أمامه ينتصب جذعها كسهل بدوي يتدوّر داخل قميصة بيضاء احتوت كل سمّ فيه وشدّت عليه بلا تثنيات · من أديمه الواقف كقصبة نهرية نبتت محارتان وشقّتا مكاناً وطيداً تحت جنح الثوب الصغير ·

يتذكّر اختبارات أم خلف بفرح خبيث ، الحمّـام التركي وغرفـة النوم وجملة المسرّات الآتية · يبحث عن الكلمات فيردّها عن ذهنه وجه غير مصبغ وعينان شاردتان · مرة أخرى يقدم سيجارة ويشعلها · ينظر الى تكوين الفتاة الخالي من زيادات الشحم ونقص اللحم · تعبره صور عمر أعرج وتطوّحات حياة باهتة ، وتترك تحت وقع المطر ترجيعة حزن ·

وتتذكر اختبارات أم خلف بفرح خبيث ، الحمّام التركي وغرفة النوم وحياة الزواج المقبلة · تبحث عن الكلمات فتجدها جاهزة مسلسلة · تميل نحو النفاضة · مطرقة ، وسبابتها تنفض السيجارة ، تسأله :

« أعجبتك البضاعة ؟ » ·

لا يجيب ، يتساءل وجهه · ثم يرتبك · يرى الى الغضب الساخر المنسدل على وجهها ، ويشعر أنه يهوي الى منخفض عميق ·

تقول وهي تحدّق الى المطر : « أم خلف فحصتني جيداً · أسناني قوية ورائحة فمي لطيفة · جسمي جميل ، خالٍ من العيوب · ليّن في المحلات اللازمة وصلب في المحلات اللازمة · أهلي سيوافقون ـ طالما تقبض راتباً ثابتاً · أمي سعيدة جدا لأنك أوصيت على غرفة النوم · سيكونون كلّهم بالإجمال سعداء · من قبل باعوا أختي أميّة ، الآن يبيعونني أنا · الصفقة الاولى أربح · أنت مدرّس ، نوّاف ضابط · لكن أم خلف أكدت لأم إمام أنك شيء مختلف عن زوج

أمّية • خلوق وعقلك كبير • وهذا رأسمال عظيم •• الدليل أنك جئت تخطب ، من الأهل ، على سنة الله ورسوله •• » •

يصيح هو : « كفّي عن هذا الكلام ! » •

منذ البداية تخرج كلماتها داوية ، تمرّ على حواسّه فتخلطها بعضها ببعض • يدرك في أيّ شرك لا إنساني أوقعته الدعابة واللاكتراث • لا يبقى لأحاسيسه من جلسة أسمى غير صوت مزدان بتلاوة من آيات الجمال ، صوت صافٍ رنّان يكاد أن يتوسّل أو يلوم • يتمسّك به كغريق وخشبة ، طافياً فوق خجل سلوكه البائس • ها هو يعي الآن حياءها الذي كان غضباً متخفّياً ، وسيجارتها التي كانت جرأة متحدّية •

تسأله : « تريد معلومات زيادة عني ؟ » •

سوف تمشي معه الى نهاية الشوط : أية طينة بشرية هم هؤلاء البرجوازيون الصغار ؟ ويدرك هو أن لعبة شدّ الحبل قد بدأت • يقول : « معلومات شخصيّة مختزلة » •

تعتدل في جلستها • وتسحب من سيجارتها نفساً : « سمّوني أسمى • اسم حلو • منعوني من الانتساب للجامعة حرصاً على أخلاقي • نفسيّتي مضطربة ، كما ترى من حبّ الشباب على وجهي • أحبّ الخنافس من المغنّين ، وعمر الشريف من الممثلين ، وأموت في أم كلثوم بعد منتصف الليل • أدخّن وأشرب العرق ، اذا صحّ لي • أكره أمي وأبي وأخي ، وأحتقر أختي • يكفي ؟ » •

تخرج مع الكلمات هبّات الدخان المتقطّعة وتتشابك مع نفس عليّ الهاربة شعاعاً • يستسلم للاضطراب ، وتبهجها حيرته • يلجأ للصمت درءاً للتهافت

الناشب وراء وجهه الكتيم • لكنّها تحاصره ، تُسقط عليه الأسئلة كالمطر النازل من السماء :

« لماذا تريد أن تتزوّج ، أستاذ علي ؟ » •

« أريد أن أعيش تجربة مباشرة في هذه الدنيا ، يا آنسة أسمى » •

« وهل الفتاة فأر تجارب ؟ ألا يخطر لك أن لها أفكاراً أو رغبات خاصّة ، او أن تجرّبك مثلما تجرّبها ؟ » •

« كلامك صحيح • أنا لا أريد الزواج من فتاة عادية » •

« ألا تعرف الحبّ يا أستاذ ؟ كيف تتزوّج بدون مقدّمات أساسية ؟ » •

« يا إلّهي ، يا آنسة ! من يقول أنا لا أعرف الحب ؟ أنا عاشق مؤبّد • لكني لم أنجح • فشلت وضعف اهتمامي » •

« لأنك فاشل ، تريد أن تتزوّج على العمى ؟ تظنّ لمجرد كونك رجلاً يحقّ لك أن تلتقط ما أحيا الله من بنات الناس وتتزوّجها ؟ ألا ترى في هذا البلد كل إنسان يحاول أن يكون شيئاً أو يصير شيئاً ؟ » •

« ألا تلاحظين يا آنسة أنك تبهدلينني ؟ » •

« أنا آسفة • على أيّ حال ، انت بهدلتني عملياً • أنت أردت أن تشتريني • عرفت أهلي فقراء •• ما عندنا غير الأكل والكسوة •• الخفيفة •• وأنهم سيوافقون • عرضت مالك لقاء زوجة تطبخ لك وتغسل وتنتظر رجوعك آخر الليل ••• » •

« غير صحيح إطلاقا • وأنا آسف فعلا • كنت أتصرّف بحسن نية » •

« وإنما الاعمال بالنيات • وستتزوّج بحسن نية • وعندما تكتشف أنك أنانيّ وطاغية مثل جميع الرجال ، ماذا تعمل ؟ » •

يشعر أن جوّهما انفرج • يسألها مداعباً : « جميع الرجال ؟ » •

لكنها تبدو بعيدة عن المزاح • تقول « الرجال إما برجوازيون بلداء بلا رجولة • أو فقراء يصنع الفقر لقلوبهم نصف نعل • أحيانا يصير الفقير غنيّاً ، ينخلع عن طبقته ، فيعتقد أنـه قادر على امتلاك المطر في الهواء وضربـه بالكرباج » •

تبترد عيناه بقسوة تعرف كيف تشقّ طريقها كلما اتّقد خاطره • ينصت لأسمى وهي تفصد بكلماتها وجوه الرجال ، تعلن السخط المحترق ذاته الذي دأب جيل بأكمله على إعلانه • يدركه الصمت ، كما يفعل دائماً عندما ترتطم بجبهته الأسئلة •

وتمضي هي في عالم كلماتها الفطري • يرتفع وجهها العاتم بوجه الفضاء وقد برزت تقاطيعه التي صقلتها الطبيعة وندرة الطعام • وتعلو احتجاجاتها فوق سرير الغمام المطير وتتكىء على ضمير مقهور لزنوبيا معاصرة تختلج في شوارع المدينة •

يسترخي في جلسته منصتاً لسحيح المطر • يتأمّلها ويتمنّى لو قوة رجّته منذ لحظات تحمله الآن اليها ــ هي الجالسة على مقربة منه ــ ليحضن ارتماءها على جدران هامدة •

يهزّ رأسه ولا يقول • الدروب كلها تنتهي الى مدينة الكلمات • هناك تنتفخ بالونات الغضب ، تشعّ صخور النفس ، يتشكّل العالم وتوضع على التاريخ علامة • وفي أفلاكهم يستسلم السابحون للغروب والشروق ، للنسيم

الرخيّ الحامل قطرات المطر ولغبار الصحراء ، للجسد من كل عمر ، ولحوانيت الطعام والزينة · وعلى ذلك المدّ المتقطع من كهرباء الضيق والأسى ينجرف عليّ بقربى جديدة تتشدّه الى الأنثى المسترخية أمامه ، الناظرة الى أيما اتجاه عدا ذلك الذي يحتويه : ماذا يمكن أن يقدم لها شخص منمّط من هذا النوع ؟ غرفة نوم وخزانة ثياب ومطبخاً وسهرات عائلية ـ كل شيء عدا الحياة · ومن هو ليفهم حياة الطبقة العاملة ؟ فطرتها ، والعالم الجديد الذي تقيمه على أخلاق العمل ؟

ينظر اليها متسائلا : ماذا يمنع وجهها من الالتفات اليه وعينيها من رؤيته ؟ ولماذا تركت لشقّ تنّورتها أن ينحسر فيفصح عن خط اللحم الجمريّ ؟ يراها في استواء أعصابها الراهن ملكوتاً وعافية ، آدمية تجلس قريرة البال وتنتظر · إنه سيد اللحظة العابرة · سيّد هذا الوجه العكر والعينين المتحاشيتين · وتسعل هي ، تمرغ فوّهة السيجارة في المنفضة · تدمع عيناها ، وتكحّ من جديد ، لكنها لا تنظر اليه ·

يسألها كيف عرفت وقد كان الأمر سرّاً بين المرأتين ، فتحكي له عن عيب أمها الكبير : إنّها لا تحسن الكذب · هي نفسها فهمت وأسلمت جسدها لاختبارات أم خلف · ومضت معها الى الحمّام التركي بشعور اللامبالاة والطرافة نفسه الذي زيّن لعليّ الاستمرار ، وكان عندها ملوّناً بالمكر والسخرية · وعادت الى أمها تمتح منها السرّ · كبّلتها الأم بالعهود والأيمان ألا تفتح سرة ، وزفّت اليها بشرى الخطبة · عانقتها وقبّلت شعرها وداعبته · دعت لها ووصفت العريس الذي لم تشاهداه · وعند العصر جاءت تلبّي دعوة أم خلف ·

يسألها : « وكيف حملت هذا الغضب كله ، ألم تتعبي ؟ » ·

للمرة الاولى تبتسم : شيء من الخفر وكثير من الثقة · في تنقّل نظرتها الى لا مكان تعبر بعينيه وتعلق بهما · تبتسم الحيرة فيهما والمودّة الخافتة · ثم تستدير نحو المطر · هو أيضاً ينظر الى المطر ، والزجاج العازل · لا يطيل · يعود اليها · تلتفت :

« تريد أن تساعدني ؟ » ·

« أساعدك ؟ كيف ؟ » ·

« قل لي بالأول · وهل يمكنني ان اثق بك ؟ وإلا اشعر اني مديونة لك ، لأني سأوفّيك كل شيء ؟ » ·

« على مهلك · سؤال ، سؤال · الجواب : نعم ، عن كل الأسئلة » ·

« أهلي لا يعرفون أني طالبة · طالبة طب أسنان ، سنة ثانية · ولكن يجب أن تعدني · انتهى ؟ وعد شرف ؟ اي · حالتنا تعبانة ·· باختصار ، ما عندي ولا كتاب ، ولا أمل لي بشراء ·· أيّ كتاب » ·

يحسّان بخطى أم خلف البطيئة تقترب منهما · يقول : « ذكرت اسم أختك أميّة ، وزوجها نوّاف ؟ » وتصحح له : « زوجة الدبّ نواف · لا أعرف من سمّاه هذا الاسم · كل يوم صرعة · ضرب وجلد وسجن وما لا أعرف » ·

تصل أم خلف باسمة مرفوعة الوجه · تمسح يديها ناظرة اليهما بمحبّة متعبة ورضاء · تضع البشكير على الطاولة · تسألهما : « إن شاء الله خير ؟ » ويقول هو : « لا والله يا أم خلف · نسينا أني لم أخدم العلم · وأنت تعرفين ·· سنتان ونصف ·· من غير الله يعرف ماذا يحدث » ·

تدرك أم خلف · تتلقى بجمع فنجاني القهوة على الصينية : عجيب هذا

الجيل ! كان الرجل يبحث عن المرأة ، فاذا أعجبه شكلها تقدّم للزواج ، وبعد الزواج تكرّس المرأة نفسها لزوجها تلقائياً ــ طالما أن الرجل مبسوط بها ، كل شيء ماشٍ ، يكرمها ويعزّها ، وهي تخلص له ·· أما الآن ·· عجيب هذا الجيل ! عجيب هذا الزمان ! لم يبق شيء من القديم ·· زمان بالوعة ·· كل شيء يهوي · تحمل الصينية وتنظر اليهما : الكاذبان الصغيران ، من منهما رفض ؟ هذه المجنونة ؟ لو أن نفسها صافية مثل عليّ لما ظهر حب الشباب على وجههـا ·

تنهض أسمى متهيئة للخروج · تودّع أم خلف وتمضي · يلحق بها ·

ينزلان على الدرج · على الفسحة الاولى تمدّ يدها مودعة · يدسّ يده في جيبه ، يخرج ورقتين ماليتين ويضعهما على اليد الممدودة · تتأمّل الورقتين وقد انثنت أصابعها فوقهما بحركة عفوية · يمدّ يده الأخرى الى وجهها فيمسح عليه ، والى أذنها وجيدها · « أراك عشقتني ، » تقول له · « تقريباً ، » يجيب بابتسامة أسيانة · وتقفز على الدرج هاربة وملوّحة · وتقف قدماه على مربع الخشب تحملان جسماً ناحلاً أحسّ فجأة بالتعب ·

يتوارى حضورها من البيت في تلافيف الشارع ، فيتمتم لنفسه : لا أحد يريد اللقاء ، لكن الجميع يريدون · تزعجه هذه الرنّة الرومانتيكية في شكواه · أتراه عشقها حقاً ؟ يعرف أن الجواب بالنفي نوع من الكبرياء · لقد كانت متأبّية عليه طول الوقت · لم تعطها أعوامه الثلاثـون أي شعور بالأمن أو الاحتياج · ومع أن أم خلف أكدت له مراراً أن البنات جديرات بأن يغرقن في حبّه ، فلم يبد أن أسمى ستكون واحدة منهن · لكنه في الحقيقة لم يعشقها · شيء ما يجعل عشرة الأعوام الفاصلة بينهما مسافة مستحيلة العبور · أهذا هو الزمن ؟ يوم خرج الى الدنيا بوعي جديـد كان يهاجم كل شيء ، الأفكار

والتقاليد والحياة اليومية . كانت الثورة خاتم شبيك لبيك الذي سيقلب الأوضاع رأسا على عقب . وكان هو ثائراً ، وما يزال . لقد حكم بالموت على الرواسخ ، وآمن بالمستقبل . قبل لحظات كان أمامها في موقف دفاعيّ . لقد سبقته . عشر سنوات من ستة آلاف تركته في الخطّ الثاني من مواقع الحياة ـ وربما في الخطّ الرابع أو العاشر ، من يدري ؟ أهذا هو الزمن ؟ وماذا بشأن إيمانه المطلق بالمستقبل ؟ هذه القطّة الحمقاء تعتقد أنها أكثر ثوريّة منه ! لقد محق كل فكرة قديمة من رؤيته للحيـــاة ، وبتر كل تصرّف تقليديّ ، واستعمل لغة جديدة طوال خمسة عشر عاما .

ويستمرّ في وقوفه على الدرج : عشر سنوات . عشر سنوات . يبدو أن التغيّر الذي حلم به قد وصل الى بوابة الصالحية . قريباً ، سيلتقي بتلك اللبّة التي عشقها وهادن لأجلها الحياة . قريباً جداً ، لحظة تسنح الفرصة .

والحياة في دمشق لا تقف . أقدم مدينة في التاريخ ، ليس فيها شيء قديم فعلاً . إنها غادة تسلّقت الجبل ومدّت ساقيها في الغوطتين . ولعلّ هذا أجمل ما فيها : ستة آلاف عام تكفي لطمر كل نبضة قلب . ودمشق ما تزال تنبض . دمشق دائماً جديدة . صحيح أن عليّاً وأضرابه يعيشون في زواياها المعتمة وحواريها الحلزونية ، غير أنها ، هي أسمى ، تعرف أن تجعل من التكايا فرجة للسائحين . قبل قليل دفع لها الزكاة ـ لانه كان محتاجاً الى كمشة من نور ، الى أن يظل متممشقا على الزمان الدمشقي . كان هادئاً طول الوقت ، ويبدو سيّد الموقف بهذا الهدوء الرصاصيّ والابتسامة العوجاء . لكن سيادته لـن تطول ، لأن دمشق ستزفّ الى الطبقة العاملـة وسترشّ تكاياها بالمبيدات . وسيعرف البرجوازيون أي منقلب ينقلبون .

الورقتان الماليتان تخِزان راحة يدها . وتظلّ الوخزة حتى بعد هبوطه

الورقتين الى قاع جزدانها • أي همّ ثقيل وسخيف وابله هذا الهم • وأية أخلاق برجوازية عفنة ، وظيفتها فقط إشاعة القلق والسخط • من الذي خلق لها ضميراً وأخلاقاً كهذه ؟ هي لا تريدها فلماذا يضعونها في راسها ؟ عليّ مصعوق في داخله لطلبها الفلوس : هذا وحده يكفي لقبولها •

تظل الوخزة حتى المساء ، عندما يأتي إمام أخيراً وتروي له ما حدث ، ثم تقف مسدّدة اليه نظرة متسائلة منتظرة • « ليس من عادتي أن أشير عليك بأن تفعلي أو لا تفعلي • » يقول لها ، فتعرف أنه لم يستلطف هذا الدين الطويل الأجل •

تنبر بعصبية : « غير موافق • ما تزال القيم التقليدية تؤثّر عليك » •
يبتسم • يستيقظ فيه حب المماحكة : « وأنت ؟ » •

« وانا • ولكن لماذا ؟ لن أكون عبدة لشيء • طالما أنه عرض ماله فسأقبله • لماذا لا أقبله ؟ رفضته هو ، أنا أرفض •• ولن أسمح له بأن ينظر الي وكأنه متفضّل علي • ولكن من حقي أن أكون شيئا •• أرفض هذه •• أنا بلا عمل ولا أقبل أن أكون عالة على أحد • أنا لي حقّ ، لي حقّ في أن أكون إنسانة منتجة » •

لا تفارقه الابتسامة • يتّجه الى المكتبة ويقف امامها • بدون نبرة ، ولكن باهتمام حقيقي ، يقول لها : « أنت عقلك طاير بالهوا • » ويتفحّص كتبه •

تنظر اليه مدهوشة : « كيف ؟ » •

« الفلوس وأخذتها • ان كنت راضية انتهى الامر • بعد خمس سنوات تردّينها له » •

يضحكان ، هو بمحبة وهي مقهورة · تقول : « أنت تضحك ؟ » ·

« ماذا أفعل ؟ قصّتك غير مبكية » ·

فجأة تغيّر موضوع الحديث : « رتّبت لك الكتب ، اليوم » ·

ينصرف عن المكتبة بشيء من الانشغال ، لكنه يظلّ مرحاً : « هذا واضح · لم أعد أعرف أين الكتب · » ويرتمي على الكنبة المخلعة : « لا فرق ، كلها كتب نظرية مملّة · مؤلّفوها الذين قرأوا خمس كلمات من الماركسية يغرفون من خردتها منهجها واكتشافاتها فيجعلونها شعارات وكليشيهات للمجتمع العربي وإدانات للبرجوازية · التطبيل لثورة البروليتاريا يغني عن الثورة ، وكفى الله العمال شر القتال · » تسترخي هي على ذراع كنبة مخلّعة أخرى وتنظر اليه مشغولة البال بهمّ جديد : « متى يأتي المستقبل ؟ » تسأله فيبتسم ، وتبتسم ·

« المستقبل يأتي في كل لحظة · ولكن ماذا نفعل نحن ، هذا هو السؤال · العرب أمّة مفيقة ، بدأت تعانق الحياة من جديد · وهي تحتاج الى تحديد المعاني وتوضيحها — عمل يقوم به مثقّفون ثوريّون ملتزمون بتطلّعات هذه الأمة وعارفون بمشاكلها وعلل حياتها · مفكّرونا يكتبون من وراء طاولاتهم الصقيلة عن الوعي الطبقي · ولكن ماذا نعرف عن مجتمعنا ؟ هذه الملايين الشقيّة الأُميّة ·· بماذا تفكر ؟ بماذا تحلم ؟ ماذا تريد فعلا ؟ المفكرون والمسؤولون يقولون لك بماذا تفكر « الجماهير الشعبية » وبماذا تحلم · ولكن ماذا تقول « الجماهير الشعبية » نفسها ؟ وبالمناسبة ، لا افهم اصرارهم على هذه التسمية : الجماهير الشعبية ! هل رأيت أسخف من هذا البالون اللفظي ؟ » ·

تنهض أسمى وتخطو في الغرفة : أنا أقول لك بأي شيء تحلم الجماهير

الشعبية العربية هذه . » تمشي عاقدة الذراعين مشرئبة الوجه : « الجماهير تحلم بالخبز والحرية . نريد أن نوقف استغلال الإنسان للإنسان . نريد أن نؤمّن عملاً لكل من يستطيع . نريد أن تسكن كل عائلة بيتاً صحّياً مشمساً . ونريد قبل كل شيء أن نطرد المستعمرين من بلادنا . » ويكون وجهها محتدما ، وفي عباراتها جوع وعطش ونفاد صبر .

يقول إمام وهو يحدجها بنظرة لاعبة : « انتهى . عرفنا المشاكل . لم يبق إلا أن نحلّها . » يضحكان .

تتابع مشيتها : « ولكن متى يأتي هذا المستقبل ؟ متى ؟ » .

يقول إمام : « عندما ندرك أن هذه الاحلام ليست هذا الواقع . يجب أن نكفّ عن أحلام التنابل والغوغائيين ، ونبدأ تحليلنا العلمي الموضوعي للواقع العربي ، مسلّحين بنظرية ثوريّة وتنظيم ثوريّ . » ثم ينهض لغير ما سبب واضح . يخطو في الغرفة وقد تعبّأ وجهه بحدّة مفاجئة وانصرفت عيناه الى تأمّل شيء ليس في الغرفة . للحظات يبدو الأخ والأخت ، في مشيهما الرصين الغافل ، أشبه بالمجانين ، أو باثنين تلقّيا للتوّ نبأ مثيراً للقلق ، وشاءا ألا يبتذلا مشاعرهما العميقة بالإعلان عنها فآثرا الصمت على الكلام والحركة على السكون . ويكونان متوتّرين محرورين ، ينتظران في مشيتهما أمراً كبيراً لم يحدث بعد لكنه مؤكّد . مرة أخرى تحملهما الكلمات الى أرض القلق المشرئبّ . هناك يبطل مفعولها وتنحلّ الرموز . تغدو عاجزة عن الانتقال بهما بين أرض الحقيقة وأرض الحلم ، حيث يغدو العبور حاجة جسدية ، وحيث يتخذ الجوع شكل الضمير . هناك يتأبّى عليهما الجلوس ويحرك القلق أقدامهما .

عبّاس وشيش بيش : الاحلام سماد الواقع . المعادلة بسيطة وواضحة :

الواقع هو التخلّف والتجزئة في العالم الثالث . ويضيف عليّ : والخروج من التاريخ . الواقع هو خابية الرئيس جونسون التي لا تشبع ذهباً ونفطاً . هو العقلية الغيبيّة والذهنيّة القدرية والنفسيّة الاتّكاليّة ، الخ .. والأحلام أماني أمّة من المحيط الى الخليج ، استيقظت وراحت تقرع أبواب التاريخ بعنف مصيري . وسيعمّ الوعي طبقات الجماهير الشعبية ، وستغدو المعامل للعمال والأرض لمن يعمل عليها ، وسيوضع حدّ للاستيطان الصهيوني . الأمبراطوريات ستتلاشى ، والقصور المنيفة ستنهار على ساكنيها . وستعصف الريح بالبغي والعدوان ، وسيستنشق البشر رائحة الارض الطيّبة التي دنّسها المستعمرون الأوغاد وإذ ذاك يطلّ من ربّ الرياح نفوساً تجيش بالرفض والعزم، وبالنيّة الحسنة. في يفاعته كانت دار المعلمين تتبختر في ذهن عبّاس قصراً مسحوراً . ثلاث سنوات ويناديه الجميع : أستاذ ! وتنتبج في جيبه ٢٢٥ ليرة شهرياً ! ثم قالوا له : أستاذ ، ولبس بدلة وصديريا وربطة عنق . غازل البنات وكانت له أكثر من قصة حب . وكان للبنات والمدينة طعم مثير : وجبة غنية ودسمة توضع أمام فلاّح للمرة الاولى . وغرف منها بملعقة كبيرة ، فشبعت عروقه ، وبقيت روحه جائعة . تدعّمت في نفسه ثقة بها ، وصار قادراً على مراجعة حساباته . ولم يمض وقت طويل حتى استنفد أحلامه في عدد لا بأس به من الوجبات . وكانت الكلية العسكرية قد غدت في خياله قصراً مسحوراً شحنه بالقوة الكافية للحصول على الشهادة الثانوية . وبعد عامين وضع على قمتي سترته الخاكي نجمتين ، وأحسّ أن منكبيه يزاحمان السماء . لقد استعذب إعطاء الأوامر ، وجد نوعاً من الرجولة والأمان في تلقّيها وتوزيعها . تعمّقت في نفسه ثقة أكبر فوصلت الى قاع تصفر فيه ريح خوف مريد : خوف من الانكفاء ، من أن يكون في الحقيقة صغيراً أمام العالم المندفع بقوة الى الأمام ، من أن تفقد أمّة ينتمي اليها حصانها في سباق الأمم فتبقى متفرجة . لهذا كله استهدف وعشق القيادة . صحيح أن

شيئاً حاسماً لم يتحقّق بعد ، لا الثورة نجحت ولا الاستعمار ضرب على قفاه ٠ لكن الشباب بدأوا مسيرة الألف ميل ٠ للتخلّف عمر يبلغ مئات السنين ، وكذلك للاستعمار ٠ وللاثنين ، مثل شجرتين سامّتين ، شروش ضاربة في أعماق الإنسان والزمن ٠ يجب أوّلاً تعطيل السمّ ، نزعه من الذات ومن الآخرين ٠ وهذا هو الذي يحدث الآن : الى فعل الثائرين التاريخي في فيتنام وكوبا والجزائر ينضاف فعل البرجوازية في نفسها ، فالبرجوازية ، كما يقول ماركس وانغلز ، تخلق حفّاري قبورها بأيديها ٠ وليس ثمة موقف وسط ٠

خطّ الوسط خطّ وهميّ ٠ قبل عشر سنوات كان واضحاً ورهيفاً كحدّ السيف ، يفصل بين أرضين من شهوة وجمال ٠ أما الآن فهو امتداد متّسع لفسحة دائرية تراصّت فيها رسوبات الشحم واللحم ٠ من هناك تتعارم استطالة كشبح الصحارى ، تنتشر وتتضخّم متدوّرة متكوّرة ٠ ناعمة الملمس ومثيرة ، عندما يعمّ الظلام وتمّحي صورتها من العين ٠ منذ عهد وجيز هبط فيها انهدام بسيط ثم تمطّى وتمدّد دون أن تعرف لذلك علّة معقولة ٠ وبالمقابل ، نتأت ذروتها ومطّت فابتعدت عن المركز العميق ، منفصلة بحركتها عن حركة الكتلة المركزية ، أو متأخرة بعدد من الثواني يكفي لتمييز الحركتين ٠ وفي الحقيقة ثمة استطالتان متجاورتان وانهدامان وذروتان ٠ في المطبخ أو في الشارع ، تتقلقل هذه الثنائيات كحبات البطاطا في مقشرة كهربائية ، فتجعل من الحركة جهداً مستحيلاً وضرورة مضنية ٠

تلك هي عجيزة عائدة ٠ إنها تسترخي الآن في الكنبة المجوفة وقد ارتصّت عليها هموم لا حصر لها : عشر سنوات ! تغيّر خلالها العالم كله ، ترهّلت الرشاقة وبلي الحسن والجمال ـ الا قليلاً ٠ تهدّمت الصحّة ونضب الحب ٠ لكنها تتناول نكاشة مدببة وتدسّها بين ضرسيها ٠ هكذا تبدو تكشيرتها طبيعية أمام أميّة ،

التي راحت تذرع البهو جيئة وذهاباً بخطى بطيئة مهمومة وذراعاها معقودان فوق بطنها الضامر • المرأتان صامتتان ، وعائدة تزداد حنقاً مكظوماً من تحرّك جارتها القلق الساهي •

وكان أبو خلف قد عقد الاتفاق واشترى الزيتون وغرسه في الأرض قبل أن تسمع هي بالخبر • وعندما ثارت ورفضت أن يعرق ويشقى على أرض لن يكسب سوى ربعها ، كانت عيناه الرضيتان الباسمتان تنتظران لحظة صمتها ليقول لها : « لا تولعي يا أم خلف ، لا تولعي • طوّلي بالك • هو ربع الأرض قليل ؟ خمس دونمات ــ مش قليل • » وقد أعطى للارض أكثر مما أعطى لأولاده • كان ينطلق في الصباح اليها ويعود في المساء • يسقيها في الصيف ، ويسمّدها بروث البقر ربيع خريف • وقد سيّج كل شجرة ، وسيّج تخوم الأرض وحرثها • سبع سنوات ، ولد خلالها محمود وصرع خمسون مليوناً من البشر في حرب مجنونة • كل ذلك ليفهمها أن من يملك أرضاً ليس كمن يعمل أجيراً عليها • لكنها بقيت عنيدة : شقاء أبي خلف يساوي الأرض كلها وليس ربعها فقط ، ماذا يفعل هؤلاء سوى أنهم يملكون ورقة الطابو ؟ غير أن كل شيء مضى الآن • يورام أهارون ورث الربع وثلاثة الأرباع والأشجار والسياج • لو أن أبا خلف لم يستشهد ، لو أنها بقيت ومحمود على ربع الأرض ، أفما كان لتلك الرقعة الخضراء أن تبقى ملكاً لهما ؟ أرضاً وبيتاً وجرّة عسل ؟ والمشاوير ورؤية الأرض والزيتون شجرة شجرة • وأزاهير (لباس القطة) بلونها الشفقيّ الدافيء • وسلالم القطاف المزدوجة •• وأكوام الزيتون •• ومعاصر الزيتون •• ويدا أبي خلف القويّتان تشدّان ، وأيدي الرجال ، على عتلة المكبس فوق الرقاق السائلة زيتاً •

وكان السيد شحيحاً وظالماً • وكان يضني عبده الفقير بكثرة الأعمال التي

يطلب منه تأديتها ، ويقدم له ولعائلته نصف وجبة في اليوم • وذات صباح قارس البرد أمره أن يحضر حملاً من الحطب لتدفئة القصر • فمضى العبد الى الغابة ، وهناك لمح خابيتين صغيرتين معلّقتين أعلى الشجرة ، فصعد اليهما • وتناول الأولى فوجدها فاضية ، فقال لنفسه : اذا أراد الله أن يضحك على الفقير جعله يضيع حماره ويلقاه ــ لو كانت هذه الجرة مليئة بأرز مطبوخ مع ديك ولوز وصنوبر •• ولم يفرغ من كلامه حتى امتلأت الخابية الصغيرة بما وصف فنظر اليها وقلبه يقفز من بين أضلاعه طرباً • وانكبّ عليها يلتهم مافيها حتى أتى على آخرها • وحملها عائداً الى القصر وهو يرقص فرحا ، فرآه السيد وعلم منه بأمر الخابية فانتزعها منه وضربه • وعاد العبد الفقير الى زوجته وأولاده وهو ينوح ويندب حظّه ويتلمّظ طعم الدجاج الذي لن يذوقه بعد اليوم • وفجأة تذكر الخابية الثانية فأسرع الى الغابة وانزلها وطلب منها مثل سابقتها • وامتدّت من الخابية يد ضخمة فصفعته صفعة قوية كادت أن تقلبه على قفاه • فتوسّل اليها باكياً أن ترحمه لأنه عبد فقير • وإذ باليد تختفي • نظر الى الخابية مذعوراً وهتف : « إن كنت أنساً أو جنّاً ، اخرجي أيتها اليد • » فخرجت وبدأت تتلوى أمامه كالثعبان • فأسرع الى القصر وهو يكاد يطير من فرحه ، حيث رآه السيد وعزم على أخذ الخابية الثانية منه • لكن العبد أمر اليد بالخروج وضرب السيد ، ففعلت وضربته ضرباً مبرحاً • فاستغاث السيد وهمّ بالفرار لكن اليد لحقته أينما ذهب • وأخيراً ركع أمام العبد الفقير وطلب الرحمة ، فأمره العبد بإرجاع خابيته الاولى • وهكذا ياسادة يا كرام حمل العبد خابيتيه منتصراً على السيد وترك القصر فعاش مع عائلته في نعيم مقيم حتى أتاه هادم اللذات ومفرّق الجماعات •

البناء ضخم ونوافــذه عريضة • كل غرفة فيه مجهّزة بهاتف ومذيــاع

وتلفزيون وستائر وسجادة وخزانة وتدفئة مركزية · في الحمام ماء دائم السخونة · وفي المطعم وجبات دائمة الجودة · والمطعم قاعة طويلة نضدت طاولاتها بحيث تنزل كل لقمة في جوف آكلها هنيئة مريئة · ليس فقط لأن القاعة وثيرة الأثاث ، بل لأن روادها قوم يمضغون الطعام جيّداً · والمضغ الجيّد أحد أوامر الطبيب المشدّدة ، وهو علامة رقي وتحضّر وأسلوب مهذّب لتبادل الأحاديث الجدّية في شؤون العالم العظمى · لم يعد العالم مكاناً مريحاً لقاطنيه · الغلاء يكشّر عن أنيابه الصفر · إسرائيل تهدّد باحتلال منابع نهر الأردن · الولايات المتحدة تفتك بشعب فيتنام البطل · الاستيراد والتصدير مشلولان · ثم آخر اشاعات الرشاوى والنهب في دوائر الدولة ، وآخر أحداث انتهاك العرض والاغتصاب ·

من هناك يخرج الملك وفي رأسه طنين · كيف قادته قدماه الى بؤرة العفن ومصيدة الضمير ؟ وتهزّ صدره جشأة عنيفة تضطرّه الى رفع رأسه · لقد شبعوا حديثاً وبيانات عن « مسؤولية الأديب تجاه المعركة » وكذلك شبعوا طعاماً · كانت المعركة الحقيقية هي كيف يستعمل الشوكة والسكين دون أن ترتجف أصابعه · وعندما بدأ الحوار شعر أن الشوكة والسكين قد جرّدتاه من ادعاءاته · عبثاً حاول أن يؤكد لذاته أنه لا ينتمي الى (فندق أميّة) ، انه ابن الحداد محمد الكعكي ، أن مسؤوليته تجاه المعركة تخرج من نار الكور في دكان والده · لكنه طول الوقت كان مهرجاً يستعمل الشوكة والسكين · لقد هناوه ، وتبادلوا معه الأنخاب وشدّوا على يده · وساعدته تلك التهنئة وحرارة المصافحة على طمر شعوره بالعار في أغواره المجهولة · ثم جاءت تلك اللحظة التي لم يعد ممكناً فيها حبس الكلمة ، فقال لنفسه : طظ على الأدباء ومؤتمراتهم وخرج ·

ينعطف يميناً ويمشي على الشارع الصغير وراء الفندق • ثم يقف • ليس بسبب الجشأة العنيفة الثانية هذه المرة ، بل لأنه لمح كتلة سوداء تتكوّر بين برميلي القمامة • يتفحّص المشهد ملياً : برميل انتصب وآخر مطروح أرضا ، والكتلة السوداء تتجمع أمام البرميل الثاني • ويعيى عن أن يتبين ما هناك • أترى ، عيناه تغزلان سكراً وشبعاً ؟ يقترب وئيدا ، لا صوت لا نأمة • يقترب حتى تغدو المسافة بينهما دون المتر ، وهي مستغرقة في نبش الخليط الخم القذر ، والى جانبها هرة تشاركها الوليمة والاستغراق • لكأنها عثرت على خابية علي بابا والاربعين حرامياً • لقد فقدت تماماً احتفالها بالعالم الخارجي وهي تزيح محتويات البرميل بأصابع هادئة ولكن جاهدة • تعثر على شيء ما فتودعه فمها ، وتعود الأصابع والعينـان المسمّرتان الى البحث • تمدّ الهرة رأسها فتنهرها يد المرأة برفق • لكن الهرّة تعرف كيف تراوغ جارتها فتنتش من نثار البرميل ما يشغل فمها لبعض الوقت • تعثر المرأة على شيء آخر وتدنيه من فمها ، ثم تبعده • يبدو أن رائحته أنتن من أن تطاق • تنفخ عليه ، تمسحه بأصابع اليد الأخرى ، تزيل قسماً منه • ثم تشمّه • لا فائدة • ترميه وراءها بلا احتفال فيضرب ببنطال الملك ويلوّثه • تمدّ يديها الى جوف البرميل وتخرج المزيد من القمامة • بقية أرز هنا وكسرة هناك ، واليهما فرمات بندورة مخبوصة •

يقترب الملك منها حتى تختفي بينهما المسافة • بيده ورقة مالية • تهزّ صدره من جديد جشأة صاخبة • تفر الهرّة الى مكان قريب ، وتلتفت لترى ما الذي سيحدث • تنتفض المرأة واقفة • تنظر اليه بذعر لا نهائي ، وتهمّ بالفرار • يلتقط ذراعها متضرّعاً : « خالة ! خالة ! » تتيبّس في مكانها • تدهمه جشأة أخرى • يدسّ الورقة في يدها المتقلّصة : « لست خادم الفندق •

وإن كنت أسوأ حالا ، » يقول وكأنه يهمس بالجملة الأخيرة لنفسه • يتــرك ذراعها • تبتعد عنه ووجهها اليه • تبتعد • تستدير ، تطرق ، وتمضي قبل أن تسمع هقّتين متتاليتين خرجتا من فمه بصوت ناحب • فجأة يشعر بالبرد وبالتهاب جبينه • ويخترق جوفه مغص حارق كسيخ محمّى • يتكىء عــلى البرميل الأول باعياء غير مفاجىء • يحسّ بالطعام متصاعداً الى صدره ، مندفعاً من حلقه ، ثم مندفعاً من فمه •

بعد دقائق يخرج من جيبه منديلاً ورقياً معطراً • يتأمّله وينتصب : عندما اختلسه بغبطة ولد صغير عن طاولة الطعام ، لم يكن يظن أنه سيحتاج اليه بهذه السرعة • والآن ضاع الطعام والجهد والمنديل ، وربما أفسد على جائعة أخرى الاستفادة من برميل القمامة المنتصب • لكنه يحسّ بالراحة • من صدغه ينجلي البخار المدوّخ • شيء واحد يؤسيه أسى مزدوجا : خمس الليرات التي رشا بها ضميره وهدأ مشاعر المرأة •• كان ينبغي أن يرعبها ، ويتركها تهرب بجوعها وإملاقها ، لكي يغتلي فيها الجوع ويدفعها الإملاق الى السرقة ، الى اقتحام البيوت والسرقة •• فلتنقل رعبها الى قلوب المسترخين أمام أجهــزة التلفزيون ، وصرير أمعائها الى أدمغة المتحلّقين حول موائد المؤتمرات العظيمة • ليس مثل تدمير الخواطر القريرة والأسنان الذهبية ناقوس يثقب الذاكــرة البشرية ويودع فيها الاسماء الحسنى من مثل : المرض والسغب والعري والتسوّل والعنف •• اذا لم تتململ من بؤرة العفن جراثيم تقضي على العالم الحرّ •• اذا لم يخرج العفريت المارد من الزجاجة المسدودة ويسحق الضمائر الجاهزة •• ولكن ، آه ! لماذا هذا السخط كلّه ؟ أية انسانية تبقى في الجائعين اذا حقن الحقد عروقهم ؟ هذا هو الاستعمار : تدمير إنسانية الإنسان ثم تجريمه بقوانين يصوغها المترفون •• كتلة سوداء •• تنوء بالثقل المزدوج للحاجات

التي خلقتها الطبيعة وللضمير الذي خلقه المترفون ·· كتلة سوداء أيتها الكتلة السوداء يا عار حياتنا ·

اذ ذاك ينوء ثقل المدينة على صدر الملك : دمشق الخالدة ، قلب العروبة اللولب · يصل الى ساحة (سبع بحرات) · يمشي غير مبال بأعين العابرين ، ويرتمي على التبة الأعلى · جسد ضئيل يواجه معبداً بسبعة طوابق مسمى مصرفا مركزيا / الرجل القابع وراء نظارته : أستاذ عبد البر ، لو أنك تحذف بعض المقاطع المتعلّقة بالجنس والدين والسياسة ، وتغيّر بعض العبارات والأوصاف ، وتخفّف من حدّة لهجتك ··· روايتك ممتازة ، في عشر السنوات الاخيرة لم أقرأ شيئا أفضل ·· ولكن بعض العبارات والمقاطع ·· أنا لست ضدها ·· أنا معها مئة بالمئة ·· بدون هكذا معالجة لا يمكن تحسين وضعنا ·· ولكن كما تعرف سياسة الدولة تقتضي / ينظر الى المبنى الضخم / الدولة جاءت ·· ذهبت الآلهة وجاءت الدولة ·· ذهب المعبد وجاء هيغل وبقي الفقر ·· بقيت الخنازير والجنازير ·

شاهدته أميّة واقفاً عند الباب الموارب ، فدخلت وكان شيئاً كريهاً يلحق بها · لكن صوتاً كالقباع أوقفها قبل أن تغيب : « عمو ، قولي للبابا ، المدير واقف بالباب · » خيّل اليها أن به مسّاً : لقد فهمت كلماته واحدة واحدة لكنها لم تفهم الجملة · وهزت رأسها بالايجاب فيما تتفرس في شكله القلقاسي ·

تسألها عائدة ضاحكة : « وكيف شكله ؟ » فتصفن الأخرى محاولة استعادة الصورة : « لا أعرف · ليس له شكل · » تضحكان · « رأسه أبطح · وعيونه غائبات يبين منهما ثقبان مثل ثقوب الغربال ·· عيون غريبة ·· وجه مثل كرة الكنادر · عمو ، قال عمو » ·

بصعوبة توقف عائدة ضحكها : « يقطع عمرك · ما كان على قلبك همّ شيء · » وفجاة تتذكر : « أين كنت يا ضربانة كل هالمدة ؟ » وقبل أن تجيب أمّية تبدأ هي بتعداد ألوان الطعام والسهرات الجميلة ، والوزراء والمسؤولين والضباط الذين جاءوا في الفترة الأخيرة ، وكلهم فاتتها مشاهدتهم · يطرق وجه أمّية ساهماً عارياً · واذ تفرغ عائدة من سرد قائمة الأسماء تكون خواطر جديدة قد حملت اليها شعوراً مغايراً شغلت به عن وجه جارتها المشغول · تصمت المرأتان ، إحداهما واقفة والاخرى قاعدة · تصل اليهما الأصوات القوية المبهمة من غرفة الضيوف · يزحف نحو عائدة وليدها ويلتقط رداءها ، فلا تعيره انتباهاً · يتمسّك بالرداء ويتناهض متهزهز العود · تخطفه بيديها وتضمّه بشوق حميم · تعانقه · يمدّ يديه فيطوق عنقها وشعرها · تجتاح بالقبل وجهه وعينيه وعنقه · تناغيه وتدعو له ، وفي دعائها تعلّق على كاهله الصغير جميع ما فاضت به نفسها من خائب أمنيات الصبا والشباب ·

تضع الوليد على حجرها وتنظر الى أمّية : أجل ستشكو لهاتين العينين الحياديّتين · إنها عزلاء مجروحة الخاطر · ماذا عساها أن تفعل إزاء وجه القلق المطل عليها من كل صوب ؟ الانهيار أمام صبوات أولية رحلت في الزمن والقلب حتى وصلت الى القرن العشرين · لقد راوغته بالاهتمامات العابرة وبالرجاء · أحنت رأسها لريحه الشرسة · أفرغته في شحنة دمع · توهّمت وخيّل اليها · عندما تستلقي على سريرها يربض في عينيها القهر والأرق · تخاف من الغد المقبل حاملاً معه عطيّة الأمس ، وتتمنّى لو مرّة واحدة يصير الزمن الى ليل أبيض لا صباح بعده ·

ولكن كلا · لن تشكو لأمّية · فيما مضى كان يستملح النساء · أما الآن فهو يطاردهنّ · اذا لم تات غادة وزوجها ، يجد وسيلة لتأتي أمّية · وفي المحافظة

يتحدّث الناس عن مطاردته لواحدة ، معلّمة عاهرة ، والأخبار تجيء كل يوم · ما شاء الله ! هذه هي ثورتهم ، ما شاء الله ! ثورة على أعراض الناس · كل امرأة تفتح لهم ساقيها تصير غالية على الثورة · ما شاء الله !

تُسمع دقّتان على الباب الداخلي لغرفة الضيوف · تهمّ عائدة بالنهوض ، لكن أميّة تشير لها الا تفعل ، وتقصد المطبخ ·

داخل غرفة الضيوف تتناسل الأصوات من رحم اللغة متّخذة شكل الكلمات : بعد فترة وجيزة ستعدّ الأمة العربية جيشاً من جماهير الشعب تسحق به أعداءها · الخطأ الاكبر كان عزل الجماهير عن المعركة · ان تجنيد طاقات الأمة العربية كفيل بالإجهاز على الأمبريالية والصهيونية بأربع وعشرين ساعة · لكن هذا الخطأ لن يتكرّر · يجب وضع البترول في خدمة المعركة · يجب القضاء على الرجعيّة العربية الضالعة مع الامبريالية والصهيونية · يجب حشد طاقات الكادحين لخدمة المعركة · وبعدئذ يغدو تفكيك الكيان الصهيوني سهلا كشربة ماء ـ فقط لو أن أميركا لا تتدخّل ·

يعلو صوت المدير بنبرة حارّة : « شعبنا يمرّ كله في مرحلة تطهّر ذاتيّ · ما من أحد يقبل على نفسه البقاء كما صنعت له المرحلة التاريخية أن يبقى · » ويضيف عبّاس بثقة : « سوف يثبت شعبنا أنه جدير بالحياة والحرية » ·

تقبل أميّة بفنجاني القهوة · تنتبه عائدة وتبتسم : هذا هو إذن عالم الرجل ·· الحياة والحرية · وتتصوّر مدينة وشوارع وبلداناً وإعلانات كهربائية · تقرع الباب ، فيفتحه عبّاس ويتناول الصينية · تمكث المرأتان وراء الباب وتتبادلان نظرة باسمة · تهمّ أميّة بالانصراف فتشير لها عائدة أن تبقى · وإذ تهدآن تسمعان حوار الرجلين · يقول المدير : « ابن عمك

علي ، عمل لنا مشكلة في المدرسة · قال للطلاب ذلك اليوم إن عمر بن الخطاب هو لينين العرب · وقام عدد من الطلاب المتشنّجين وقالوا هذه إهانة · بالكاد تمكّنت من تهدئتهم · أكدت لهم أن الاستاذ علي تقيّ ومؤمن ، وأنه يريد القول إن تاريخ العرب لا يخلو من بناة الدول · » ويؤكد عبّاس أن الأمة العربية أمة معطاء ، قدمت للعالم خمس حضارات من عشر ، وستعطيه العادية عشرة بإذن الله · لكنهما هذه المرة يوجزان الحديث : انتهى فنجان القهوة · جملة أو جملتان عن القديم العظيم ، وينهض المدير مودّعاً · ولا ينسى عبّاس تجديد وعده بحل المشكلة : خلال أسبوعين يصدر أمر النقل من الرقّة الى دمشق ·

ثم تتوقّف الأصوات عن اختراق الباب المغلق بين الرجلين والمرأتين · يغلق الباب الخارجي وراء الزائر الراحل ، فتبتعد المرأتان عن الباب بحركة غريزية الى أقرب كنبتين · ينبثق عبّاس من الباب ويرمق المرأتين باسترابة · يقول : « لا شك عندي أن الانسان سيعرف ما على سطح المرّيخ والزهرة · أما أن يعرف ما يدور بين النساء من أحاديث ·· مستحيل » ·

ويحدث في تلك اللحظة أن يؤوب كل من الآدميين الثلاثة الى وعيه الصامت الغاصّ ، فيصير صمتهم المفاجىء اغتراباً عن الذات مريحاً وفاضياً ، بلا نهاية ولا جدوى ·

إنهم يقفون على مفارق الطرق وفي المنعطفـات · يشيرون بأيديهم أو بقلوبهم أن خذونا الى مكان لا نكون فيه متوحّدين ، أو تعالوا لنلتقي دون أن نخسر أنفسنا · لا يلحّون في الطلب ، ولا يضنيهم الانتظار ، لكنهم لا يهجرون توقّعاتهم ولا تقعدهم الخيبات المتسلسلة · حياتهم أكثر من لا وأقل من نعم ، وبين هذه وتلك تكرّ عليهم الأيام والليالي · وينتظرون ·

من قديم ، أنشد طرفة بن العبد :

ولولا ثــلاث هنّ من عيشة الفتى ... وجدّك لم أحفل متى قــام عوّدي
فمنهنّ سبقي العــاذلات بشربــة ... كُميت متى ما تعلُ بالماء تزبـد
وكرّي اذا نــادى المضاف محنبا ... كسيد الغضى ، نبّهته ، المتجــرّد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ... ببهكنــة تحت الطــراف المعمّـد

لم يصدق أن في الصحيفة أمر قتله ، وظل يعتقد أن فيها أمراً بجائزة كبيرة ، فاضطر العامل الى سجنه لخؤولة كانت بينهما • فما كان من عمرو بن هند ملك الحيرة إلا أن وجّه عاملاً جديدا بدأ بقتل سلفه ، ثم خيّر طرفة في ميتة • وقال طرفة : اسقني حتى أسكر ، ثم افصدني ودعني أنزف حتى أهلك • ففعل الوالي • تبتسم أم خلف لأمنيات طرفة ، لكن قصة موته لا تفرح قلبها • تقول لعلي : « بهذاك الزمان ، يا ابني ، ما كان فيه اسرائيل • يا حسرة عـلى فروسية •• ما اسمه ؟ لو رجال هالزمان يثبتون على مبادئهم مثله • » يقول علي : « كان فيه كسرى أنوشروان • » تقف : « اي ؟ تركه العرب يسيـد ويميد ؟ » يحسّ بحماس مفاجيء : « أبداً • ضربوه علقة ماكنة في معركة ذي قار • » تحدّق الى وجهه باهتمام عاقل وفضول : « هذا مكتوب عندك ؟ » « أين ؟ هنا ؟ لا هذا كتاب • مسرحية » •

تمضي الى المطبخ ، ويتمــدّد هو على الكنبة • يسوّي وضع الوســادة المربعة وراء رأسه ويستغرق في قراءته • تعود أم خلف حاملة سطل المــاء والممسحة : « يا فتّاح يا عليم • بماذا حشرت رأسك من بكرة الصبح ؟ ما هذه المسرحية ؟ » ويصيح محمود طالبا قهوته ، فتجيبه أن الفنجان على الطاولة • يصيح ثانية أن تأتيه به الى السرير • تضع السطـل والممسحة جانباً لتلبّي الطلب •

بعد تحركات صغيرة يتخذ علي وضع الاسترخاء الأفضل · يستغرق في القراءة ثانية · تعود أم خلف وتتناول أشياءها · تتذكّر أمراً فتقف : « يوم الجمعة ، كل الناس يخرجون الى المتنزهات · وأنت قاعد هنا · ما هذه المسرحية ؟ » ·

دون أن يرفع رأسه يقول : « اسمها (في انتظار غودوت) · أخذت شهرة عالمية » ·

« من هو جودت هذا ؟ » ·

« غو ــ دو ــ ت · رجل · ينتظره اثنان صعلوكان · لكنه لا يجيء » ·

« لماذا ينتظرونه وهو لا يجيء ؟ » ·

« لان حياتهما متوقّفة عليه » ·

« الله يلعن هكذا حياة · واقفة على رجل لا يجيء ؟ لماذا لا يدورون وراء شغلة يشتغلونها ؟ » ·

يطوي الكتاب حول اصبعيه وينظر اليها مداعباً : « لان كل شيء في حياتهم متوقّف على ما يفعله لأجلهم · لأنهما مرتبطان به ارتباطاً أعمق من أمور الحياة العاديّة · حتى تفكيرهما جزء منه »·

يأتي محمود حاملاً فنجانه ، مبتسماً ومنفوش الشعر : « أحببت اليوم أن أعمل نفسي برجوازياً يأتيه فنجان القهوة الى الفراش · التنابل فقط يستطيعون شرب القهوة في الفراش » ·

يقول عليّ مجاملا : « يحتاج الأمر الى إنسان محبّ للكسل · لكن واحدنا ينهض من فراشه بمجرّد استيقاظه · » ·

تقول أم خلف متابعة حديثها عن غودوت : « هذا واحد غنيّ وابن حرام ، هذا جودت . وهؤلاء مجانين . لماذا ينتظرونه وهو لا يجيء ؟ أرض الله واسعة . أنا أدور فيها وأجد أي شغل » .

يقول عليّ ، محولاً اهتمامه من محمود الى أمّه : « غو ـ دو ـ ت ! هم فعلا يقفون على أرض واسعة ـ وفيها شجرة . لكنهم لا يتركون مكانهم لئلا يجيء غودوت فلا يراهم » .

« اي يلعن أبوهم واحد يقول للثاني . هؤلاء رجال ؟ أنا لو محلهم أطخّه رصاصة » .

يقول محمود : « أمي صايرة ثورية ، ما شاء الله ! أنت لا شغل لك إلا الحكي : ماذا تفهمين عن أحوالهم ؟ الفقير العربي في عالم الرأسمالية ، قادر أنه يطخّ بقّة ؟ نحن عبيد ، يا ستّ . لا معنا مال ولا سلاح . الناس الفقراء للخبز ، فقراء للحرية . والأغنياء يمشون على سياسة جوّع كلبك يتبعك . وأنت تظنّين أن لسانك يكفي لتحرير العالم » .

تنبر هي : « اي اسكت ، اسكت . كل الناس وصلوا لشيء الا أنت . قاعد في المطبعة بمئة وتسعين ليرة » .

يتناول محمود فنجانه بصمت . تختفي من محيّاه التعابير . يقبع على كنبته ويطرق غير منتظر شيئاً . ترتكز أمه على نصل الممسحة بسيماء ندم خفيّ جلّلته شدة منتظرة : عساه أن يقول شيئا ، يؤنّبها أو يروي نكتة ، لتستريح هي . يتابع محمود صمته مرجئاً كل شيء الى حين آخر غامض . وتتحرّك الأم فجأة ، فتبدأ المسح بنشاط عصبي . بعد لحظات تخاطب عليا : « حمدي الببش يقول لك ، غرفـة النوم صعب خلاصها في الوقت المحدد .

الحكومة غالقة باب الاستيراد ، والخشب مقطوع من السوق . بس ، بوّدك الصراحة ؟ حمدي الببش أكسل واحد في سورية . واذا حكيت معه قال لك ، كله من الله ، أو الرزق على الله . مثل أصحابك المنتظرين جودت هذا » .

مطرقاً فوق كتابه يقول علي : « غودوت ! قولي له أن يحوّل الشغل الى خزانة كتب ، طول ثلاثة أمتار ، وارتفاع مترين » .

يلتفت محمود الى علي المنكبّ على كتابه بشعور مفاجيء بالحب : برجوازية صغيرة أو غيرها ، البشر كلهم يستحقّون الحب / أسمي أمام المجهر المصوّب على شريحة لحم بشري / بيت طيني / مرج أخضر وشمس . يتسلّل الى صفاء نفسه ظل صغير من المرارة : ليس البشر كلهم / مشكلة محيّرة .

تثبت عينا علي عند جملة في الكتاب . يعتريه خوف غامض اذ يذكره احتياج الصعلوكين لغودوت بتعلقه بهذين الكائنين الغافلين ، محمود وأمّه . خير للإنسان أن يؤجّل عواطفه ، أو يلغيها إذا لزم الامر ، من أن يبذلها في تلوّث هذا العالم . هذا زمن الحب الأسود والمرارة المستساغة .

قبل عام طرق عليّ باب البيت برفقة الدلاّل البطين . وعندما فتحت له أم خلف شاهد وجهاً عريضاً قاسي الملامح ، عينين كثيفتين وفماً دقيقاً وشعراً أشيب . شيء ما في ذلك الجسد الأنويّ أرهبه وأشعره بالضعف . واذ دخل الرجلان وبدآ حديث الإيجار معها ، راحت تتفحّص بين تقاطيع الكلام القليل ارتباك وجهه وتلكؤ كلماته . للتوّ رأت فيه نقيضاً بنوياً ، فاضطرابه الظاهر لطم صرامتها الظاهرة ، وتماسكه المزول هبط على انهيارها الداخلي وغطّاه . لم تتحرّ كثيراً حسن أخلاقه ودقّته في الدفع . كان متعباً وكأنه جاء من سفر بعيد ، وخمّنت أن بحثه لدى الدلاّلين قد أرهقه انتقالاً من شارع الى شارع وحيّ

الى حيّ ٠ وفي المساء جاء محمود وكان جافّاً ٠ لم يوافق بالأساس على تأجير الغرفة ٠ ولكن الأمّ هي الامّ ٠ وفي هذه البلاد يقطع الحبل من السرّة فقط وليس من العقل والقلب ٠ وزاد الطين بلّة كون المستأجر مثقفاً ، وربما مثقفاً ثورياً ، فمحمود لم يعرفه بعد ٠ وفي هذه الحالة سيتعيّن عليه تحمّل الكثير من الغرور وأكثر من النظريات والشعارات ٠

ومرّت الأيام فنقّح محمود موقفه الى حدّ التبديل ٠ المشاعر السلبية عبء ثقيل لا يطيقه ٠ وإذا كان لا بدّ منها فهو لا يستطيع طمرها ، لأنهـا ستظهر في أفعال وردود أفعال شرسة ثم تغيب مخلّفة وراءها تعباً غير ضروري ٠ وراقه أن عليا يؤمن بالطبقة العاملة وبالتطهّر عن طريق العمل ٠ الجميع يؤمنون بالطبقة العاملة ــ قال لنفسه ذات يوم ، وكان منحنقاً من أريحية عليّ ــ الجميع يقرعون لها طبولا أفريقية ، وفي النهاية يخوزقونها ٠ لكن عليّاً أبطل ارتياب رفيقه ، ليس بجهد خاص أو ارادة واعية ، بل عبر ذلك الشعور بالطمأنينة الذي انسرح منه كلما جلس الى محمود وتحدّث معـه ٠ الطبقة العاملة هي البراءة والكدر المقدس ، بيوت الطين المؤثّثة بنصاعـة القلب ومباشرة الحياة ٠ في البداية لم ترق لمحمود هذه الجمل الرومنتيكية ٠ وضايقه الاهتزاز الذي أصابت به مخّه كلما سمعها ٠ ثم مسّته حرارة عليّ وهو يقولها ، فدعاهـا شعراً منثوراً ٠

وها هو الآن يتأمّل الوجه القرير المنكبّ على القراءة ٠ ينظر الى الباب مستطلعا ، وبعد قليل يفتحه فيدخل إمام ٠ توقف أم خلف المسح وتهتف : « من زمان القمر ما بان ٠ » يتقدّم منها ببشاشة ويقبّل جبينها ، فيما ترسل أصابعها في شعره السرح ٠ « لا تزعلي ، خالتي أم خلف ٠٠ لأني جئت أزور

الاستاذ عليّ · » يتأمل عليّ زائره المجهول ببرود · يضع الكتاب جانباً بانتظار التحية · « أستاذ عليّ ، أنا إمام ، أخو أسمى ·· »

يعلنها ببساطة وصفاء ويراقب الآخرين من وراء عينيه الضاحكتين · يوقن أنه أحدث التأثير المطلوب في خبيئة أم خلف : ستتحوّل حكاية القهوة وقبلة الفم والحمّام التركي الى أرق عندما تستلقي أول الليل على فراشها وتسأل : لماذا قدّم إمام نفسه لعليّ بهذه الكلمات ؟ ويخشى أنه أحدث أكثر من التأثير المطلوب في نفس عليّ ، فيما هو يسعى الى صحبة جديدة تزيد من علاقاتـه بالبشر وتعطيه شيئاً ·

ويكون توقّعاه صحيحين · تغتنم أم خلف الفرصة فتنفد بجلدها الى المطبخ حاملة ممسحتها والسطل · لقد خمنت من إعلان إمام عن زيارته أنه يعرف كل شيء · وهي الآن خائفة مطمئنة · خائفة لأمر لا تدري كنهه ، ومطمئنة لانها أقنعت نفسها أن إماماً من هؤلاء الرجال الجدد الذين لا يعملون عراضات لأجل الشرف · وينهض عليّ لاستقبال زائره النشيط بنشاط مماثل · على وجهه ابتسامة مرحبة وفي خاطره تطيرّ غير مذعور من عنف محتمل أو مشادّة كلامية · ينبسط في ذهنه تاريخ طويل من سفك الدماء والتبجّح الحيواني بالقتل دفاعــاً عن الشرف الرفيع - الجاهلية بعيدة في التاريخ ، قريبــة في الوجدان ، والطبقة العاملة تتكشّف عند اللزوم عن مستودع للأهواء المضغوطة الجامحة · لقد قرأ في الوجه المتقدّم علامات قسوة مرسومة على الفم الشهوانيّ والعينين السنجابيّتين ، خاصّية تفتقر الى الذوق · وهذا الجسم المديد المفتول العروق ، أية قوة حيوانية سكنته ؟ وزاد ارتيابه فهم مفاجيء لتصرّفات أسمى : هي الأخرى كانت تفتقر الى الذوق ، كانت تريد أن تؤكد موقفاً لا أن تفهم — بل كانت تريد أن تحتقر · ثم قبلت نقوده في النهاية ·

تفعمه الثقة بموقعه الأخلاقي العالي ٠

تزداد المشاعر الخبيثة تشابكا اذ يتابع إمام كلامه : « أسمى قالت لي ، عندك مكتبة جيدة ٠ وجئت أستعير منـك بعض الكتب ٠٠ اذا تكرّمت ٠ » يتصافحان بمودّة حارّة ، يتبادلان عبارات التحيّة المألوفة ٠ يجلسان فيمـا محمود يتفحّص وجه عليّ تحت ضوء جديد : إذن هو أيضا التقى بها ، عـلى الأغلب تحت هذا السقف ٠ يحسّ بانفراغ خانق في قلبه ٠ لكن غضباً أبيض يبزغ فيه ويدفعه ، فيخاطب عليّاً بحماس : « إمام أفندي ، عامل مثقّف ٠ سيبني الاشتراكية للفقراء العرب بقراءة الكتب ٠ » يقول عليّ بكرم مستبدّ : « أي كتاب ٠ خذ جملة كتب ٠ عندي قصص ومسرحيات ودراسات ٠٠ كتب تاريخية ٠ ما عليك الا أن تنتقي ٠ واذا لزم الأمر أستعير لك الكتاب الذي تريد » ٠

« هذا كرم عظيم منك ٠ اذا كان عندك كتب عن حرب التحرير الشعبية ، كتب واقعية ، لا نظرية ٠ أريد أن أعرف كيف تنهض شعوب بالعالم وهـي تحارب ٠ ماذا فعلوا في الصين وكوبا وكوريا وفيتنام والجزائر » ٠

« كتب واقعية ؟ كأنك تتوقّع من كتّابنا الجهابذة أن يعيشوا يوماً فيتنامياً أو كوبياً ٠ لا ٠ العمر قصير ، وهذه مضيعة للوقت ٠ لماذا وخيالهم قادر على اختراق العوالم وسدّ الفراغات كلها ؟ » ٠

« كتب عن حياتنا نحن العرب ، إذن ٠ أنا لا أرى في المكتبات دراسـة لأوضاعنا ٠ الكتب كلها تتحدث عن أوروبا وأميركا ، آخر شيء سمعت به كتاب عن الصراع الصيني السوفييتي ٠ ما هذا ؟ لدينا هنا ألف مشكلة ٠ لا شيء عن إسرائيل والامبريالية ، شعارات ولا أرقـام ، مواضيع إنشاء ولا دراسات

علمية • ما هذا ؟ وأنت تعرف المشاكل التي نغرق فيها • الزواج ، العرض ، الثارات • الكسل ، الثرثرة •• أحياناً أشعر أننا بضائع للاستهلاك في هـذه المرحلة • أحياناً تجيئني هذه الأفكار ، مع انني واثق أن العرب لن يُهزموا » •

يقدّم علي لجليسيه علبة الدخان ، ويشعل لهم ولنفسه • يقول : « أنا أقل تفاؤلا منك • كثيراً ما أشعر أن العالم كله اثقال ، أو انني لعبة بيد خفيّة •• قويّة ورهيبة • لعبة تتحرّك وتصدر أصواتاً وتفهم وتصرخ وتستعمل حواسّها الخمس •• وكل شيء •• لكنها لعبة • وهي تسأل نفسها أسئلة مضحكة ، مثل : لماذا لا أقدر أن أنجز شيئاً ، لماذا لا أقدر أن أكون شيئاً ، لماذا أنا بزال مثبت في آلـة الحياة اليومية ، لماذا عليّ أن أكـذب وأساوم حتى لا أذلّ وأهان » •

يصمت فجأة ، ينفض رماد سيجارته • هذا الجرس الرومنتيكي ، الـى متـى ؟

يقول إمام : « هذا شعورنا جميعا • همّ الفقير العربي أن يحصل على لقمة العيش • عندما يحصل ، تغريه البرجوازية بشيء من النفوذ والسلطة • اذا قبل انتهى الأمر • واذا رفض عاش ساخطا • في كل حالة ، الحياة ذلّ • ما من أحد حرّ في هذا الجزء من العالم » •

ينبر محمود بعصبية محسوبة وقد ضايقته العبارات المنضدة : « ما هذا الكلام كله ؟ نحن ، ماذا نعرف نحن عن الذلّ والإهانة ؟ نحن لا يحقّ لنا أن ننتسب للنضال • أنتم سمعتم بقصة سليمان السمّان ؟ هذا المناضل الذي مات تحت التعذيب وهو ينكر حقائق اعترف بها المشتركون كلهم • كان الجلادون يقولون له كذا كذا ، وهذه هي التواقيع ، وهو يقول : لا أعرف ، لا علاقة لي •

ومات تحت التعذيب . مات وهو يرفض اعطاءهم تبريراً واحداً ، ولو أعوج ، لجرائمهم . هذا ــ إنسان حر . وله الحقّ في إصدار الاحكام ، يحتقر أو يحترم كما يشاء . وليس نحن الذين لا نقاوم طاغية ولا نجرؤ على الوقوف بوجه جريمة . »

يسترخي إمام مبتهجاً بكلمات محمود . يتأمّل بقعة الشمس الزاحفة ببطء على أرض البهو : طوراً غائمة وآخر واضحة . يقول وكأنه يخاطب نفسه أولاً : « نريد رجالا يُسجنون ، ورجالا يموتون ، يستشهدون . نحن الآن نحتجّ أو نهزأ ، في المقاهي والبيوت .. والشوارع . بعد حين نوصل صوتنا الى حكامنا : نريد أن نحارب الامبريالية والتخلّف ونتوحّد في مجتمع اشتراكي عربيّ . بعد حين نوصل رصاصنا الى صدور المتخاذلين منهم ، والذين يلعبون بنا كما يلعبون بكلمات اللغة . العرب لم يتعوّدوا على النضال حتى الآن . لذلك يتاجر أعداؤنا بنا . لكن الكلمات لا تشقّ الطريق الصخري الى واحة إنسانية ، لا تشقّ سوى حلوق قائليها » .

ويكون علي طوال الوقت منصتاً متفحّصاً . بطريقة ما ترهبه الطبقة العاملة ، رغم إيمانه بها . لوهلة يخشى أن يكون انفصل عنها ، ثم ينفض الخشية من قلبه . يتحيّر أمام المستقبل الذي ستصنعه رؤوس متلاصقة حاشدة . لو انطلقت شرارة من كلّ رأس فأي حريق سينتشر في هشيم العالم . كيف ياترى ستكون ألوان الحياة ؟ يقول : « هذه مرحلة وستمرّ . هذه منطقة أزمنت فيها الصراعات منذ أيام الأكاديين . لكنها استمرت . ليست قضية عرقية . أنا أتكلم عن شخصية حضارية مستمرّة . قوانين حمورابي ، أبجديّة أوغاريت ، فتوحات نبوخذ نصر ، ثم نحن ، أعني حضارة العرب .. هذه كلها الشخصية العربية .. » .

يعتدل إمام في جلسته متحمّساً : « هذه هي المشكلة · لماذا لا نستوعب تاريخنا برؤية علميّة جديدة ؟ الشعب لا يعرف منه سوى الأمر والنهي · والمثقفون شغلتهم الهزء به والتندّر عليه · معظم ما نعرفه عن تاريخنا خليط من كتابات مغرضة دسّها علينا الامبرياليون الأوروبيون · ونحن نعرف عن أخيل أكثر مما نعرف عن سيف الدولة ، وعن ارسطو أكثر من المعتزلة · نريد باحثين يدرسون تاريخنا بحسب قوانين علمية ، يخلصوننا من النظرة الرومنتيكية والغيبيّة والنظرة الهجائية · نريد أن نعرف عن التيّارات الخفية ، التي تحت ، التي كانت تحكم تطوّر حياة العرب · العرب أمّة عظيمة ، ولهم مكانة بارزة في التاريخ · ولكن لماذا طغت أخبار التجّار والجواري على معاني حضاراتهم الخالدة ؟ » ·

يقول عليّ باسماً : « في هذه الحالة سأريك مسوّدة كتاب خربشتها عن ظهور الإسلام » ·

ينهضون الى رفوف الكتب · وتقبل أم خلف باطمئنان أكيد حاملة فناجين القهوة · تغيم بقعة الضوء وتتضح ، مثلما تفعل الحقيقة في أذهانهم · لعل اليقظة عمليّة متقطعة أيضاً · قد يفيق الجسد ويبقى الوجدان شائلا في جوع الحلم · وهؤلاء قوم يحبّون الحياة ، هؤلاء المتسوّلون أمام عتبات التاريخ · يمتطيهم الجوع فيمتطون الحلم : تحملهم أراجيحه عالياً فيفتحون أفواههم للمنّ والسلوى ، ثم تهبط بهم نحو الأرض لينفذ في مسامهم الغبار والرمل فترفعهم الى الخلف ، تعيدهم الى ذلك الأعرابي الذي احتال على فارس في قلب الصحراء فسلبه حصانه وهمّ بالرحيل فناداه الفارس وتوسّل اليه : اذا سألك الناس فلا تقل إنك سلبتني حصاني وإنما أعطيتكه ، لئلا تموت المروءة بينهم ، الى ذلك الأعرابي الذي أعاد الحصان خجلان نادماً ·

وفي الحادية عشرة والربع يعلو صوت المذيع مبشّراً بموجز الأخبار : عدوان اسرائيلي جديد على جنوب لبنان ، الطائرات الاسرائيلية تقصف مخيمات اللاجئين ، لبنان يتقدّم بشكوى عاجلة الى مجلس الامن ـ وزير الزراعة يغادر الى (الحسكة) ليشترك في ندوة توعية لجماهير الفلاحين ٠

واذ ذاك تهبّ الريح في الفضاء وتهزم بصوتها الحادّ اللزج ٠ تنفخ في الغيوم وتشرّدها ٠ تنّحي عن أرض البهو بقعة الضوء الصامتة ، تعود ، تمّحي ، تنبش ٠ تزحف من مسقطها وراء الزمن المنسل ، هاربة ببطء من عتبة الذاكرة الى مكان مجاور ، فآخر مجاور ، دون أن تنهض عن الأرض ٠

وعبثاً تطلب عائدة من أمّها الا تجلس على الأرض ٠ وتنهض أميّة متأفّفة من الإلحاح ، تدور في البهو العاتم ، تقف أمام لوحة رديئة ٠ تبتسم عينا أمّ حسن في العتم الراكد ، تقول بحرج وإصرار ، مبرّرة جلستها : « أح ! برودة طيبة ٠ فطسنا من الحرّ ٠ » تتحرّك أميّة الى النافذة : من خصاص الابجورات المغلقة ينبجّ في الفضاء فيض الضوء القانظ ، ويتسلّل الى وجهها فيشطبه بخطوط منيرة ناحلة ٠ وتصمت النساء الثلاث ٠ وجوههنّ تنبىء بين الحين والحين عن برم وحيرة ٠ دائماً يفسد الحر استمتاع الإنسان بالصيف ، والبرد استمتاعه بالشتاء ، وريح الخماسين استمتاعه بالربيع ٠ والخريف ، آه من الخريف ٠ لولا بطاقة الشيخوخة التي يحملها على ياقته لكان زماناً ممتعاً ٠

عائدة تنصت : وجهها كظيم ويدها تحت ذقنها ٠ أحيانا تضطر الى الابتسام، ونادراً ما تقول ٠ فجأة تندّ عن أميّة آهة ثم تنطفىء ٠ تقول لعائدة : « أخذت نفساً عميقاً ٠ رئتي لطمت بأضلاعي » ٠

تسألها عائدة : « صار شيء جديد ؟ » ٠

تجلس : « ما سمعتم الاصوات ، البارحة ؟ » ومثل امرأة عجوز مرّ على حكايتها دهر ، تقصّ لهما كيف انبسط أنفها في الليل الفائت فالتصق بوجهها إثر لكمة جيّدة التسديد من قبضة نوّاف العجينية ٠ تمدّ يدها بحركة متقوّسة لتصوّر لهما اختباءها تحت الطاولة حيث جعلت تنذر نوّافاً أن يترك المسدّس ٠ هناك أصابتها لبطتان أو ثلاث ــ لم تعد تذكر ــ فشكرت النجار الذي صنع الطاولة عريضة ليتقلّب تحتها الانسان وكأنه تحت سقف فسيح ٠ لكن الحماية لم تطل كثيراً ٠ طارت الطاولة في الهواء وأقعت على قائمتيها الخلفيّتين ٠ وهكذا انكشف الغطاء ، وبانت الأرنب المسمّرة العينين على قامة متمملقة تنزّ وحشية ٠ اقترب منها نوّاف بطيئاً مصمّماً ٠ وضع المسدّس جانباً ٠ اقترب ٠ أطلّ عليها كالذئب ، فيما هي تراقبه بعيني فأر مذعورتين ٠ وإذ مدّ نحوها ذراعيه وثبت اليه كالنابض فطوّقت بيديها رقبته وبساقيها ظهره ٠ ولكن عبثاً ٠ نترها من مكمنها في العرين وقذف بها فألصقها بالجدار : من هو عشيقها ؟ ولم تكن في وضع يسمح لها بالإجابة ، اذ أحسّت حينذاك بفرقعة في ظهرها ، ثم بأخرى في دماغها ، وأخيراً في حوضها عندما انحل الصمغ وسقطت على الأرض ٠ الخلاصة : بعد وقف إطلاق النار ، تفحّصت نفسها وإذا الخسائر على النحو التالي : أنف بودرة ، عجنته وفكّته عن وجهها وأعادته الى ما كان ، ضلعان توجّها نحو الاحشاء ولم يستطيعا العودة ، كلية سقطت بين الأمعاء الدقيقة ، كتفان محدقان بالأذنين ، دم أزرق ٠٠

تكفّ عن الحديث ، فتكفّ عائدة عن القهقهة ، وتبلع أم حسن ريقها ٠ ينضمّ اليهن الصمت مقطوعاً بتنهّدات خفيفة ٠ تحسّ أمّية بسائل ساخن يتسلّل فوق جفنيها ٠ ترمي رأسها على جذع الكنبة وتغمض عينيها ٠ تنتبه عائدة

الى حركتها ، وترى خطي الدمع على الخدّين الأبيضين - تهتف : « أميّة ! لا • الآن كنت تضحكين ! » تنهض وتقف أمام صديقتها • تعقد ذراعيها على بطنها : « أميّة • لا تزوّديها • » •

تزنخر أميّة ، وتبتسم • وتلمحها أم حسن فتغتنم الفرصة التي انتظرتها : « الحقّ عليك • » وتصمت منتظرة استفساراً • تفتح أميّة عينيها وتنظر الى محدّثتها : « هكذا يا أم حسن ؟ وأنت ضدّي ؟ » تقول المرأة الوقور : « لا • أنا معك ، بس الحقّ عليك » وتنتظر استفساراً ثانياً •

« أنت معي ، والحقّ عليّ ؟ » •

« اي ، » تقول أم حسن ، وتنظر الى محدّثتها لتتأكّد من اهتمامها التامّ ، ثم تقدّم حلاًّ جذريّاً : شيء من آثار نوّاف ، خصلة مما يعلق على مشطه ، مزقة من آخر ثوب لبسه ولم يغسل ، تأخذها الى الشيخ ويفضل العلامة الشيخ كامل ــ مع اسم الأم ، وسيسحب قلمه الكوبياء ويبلّه بريقه ليمتزج بأنفاسه ، ويكتب لها حرزاً مكيناً تعلّقه فوق الباب الذي يعبر منه نوّاف في مجيئه ورواحه• وسترى أميّة • سترى كيف يصير بين يديها كالنعجة • سوف يسلّمها راتبه أول الشهر ، يخصّها بالهدايا ، يقصر نظره عن جميع نساء الأرض ، يأخذها الى أيّ مكان تشاء ، يساعدها في شغل البيت ، يصنع قهوته بنفسه ويملأ كأس الماء بنفسه •• باختصار ، سيكون خاتماً في بنصرها •

تقول أميّة وقد مسحت وجهها وعينيها : « بودّي يا أم حسن ، حرز يلطسه • ماذا أفعل به حول إصبعي ؟ وزنه ثمانون كيلو • » ثم تطلب منها أن : « جيئي بحرز لابنتك عائدة ، ما دام هكذا » •

تتحفّز أم حسن لدعم حكمتها • تعقد ذراعيها تحت صدرها وتعاتب

أميّة : « أنت تسخرين . لو تعرفين ما جرى لبنت الآغا مع الفلاح المرابع ، لما سخرت . وهذه قصّة صارت قدام عيني . كنت طفلة يوم صارت » .

وتحدج أميّة بنظرة ثابتة انتظاراً لفضولها . لكن الانتظار يلتقي بعينين لعوبتين ووجه باسم مُضّغ . وترى أميّة أن الأم تتوقّع منها سؤالاً . تقول : « وماذا حدث لبنت الآغا والفلّاح المرابع ؟ » .

إنها ليست قصّة من ألف ليلة وليلـة ، تقول أم حسن . قصّة حقيقية ، حدثت في طفولتها وشاهدت فصولها بأمّ عينيها . وهي قصّة تحدث بين الفلاحين لانهم يؤمنون بالله ، يخشون كلمات الله المكتوبة . الخلاصة ، حتى لا تطول السيرة . كان في الحارة الشمالية من الضيعة عائلة فقيرة ، تعيش من الفلاحة مثل بقية الفلاحين . وكان الأب والأولاد يشتغلون على الأرض بالمرابعة ، يعني يأخذون ربع المحصول على البيدر . ووقع المحذور فاحبّ ابن الفلّاح ابنـة الآغا ، وكانت ستّ زمانها في الحسن والجمال والدلال . ولكن كيف يتزوّجها وهي بنت سيّده ومخطوبة لابن آغا آخر ؟ وضعف الولد ، فاستحلفته أمّه ، فباح لها بالمقدور . وكانت الأم تحبّ ابنها زيادة لانه الابن البكر . وهكذا حملت حالها وراحت الى قصر الآغا . صارت تخدمهم ليل نهار . أخيراً تمكّنت من الحصول على خصلة صغيرة من شعر البنت المقصوص . وأسرعت بها الى الشيخ كامل مع شوال حنطة ، فكتب لها أقوى حرز كتبه في حياته . ووضعت الحرز في دمية جميلة خاطتها بنفسها . دمية أرنب من الصوف الانكليزي لها عيون وفم ، ورافعة رجليها أمام وجهها هكذا ، وقاعدة . وبعد أن حاكت الدمية حملتها الى بنت الآغا . « حبيبتي » قالت لها ، « جئت لك بلعبة ، تجلب السعد . حطّيها في غرفة نومك ، صوب السرير . لا تحرّكيها ! خلّيها تتطلّع فيك . » وتلقّفت الفتاة الدمية ضاحكة ، وتفحّصتها ، بينما قلب الأم يخفق

هلعا · « إه · وبلا طولة حديث ، » وضعت الدمية مقابل السرير ، وبدأت شغلها مثل دقّات الساعة · ذهبت الأم ، ومرّت الأيام والأسابيع ، والأم والابن ينتظران صامتين ساكتين ، لا يأتيان بحركة · « يرجع مرجوعنا لبنت الآغا ، » فمنذ تلك الساعة لم تعد تعرف النوم · تأرق ولكن لا تتعذّب في أرقها · كانت تفكّر في الفلاح المرابع · الأكل مثل الناس لم تعد تأكل · والمهمّ ، بدون إطالة ، في يوم زواجها ، وفي ساعة الدخلة · يأتي اليها عريسها · يتناول عنها ثيابها · ولكنها تحس بشيء يأكلها من الداخل أكلا · شيء يحملها عن الأرض · تركت عريسها وهي بقميص النوم · وركضت · طلعت من القصر وهي تركض · وظلت تركض حتى وصلت الى بيت المرابع · وتعرفين بيوت الضيعة · بيوت وخشب لكن الطين كان أحسن من القصر عندها · فتحت الباب · ودخلت وارتمت عليه وهي تصيح : « أنا امرأتك بعهد الله » ·

تصمت النسوة · تتناجا أمّية أن القصة انتهت ، وقد ظنّتها طويلة ومتفرّعة كمسلسلات التلفزيون · وللتوّ تنزلق الحوادث من واعية عائدة وتغيب ·

تتقّل أم حسن عينيها بين المرأتين منتظرة تعليقاً ومرفرفة جفنيها · تنتبه أسمى الى رغبتها فتضحك · تقول لها : « والعروس ، ألم يبطل مفعول الدمية فيها ؟ هل جاءت والدمية معها ؟ » ·

ينتاب العجوز الضيق · تشرع في سرد مزيد من الحكايات ، ووراء صوتها ينبر احتدام نصف ملجم · حكاية وراء حكاية ، حتى يتهدّل المرح من وجه أمّية وتلتصق عيناها بوجه محدّثتها الرصين · « أنت يا أم حسن ، بئس حكايات ، » تقول لها ، وتنهض متمطّية متهيّئة للانصراف ·

ومن ليس ؟ والحياة بساط منسوج من احلام طفولة لا تشيب وتجاعيد شيخوخة لا تموت ·

زيّهم زيّ دمشق ٠ قديمون مثلها ، وجديدون ٠ وهي مدينة لبست ثوباً حاكه طول الأمد ، طيّبته رائحة الياسمين ، عرقت فيه التكايا ، زركشته المباني الحكومية والخمّارات ٠ تغلغـل النهر فيها صغيراً عكراً وملأ عروقها بالدم النقيّ ٠ وهي كالنهر ـ تنبع وتصبّ وتبقى حيث هي : نهراً يغزل الحكايات كطفل يلعب تحت الشمس والريـح والمطر ، ويعبر بهذه الطحالب الى مصبّ النسيان كشيخ تكوّر وجهاه ٠ هي النهر ٠ وهي قاسيون : كتلة نتات من جسد الطبيعة ، وتعرّت عرياً قاحلاً ، وجاعت ، ومن هناك أطلّت على السهل الخصيب المتّصل بأفق الصحراء ٠ وهي السهل : تربة يذروها في الصيف مارد الخماسين وتعجنها في الشتاء الأمطار ، تعطش فتتفتّت رملاً شيطانيّ الأذى وتشرب الماء فتستنقع ، وفي عطشها وارتوائها تكتسي بالشجر والزهر ٠ وهي الصبيّة بنت الرابعة عشرة ، المتألّقة في شارع الصالحية : على رمشها مثقال ذرّة من الكحل أو مثقالان ، وعلى شاشة عذارها صور محتدمة حارّة ٠

ليس في دمشق حياة ، يقول سليمان ، بـل مزيج من حياة الموت وموت الحياة ، موت في موت واستمرار للمادّة الصمّاء ٠ ألف عام آسن عبر قلبها وترك فيه طميه الثقيل ٠ وقبل الألف آلاف ٠ لقد أناخ الزمن عليها وأبهظها وعشّش فيها ٠ وها هو ذا : في منكبيه يتكلّس التاريخ ، تتحجّر الصيغ ، تتقمّص العلل ذواتها ، تتشابك العلاقات الخانقة ، تمدّ الأخلاق ساقيها المترهّلتين وترخيهما على قلبه الموحل الصغير ٠ واللغة في أفواه الناس تجعل اثنين واثنين تساوي خمسة ، مئة ، والعمل يجعلها تساوي صفراً ، والشعور سديماً ٠ والناس أجهزة تلفزيون حكّاءة ، بل يعبرها الحكي ، آلات وأشرطة معقّدة صنعها الزمـن وليس الوعي ٠ ليس في دمشق جمال الشيخوخة ولا رقّة الصبا ، فيهـا بيوت الطين المتوارية كعاهات نفسية ، والعمارات التي تنهض بسرعة وتهرم بسرعة

كي تناسب هذا العصر السندويشي العجول . مدينة تفتقر الى الكهولة ، أولادها الذين في الأربعين مراهقون ، والذين في الستّين مراهقون أيضاً ، والذين في العشرين شيوخ عصبيّون ، والذين في العاشرة شيوخ أغبياء .

خليط محيّر من الطفولة والهرم ، الحلم الزاهي والواقع البلقع . هـذا صحيح ، يتمتم شيش بيش متأملا دمشق من (ساحة المهاجرين) المطلّـة على المدينة . يعود بكرسيّه الى الوراء فيلمح ابنته مقتربة ويدها ممدودة بالزجاجة . « خلصت الكاوززة ، بابا ؟ » يتناول منها الزجاجة ، وقبل أن يغرق أصابعه في شعرها الهفيف تفرّ عائدة الى صويحباتها وهي تحجل خطوتين على كل قدم . يتأمّلها بشغف وابتسامة : أجل ، هذا صحيح . فقط لو أن أمّها لم تمت . لو بقي لهما ذلك الوجه المنير الجميل ، لكان هذا الغروب أرضية لحضـورها الدافيء ، وهذا العمر السائح مدوراً ومزنراً .

وتعبر ذهنه صور تقاطعت وتآونت عن شابّة وطفلة وكهل ، يفيضـون بلذاذات أعمارهم . ثالوث الحياة المتشابك الجميل . ثالوث من أناس لـم تتشكّل نفوسهم بعد ، لم يتغلغل فيها التاريخ مذ أفاقت على وقع أقدام القرن العشرين . ولأجـل ذلك يحسّون الحياة طولاً وعرضاً ، يعيشونها ارتفاعاً وعمقـاً .

كهل ؟ أجل . أحياناً يشعر بالكهولة . شيء ما في كينونته يغيض ، يترك وجهه وصدره وخياله ، يبتعد أحيانا حتى ليخلف إحساسا بالانتهاء ، أو يلبث قريباً منه مبتسماً بضجر : مثل صديق قديم عرف عنه كل شيء .

ينظر الى ساعته : حان وقت الذهاب الى العيادة . يشعر بأسف خفيف لأنه سيترك هـذا المشهد الوادع المريح . ثم يبتسم : والبديل هو أسنان النـاس

الخربة . ولكن ، العمل . ينهض وينظر الى حيث ابنته تلعب فيرى سليمـان متقدّما بهدوء بين صبيّة وعجوز .

لأوّل مرة منذ زمن طويل يقف متأمّلاً سليمان . فجأة يبدو هذا الصديق وكأنه اتّخذ شخصيّة جديدة . إنه الآن أحد أطراف ثالوث مشابه لما كان شيش بيش يفكّر فيه قبل لحظات . ولكن ثمة ما هو أكثر من ذلك : إنه ثالوث متنافر، وسليمان يبدو كئيباً . بل لعلّه كان كئيباً طيلة عمره ، وإنما شيش بيش لم ينتبه . وتتعرّض ابتسامته .

تميل سلمى الى خالها وتهمس : « هذا هو صديقك الدكتور ؟ هيئته مخيفة » يقهقه سليمان بقوّة ، ولكن للحظات فقط : « أنت لا تعرفينه . هذا أكبر مهرّج في البلد . » ترنّ الكلمات الأخيرة في أذني شيش بيش فيضحك بلا صوت . يراقب سليمان وهو يقود الاثنتين الى طاولة ثم يقبل اليه .

يتصافحان بمودّة وكلمات قليلة . « أنا تارك لك المكان ، » يقول الدكتور ، « استمتع بالنيابة عني . » يهزّ سليمان رأسه : « ليس مع هاتين السلحفاتين » . وبعد وهلة يضيف : « في الحقيقة أنا أكره المساء . فيه ثقل وكآبة لا تطاق . أنظر ، كيف تبدو المدينة . كأنّها جدران ملطّخة بالسخام والهباب » .

المساء . هناك شيء غريب في المساء . عندما يجلو الضوء عن الزوايـا والتكايا والساحات ، مخلّفاً وراءه فراغاً متزايد السواد ، تتأبّط الناس رغبة في الخروج : من أين والى أين ؟ لا يعرفون تماماً . الملك يحاول أن يعرف . في المشيّات يجلس وقد استحضرهم في ذهنه كرعايا مطاعين ، ويفكّر فيهم : هؤلاء الذين يحبّهم ويغضب منهم ، يكره غفلتهم ويتوجّع لشوقهم وجوعهم . ما الذي يكتبه عن حجمهم الصغير الضائع في الكون ورائحة عرقهم الأليفة ؟ يتعبونه حتى ليخيّل اليه أنه معلّق في الفضاء ، أو مرميّ على سطح بردى . .

إنه المساء الدمشقيّ ، مدّ من الصحراء المختبئة وراء البساتين : غبشة تتظلّل فيها التّلال الجرداء بلون أقلّ دكنة ، كأنها تركت لمثل هذه الساعة بقية من الضوء المنسحب · وهم لا يعرفون ماذا يحدث · لكنهم يشعرون أن هـذا الشيء المنثور من الشمس قد مضى وأن هذا اللاشيء القادم من لا مكان قد حلّ محلّه · لعلّه الخوف من الفراغ ، أو من الغياب · لعلّه شعور بالضيق والحصار · لعلّه رجع غافـل لعبادات قديمة ترعرعت يوم اقترنت مخافة المـوت بحلول الظلام · إنهم يخرجون ، يتقاطرون الى الشوارع كتفاً لكتف وصوتاً لصوت · يحتشدون · بعضهم صامت ومعظمهم يتحدّث · يخترقون الشوارع بنصف انتباه ، غير آبهين لحركة المرور ولا لأضوائه · وتنفخ أبواق السيارات زاعقة بهم أن تنحّوا · تقطع عليهم مسيرتهم عربات شاء سائقوها أن يجعلوا مـن الأرصفة مرآبا · يتجمهرون أمام حوانيت الشطائر ، كأن مادة الأكل حقيقة تطرد هاجس العتم من نفوسهم · وأمام دور السينما ، ومحلّات الأزياء ، وباعة الحلوى والذرة المشوية ، والكتب والمجلّات المعروضة على عتبات الدكاكين المغلقـة · وتخفق التّنّورات الزاهية والصـدور اليانعة واليافعة · تلمع المستحضرات على الوجوه ، والكحل على الأجفان اللاقطة الناعسة · هنا وهناك تتشكّل معارض للرجولة والأنوثة ، تلتئم على رصيف ما ثم تنفرط ، لتنعقد من جديـد على ناصية أو تتحرّك على امتـداد شارع طويل · الرغبات · الأماني · العيون العدوانية والعيون المتحسّرة · والمشغولون بالسياسة ومصير الأمّة العربيّة · والحانقون حتى الموت على الفجور والتعهّر الماثلين في الثياب القصيرة والسجائر المتدلّية من شفاه لم ينبت حولها الشعر · عوالم تتداخل كغمائم غبار وتنفلش ، لكنها لا تنتهي أبداً لأنها تنفغم من الداخل · يصير المساء مهرجاناً · يصير طقساً وثنياً يذبح فيه الزمن ولا نيران ، ويمشي الناس علي إيقاعات أشواقهم الواهجة ·

يمرّ المساء • ويمرّ الليل • لكن نوبتهما في النفس لا تنتهي •

ألا أيّهـا الليل الطويـل ألا انجلِ   بصبح وما الإصبـاح منك بأمثـلِ

يبتعد العتم الى مكان آخر من العالم ، الى قوم آخرين • ويهبط الخوف تحت شقوق غائـرة في الضلع المثقل بالمساءات • ثمـة شيء غريب أيضا في الصباح • عندما يستيقظون ، يستيقظ الماضي أيضاً ويلحق بهم : يضع الصباحَ حمرةً ومساحيقَ على وجهه الحرباوي ويلحق بهم • وهم قوم ضربت جذور لغتهم في الفعل الماضي ، ثم صنع الحاضر منها صناعة • في الصباح يغدو المساء طللا يحملونه تحت آباطهم وينجرفون معه باتجاه الزمن الآتي • لا يرونه تماماً ، لأنه مرتسم على شبكيّة أخرى غير التي يرون بها العالم النهاري • لكنه بين حين وحين يزيح برأسه كومة النسيان وينبثق • يطلّ حاملاً شوقاً مشرشاً أو عبثاً زمنياً سئم منه حتى زهير بن أبي سلمى •

لقد كانت تكاليف الحيـاة مضيّعة دائمة للعمر ـ يفكّر عباس وعينـاه مسمّرتان على شقوق النافذة المقابلة : لهذا تنهض هذه الفتاة الرقيقة في السابعة من صباح عمرها ، وجهها مرشوش بالتعب وعيناها بالنعاس • لقد اعتقد دائماً أن سوأة هذا العالم هي الضرورة ـ ضرورة العمل لكسب العيش ، والعمل لتزجية أوقات الفراغ • في هذا الصباح الجميل ، يغدو الناس ويروحون متعبين عرقى ، ضاربين في الأرض ، متغضّني المشاعر • يعبرون فيلقون في خاطره فيضاً غامراً من الإشفاق والعطف • وتدفدف عيناه عبر الشقوق الى الفتاة المتعبة : أنظروا اليها وهي تتعرّى فتثير الشهوة والإعجاب والصدق ، ثم ترتدي ثياب العمل فتنفض عنها الهالات ، تغدو شيئاً • وعبّاس لا يحبّ ذلك •

هذه الفتاة التي تثبت الآن حمالة ثدييها ، أيّ شعور أعمق من الخوف يمكن أن تشعر به وهي تسرع كل صباح كي تصل الى عملها في الوقت المحدّد ؟ عليها أن ترتدي ثياباً لائقة وتبدو منشرحة الوجه · وعليها أن تجد زوجاً · ولكن ماذا بشأن لياقة النفس وانشراح الفؤاد والسعادة ؟ كلا ، هذه حياة لا ترضي عبّاساً · لا يعجبه ما يدعيه الماركسيون من أن العمل مطهرة للنفس · ويحرك ساقيه على الكرسي الثاني فينال مزيداً من الراحة ، ويتكىء بذراعه على إفريز الشرفة · لقد جعل الماركسيون من الضرورة ناموساً ومن العبودية طيلسانا · يجب أن تكون حياة الإنسان مكرسة للأنبل وللأجمل · الاشتراكية الحقيقية تعزّز تلك المعاني العظيمة · وتجتذب عينيه حركة متسرّقة على الشرفة الأدنى ، فيمطّ رأسه : أميّة ! تهبط عيناه على منحدر الصدر ، تستقران على الخطّ الغارق بين النهدين الخافقين · تطأطىء أميّة فترتسم تقاطيعها تحت ثوب النوم · تتناول قميصاً وتنتصب · يعتدل عبّاس فوراً ولكن بلا اضطراب · بعد كلّ شيء عليه أن يبدو رصينا / متمدّدة على سريرها مغمورة الوجه بشعر مموّج كالبرق · ما الذي سيحلّ بها ، وبابنها وبنوّاف أيضا ؟ يجب أن يكون هناك من يحميها ، يحدب على هذا الجمال الأنيس ويحتضن براءته · الوجه النبيل : الوادع أثناء النوم ؛ اليائس الوجل في النهار · لهذا تقوم الثورات · كي يجدّد الإنسان ذاته وينعم بأشواقه · يتخلّص من تكاليف الحياة · ينتهر الضرورة ويعيش حرا · ينساب في الوجود/ متمدّدة على سريرها / أعضاؤها تتحرّك بسهولة وانسياب فتلامس وتلتصق وتطوّق / تهرع بذراعيها كطفلة / تستوعب كامرأة / تضمّ كأم رؤوم ·

يرشف ثمالة قهوته ، ويمجّ النفس الأخير من السيجارة · يخطر له أن ينظر الى الأسفل متفقّداً مجيء السيارة ، ومستطلعاً وجود أمية على الشرفة ·

يبتهج للإصابة المحكمة · منذ طفولته وهو يبتهج لإصابة عصفورين بحجر واحد ، أحدهما مطلوب والآخر تغطية · صحيح أنه يكره التبرير ، يؤمن بشرعية أشواقه ، ويريد أن يندغم داخله بالخارج فلا تموت خلاياه جوعاً · لكنه ليس طفلاً يسارياً كي يخرج الى العراء ويقاتل الثعابين · كلا · اللاعب الماهر من لا يكشف أوراقه دفعة واحدة · واذ ينهض مسوّياً وضع ربطته تطفو على ذهنه فكرة حزينة : لقد وصل به العمر الى تلك المرحلة التي يتمكن فيهما على الإنسان أن يخفي مقداراً من حقيقته عن الناس جميعهم · ينزل الدرج وبقعة الاسى تزداد انتشارا · ففي ذات يوم آتٍ قد يكتشف أنه أخفى حقيقته كلها · لقد مدّ الآن خطوة واسعة نحو الموت ، أما في ذلك اليوم فسيكون الموت نفسه · الى جانب السيارة يجد الشرطي المرافق واقفاً بتصلّب ومهابة وقد فتح لـه الباب · يحيّيه مصافحة ، كالعادة · وكالعادة أيضا ، ينتبه الى انتباج سترته فوق المسدس المحشوّ · يدخل ويسلّم على السائق · ينغلق الباب بلطف · ها هو ذا بين جدران محمولة على أربع عجلات ، ووراءه على الزجاج الخلفيّ الستارتان المميزتان لرجال الدولة · صورة أخرى من صور الجلال والموت ·

ولكن ، كلا · ما تزال بينه وبين الموت مسافة واسعة · تنطلق السيارة ، وبعد ثوانٍ تمرق كالسهم عبر شوارع المدينة المفيقة · توقظ الحركة فيه إحساساً متزايداً بالحياة · الاشجار الجميلة المدروزة على الأرصفة · شعاع شمس الصباح المتوهّج كخدّين عاشقين · وهو ذاهب ليلتقي بوجوه الفلاحين البريئة · ما أحلاها عيشة الفلاح ، مطمّتن باله ومرتاح ــ يتمرّغ على أرض براح ، والخيمة الزرقا ساتراه · وظيفته أن يصنع الحياة · قبل شهور قرأ عبارة للطبيب النمسوي الشهير فرويد تقول إن في الإنسان نازعي حياة وموت

يصطرعان باستمرار • وعبّاس يعتقد أن هذا صحيح ، ليس فقط بالنسبة للأفراد ، وإنما بالنسبة للأمم ايضاً • والأمة العربية مثال واضح • لو أن كل رغبة لُبّيت • لو أن كل أمنية تحققت • لو يشبع الإنسان جوعه الدهريّ • أناس كثيرون لا يعرفون حقاً ما اذا كانت يقظتها الحاضرة فيقة الموت أو معانقة الحياة • هو يعرف • الأمّة العربية ليل كموج البحر أرخى سدوله على عبّاس ليبتليه بأنواع الهموم التي تحملها معانقة الحياة • هذا هو قدره • تلك هي صناعة الثورة •

من مسافة لا بأس بها يشاهد ذلك الموج • وعندما تقف السيارة يشعر أنه قد صار في وسط اللجّة المترجّحة • عشرات الفلاحين تحرّكوا في أماكنهم انتظاراً للوقوف • على وجوههم تعبير وظلال ، تكشيرات محبّة وتوقّع مرتاب • يفتح الباب ويخرج ، فتمتدّ اليه الأيدي الخشنة المخدّدة • يفيض في صدره شعور خانق الفرح • يحسّ أنه بعض من كل منهم ، مرتبط بهم الى الأبد ، متحقّق فيهم •

هناك فرق بين أن يتكلّم المرء في الثورة وأن يعيشها • في السنة النهائية من دراسته ، كان يخرج مع الطلاب الى الشوارع ليهتف بسقوط الدكتاتورية العسكرية • كانت أياماً مجيدة طافحة بالحيوية والإيمان • وكان يرفض إنهاء المظاهرة إلا معتقلاً أو مبحوح الصوت • واذا ظفر بكلا الاعتقال والبحّة أحس أن وساما يخطف ضوؤه الأبصار قد تعلّق على صدره • لقد تكثّف العالم يومذاك في زنزانة رطبة مظلمة فاقت قصور الخلفاء جمالاً وعزّاً • وكان الشرطي يأتي بمقصّه الصدىء فيدسّه في شعره ويجدع ، صانعاً من رأسه خريطة غريبة التضاريس • الا مرة ، كاد فيها الشرطي أن يجدع أنفه • لقد حاول عبثا أن يشرح له حقيقة الامر ومعنى النضال : الطلاب يتظاهرون من أجله ، من أجل أولاده وكرامته ، كي لا يكون زلة للسلطة • وتحت سمرته الغبراء ، استشاط

ويكفله شخصياً ٠

الآن تغيّر كل شيء ٠ لأجل تلك الصفعة ــ هي بالذات وليست الصفعات السياسية ــ تعيّن على الثورة أن تنظم برنامجاً متواصلاً لتوعية الفلاحين والعمّال ، الكادحين جميعهم ، والشرطة أيضاً ٠ يجب أن تعي الجماهير الشعبية قضاياها المصيرية وتكون على مستوى المسؤولية التاريخية الجسيمة الملقاة على عاتقها ٠ « أيها الاخوة ، » يقول لهم ٠ ويروي حكاية تلك الصفعة الباقي أثرها ، ليس على خدّه ٠ وانما على ضميره ٠ « يجب ألا يكون الكادحون أعداء لممثّليهم الحقيقيّين لمجرّد جهلهم بمن يمثّلهم ٠ » يلتفت أحدهم الى الحاضرين بحماس ويهتف : « يعيش المحافظ عبّاس ٠ » ويرددون : « يعيش ، يعيش ، يعيش ، » فيما ذراع عبّاس ترتفع محتجّة ٠ يخبرهم أنه لم يأت ليستدّ منهم هتافاً بل ليشحذ هممهم ووعيهم ٠ اذا كان لا بد من هتاف ، فينبغي أن يصدر عنه هو ٠ هو الذي يجب أن يهتف : « يعيش الفلاحون ، » « يعيش العمّال ٠ » فهؤلاء هم ملح الأرض ذو الطعم القويّ ٠ هؤلاء لحمة الثورة وسداها ، مدماكها القويّ ٠ من وجودهم تستمدّ الثورة وجودها ، ومن تحقيق أمانيهم تستمدّ الثورة استمرارها ٠ يجب أن تتعزّز البنية الطبقية للمجتمع ولعلاقات الإنتاج لأجل تحقيق الوحدة القوميّة ٠ والفلاحون والعمال هم القاعدة الصلبة الراسخة لهذا الانجاز التاريخي العظيم ٠

يلتفت الفلاحون الى بعضهم بعضاً بنظرات مستترة · يبتسمون طرباً وارتياحاً : هذه الكلمات الكبيرة ، كلّها لهم ! فليظهروا شيئاً من الامتنان ، ليكون الأمر كلمة حلوة مقابل ابتسامة حلوة · يركبهم الشعور بأنهم أشياء كبيرة ، كأن ثقلا لا طاقة لهم بحمله قد وضع فجأة على كواهلهم ، فتعيّن عليهم التصرّف بأهمية ورزانة · غير أنه ثقل محبّب ، يكاد يرفعهم عن الأرض بدلاً من أن يغرز أقدامهم فيها · لم يسبق لهم أن أعطوا مثل هذه الرفعة · تصوّروا أن الفلاحين مبرّر استمرار الثورة ! وهم لا يملكون بندقية ولا سيارة ولا قصراً ! حقاً إن الثورة هذه نعمة هبطت عليهم من السماء · وها هو ذا المحافظ يأتيهم بنفسه ويخاطبهم كواحد منهم ·

ولكن لماذا يمتدحهم المحافظ ، وليس لديهم شيء يهدونه له ؟ إنهم هم المحتاجون وليس هو · وتستمرّ نظراتهم الخاطفة في التنقّل المستتر المستخفّ · يقال إنه ابن فلاح مثلهم ، أي ليس ابن آغا · والفلاّحون يمتدحون بعضهم بعضاً في البيوت وعلى المصطبات · إلا أنه امتداح متبادل واعتياديّ ، وهم يعرفون صفته الهوائية ·

ثم يتبدّد ارتيابهم اذ يتمنطق عباس باللغة العربية · يحدّثهم عن الأرض التي سقوها بماء عروقهم فاخضرّت ، عن جباههم السمر التي لوّحتها الشمس وخدّدها التعب · هذا التراب الذي يقفون عليه يعرف رائحتهم ووقع أقدامهم · إنهم وآباءهم هنا منذ آلاف السنين ، ولن تستطيع قوة في الأرض أن تقتلعهم · لا الاستعمار ولا الصهيونية ·

وتأخذ عبّاساً شحنة العاطفة التي انبجست منه على حين غرّة · منذ يومين

وهو يحسب لهذا اللقاء ألف حساب . خاف أن تخذله الكلمات فيغدو أهزوءة أمامهم . خاف أن يتكلّم بلغة لا يفهمونها ، وقد صمّم على أن يخاطب عقولهم . ضرب أخماساً بأسداس باحثاً عن الأسلوب الأمثل للتوجّه اليهم . أخيراً حزم أمره على الكلام القليل والفعل الكثير : سيتحدّث الى الفلاّحين عن ضرورة تنظيم الجماهير الشعبيّة في اتّحادات نقابيّة ثم ينصرف الى معالجة مشاكلهم الأساسية .

وقد فعل . وها هو يخاطبهم راسماً على متن الصور ومنفعلا برنين الكلمات. اتّحاد الفلاحين ، أجل . لم يدر كيف تحوّل شوقه العتيّ العتيق الى أسلاك مكهربة تماسّت فأحدثت بهم مسّاً . وهم قوم يعشقون الفصاحة ويطربون للمثل العليا . يصيحون : « يعيش ! يعيش !! » وهو يرجوهم ألاّ يفعلوا . بعضهم ينسّق شاربه ، والآخر يهزّ كتفاً ليسوي وضع السترة . بعضهم يجد نفسه منساقاً باللجّة على مضض ، فيتمتم ويوحوح ، أو ينقل ارتخا ءعجيزته من قدم الى أخرى . وجميعهم يقرّ له بصدق العاطفة ، ويحيّون فيه الإخلاص والحماسة . ثم تنبثق الأصوات مؤكّدة لـه أنهم بلا الاستثناء سينتسبون الى اتّحاد الفلاحين .

لأن الجماهير الشعبيّة المناضلة لا يجوز أن تبقى بدون تنظيم . التنظيم يفجّر طاقاتها ، يدفعها باتّجاه الثورة ومقارعة الامبريالية والاستعمار الاستيطاني . « من سيراقبنا ويصحّحنا اذا أخطأنا ؟ » يسأل عباس . ويجيب : « أنتم . أنتم ضميرنا . ويجب أن نتعاون معاً لتحقيق أهداف هذه الأمة . »

أخيراً يدرك شهرزاد الصباح . ويشعر عبّاس بغمامة تنجلي عن ذهنه : لقد أصاب نجاحاً كاملاً . الآن يستطيع أن يبحث معهم شؤون القرية . يتقدّم

منه الساقي بدلّة القهـوة المرّة ويصبّ له ثلاث رشفات ، ثم يطوف أمـام الحاضرين · يحتسون قهوتهم بصمت طارىء ، فيما عينا عبّاس تتجوّلان في باحة القرية بلا تعيـين · يلمح الساقي مقبلاً نحوه مرّة أخرى ، فيهزّ يـده بالفنجان · ويطول الصمت اذ يجمع حامل الدلة الفناجين ·

يتنحنح أحدهم متهيّئاً للكلام · تلتفت اليه العيون · يمسح على شفتيه بتؤدة ويسوّي بذلك تناظر شاربيه · يبدو واثق النظرة ، دون أن يخصّ بها أحداً · « وعدتنا الحكومة ، » يقول ، ويصمت قليلا كأنه يستجمع شجاعة غادرته على غير توقّع · ينتظر أوبتها بلا اضطراب فيزداد توقّعه إرهافا · « وعدتنا الحكومة قبل شهور بتزفيت الطريق من (عكورة) لساحة البازار · ستةكيلومترات ، ما غير · بدون تزفيت ، لا درّاجة تقطعها ولا ترور · ونحن شغلنا عالدرّاجة والترور · بودّنا أن ننقل الخضار على بكّير ، وشوفير الباص لا ينقلها · نرجو من سيادة المحافظ أن يعطي باله لهذه المسألة الاضطرارية · »

على هـذا يجيب عبّاس : « معك حـقّ · بس آلات التسوية والتزفيت استعارها الجيش · يريد الجيش شقّ طريق عسكرية هامة · ومعلومك نحن في حالة حرب · لازم كلّ نشاطنا يكون في سبيل المعركة · كلّ الطاقات لأجل المعركة · قريباً ، ان شاء الله ، تنهي تزفيت الطريق » ·

ينهض أحدهم عن كرسيّه متحمّساً · لا ينتظر انتباهاً ولا إنصاتاً : « أبو لؤي ، أعزّك الله · دوّخنا مخطط الضيعة ، هذا الذي يحكون عنه · ساعة ، يقولون الشارع يمرّ من هنـا ـ يرتفع سعر الأرض · ساعة ، يقولون من هناك ـ يرتفع سعر الأرض هناك · وبصراحة ، أبو لؤي ، الله يديمك ، الناس تحكي عن رشاوى · أصحاب الارض الفلانية رفعوا سعر المتر خمس مرات ،

لشان أرضهم صوب المدرسة الجديدة • وناس خربت بيوتهم بسبب الهدم • لأن الحكومة هدمت البيوت ، لا تؤاخذني ، وما عمّرت غيرها • والضيعة ماعادت ضيعة ، يا أبو لؤي ، ولا عاد فيها شيء تتعرّف عليه • اي الله الوكيل ، الله الوكيل ، يمين بالله ، بعض الناس صار لها حسابات وشيكات في البنك » •

على هذا يجيب عباس : « يا أبو الطاهر ، مخطّط التجميل لم يتقرّر حتى الآن ، وكل شيء باقٍ على حاله • وأنتم لا تعطوا فرصة لتجّار الأراضي والمضاربين • لا تشتروا ولا تبيعوا • الأرض هي أثمن شيء نملكه • ابقوا في الأرض • الثورة لن تسكت على المتلاعبين بأرزاق الشعب • وستضرب بيد من حديد كلّ من تسول له نفسه استغلال الفلاحين • قريباً ، ان شاء الله سترى » •

يهتف أحدهم : « ومضخّة الماء ؟ » •

فيسأل عباس : « ما شأن مضخّة الماء ؟ » •

يجيب أحدهم : « طلعت أفندي يقول ، الماء في البئر شحيح • قال ، اذا سقينا أرضنا ، أنا وأبو راتب ، بقيت أرضه بلا سقي • وكنا متّفقين أن ندفع له • وآخر مرة بحبحنا له الدفع •• » •

يقاطعه أبو راتب وقد استاء من أن صاحبه أغفل الناحية العاطفيّة : « صارت أرضنا صحراء ، يا سيادة المحافظ • نحن حياتنا كلّها موقفة على هالأرض • شف البقدونس كيف صار • » ويسحب من جيبه باقة بقدونس فاتحة الخضرة متهدّلة الأوراق ، ويضعها على راحتيه بمحبّة كأنها بيضة يخشى عليها الكسر • « هذا بقدونس يا سيادة المحافظ ؟ هل تقبله على طاولتك ؟ لو الأرض مسقيّة كان هكذا طول الفرعة ، » ويشير بيديه •

يقاطعه فلاّح ثالث بنبرة واضحة : « ونحن لنا الحقّ في السقي • ندفع مثل غيرنا ، أبو لؤي • نحن الفلاّحين لنا حقّ في السقي مثل طلعت بيك • يعني لأنه يملك المضخّة ؟ طيّب ، ما نزل المطر السنة ، يعني راحت علينا ؟ » •

على هذا كلّه يجيب عبّاس : « مشكلة السقاية على مسؤوليتي • واعتبروا المشكلة منتهية • نحن نطالب الفلاّح بزيادة الإنتاج ، وواجبنا تأمين الماء لأرضه » •

تترك كلماته فيهم التأثير المطلوب : ذلك عقد وعهد وهم سعداء بالالتزام به • يهمهمون ويبربرون ، فيسترخي عباس في جلسته مرتاح البال • ينبثق أحدهم واقفاً ويصيح وسط اللغط : « سيدي ، والعلف والسماد ؟ » •

تتوجّه اليه العيون وقد صمتت وارتقبت • يتأمّله عبّاس منتظراً • « وعدتنا الحكومة ، » يقول بلا تلكّؤ ، « أنه في نهاية الشهر الماضي تؤمن العلف والسماد • الله يطول عمرك ، سيادة المحافظ ، عندي كم دابّة وقطعة هالأرض • حياتهم حياتنا • العلف مفقود والسماد مفقود » •

يسأل عبّاس مستغرباً : « مفقود، كيف ؟ أغرقنا السوق بالعلف والسماد !» •

يقول أحدهم : « سيدي ، العلف والسماد ، مفقود من السوق » •

وينهض آخر : « علف وسماد ، موجود ، أبو لؤي • بس السعر أربعة أضعاف • الحكومة مفكرة أنه الناس تشتري على قدّ حاجتها • الحكومة قلبها طيّب بزيادة • الناس راكضة وراء المال ، سيادة المحافظ • كل واحد معه مصاري يشتري ويخزن ، شهرين ، ثلاثة ، وتصير مصاريه ثروة » •

عندئذ ينظر الرجلان ، المحافظ والفلاح ، الى بعضهما بعضاً نظرة مستبطنة

تصف مكشوفة • يتساءل كلّ في سرّه عمّا يريده الآخر • وعبّاس يدرك جيّداً أن موسوعة السياسة والحكم تخلو من عبارة « حكومة طيّبة القلب » • يخزه وعي مهين بأن هذا الفلاح يضحك عليه ـ هذا الكائن العريض الحنكين • أيكون هذا اللقاء الثوري تهريجاً مقنعاً بالدماثة ؟ أو عورة مستورة بالألفاظ ؟

على غير توقّع يجلس الفلاح • تعبير ما على وجه المحافظ جعله يلتـزم الحذر • قد تكون الحكومة طيّبة القلب لكنها أقوى قوّة بعد الله ، ويحسن به ألاّ يزعجها •

وعلى هذا يجيب عبّاس : « الحكومة طيّبة القلب مع الطيّبين • مع غيرهم •• كما قلت ، ستضرب بيد من حديد جميع المتلاعبين بمصالح الجماهير الشعبية • إنما لا ننس أن الاستعمار يحاربنا بكلّ وسيلة ممكنة • وجماعة المحتكرين هؤلاء عملاء للاستعمار • يريدون تخريب الثورة • الثورة لا ساكتة ولا متفرّجة • هاتوا اسم واحد من هؤلاء وأنا أزجّه في بيت خالته • وقريباً سنزجّهم كلّهم بإذن الله • »

ينهض الفلاح ثانية ويصيح : « يعيش المحافظ ، يا ! » ويهدر الحاضرون : « يعيش ، يعيش ، يعيش • » ويصيح : « تعيش الثورة الاشتراكية ، يا ! » ويردّد الحاضرون : « تعيش ، تعيش ، تعيش » •

يشعر عبّاس أنه في حاجة لهذا الهتاف • لقد أصابه في الصميم هذا الجرس التحتيّ المرهف في عبارات الفلاح • ليس لأنها ضغطت على شوكة مغروزة في وعيه السياسي ، بل لأنها صدرت عن فلاّح • الفلاّحون ! رمز البراءة والصفاء ! يتكلّمون هكذا لغة ؟ يقولون عبارات مزدوجة المعنى ؟ يرتاح للهتاف • يرى فيه عودة عفويّة الى فطرة الفلاح البسيطة الصريحة ، تعبيراً عن الصدق • بعد

كلّ شيء ، كان فلاحاً واحداً فقط من تكلّم بهذا الأسلوب المخاتل الذي ينمّ عن معارضة للثورة : وها هو قد ندم الآن ·

عودة الى مخطّط القرية والبيوت المهدّمة · وتوكيد جديد بأن مصالح الفلاحين لن تضار · فجوة أخرى تفتح في النسيج الأثيريّ لحياة القرية ، ويتدفّق منها الاسمنت والخشب وموادّ البناء · متى تتجسّد هذه الكلمات وتغدو أشكالا ملموسة ؟ لم تعد بيوت الطين والتبن مبعثاً للرضى ، ولا الخيمة الزرقاء دثاراً للنفس البدويّة ·

وسؤال عن مشروع تمديد المياه الذي يترقّبه الفلاّحون بلهفة وصمت · عامان مضيا ، يقول أحد الفلاحين ، وهم ينتظرون · لم تعد الآبار تكفي ، يقول المختار ، بعد هذا الازدياد المخيف في عدد السكان ، وبعد أن نزل الجنود ضيوفاً في المنطقة · صحيح أنهم لايقيمون طويلا ولكن يأتي غيرهم · والأمراض، يهتف ثالث · مياه الشرب ليست صحّيّة ، والأطفال موبوؤون على مدار السنة ·

وسؤال عن إيصال الكهرباء · عامان أيضاً مضيا ، والتمديدات منتهية والأهالي منتظرون · لقد قال المحافظ ، عندما زار (سراقس) ، إن أساس نشر الحضارة هو الكهرباء والماء والمدرسة والطريق · أين الماء والكهرباء والمدرسة ، وأين الطريق ؟ متى تحلّ هذه الاشياء في (رأس العين) الملتحفة بالكفاف ؟

يفكر عبّاس ، بعد سيل المشاكل الذي تلا سيل خطابه التوعويّ : يجب أن تنجز الثورة نفسها ، والا ·· ماذا سيحدث ؟ يحاول أن يتخيّل وضعاً بشرياً يتهاوى اليه هؤلاء الفقراء اذا ما أعيت الثورة أصحابها · لا يتمكّن ؛ لأنه

لا يريد · يمكنه أن يتصوّر أيّ شيء إلا أن تفشل الثورة · وقديما تمنّى عمر ابن الخطاب أن يمدّ الله في عمره فلا يُبقي في هذه الأمّة غنيّاً ولا فقيراً · ثم ترك جمهور المسلمين الملتفّ حوله ، برماً على ما يبدو من ضرورة إهراق الزمن قبل إنجاز الاعمال العظيمة · ولكن أين الطريق ، يسأل عبّاس نفسه ، مكرّراً كلمات الفلاح الاخيرة ؟

يودّعه الفلاحون بالصيحات والهتاف ، وقد صار الوقت ضحى والشمس ساطعة · لكنه يلمس الآن في نفسه شيئاً من العكر · الفلاّحون ليسوا مطمئنّين ، لا مرتاحين ولا مريحين · بل إن شراويلهم وقنابيزهم نظيفة ، ويبدو أنهم لم يتمرّغوا ألبتّة على أيّة أرض ـ سوى أنّ أيديهم صلبة وخشنة ·

تنطلق به السيارة على ستة الكيلومترات المحجّرة الممتدّة · هذه هي الطريق ، يتمتم متعاطياً شيئاً من الرمزيّة · وأبو لؤلؤة يكمن في موضع ما منها · بل لعلّ هناك ألف أبي لؤلؤة ، وهذا الحارس لن يكفيه شرّهم على رغم استعداده لبذل الحياة · إنهم ذلك التاريخ المديد من التصبّن على حال واحدة ، وقافلة الألغام القاتلة التي بثّها الاستعمار تحت كل موطىء قدم · والجماهير لا تعرف كيف تكتشف الألغام كما يعرف الجنديّ المتمرّس · الجماهير ترغل في الأزمنة القائلة كحشد من القطا البري فتضع نفسها بدون فطنة في مرمى بندقيّة الصيّاد ·

مليون بشريّ منها يملأ مدينة دمشق · يفيقون فيدرجون على الشوارع والجادات ، في الدكاكين والمعامل ودوائر الحكومة · يشمّون الهواء ويزفرونه · يفرحون للصباح الصاحي ، ويوحوحون للمطر · يبتهجون بالحلوى والأسعار الزهيدة واللّغة العربيّة · يكدحون ويتسوّلون ويسرقون · يتجادلون وتحتقن أعصابهم · يعرقون في الأفران والمناشر ومجابل الاسمنت · يهبطون من القرى

حاملين على درّاجاتهم الألبان والأجبان ويقرعون أبواب البيوت • يطوفون الشوارع وراء طبليّاتهم الحافلة بالنعناع والخسّ والبقدونس والفجل والسلق والسبانخ والأرضي شوكي والبصل الأخضر – وكلّ خيرات أرض البلاد الطيّبة • يقتعدون النواصي مطوّقين أنفسهم بسحارات الصبار اليانع ، ورفقتهم قنديل باهر الضوء وراديو تصدح منه أم كلثوم • يبيعون العصير والشراب والقهوة المرّة وأوراق اليانصيب • يتعاطون النكتة والكلمات البذيئة • يطربون لرمية نرد موفّقة ، ويتحرّك فيهم خوف مبهم من القنبلة الذرّية • ويسمعون من الراديو أن الرئيس جونسون قال لجلسائه اللطيفين : أعتقد أن مزيداً من فتياننا سيذهبون الى فيتنام في نزهة عسكريّة •

وعند الضحى يجلسون في بهو حرص مستخدموه على إبقاء جدرانه عارية وبلاطه كامداً • بعضهم يتناول مجلّة قديمة فيقلبها ويبدو مثقّفاً • بعضهم يحملق الى لا مكان • بعضهم يداري جلسته فلا يقع به الكرسي المخلّع • وبعضهم يختلس النظر الى السيدة ذات الطفل الصغير • أخيرا يطلّ شيش بيش ويجيل بينهم عينيه الخضراوين الوقّادتين : « دور من ؟ » يسألهم ، فيجيلون أبصارهم بين بعضهم بعضا ، كل يأمل بأن يروغ من الدور ويلبّي دعوة الطبيب • لكن كهلاً متورّم الحنك ، قصير القامة ، ينهض ويمشي بهدوء ونشاط ساحباً وراءه طنفسة شرواله الجوفاء • يعود شيش بيش الى العيادة ، فيدخل الكهل وراءه متقدّماً بثقة من الكرسيّ المعلّق وواضعاً جسمه عليه • يحسّ بنظرة الطبيب مسدّدة الى حنكه الورم وخده الورم وعينه الورمة • لا يريم • يظلّ مطرقاً مدقدقاً الى الأرض ومثبتاً كوعيه الى ذراعي الكرسيّ • يسأله شيش بيش ماذا حدث ، فيشير بيديه طالباً قلماً وورقة ويعود الى جلسته • يتأمّله شيش بيش ثم ينفجر ضاحكا • يناوله ما طلب ، ويقف الى جواره ليقرأ • ويكتب الكهل

أن ضرسه كان نصف منخور ، وكان يسبّب له أوجاعا فظيعة ، وفي ساعة ألم مبرّح ربطه بخيط قنّب متين ونتره : وطار الضرس مسافة قامتين ثم طار وراءه الدم • يسأله شيش بيش ماذا حدث لحباله الصوتيّة كي يلزم الصمت ، فيكتب انه يخشى أن يلطم لسانه بمكان الجرح ويسبب له نزيفاً ، لأن لسانه سريع وهائج الحركة • ويسأله ثانية لماذا لم يأت البارحة ساعة اقتلع ضرسه بهذه الطريقة الثوريّة ؟ فيكتب أنه لم يكن لديه نقود • وهل لديه نقود الآن ؟ كلا • كيف إذن ؟ هكذا : البارحة قالوا له إن أجرة الطبيب الشاطر خمسون ليرة فاعتقد أن فجوة ضرسه ستشفى لا محالة خلال أربع وعشرين ساعة • لكنها لم تفعل ، واضطرّ للمجيء • وهو مستعدّ للتوقيع على « كمبيالة » يدفعها من أول « قبضة » لثمن الفول الرجعيّ • وثمن الدواء ؟ أيّ دواء ؟ أليس هو الطبيب الذي سيشفيه ؟ الدواء الذي سيتوجّب عليه شراؤه ؟ آ ، هذا ، يفرجها الله • هل يوجعه موضع الضرس الآن ؟ نعم ، وجعاً شديداً •

يهزّ شيش بيش رأسه باسماً • يطلب منه فتح فمه ، ويعمد الى مراهمه وقطنه وملاقطه • ينظّف الجرح ويطهّره ، ويثبت عليه قطعة قطن بليلة : « ابصقها بعد ربع ساعة ، » يقول له ويمضي الى طاولته • وفيما يكتب الوصفة يعطي مريضه التعليمات : « اسمع جيداً • خذ هذه الأدوية لمدة أسبوع • بعدئذ تعال إليّ • بعد أسبوع لا تقل طاب الجرح وما عدت بحاجة للدكتور ! سامع ؟ ووقت تبيع الفول تعطيني مالي • اذا لم تجيء بعد أسبوع سأقول إنك هربت من الدفع •• » قبل أن يتمّ كلامه يهزّ الرجل رأسه يميناً ويساراً : لن يكون ذلك الآبق ، وسيدفع المال على آخر قرش ـ هكذا تشير يداه • ويقول شيش بيش : « بعد ربع ساعة احكِ كما تحبّ • بشرط أن تأخذ الدواء • » ويهزّ الآخر رأسه موافقاً •

يناوله الوصفة ومعها خمسين ليرة • في منتصف الطريق اليهما تقف يد الرجل اذ يرى الورقة المالية • يهمّ بالكلام ثم يمتنع • يسحب يده • يلتقطها شيش بيش ويدسّ في راحته الورقتين : « وقت تبيع الفول ، » يقول له ، « هذا دين عليك • » ويضع الكهل يده على صدره ثم يضع طرف إصبعيه على شاربه •

يتقدّم الطبيب بمريوله الأبيض ، كسول الخطى ، آليّ الذهن ، متوقّج العينين • يقف بالباب ويهتف : « دور من ؟ » تنهض سيّدة متقنة الصنع والصناعة وتنحني فوق طفل في الخامسة • تمسح على حنكه بحنان وأسى ، تلتقط يده وتمضي به وراء الطبيب الذي عاد الى عيادته • في الداخل يتعرّف دو الى الشطيرة الطويلة اللذيذة • يدرك أنه قد بدأ يجوع • تقول هي : « نزار لا يشكو من شيء خاصّ كما أظن • ولكن •• قلت أعرضه على الأطباء المختصّين، من باب الوقاية • » يتأمّل هو الطفل باسماً ، ويتحبّب اليه • يحمله وقد أدرك غرض أمه ، ويضعه على الكرسي المعلّق • يطلب اليه فتح فمه ، ويفحصه بالمجسّات والمخارز ، متأنّياً مدقّقاً ومنصرفاً بكليّته الى العمل • تشعر المرأة بالامتنان لأنه قبل ادّعاءها ، وبشيء من الرثاء لهذا الشابّ الذي ضيّع عمره القدر •

أخيرا يدعوها الى الكرسي ، معلناً أن أسنان الطفل سليمة تماماً • تنهض من جلستها الوادعة • تسأله : « لم تعد تزورنا ، يا دكتور » •

يبتسم : « مشاغل الحياة ، يا ست غادة ، كثيرة • وأنا والله أحبّ سهراتكم • كيف أبو نزار ، مبسوط ؟ » •

مبسوط ، ومشتاق ! تقول له • تجلس ، تلقي برأسها على المسند ، وترخي ذقنها فتنفرج الشفتان • من بين أهدابها نصف المغمضة تتفحّص

منهمكاً بأدواته يقول : « كيفما شئت • » يتقدّم ويوجّه المنوّر الكهربائي على أسنانها الناصعة • تفتح عينيها وتسأل : « هل أزيل الحمرة ؟ » يهزّ رأسه بالنفي • يتناول مجسّاً مدبّباً وينقر برأسه على نقطة زرقاء لا تكاد ترى في أسفل سنّها • تنقز ويهتزّ صدرها • تنظر اليه معتذرة بصمت • لكنه لا يهتمّ • ينقر سنّاً آخر وثالثاً • وتفكّر هي : أترى أخبره سليمان بما بيننا ؟ يقول : « ثلاثة أسنان بحاجة الى معالجة فوريّة • كان اللازم أن تأتي من قبل • الآن ننتهي من واحد ، اذا أردت • لو جئت من قبل لما احتجنا للرصرصة » •

تبتسم بحزن كسير : « بودّك الصراحة ؟ فكرة الشيخوخة مخيفة • » وتبتسم بمرح •

ينظر اليها بدهشة حقيقية : « أنت ، تفكرين بالشيخوخة ؟ دائماً كنت أعتقد أنّك تملكين الحياة وتقبلين عليها » •

عندئذ تتيقّن أن سليمان قد أخبره ، ويريحها ذلك • فجأة يثير صدق كلامه وعفّة نفسه رغبتها في البكاء • ينظر الى عينيها الغائمتين المتسوّلتين ويتمنّى اللامبالاة • يقول لنفسه : هذا جانب من شخصيّتها لم يحدثني سليمان عنه ؛ لعلّه لم ينتبه اليه •

« هل نبدأ ؟ سأحفر السنّ قليلا ، وأحشوه بهذه • » ويريها كيساً صغيراً فيه مسحوق أبيض •

تردّ بالإيجاب • ويعمد هو الى مستحضراته فيخدّر فكّها • ثم يسحب

المثقب من حامله المعدني ، ويلقي بقدمه على الدوّاسة • يئزّ الصوت في المثقب ، وتزول النقطة الزرقاء • يتحوّل المسحوق الى محلول ، فالى معجون • ويستقرّ المعجون في الفجوة الصغيرة فيتصلّب • ويستردّ السن المنخور مادّته المفقودة ، وامتلاءه ، ثم شكله •

وطيلة الوقت يبقى الاثنان صامتين • من عادته أن يتحدّث لزبائنه ، على الأقلّ كي يشغلهم عن الخوف والعصبيّة • أما الآن فهو في حضرة الحزن • يعرف أنها حالة مستعصية ، وأن العالم لا يحفل كثيراً • يعرف أن الحزن أبعد مهبطاً في النفس من أيّ شعور آخر • ولكن ، هؤلاء البرجوازيون ! يبدو أنهم ليسوا ذئاباً كلهم ، أن بعضهم ضحايا • منذ فترة لا بأس بها يراوده تفكير لا ينسجم كثيراً مع مبادئه الثورية : أليس هؤلاء أجدر بالإشفاق منهم باللعنة ؟

سليمان يعرفهم جيّداً • البشر كلّهم جديرون بالإشفاق ، وباللعنة أيضا • يتساوى في ذلك الكادحون والبرجوازيون • ذلك لان البشر كلّهم ضعفاء : ضعفاء أساساً ، ذكراً وأنثى • بعضهم يأتيه بحذاء مرقّع وسترة خلقة ليشتري لمبة كهرباء • لقد احترقت في بيته واحدة وجاء يستبدلها • إنه ينتزع ثمنها من جيبه وكأنه ينتزع ضرساً من فمه • أكان ضرورياً أن تحترق ، فتحرم صغاره من رغيف الخبز ؟ وبعضهم يشتريها بالطريقة نفسها ، كأنه ينتزع ضرساً من فمه : أكان ضروريا أن يدفع ليرة كاملة بلا مبرّر ؟ بعضهم يستدعيه الى البيت كي يصلح جهاز التلفزيون المعطوب • إنه ليس الجهاز فقط ، بل حياة بأكملها • ويشعر سليمان أنه يحسن بهؤلاء أن يخشعوا ركّعا للآلة وأن يتضايقوا اذا انعطبت، فلولاها لافتقرت حياتهم الى رابط وانقلعت انسانيّتهم• إنهم يرتدون البذلات الأنيقة والربطات الثمينة • يلبسون أحذية ملمعة

وشعوراً حسنة الترجيل · وعلى أجساد نسائهم ما يكفي لشنق الفقر ثيابا وحلياً وعطوراً ومساحيق · هذه الهياكل التي تسترخي على مقاعد سياراتها ورفاسات كنباتها ، ماذا يبقى منها عندما تنزع ملابسها ساعة النوم وتأوي الى مراقدها ؟ وهؤلاء المهدورون سعياً وراء اللقمة ، المتّضدون أمام الحاجة ، أيّ طعم لنهارهم المبذول كلّه في العمل ؟ جلودهم متشقّقة ، عروقهم ناتئة · عضلاتهم متصلّبة وممسوخة · نهارهم عمل وليلهم غطيط · أو العكس بالعكس · الإنسان بلا عمل آفة ؛ وبعمل ، نتن وخميم · لقد أُمر الناس بالوجود دون أن يكونوا مستعدّين له · وغامروا فيه فتعثّروا على صخوره ، ولسع أقدامهم جليده وجحيمه · هناك شيء يعزل الآخذ عن المأخذ فيقطع تيّار حياتهم · لذلك هم صغيرون جداً ·

ينظر من وراء زجاج حانوته الى الأجسام الغادية الرائحة : كلّ يحمل همّه الخاصّ الذي لا يدري به أحد قط · لوهلة يبدو كلّ شيء طبيعياً : باعة الخضار والفواكه منتشرون في الشارع العريض الى جانب طبليّاتهم ؛ المشترون يتفحّصون الموادّ لينتقوا أفضلها والباعة يرفضون عملية الانتقاء · والمشادّات مستمرّة منذ الصباح · فوج يأتي وآخر يروح ، والشمس تنسلّ وراء الغيوم · لكن شيئاً من هذا كلّه لا يعلق بنفسه · ينصرف الى تفحّص المدفأة الكهربائية ، يفك أسلاكها بأناة · يضع الأسلاك في خزنة معدنيّة · ويأتي بغيرها - دقائق واذا المدفأة صالحة للعمل · يتناول الآخذ ويولجه في المأخذ ويقف منتظراً توهّج المعدن القوي ·

تستلفت انتباهه حركة غير عادية · ينظر · المشهد المعتاد يتغيّر بسرعة مذهلة · الطبليّات تندفع أمام أصحابها اندفاعاً أعمى · الميازين والأكيال تختفي · باقات الخضرة النضيرة المنمّقة على الرصيف تزجّ بخشونة في أكياس

القنّب ، وأصحابها يرفعونها على المناكب ويفرّون · هنيهات واذا الشارع فاقد نبض الحياة المألوف ، خالٍ إلا من ظلال الغيوم السارحة بلا توانٍ · يختفي الباعة في الشوارع الفرعيّة الضيّقة كماء غار في شقوق الأرض · ثم تندفع في الهدوء الشامل سيارة جيب تنعطف نحو مكان الباعة الخالي · فجأة تقف · تنفتح أبوابها وينبثق منها أربعة شرطيين · فجأة أيضا يلمحونه : بائع لا يملك طبليّة ، تلكّأ فلم يتلاشَ كما فعل غيره · يراه سليمان ، فيفتح باب حانوته بتأنّ ، ويقف على العتبة متفرّجاً · أصوات الصفارات تئزّ في الهواء الرطب ، وأجساد الشرطيين تمرق كالسهام المريشة ·

يكتشفون أنه لا ضرورة لهـذا العناء · لقد وقف الرجل كجرذ أيقن بغريزته أنه محاصر من كل ناحية ·

يتقدّمون منه ، بعيد الضحى يتقدّمون ، والسحب السوداء تسرح في سماء المدينة · اثنان يمسكان بذراعيه · يهبط الى الأرض · يتعلق ذراعاه في الهواء · يسحبانه · يصمغ قدميه بالأرض · تنجـرف القدمان · يصيح : « البقدونسات ! اتركوا لي البقدونسـات ! » ويتّضح له أنهم غير مهتمّين بالخضرة · يلتفت الى رأسماله بنظرة حسراء ، بظهر متكوّر وقدمين تنجرفان · « في عرضكم ! » يصيح · « أنا عندي عيال ! » يصرخ · « عنـدي أولاد مثلكم ! » ·

وهاهي ذي أبواب السيارة تغلق · تدور الدواليب الى الخلف ، ثم تكرّ هادرة في اتجاهها السابق · ويقف أصحاب الدكاكين ، كل على عتبته ، متفرجاً ، صامتاً ، أمسح الوجه · وفيما عدا زفراتهم التي استطالت وخفتت ، يبقى الشارع هادئاً ، صامتاً ، مسترخياً في الرطوبة وظلال الغيوم ·

والملك يكره هذا الهدوء · يكرهه بإخلاص · يراه مرتسماً على وجه

رئيس التحرير ، فتحتقن عروقه · يقول رئيس التحرير : « تغيير كلمة أو كلمتين ، أو خمس كلمات ، سيدي · ماذا يضيرك ؟ طالما أن الفكرة الأساسية تظل موجودة · » ويجيب الملك ـ بهدوء ولكنه هدوء مختلف ـ وحجمه الضئيل محشوّ في الكنبة الوثيرة : « أخي وعزيزي ، أولاد ··· هؤلاء الذين ندعوهم العرب ، لم يخترعوا لغتهم جزافاً · الصارم غير الفيصل ، مع أن أي واحد منهما ينفع في قطع رقابكم · »

ينهنه رئيس التحرير : « ألم أقل لك ؟ تستطيع أن تقطع الرقاببالصارم وبالفيصل · فاستعمل الأنسب · لماذا تحمل السلّم بالعرض ؟ » ·

يجيب الملك : « صحيح · أنا أحمله بالعرض · لاني أريد أن يراه الناس ، وأضرب به بعض الرؤوس ، لأنكم كلّكم عميان · أو تغمضونعيونكم عمداً » ·

وهكذا يزفر رئيس التحرير ، ولكن بمحبّة : « لا أعرف لماذا تشغل نفسك وموهبتك بمشاكل جانبيّة · نحن ملتزمون بخطّ شامل أقرته الثورة بعد دراسة علمية موضوعيّة للواقع العربي · معركتنا الأساسية هي ضد الامبرياليّة والصهيونيّة · والأمّة العربيّة تمرّ في مرحلة حاسمة من مراحل نضالها · من يستطيع الآن أن يفتح جبهة مع الرجعية ؟ دع الفتنة نائمة ، يا شيخ ، لعن الله موقظها · اكتب عن اسرائيل يا أخي ! أليست هي أمّ المشاكل ؟ أكتب عن اللاجئين الفلسطينيين ! لا أعرف لماذا لا يتفاعل الأدباء مع القضية الفلسطينية ! » ·

ثم يزفر الملك وقد داخله اليأس · لعلّها المرة المئة التي يعاد فيها الحديث ، ولكن بكلمات مختلفة · يقول : « خطر إسرائيل الحقيقي هو أنها صرفتنا عن أنفسنا · أنت غير مهيأ لحرب إسرائيل لانك منخور ومعطوب من

الداخل . أنا يهمّني الداخل . الى متى ستبقى إسرائيل مبرّراً لهذا الشلل الذي أصبتمونا به ؟ الكتابة ممنوعة في الفقر ، والجنس ، والدين ، والأخلاق، والرشاوى ، والنهب ، وكل شيء . وأنتم قاعدون تنفخون البالونات ضد الامبريالية . ماذا قدّمتم للفقراء ؟ هذه الاشتراكية العرجاء ؟ » .

يضحك رئيس التحرير مرة أخرى : « تعرف ؟ لو أن مسؤولا يسمعك ، يضعك في السجن » .

يضحك الملك ، ولكن بمرارة : « طبعاً . وإلا أيّ شغل تلاقون ؟ أنتم تطاردون الناس في لقمتهم وضميرهم . » وينهض مغادراً . يلتقيه المحررون فلا يلقي بالا لأحد : مجموعة من العبيد . الخطر الأمضى من إسرائيل هو موت الحرية . ليس على هذه الارض حرّ واحد . لهذا يبدو الناس تافهين ممسوخين . ولكن ، ذات يوم سيرمض الجوع هؤلاء الفقراء ، وسيعضّهم عضّاً يطير بهم الى رقاب جلّاديهم .

في غرفته يجلس . يسحب اليه كرّاس الورق ويتّخذ وضع الكتابة . بعد كل شيء عليه أن يكتب ، فليس بوسع أحد أن يكسب مالاً ويكون شريفاً وحراً في وقت واحد . يمسك بالقلم ويرسم خطوطا مستقيمة متقاطعة ، وهو يشعر باحتقار ذاتيّ لا حد له . تاريخ العرب كلّه يتزمهر على رأس هذا القلم ، من ذلك الذي سئم تكاليف الحياة الى الذي ولد بباب اسماعيلا . واللغة التي كتب بها القرآن ستهوي الآن الى صفحات هذه الجريدة . وهو يعرف أنه في المآل سيكتب ما يريده رئيس التحرير . هو : مسمار صدىء غرزته المصادفة في خشب سفينة نخر . يلعن في سرّه شيش بيش للوصفة الطويلة التي حشاها بأسماء الأدوية . العائلة كلها ، ما شاء الله ، مصابة بتسوّس الأسنان . لهذا ، سوف تبقى جيبته مثقوبة الى الأبد .

يقد اليه محرّر منفوش الشعر ، بين شفتيه قلم قصير ،•وعلى أذنه سيجارة • يرسل أصابعه بين الأوراق المخلوطة على طاولته ، ثم يتفحّصها واحدة واحدة • يقترب من الملك باحثاً بعينيه عن شيء ما •

يسأله الملك : « ماذا يريد رابندرانات طاغور ؟ » فيجيبه نصف حاضر الذهن : « الوصفة • رأيت الوصفة ؟ » يثب الملك دفعة واحدة ويستقرّ على طاولته • يمطّ رأسه باتّجاه رأس زميله فيكاد أنفه أن يلامس القلم : « هل أشعل لك سيجارتك ؟ » يقول له ، فيمسك الشاعر بالقلم متهيئاً لإشعاله • يقترب لهب الكبريت من رأس القلم المدبّب ، ويتقعّر فم الشاعر بالقلم مرّتين متتاليتين • وفيما يطفىء الملك العود ، تزفر شفتا الملك الدخان : « رائع هذا السيجار • أعتقد أنه من النوع الذي كان يدخّنه ونستون تشرشل » •

يقول الملك : « هو نفسه • ولكن ادخلت عليه تحسينات كثيرة • فيالحقيقة العالم يتطوّر أفضل بكثير مما يتطوّر الانسان • ما رأيك ؟ » •

يزمّ الشاعر شفتيه متروّياً قبل الإجابة : « لهذا نحن نناضل ، ومن ورائنا الجماهير الشعبيّة ، لإدخال أفضل التحسينات على الإنسان ، لتحرير إرادة الانسان ، لتحقيق إنسانية الإنسان • ولدينا من القدرة على الاستمرار أننا كلما انثقب بالون، نفخنا آخر • المطلوب ألاّ نيأس ، وخاصّة في هذهالظروف المصيريّة التي تجتازها الأمة العربية » •

يسأل الملك ، متفكراً هو الآخر : « هل أنت متأكّد من صواب استعمالك لكلمة (تجتاز) ؟ أعني •• تعرف كم نحن حريصون في هذه الأيام على دقّة المعاني » •

نصف ساعة يمضي وهما يتمابثان• يطأ لساناهما جميع التعابير السياسية

والشعارات الملصقة في سوق الحكومة · يضحكان وينفعلان ويشتمان · أخيراً يدرك الملك أن مزيداً من الدعابة سيصير الى سماجة · يراقب صديقه وهو يسحب الوصفة من بين الأوراق ويتّجه بها الى الباب · وها هي الشمس تنسلّ الى قطع الزجاج الملون في النافذة وتلتصق على الجدار المقابل · الصمت — وحديث النفس · والملك مثقل بحديث النفس · يريد أن يمّحي هذا الشريط المتلفلف في جمجمته بذكرياته وأفكاره وصراخه · ألا توجد حياة إلا داخل الرأس ؟ ماذا يفعل البشر في هذا العالم ، والى متى سيظلّون يفصلون الحرّية ثياباً لا يلبسونها ؟

بالطبع ، ليس الآن وقتاً للمسائل العظيمة · لا الآن ولا أيّ آن ، على الأغلب · أمامه الكرّاس ، وعليه ملء ثلاث صفحات بخطّه الإبري · عدد الكلمات المطلوب يتراوح بين ١٤٥٠ و ١٥٥٠ · وقد استحسن رئيس التحرير منذ البداية أن تكون الموضوعات فكريّة ، عقائديّة · تساهل أوّل الأمر ، فسمح « بإنزال » ثلاث مقالات عن التقيّد بإشارات المرور ، وعن آداب الحضور في الأماكن العامّة ، وعن أهمّية احتواء علبة الكبريت على عيدان تشتعل · لكنه في المرة الرابعة كان حازماً : ليس فقط لأن مستوى الصحافة يجب أن يرتفع الى مستوى القضية المصيريّة ، وإنما لأن الملك طاقة خلاقة متفجّرة ينبغي ألا تتشتّت في المسالك الثانويّة الفرعيّة ·

يمسك بالقلم منتظراً من طاقته الخلاّقة ان تنزلق مع حبره السيّال · يريد أن يكتب عن هذا العالم الموصوف بالثالث ألفا وخمسمة كلمة · لكن اللغة ورئيس التحرير يطوّقان ذهنه وضميره · الجملة الاولى : « مشكلة العالم الثالث أن مشاكله ابتدائية · » حتى الآن لا يوجد خطر · سيعرف كيف يقنع رئيس التحرير أن قول الحقيقة ليس شتيمة للشعوب المناضلة · يخطّ الجملة

الثانية : « الحرية والخبز والجنس والقانون ، وليس الآلة والترف والقرف والجريمة . » هذه سيهلّل لها رئيس التحرير . فيها إدانة واضحة للعالم الصناعيّ الامبريالي وتمجيد أصيل للشعوب المناضلة .

بلا مقدّمات ينجلي من ذهنه عتم غامض المصدر . تسري في بدنه شدّة وجموح . يذوب الزمهرير عن رأس القلم فيكتب : « والعالم الثالث هيولى لم تتشيّأ بعد ، وهذا هو سرّ أحلامه ومآسيه . يمتلك حياة لا حدود لها ، وبالتالي فوضى لا حدود لها ، ومن الواضح أنه سيمتلك التاريخ بعد حين . تمرّ به الأيام كلمى هزيمة ، ووجهه وضّاح وثغره باسم . ليس لديه من مقوّمات الحياة سوى أنه يحبّها ــ الأشياء الاخرى تثوي بين الحلم والإمكان . ليس لديه فعل ، وإنما ردود فعل ــ ردود فقاعيّة . فيه ملايين تموت جوعاً ، وملايين أخرى تتضوّر جوعاً ، وملايين أكثر من الجائعين . وفيه الناس عبيد إلّا ضمن دائرة قطرها نصف متر : عبيد للامبريالية ، للحياة اليومية ، للطقس الحارّ ، للانفعالات الأوليّة الذاهبة جفاء كزبد البحر . وفيه الاستغلال المزجّج والرشوة الجميلة والسرقة الحلال ، والجريمة الصلعاء . فيه المتسوّلون والحفاة والمشوّهون جسدياً وجنسياً ، المزدوجون والمثلّثون والمربّعون والمعشّرون . بعبارة واحدة : إنه عالم ألف ليلة وليلة . ومع ذلك ليس هناك من يقتل أحداً يستحق أن يقتل ، ولا من يستشهد ليحيا مبدأ أو تتحرّر أرض ، إلا في فيتنام ، ولا من يعيش أو يموت حراً ، ولا من يعرف الحبّ أو الحقد أو الوداعة أو الشراسة أو الطهر أو القذارة . ليس هناك من يقف عند أيّ حد أقصى . حياتهم مأساة : مأساة السيطرة الرأسمالية ، والعلاقات المخلّمة ، والافتقار الى بؤرة ؛ لكنهم يتفرّجون عليها وكأنها نازلة ألمت بغيرهم .

« والعالم الثالث محكوم بعبودية ذاتية وجوع شيطانيّ ونزعة ربداء

للفوضى . كمجتمع ، تقوم روابطه على قيم متعفنة وعلاقات عائلية عمرها آلاف السنين . لا أحد يؤمن بها ، ولا أحد يقطع دابرها . كدولة ، يندر أن توجد فيه مراكز قوّة أو جماعات ضغط متجذّرة في طبقات الشعب ، باستثناء منظمة واحدة ...

آه ، هذه لن تمرّ . يشطبها ويكتب : « يتناوب قادتها حمل عبء الثورة الفادح . القانون أمر نسبيّ ، ودائماً يمكن الفتك به أو دفعه الى الارشيف باسم الثورة والظروف الاستثنائية . يرفعون القيم الأخلاقية حتى السماء كي ينظروا الى عوراتها . في الصداقة والحبّ يسيلون سمناً وعسلاً كي يتزحلقوا عليهما ، واذا ما وقعوا ورُضّت مفاصلهم تملّقوا بالغضب والعروة الوثقى . وكلّ يوم يكبرون في عالم يتضاءل كلّ ساعة . يشعرون أن الحياة تحملهم ، تورق وتخضرّ فيهم ، وأنّ كلّ شيء بانتظارهم حتى الولايات المتحدة الاميركية . المال والبنون والراحة والطعام واللغة زينة حياتهم ، والعرق والجوع وصرير الأسنان وبين بين . يتقبّلون هبوط الإنسان على سطح القمر وكأن بوسعهم الصعود الى هناك مشياً على الاقدام ، حتى اذا جُنّ الظلام وتكبّد ذلك القرص الزهري رقعة السماء ، خشعت أرواحهم أمام وثن الجمال الغامض وسفينة الليل الساهرة » .

بلا مقدّمات أيضا يتحرّك الشرطيّ القابع في قحف رأسه ويسأله لمن يكتب هذه الكلمات . لدولة تعتقلها ، أم لشعب لن يقرأها ، أم لمن ؟ وكان الحلّاج قد رأى أكثر مما ينبغي ، فاستودع سرّه أحبابه الفقراء . وقد انزعج منه الحكّام والفقهاء فعذّبوه تسع سنوات . ثم جلد ألف جلدة ، وقطعت أطرافه الأربعة ، وضرب عنقه ، وأحرقت جثته وذرّ رمادها في دجلة . وحملت الشرطة

رأسه الى خراسان ، بينما أحرقت كتبه ونودي على الوراقين بعدم تداولها ؛ وطاردت الدولة أنصاره مدة سنوات وقتلت عدداً كبيراً منهم .

وقال العقيد المهداوي للمتهم : « متآمر ، عميل ، أجرب ، منحرف جنسياً ، شنو تريد تقول تدافع عن نفسك ؟ » .

وقال المتهم : « آني ، يا سيادة رئيس المحكمة، لست متآمرا ، وآني مواطن عراقي شريف » .

وقال المهداوي : حاه ! تقول شريف ! كلّ الناس يقولون عنك خاين ابن خاين ، يعني هم كلّهم كذّابين وأنت الصادق ، هاذي تدخل في منطقك ؟ أنت ضابط استخبارات ، وماكو عندك علم بالمؤامرة التي أقيمت في الموصل ، هاي شلون تتفسّر ؟ تفضّل ! » .

وقال المتهم : « سيدي ، هذول المؤامرات يقيمونها في السرّ . فلنأخذ مثلا ثورة ١٤ تموز الخالدة ... » .

« اسكت اسكت ! ماتقول بلا تشبيه ؟ هاذي ثورة اجتماعية عادلة . أما ثورة الشواف في الموصل فمعروف أذنابها وأصولها . أكو عندك شيء تضيف تدافع عن نفسك ؟ » .

« والله ، يا سيادة رئيس المحكمة ، ما لي علاقة بالمؤامرة . » .

« حاه ! ما ليك علاقة بالمؤامرة ؟ اش جابك للمحكمة ؟ » .

والملك يعرف هذا الشرطي جيّداً . لقد باضته الثورة وحضنته ، ولقمته القضية والضرورة والحقن المصرية . إنه هنا ، حاضر غائب ، مسترخٍ ما بين المخيخ والبصلة السيسائية ، ووظيفته إلقاء القبض على الأفكار دون أن

يزعج الدولة بتقاريره . لا يحتاج الى سيارة ليكبس بها على خارقي القانون : الأفكار جميعها تمرّ من بين ساقيه ، فإما تتعقّد واما تتفصّد .

ولكن أيّة موضوعات فكرية يريدها رئيس التحرير ؟ سؤال يظل بلا جواب ، لأن زميله الشاعر يدخل الغرفة حاملاً رزمتين من الأدوية ومذيّلاً بمحرّر ثالث .

بعد هنيهات تغدو أصواتهم جزءاً مندغماً من ضجيج المدينة . ويغدو جلوس الملك أمام الأفكار مثل جلوس سليمان أمام جهاز التلفزيون المعطّل ، مثل وقوف شيش بيش أمام الأسنان النخرة ، مثل جلوس عبّاس أمام مكتبه ، مثل الليل اذا سجى . انهم يقتفون ويصدرون أصواتاً . يتحرّكون ويصدرون أصواتاً . يبيعون ويشترون ويحزنون ويفرحون ويعشقون ويأكلون ويتبرّزون وينامون ويلعبون ويبردون ويسخنون ، ويصدرون أصواتاً . كأنهم بالضجيج يريدون أن يملأوا فراغاً : شيء ما يعرفونه يجب أن يظلّ غائباً عنهم ، منبطحاً تحت مؤخّرة الشرطي بين المخيخ والبصلة السيسائية . يريدون أن ينسوه إلا قليلاً ، يضبطوه ، يبعدوه الى مسافة آمنة ، ثم يتذكّروه لئلا يتّهموا أنفسهم بالخيانة . يظل حلماً وأمنية هادية ، يريحهم أنه هناك وأنهم يسعون اليه . لأجله يكتبون القصائد ، يشترون الأسلحة ، يبيعون سندات المستقبل ، يشدّون على بطونهم وأحياناً يمشون عليها ، يتحمّلون الإرهاب والبشاعة . يدعونه معركة ، أو نضالا ، أو ثورة ، أو قضيّة . باسمه يشتمون الاستعمار واسرائيل والتخلف والتجزئة ، ويجعلون كل ساعة من حياتهم مصيرية وتاريخية . لكن أحداً منهم لا يخرج على الناس شاهراً سيفه .

لقد صحّ العزم على شهر السيف ، لكن الدهر أبى . وهذه هي الشيمة

اللعينة لهذا الدهر اللعين • وفي الحقيقة ، ماذا نفعل بإرث ألف عام من الانحطاط ؟

غير أنهم في الواقع ليسوا منحطّين تماماً • واذا كانت الأعمال بالنيات ، فهم أرقى الأمم • بل إن بعضهم يريد أن يشهر سيفاً ، سوى أن سوق الحميدية لم يعد يبيع الا السيوف الأثرية • لقد عبر على هذا الرصيف أناس محاربون سابقاً • وقف هنا خالد بن الوليد ، وأبو عبيدة ، وصلاح الدين • لكن أسماء هؤلاء دخلت في خانة الوفيّات • ولأن السيوف لا تموت ، لم يستطيعوا اصطحابها معهم الى القبر • وماذا يفعلون بها في الدار الآخرة ؟ لقد تركوها لأنسالهم كي يحفظوها من صدأ السنين •

وفي زمن ما فقدت السيوف قدرتها على البتر •

لقد ضايق ذلك محموداً وكدّر خاطره ، ولكن على نحو غريب • إنه يكره السيوف ، وخاصّة عندما يكون الحديث عنها رمزياً • يقول لنفسه : بعد ألف عام من الانحطاط ، نعود الى هذه الأداة البدائية ؟ بغير لفّ أو مواربة : نريد شعباً يحمل الديناميت والقنابل والبنادق ، الآن الآن وليس غداً •

منذ الصباح وهذه الأفكار الجنونيّة تندفع عبر رأسه كالشهب • لم يخطر له أن تنفيذها ربما قوّض دعائم السلام العالمي والسياحة والاصطياف • السلام العالمي ، كما يقول إمام تماماً ، يعني تجميد الأوضاع الراهنة كي لا ينزعج الامبرياليون أثناء اجترارهم خبز الشعوب • في الساعة الثامنة كان متهيئاً لتحمّل علك الأحذية الذي يبعث به سكّان الطوابق العلويّة ممن يحملون القلم• وهذه هي العادة يومياً : الصبر قليلاً كي تغدو الحياة ممكنة • إنما للصبر حدود ، كما تغنّي كوكب الشرق السيدة أم كلثوم • وها هو الآن يتمنّى لو

أن حملة الديناميت يفجّرون السقف الجاثم فوق رأسه اللاطىء تحت الأرض ، لينهار مبنى الجريدة ويوضع حدّ لبغاء الكلمة •

والحكاية هي أن هؤلاء البرجوازيين الصغار ، المدعوّين كتّاباً ومحرّرين ، ما فتئوا يشيدون بالطبقة العاملة وينسبون لها المعجزات • يضعون لها كتفي جلقامش ، ويحملونها نار بروميثيوس • ثم يحدبون عليها ويغمرونها بالعطف والرعاية • يشتمون باسمها الآخرين ، ويعلنون ولاءهم لها • وعبر ذلك كله ، لا تعرف الطبقة العاملة أين وضعها ربّها •

يشير الى زميله على الكرسي الأيسر ، فينهض ويأتي اليه • يطاطىء فوق رأس محمود باسطاً راحتيه على ركبتيه • يقول محمود : « اقرأ باسم ربّك الذي خلق ، ما كتبه هذا الملقّب بابن الجماهير • العنوان : المكاسب التي حققتها جماهير الطبقة العاملة في عهد الثورة • واقرأ هذه •• » يزجره زميله : « اسكت ، خلّني اقرأ • » فيصمت • يتابع بعينيه الانطباعات التي يتركها المقال على وجه أبي فاروق ، منتظراً تعليقه نصف باسم ونصف متوتّر •

أخيراً يبتسم أبو فاروق بوداعة ويهزّ رأسه • « عشنا ، » يقول لمحمود محوّلاً نظرته الى وجهه المرتقب القاسي • « يوم تطلّقنا هذه المرأة ، يصير معنا مكسب جديد من مكاسب الطبقة العاملة ، ويكتب عنه ابن الجماهير • »

يسأله محمود : « شفت الدكتور ؟ كم طلعت النسبة عندك ؟ » •

يجم وجه أبي فاروق وينظر الى لا مكان : « صارت اثنين واربعين • وأم فاروق حاسّة بالموضوع • بس صابرة على حظّها • تعرف نسوان بلادنا • »

يصمت الرجلان • يطرق محمود ويصفن • متى تصل نسبة الرصاص في دمه الى درجة يفقد معها طاقته الجنسية ؟ لا يعلم بالضبط ، غير انه يتوقّع مثل

هذا المستقبل . ينتظره . أحياناً ينسى ، سوى أنه نسيان العارف . رصاص في الدم ! وفي الرئة والخلايا والعروق . بعد أعوام سيهترىء وجهه ، يتحفّز . ويقول له إمام ، تزوّج أسمى !

في الطرف القصيّ من القبو ، والى جانب جدار وسخ كامد اللون ، تبرز قامة أبي نصوح . يراها محمود أولا ؛ وينتبه أبو فاروق لالتفاتة زميله . بهدوء ينظران الى الرجل الأربعيني الحاسب نفسه متخفياً عن الأعين . من جيب قميصه يخرج مرآة بحجم علبة الدخان ومقصّاً صغيراً متناحل الساقين . أصابعه الغليظة المكدودة تثبت المرآة أمام فمه . يتفرّس في شكل شاربيه الأبيضين . ويبدو أنه يشاهد في تناظرهما خللاً ، اذ تمتدّ يده بالمقصّ الى الشارب الأيمن وتشذب شعرات طالت أكثر مما ينبغي . يعيد النظر اليهما . يدفع بلسانه بين الأسنان اليمنى والشفة العليا . يكتشف الخطأ في انحناءة الشارب . يقصّ ثلاث شعرات . يعيد لسانه الى مكانه . يتأمّل نفسه في المرآة . يحرّك رأسه قليلا ذات اليمين وذات اليسار . يبرم بوزه بأشكال مختلفة . التناظر تام . يعيد المقصّ الى جيبه الأيسر ويتناول نصف مشط . يعيد تركيز المرآة أمام وجهه ويغرز أسنان المشط بين الشعر الأبيض . ينتصب الشاربان ويتقوّسان فوق شفته العليا . يبتسم ، يعيد المرآة ونصف المشط الى جيبه .

كان أبو فاروق قد عاد الى مكانه بطلب من محمود . لقد خشيا أن يراهما أبو نصوح فتذهب به الظنون . وظلّ محمود يراقب . لا يستطيع أن يرفع عينيه عن شاربي أبي نصوح الأبيضين . ويعود الأخير الى غرفته دون أن يلتفت . يغيب وكأنه لم يكن .

يتناول محمود زجاجة الحليب ويكرع ما تبقّى منها بعصبيّة • يعود بدوره الى مكاسب العمّال في عهد الثورة وينقشها بحروف من رصاص •

ويعود القبو الى صمته الصاخب • الى اليسار آلتا طباعة ضخمتان تجعجعان كالطاحون وتنسلان الصفحات المطبوعة • في صدر المكان ثلاث آلات لصفّ الأحرف جلس أمامها ثلاثة عمال ، فبدت وكأنها معابد وثنيّة ركع حيالها حاملو القرابين ـ معابد وقرابين من نوع مختلف : فعلى خاصرة كل آلة فرن صغير يتدلّى فيه قالب من رصاص ، والقالب يذوب ببطء محسوب كي يزوّد الآلة بالكميّة اللازمة لصفّ الحروف ؛ وعلى بعد ربع متر منه يجلس محمود وزميلاه • من هنا أيضا تصدر أصوات ثاقبة ، ليست طاحنة لكنها تكفي لعزل سامعها عن العالم الخارجي • وبين اليسار والوسط لفائف ورق ضخمة وتفاياتها ، وفوقها عُلّقت لوحة حائلة اللون : خطر الحريق •

الى اليمين انحشرت غرفة بلا نوافذ ، يعلو من وسطها دست يغلي فيه الرصاص المستعمل ويسيل منه الى مخدّدات مستطيلة فيتّخذ شكل القوالب • أمام الدست وفوقه قليلاً يقف أبو نصوح حاملا مغرفته الخالدة ، ظهره متقوّس قليلاً ورؤوس أصابعه سوداء • يزين وجهه لون أحمر صارخ وحفيرات كأنها آثار جدري • غير أنه ، وقد سوّى شاربيه منذ قليل ، منصرف بكليّته الى عمله ، غافل عن أطلال وجهه وعافيته • يمسك مغرفته ويسحبها نصف مائلة على سطح الذوب المتقلقل فتمتلىء حبراً وبقايا رصاص • يفرغ المغرفة الى اليسار فوق تلة رمادية داكنة بعضها سائل ومعظمها جماد • ثم يعود بها الى الذوب • ينتبه الى توابيت الرصاص وقد تجمّد فيها قالبان • يتناول مجسّاً فيخرجهما معا ، ويضعهما في ركن الغرفة • يدير الصنبور فيندلق الرصاص الذائب ويتّخذ طريقه الي المجاري المألوفة •

على نحو ما يشعر أنه ليس وحده في الغرفة . يلتفت فيرى محموداً مسترخي الجذع الى الجدار الوسخ ، مبتسماً بارتباك . « أهلين ، » يحيّيه بنصف بشاشة. يتشجّع محمود ويقول بلا مقدّمات : « ما شربت الحليب . » تمرّ لحظات صمت قليلة يدرك الاثنان خلالها أن توتّراً على وشك أن يبدأ . يجيب أبو نصوح ببرود : « ماشربت الحليب . » ويضيف : « وما أكلت البيضة . »

يعقد محمود ذراعيه على صدره ويحدّق الى زميله . يتناول أبو نصوح مغرفته صامتاً ، ويكشط بهـا سطح الذوب . يسكب الطفاوة على التلّة الرمادية . يطأطىء ويتفقّد التوابيت . ينتصب ويمدّ المغرفة .

دون أن يلتفت الى محمود ، يخاطبه : « أخي ، الله يرضى على اسمك ، لا تعمل لي محاضرة . »

يقول محمود : « لا ، بودّي أعمل لك محاضرة . قل لي ، أنت مخطّط لمشروع انتحار بطيء ؟ الحليب دواء لك . وصفه الطبيب . أعط أولادك يأكلوا أي شيء ! اذا متّ حضرتك ، يموت أولادك بعدك . »

دون أن يلتفت ، يتوسّل أبو نصوح بجهد واضح لضبط النفس : « حبيبي، لا تخضّ لي دمي ، ألله يرضى على اسمك . متّ ، ما متّ ، شغلة ما لك دخلة فيها . اتركني بحال سبيلي . » ثم يستدير الى محمود صائحا : « أنا ميّت ، يا ابن القحبة ، أنا ميّت . باقٍ لي كم يوم ، وبعدها أنا ميّت . عندي طفلة عمرها اربعة أشهر وكل دمها رصاص . لا تأكل البفتيك ، لكنت اشتريت لها بفتيك ، بس هي لا تأكل البفتيك . هذه تأكل الحليب . أربعة أشهر . رح واتركني ، الله يرضى عليك . »

يسكت محمود عن الكلام المباح . لا يدري بالتحديد لماذا بدأ الكلام أصلاً .

أهي نزعته الانسانية التي شكا منها إمام ؟ كلا · بل هي محاولة للهروب من عجزه عن الفعل · يعرف أنه صفر على الشمال ، وليس بوسعه الإقدام على شيء · لكان أفضل لو جاء الى أبي نصوح وسخر منه ، عيّره بفقدان رجولته ، ضحك عليه لاهتمامه بشاربيه الأبيضين الرخيصين ، حرّضه وهيّجه الى أن دفعه الى اغتيال المدير العام خنقاً · يبتسم لنفسه ساخراً : وهكذا تنتصر الطبقة العاملة ·

يظلّ مستنداً الى الجدار ، ويقول : « خلّ أمّها ترضعها » ·

يهزّ أبو نصوح رأسه ويبتسم : « أمّها ! من منا يقبر الثاني ، لا أعرف · أمّها ، قال · خلها ترضعها · خدّامة بيوت ، دائرة من بيت لبيت ، عشر ساعات ، وفيها حليب ؟ هو الرصاص وحده يقتل الإنسان ؟ » ·

« والبيضة ؟ أنت لا تأكل البيضة · »

« البيضة ، نعم · مسحة رسول · آكلها من هنا ، أطيب من هنا · »

« أنت تبالغ ، » يقول محمود بهدوء · « كم نسبة الرصاص عندك ؟ » ·

يشخط أبو نصوح بوجهه : « آخر مرة كانت ١٨٠ · عجبك ؟ » ·

« لا ، ما عجبني · خذ إجازة وراجع المدير العام ، يعيّنك بوظيفة حاجب ، أو أيّ شيء · »

« المدير العام وعدني ، أنه بس لاقي من يأخذ محلّي يشغلني · بس هات من يأخذ محلّي · »

« أنا آخذ محلّك · »

« أنت اخرس وارجع لشغلك . أنا تحمّلتك بزيادة . كل يوم محاضرة ، يلعنك ويلعن وعيك الطبقي وكتبك . أخي ، خلّني غفلان . حل عنّي . »

عجيب أمر هذا البلد . الإنسان فيه غير قادر على الفعل ، ولا حتى على التحريض . كل شيء فيها يبدو مهجّناً ومدجّناً . الناس يعرفون كل شيء ، ويفهمون كل شيء ، لكنهم لا يملكون شيئاً ـ سوى أرواحهم القلقة .

وها هو الآن أمام الآلة . الكلمات ، الكلمات . والدوائر الصغيرة المرسومة عليها حروف ذات أشكال مختلفة ، تمسُّها الأصابع بتتالٍ سريع فتنبثق على الطرف الآخر أشكالاً ناتئة من رصاص : هذه هي أفكار الإنسان . أفكار سرعان ما تكتسب صفة الآلة وتغدو نشاطاً مصنوعاً تنزح من عالم الوعي . حتى الأفكار الثورية تغدو سطور وبروقاً خلّبية في سماء بني يعرب .

ينتبه الى نفسه وقد أخطأ في احدى الكلمات ، وعليه أن يعيد السطر بأكمله . يستغرقه العمل وتكتكات الآلة . يلفّه ضجيج المطابع ويحتويه . يتضاءل الى حدّه الأدنى . يصير جسداً قاعداً على كرسيّ في قبو خانق من أقبية مدينة هرمة جديدة سُمّيت باسمها بلاد خصيبة وقاحلة تشرّش فيها الحضارات والبؤس وتنتمي الى العالم الذي لم يهدأ يوماً واحداً ، والذي سمّي ثالثاً لأنه ليس هناك رابع .

ذلك هو محمود بن أبي خلف ، الذي قتل أبوه مدافعاً عن رابية من فلسطين .
لقد توقّف عن الطباعة الآن : ستّون جهمناً . أبو نصوح مرّ به دونما كلام . يتبادل وأبو فاروق نظرة صامتة ، ثم يلتفتان الى الرجل المبتعد : قامة باسقة وجسد عتليت . لو عاش أبو خلف لكان في مثل هذا الشكل . ولكن ، أهو حيّ هذا الرجل الماشي بمهابة الى المرحاض ؟

يتحوّل عن وجه الآلة ويتكيء على ركبتيه · السؤال هو : ما العمل ؟ يقولون في الكتب إن الطبقة العاملة ستفجّر ثورة سريعة حاسمة وتغيّر وجه العالم · أين الطبقة العاملة ؟ الجوع مستوطن في كل فم · والجوع مستوطن في كل مخّ · جوع عمره ألف عام ، للخبز والحرية ، للرغيف الساخن والهواء النقيّ والبشرة الطريّة والكلمة المضيئة · وملايين الجياع تكتظّ على أديم الأرض · كلما احتقنت عروقهم بالغضب ، خرج شيء من عبّ البرجوازيين ونفّث هذه العروق ·

أتكون مجرّد شعور بالتعاطف ، هذه الحمّيا الصبيانية ؟ وما الذي يقدمه لأبي نصوح في المآل ؟ ارتخاءة على الورك ، ابتسامة بلهاء ، إثارة أعصاب ، وإنسانية سقيمة ·

وأبو نصوح نفسه ـ كلّ صباح يأتي الى مغارته : ثقيل الوطأة ، مهيب الخطى ، لابساً سيماء القوة والشباب ، مصفوف الشاربين ، مسرّح الشعر ، مكويّ القميص والبنطلون · لا شيء يهمّه سوى أن يبدو رجلا تطفح منه الفحولة · لماذا لا يخرج على سكّان الطابق الفوقاني شاهراً مسدّسه ؟

ربما لأنه جاوز الأربعين · وإمام يقول إن هناك رديفاً لصراع الطبقات هو صراع الأجيال · بل لأن الكادحين العرب مخصيّون · هذا هو السبب · مخصيّون لا أكثر ولا أقلّ · بل لأن شيئاً ينقصهم ، بعد · هم غير مهيّأين للثورة ، بعد · ولكن ما العمل الآن ؟ الآن قبل أن يفوت الوقت ·

الزمن · أجل · كل صباح يأتي الى هذه الحظيرة ، مثله مثل أبي نصوح · هو أيضاً يستنقع بين روائح الرصاص والحبر ، يتراكم في ذاته حيرة وقلقاً · صحيح أنه ما يزال شابّا ، وأن الماضي ليس حضوراً مفزعاً بالنسبة له · لكنه لا يريد أن تنصل هذه الرؤية الزاهية أو يرتمي في قيعان الأمس محدّقا الى

الغد الذي أفلت منه • ولكن ، ما العمل ؟ يوم يمضي وآخر • شهر وعام • ليس فقط أن الايام متشابهة وإنما معدودة • قال له أبو فاروق مرّة : « تعلّم كيف تصبر يا محمود • وإلا هلكت • وخذ أدوية مثلنا • » وأضاف بعد أسبوع : « أو اترك هذه الشغلة ، وانفذ بشبابك • »

يومئذ ضحك • ثم اغتاظ فيما بعد، عندما قال له إمام بلا مبالاة: « لاتسرف يا بني في تقدير دورك التاريخيّ • عليك في البداية أن تتّقي الله ، مثلما يقول أبو إمام • ثم اعرف بعد ذلك أن الثورة قد لا تقوم على أيدينا • الطبقة العاملة العربية لم تبرز بعد • هناك عمّال ، وليس طبقة عاملة : فقراء ، وليس ثوريّون • الساحة العربية الآن ملك البرجوازية الصغيرة والرجعية الكبيرة • »

وردّ محمود محنقاً : « ما العمل اذن ، يا حضرة الفيلسوف ؟ » •

فارتدى إمام مسوح الفلاسفة ، وهزّ كتفه ليسوّي وضع سترته العتيقة : « نصنع خميرة • نحافظ على مواقعنا • قد يفعل الجيل الجديد شيئاً ما • أنـا معجب بالجيل الجديد ، بالقطيعة الحاصلة بينه وبين الموروث الميّت • لكنّي أخشى أن لا تكون لديه مثل عليـا ، كردّ فعل على انهيـار الأخلاق الإقطاعية والبرجوازية • ولا تنس يا عزيز عيني ، أن كل قدرة عربيّة معطّلة تقريباً بسبب إسرائيل • »

« معطّلة ؟ ظننت أن التحدي الإسرائيلي حادث إيجابي . يا أستاذ • »

« على المدى الطويل • ولكن ليس قبل أن تتصالح معه البرجوازية الصغيرة، أو غيرها • أما الآن فالمتصدّون له هم المنتفعون بوجوده • عندما ينهي هؤلاء خلافهم مع الطبقة الحاكمة في إسرائيل ، يبدأ الفرز الطبقيّ الحقيقيّ ويتمكّن العرب من رؤية عورات حكّامهم • »

« ونحن ؟ سنبقى في انتظار غودوت ، على رأيك • »

« كلا • يجب أن ننجو بأنفسنا من مصير القرامطة • » وكانت عيناه باردتين وخاليتين من المرح •

على الدرج الضّيّق العاري تصعد قدما إمام • وعند نافذة الدوارة العارية يتوقّف ، وينظر الى أشجار الغوطة الغربيّة • يقولون إن دمشق هي جنّة عدن التي أودع الله فيها آدم وحواء قبل سقوطهما • لا شك أنه مكان جميل لإنسان لم يكتشف الخلل في طبيعته ـ وشرط ألا يحيله تجار البناء الى جحور فأرية •

تلطم وجهه قطرات مطر حملتها الريح • من تراه يشبه الثاني ، هذا المطر العنيف السيليّ أم أهل هذه الصحراء الخصيبة ؟ يحمل نفسه ويتابع صعوده • يحسن به ألّا يتلكّأ ، وإلا تبدّد غضبه على الدرج المرهق • لن يستفيد شيئا ، يعرف ذلك جيّداً • لكنه لن يدع الخيانة تمر بسهولة •

أثناء صعوده يلتقيه عدد من العمال والمراجعين • يحيّونه ويفسحون له الطريق • يحيّيهم ويفسح لهم الطريق • يستغرب أن أحدا منهم لم يراجعه بشأن من عديد الشؤون التي تنفخ قلوبهم • واذ يدور مع الدرج يرى أعينهم مصوّبة اليه : بعضهم ينظر اليه مباشرة ، بعضهم يرمقه لحظة وينصرف ، بعضهم يتفحّصه باستغراب ، وبعضهم يحدّق اليه بمزيج من الثقة والتهديد • يتابع صعوده وقد داخلته الحيرة • أيكون وجهه واشياً بغضب نفسه ؟

أخيراً يصل الى الباب المغلق • الآذن الذي اعتاد الوثوب للحيلولة دون دخول المراجعين مباشرة ، يثب عن كرسيه مسلّماً • يتجه إمام اليه ويصافحه : كيف الصحّة ، وكيف الهمّة ، وكيف الأهل ؟

يقرع الباب ويدخل • رئيس الاتحاد واقف ببدلته الزيتية وابتسامته الأنيسة ، والمكان الوسيع نصف الوثير خالٍ إلا من الرجلين وصوت المطر •

« أعرف لماذا جئت ، » يقول الرئيس •

« لا أظنّ • وإلا لما كنت مبتسماً • »

« بلى أعرف • جئت لأجل التشريعات العمالية الجديدة التي لم تصدر بعد • الحكومة تعتبرها صيانة نهائية وأبديّة لحقوق العمال ، وأنت لك رأي مغاير • أعرف ، أم لا أعرف ؟ » •

يبتسم إمام رغماً عنه : « تعرف يا سيدي • بس نسيت أن تقول إن الحكومة لم تعط إذنا لمناقشاتنا في الاتّحاد هنا • »

« الحكومة أعطت أذنين ، لا أذناً واحدة • » ويخرج من وراء مكتبه فيجلس وإمام على كنبتين متقابلتين • « لكنّ الرأي اتّجه الى أنّنا في المرحلة الحاضرة لا نستطيع أن نعطي كامل ملكيّة المعامل والمنشآت للعمال • لأن هذه الخطوة متقدّمة جداً ، وبقيّة قطاعات الاقتصاد متخلّفة الى درجة لا تسمح بتمليكها للعاملين المنتجين فيها • كما سيخلق مستويين متفاوتين جداً للتركيب الاقتصاديّ ، وللعلاقات الاقتصاديّة • »

« لم أسمع في حياتي بتطبيق اقتصاد اشتراكي بدأ في جميع القطاعات دفعة واحدة • يمكننا أن نبدأ بالعمّال ، ونجعلهم مالكين للمعامل التي يعملون فيها ، ثم نتابع في بقيّة القطاعات • نحن الآن أمام اختيار حاسم : اما أن يملك العمّال، واما أن يظلّوا تحت سيطرة العلاقات البرجوازيّة بينهم وبين ربّ العمل • »

« لن يكون هناك ربّ عمل ! الحكومة أمّمت المعامل والمصانع وكلّ شيء، وعلاقة العمّال بالحكومة ، لا بربّ عمل ! » •

« الحكومة هي ربّ العمل الجديد · هي التي تشغّل العمال وتدفع لهم أجوراً · لم يحدث تغيير · صحيح أن الأجر سيزيد ، وسيصير للعمال حصّة من الأرباح · لكنهم سيبقون أجراء ، لا يملكون · اهتمامي لا ينحصر في المال والتعويضات و و ·· القضيّة قضيّة قضية ترسيخ وعي اشتراكيّ في نفوس العمّال · عندما يشعرون أن المعامل لهم ، ملكهم ، تضمن الثورة أن هذه الطبقة بأكملها ستدافع عنها · »

يصمت الرئيس · على وجهه ترين حيرة خفيفة بين اختيار الممكن والتمسّك بالمثال · يشبك أصابعه أمام أنفه ويطرق ·

« ما العمل ؟ » يسأل إمام ·

« ما العمل ؟ » يسأل رئيس الاتحاد بنبرة تشير الى استحالة أيّ عمل ·

« نحن اتّحاد العمّال · يسوى أن نرسل برقية شكر ، على الأقل · لا تنس أنّنا دولة العمّال والفلاّحين · »

« خذ راحتك في السخريّة ، عزيزي إمام · أنا من جهتي قلت ، صدّقني ، كلّ ما يمكن أن تقوله أنت في ساعة غضب · لكن الدولة هي الدولة · والسياسة العليا لها ضروراتها · »

« نحن غير ملتزمين بالدولة ، وانما بالعمّال أولاً · على الأقلّ بدولة تصدر هذه القوانين : أنا أعتبر القوانين المقبلة هذه تراجعاً فظيعاً عن مصالح الطبقة العاملة · وعلى هذا الأساس يتحدّد موقفي · ويجب أن يتحدّد موقف الاتّحاد أيضاً · اليوم ينتفون شعرة ، وغداً ينتفون اللحية بكاملها · »

« أخي ، ألن نكفّ عن ترديد هذه الافكار ، ونحن ·· »

يصمتان . يرفع إمام ذقنه ويضع تحتها أصابع ترتجف . ويطرق رئيس الاتّحاد موقّعاً بإصبعه على مفصل اصبعي اليد الأخرى . يصل الى مسمعيهما تنقير المطر على النوافذ وصوت الريح التي هبّت فجأة .

يسأل رئيس الاتحاد بهدوء ، وهو ما يزال مطرقاً : « ماذا يمكن لاتّحاد العمال أن يفعل ؟ »

يجيب إمام بغضب مكظوم : « اذا كنت تعني عجز الاتّحاد عن القيام بعمل ، فسؤالك يجب أن يكون : ماذا يمكن للاتحاد أن يفعل وهو لا يقوى على معارضة السلطة ؟ هكذا يجب أن يكون السؤال . »

« لكننا لا نستطيع في هذه الظروف أن نقف موقف العداء من السلطة . »

« لكن السلطة تستطيع . وقد فعلت . نحن قادرون على فعل الكثير ، اذا أردنا . ندعو المؤتمر العامّ للانعقاد ، ونناقش موضوع قوانين تنظيم علاقات العمال بالدولة . وعندما تتوسّع المشكلة ، وتوضع أمام الرأي العام ، لن يجرؤ أحد على سلب العمّال حقوقهم . المهمّ ألا نبصم . »

يبتسم الرئيس بوهن ، وينظر الى النافذة البليلة : « وفي رأيك أن هذا الهيكل الكرتوني سيقف معنا ؟ أنا لا أوافق على عقد المؤتمر . الحركة العمالية في بلادنا ، غضّة ، رخوة . العمال لا يعرفون أنفسهم كطبقة ، وإن عرفوا فهذا كلّ شيء . لا فعل . »

« لكنّنا الآن أمام قضيّة خطيرة · وهي تصلح كبداية لتنشيط الحركة العمّاليّة · موقف من هذا النوع ، سيزيد العمال وعياً بأنفسهم كطبقة · سيعرفون أن المكتب التنفيذي يفعل شيئاً غير البصم وتوقيع الأوراق · »

يتأمّله الرئيس بعينين واضحتي الانشغال · يتأمّلان أحدهما الآخر برفاقيّة وتساؤل · أخيراً يعلن الرئيس : « لا · يمكن البلاد مقبلة على حرب ، وفي هذه المرحلة ، قضيّة من هذا النوع تصير ثانوية · المسألة القومية أهمّ · ثم لا تنس : الذي بيته من زجاج ، لا يضرب الناس بالحجارة · »

« بالطبع ، نحن كلنا نتحرّك في إطار قومي · ولكن أف ! كم أن هذه البلاد مقبلة على حرب ! منذ عشرين سنة والبلاد مقبلة على حرب ، والحرب مدبرة عنها · أيّ كلام هذا ؟ حتى أنت ركبك بعبع الحرب ؟ الحرب ستقع فقط اذا هجم علينا العدوّ ؛ أما ، نحن نقوم بالحرب ؟ وبعدئذ ، إذا كانت بيوتنا من زجاج فعلا ، خلّها تتحطّم سيدي · لا أحد يحرص على بيوت زجاجيّة · المهمّ أن نخرج على الناس ونرميهم بالحجارة · »

« أخي إمام ، نحن غير قادرين على عمل شيء · الآن نقبل هيكل اتّحاد ، حتى يتعوّد الناس عليه ، يقولوا والله عندنا اتّحاد · وبعدئذ ، من نحن لنتحدّى السلطة ؟ خلّنا واقعيين · الانتخابات القادمة يسقطون أسماءنا من القوائم الانتخابية ، ويجيئون بناس لا يعملون مشاغبات · جهدنا الآن أن نحافظ على مراكزنا ، لا بغايات شخصيّة · وهذا كلام موجّه لك بصورة خاصّة · أنت العين عليك حمراء · لأنك ماسك السلّم بالعرض · ويمكن الانتخابات القادمة · · · »

« أنا لا أبالي بأحد • أنا أنجح بالانتخابات لأن العمال ينتخبونني • خلّهم يفتشوا عن لعبة غير هذه • »

« طيّب • ينتخبك العمال في المرحلة الأولى • في المؤتمر العامّ من ينتخبك ؟ تعرف كيف تجري الأمور في المؤتمر العامّ • كلّ شيء محسوب ، ومرسوم • »

« لست حريصاً على مركز لا أمارس فيه مسؤوليّاتي وقناعاتي • »

« صدّقني ، هذا سؤال لست وحدك من يسأله • لكنّنا هنا أفضل منّا في الخارج • »

« هذا موقف توفيقيّ ، أو كما تسمّيه أنت ، عمليّ • لكنّ الثورة لا تقوم في المكاتب والمؤتمرات • الثورة تقوم في المعامل والساحات العامّة • لن يطول بنا الوقت حتى نصير شلّة موظفين • »

« أنا معك • لكنّ ظروف الثورة لم تتهيّأ بعد • »

« ونحن نعمل جهدنا لتأجيل تهيئتها • »

« بل نحن نقوم بعمل عظيم • وجودنا هنا يعلّم العمّال ما هي اللاثورة • وهذا شيء ممتاز • أنا لا أمزح • »

« براقو ! أهنّئك • وماذا بشأن القوانين الجديدة ؟ » •

« ماذا بشأنها ؟ » •

وأمرهم شورى بينهم ، تعني أن العرب أوّل من عرف الديمقراطية في

العالم • بل اليونان أوّل من عرف الديمقراطية ، لماذا التعصّب ؟ اليونان ؟ كانوا مجتمعاً طبقياً ، والسادة منه فقط ينتخبون • العرب كانوا ينتخبون الخليفة • ليتهم يفعلون ذلك الآن • الديمقراطيّة في خبر كان • أيّة ديموقراطية تعني ، النيابية أم النقابية ؟ كلّه في خبر كان •

أخيراً يبتعد عليّ منهم بالقدر الكافي ، فلا تصله أصواتهم • ينزل الدرج بخطى ثقيلة ثم يدلف الى غرفة المدرّسين • يرتمي على كنبة مخلّعة ، وفيما ينتظر الشاي ، يمضي في سلسلة من التحيّات • يقولب وجهه وكلماته يميناً ويساراً ، وفي قرارته شعور بالرضى : لقد كان الدرس ناجحاً • يأتيه السائل الساخن فيحسو منه ثلاث حسوات متتاليات •

يتساءل أحد المدرّسين : « متى نقبض أجر الساعات الإضافية ، يا جماعة ؟ » ولا تقنعه إشارة الجهل التي أرسلها عليّ فيتحوّل الى زميله : « أستاذ أنطون ، ماذا ؟ » •

يهزّ الاستاذ أنطون رأسه متفكّهاً : « ليس قبل أن أبيع السيارة • »

يقول ثالث : « أنت عندك سيّارة تبيعها ! نحن لا نملك الا هذا نبيعه • »

يقول رابع ساخطا : « لا أفهم لماذا يطلعون روحنا كل سنة ، قبل ما نقبض أجر الساعات الإضافية • واحدنا يستر عورته بهذه الساعات الإضافية • »

يقول عليّ : « نحن شحّادون بربطة عنق • ماذا بسّام بك ، متى نقبض ؟ »

يقول بسّام بك ، موجّهاً اهتمامه كالعادة الى المسألة الحضارية : « أخي ، نحن شعب متخلّف • في أوروبا ، تعدّ الجداول وتخصّص الاعتمادات قبل بدء

السنة الدراسيّة بشهرين · فهمان ، أخي ؟ أما نحن ، فحتّى يفرجها ربك · حتى يخطر على بال الموظّف المسؤول جمع التواقيع على الجداول · وهناك مئة موظف · لا يعرفون أن الليرات القليلة أساسية للخبز والدواء · والمازوت ومئة شغلة · فهمان ، أخي ؟ » ·

يقول الخامس ، خجلاً ولكن متشجعاً : « بصراحة ، نحن لا نشبع الخبز · »

يقول الرابع : « المحاسب ، ألا يعطي سلفة ؟ » ·

يقول الأستاذ أنطون : « حزرك ، كم يبقى من أجرنا بعد المرسوم ١٦٧ ؟ والحسميّات والضرائب ؟ لا شيء · »

يقول الأول : « الله يلعن هذا الأجر · سلفة أو بدون سلفة · هل تحسّ أنك قبضت فعلاً أجر ساعات إضافية ، بسّام بك ؟ والله لو بدونها أفضل · »

يقول بسام بك : « الأسس الموضوعيّة للرواتب عندنا ، موضوعة من ثلاثين سنة · من أيام الانتداب الفرنسي ، فهمان أخي ؟ نفقات المعيشة زادت · الأسعار ارتفعت · وهذا الجيل لم يقنع بالخبز الذي كنّا نأكله من اربعين سنة · فهمان أخي ؟ هذا هو السبب · »

ينهض عليّ قاصداً المحاسب · في الخارج يلتفت باتّجاه يد أمسكت بذراعه · المدير يستدعيه بغمزة من عينيه · يمشي الرجلان الى الفسحة بين الـدرج والجدار · يشير المدير أن انظر ، وينظر عليّ : مدرّب الفتوّة وبيده مقصّ ثقيل أسود ، موجّهان مفتوحا السيقان ، ثلاثة من الطلاّب المسؤولين ـ تحلّقوا ، وفي الوسط وقف شاحباً مذعوراً طالب يرتـدي سترة لمعت عليها ستة أزرار وبنطال ضيّق الحوض فضفاض الساقين ·

يقول المدير : « تفضّل ، سيدي · هذا هو ما تدعوه التربية الحديثة ؟ »

يقول علي : « ما الحكاية ؟ » .

يقول المدير : « تطلّع ! تطلّع بعينيك ! »

ويردّد عليّ : « ما الحكاية ؟ » .

يقول المدير : « شف ، » وينتر سترة الفتى الى الأعلى . « شف ، » ويرسل اربعة أصابع في شعره الطويل . « شف ، » ويشدّ ساق البنطال بيده الأخرى . « ماذا تقول في هذا الشاب الذي نعتمد عليه في تحرير فلسطين ؟ » .

يتجمهر الطلاب حول المشهد ، صامتين مرتقبين . يركن الفتى في منتصف الحلبة مزداد الشحوب .

يقول عليّ : « قصدك من شروط تحرير فلسطين أن يكون الشعر قصيراً ، والجاكيت بأربعة أزرار . »

يقول المدير : « أقصد الدماغ ، أستاذ ، الدماغ . » ويضرب بظاهر أصابعه على صدغ الفتى . « هذا الدماغ المحشوّ بالموضة والبنات . سَلْهُ ، هل يعرف شيئا عن اسرائيل ؟ » .

يقول عليّ : « وماذا نعرف نحن ؟ نحن أنفسنا لا نعرف ما لون العلم الإسرائيلي . »

يقول مدرّب الفتوة : « ليحفظ رجولته على الأقل . هذه ثياب زعران ومخنثين . »

يقول عليّ : « اذا كان أبواه موافقين ، ما دخلنا نحن ؟ هل تريد من المدرسة أن تتخذ موقفاً مضاداً لرغبة الآباء ؟ » .

ثم يتسلّل اليه شعور مألوف يصدع الجبل الذي كانه حتى الآن · تتناثر الحجارة الصلبة على قعر بهتان لا يراه أحد · لحسن الحظّ ، يبدو على المدير إحساس بالخطورة من كلماته الأخيرة : الأبوان موافقتان ! يا للغرابة ! يلتفت الى الفتى الباهت المسترخي الحنكين · يتفرّس في وجهه ، فيصطاد عينيه ويأسرهما : « البس هذه الثياب خارج المدرسة ، يا ابني · الطلاّب هنا معظمهم فقراء ولا يرتاحون لهذا المنظر · »

عندئذ يقرع الجرس · في ثوانٍ يبقى المدير وعليّ وحدهما · يقصدان غرفة المدير ·

« أخي علي ، يجب أن تقبل منصب معاون المدير · وبعد فترة ستأخذ مكاني ، لأني سأتعيّن مديراً للتربية · وبعد ذلك تسلك الطريق · انتبه لنفسك يا رجل ، أنت مستقبلك وزير · »

« أرجو الا اوقع بنفسي هذه العقوبة · »

« عقوبة ، ما ؟ ماذا تقول في عقوبة كونك مديراً ؟ » ·

« الإدارة تحتاج الى رجال متوازني الشخصية ، يعرفون كيف ينزلقون عن حدّ الموسى دون أن يجرحوا · »

« بودّي أسألك · كنت جادّاً في الدفاع عن هذا الولد الرقيع ؟ هذه ظاهرة خطرة ، أستاذ ! تصوّر شبابنا كلّهم يفعلون مثله · ماذا ستكون النتيجة ؟ دمار كامل · الأخلاق ، أستاذ ! الأخلاق ! يقول حافظ ابراهيم :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فان همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

هذه التقاليع والتصرّفات هجوم أمبريالي شرس غير مباشر ، على قيمنا

وشخصيّاتنا . يريدون لهذا الجيل أن ينحرف عن طريق النضال ، يبتكرون له الف الهية والهية ليميّعوا شخصيته . »

« عزيزي ، هذا شاب عمره سبعة عشر عاماً . تصوّره بعد مثل هذه المدة ، وزيرا مسؤولا عن وزارة بأكملها .. »

« معقول هذا يصير وزيرا ؟ ما اسمه ؟ من هم أقرباؤه ؟.. »

« على مهلك . ما زال بينه وبين الوزارة سبعة عشر عاماً . ولكن تصوّره وزيراً . تصوّره مسؤولاً عن وزارة بأكملها . عن مئات الناس والقضايا والمصالح . وهو بالأساس قد تعرّض لناس مثلنا منعوه من أن يشبع مراهقة . منعوه من التأنّق وملاحقة البنات وتلبية حاجات هذا العمر الخطر ، المراهقة . ماذا ستكون النتيجة ؟ إذا كنت غير قادر على التخيّل ، فلا شكّ أنك قادر على التذكّر . »

يقهقه المدير بطرب خاص : هذا كلّه شيء آخر : المهمّ أن الفتى لن يصير وزيراً في المستقبل المنظور ، وليس له أقرباء مهمّون . يضرب كفّاً بكفّ وهو يضحك ضحكة ملغمة مسخسخة . يبدأ حديثاً آخر محلّى بالدعابة والصداقة والسجائر . يطلب فنجاني قهوة ، فيذكّره عليّ بالجرس الذي رنّ معلناً بدء الحصّة الثالثة . يقول للآذن : « شف المراقب حكمت ، خلّه يشرف على الصف العاشر ، الشعبة الرابعة ، لبينما يأتي الاستاذ علي . » يلتفت الى زميله : « انتهينا ؟ الله يخليك . هذه التفاسير عن عمر بن الخطاب .. نحن في غنى عنها .. أنت تعرف الطلاب والبيئة التي تعيش فيها . »

« لم ننته من شيء . يجب أن يكون هذا الأمر واضحاً . سأستمرّ في تفسير ثورة الإسلام على النحو الذي أؤمن به . هذا هو الشيء الوحيد الذي بقي لي

لأشعر أنّي كائن حيّ . أنا محاصر وممنوع من الفعل والتجربة . الحيــاة كلّها تفاهــات . وأنا في حاجة الى سلــوك واحد على الأقــلّ يمكنني من احترام نفسي . »

يفتح المدير عينيه مذعوراً . تهرب من عينيه الدعابة والمودّة مطاردتين بالخوف . يشعل عليّ سيجارة ويحدّق الى وجهه بثبات . ينهض عن كرسيّه ويقف أمام مديره .

« أستاذ علي ! ليس الآن وقت الحديث عن تاريخنا . هذه أمور تأتي فيما بعد . الصراع الأساسي الآن ضد الصهيونيّة . »

« الصراع ضد الصهيونيّة هو الطارىء . لأن الصهيونية نفسهــا طارىء تاريخيّ . الصراع الحقيقيّ هو ضدّ الوضع الإنساني ، والتاريخيّ ، الــذي نعيش فيه . وهو يشمل الصهيونيّة وكلّ شيء . »

« أنا معك . نحن لا نعرف عن تاريخنــا الا القليل ، ولا نفهم منه إلا الأقل . إنما النتيجة الوحيدة لعملك إعطاء الرجعيّة المحليّة مبرّراً أو فرصة للتآمر على الثورة وإسقاطها . الوقت الآن وقت المعركة . يجب أن نتفــادى المعارك الجانبيّة . معركتنا الأساسية الحاسمة مع الصهيونيّة ، والامبرياليّة . كلّ ما عداها بلبلة وتشويش وإضعاف للانتاجيّة الثوريّة . الرجعيّة تبحث عن مشاكل من هذا النوع لتنزل الى الشارع لابسة الأكفان . »

« أنت تتحدّث معي كمدير مدرسة أم كصديق؟ كإنسان تقدّمي يريد التغيير؟ الى متى يستمرّ هذا التأجيل القاتل ؟ الذين أعرفهم ، كلّهم يضيع أعمارهــم التأجيل . بدأوا بالمطامح والأمل العريض والثورة ، وانتهوا الى الخيبة . وعند هذا الحدّ رفضوا الاعتراف باليأس ، وفقدوا القدرة على مقاومته .

وتركبت حياتهم على الأمل المقهور والخيبة الحارقة والتاجيل الذي ينتظر المعجزة · تركيب عجيب · فريد في أنه يوصل أصحابه الى قبورهم الباردة بعد عمر مليء بالقهر والغيظ والتفاهة · هل يعجبك هذا ؟ حركة التاريخ تتّجه في العالم كلّه الى الأمام ، ونحن نتراجع · لماذا يوجد دائماً ذلك الحائط الخفيّ الرصاصيّ ، الحائل دون أيّ فعل وأيّ ممارسة ؟ » ·

ينصت المدير واجماً · واذ يفرغ عليّ شحنته ، يهزّ رأسه بضحكة صفراء صامتة : « أنت دخلت في الأساسيات ، يا عزيزي · »

« لأني أشعر أني خارجها · »

« لماذا لا تكتب مافي رأسك وتؤلّف كتاباً ؟ أنت تعرف الوضع في المدرسة والمجتمع · »

« ومن قال لك إني مكتفٍ بالجلوس رجلاً على رجل ؟ لديّ كتاب في الدرج من سنتين ، ولكن هات من ينشره في هذا الجوّ الثقافيّ الوبش · »

عندما جاء عباس الى المنطقة قبل عامين ، كان الأهالي في حرب حقيقية · حرب العائلات ، وحرب مياه الشرب والسقي ، وحرب الأعراض · حالة مروّعة · تنافر وصراع تغلغلا في شرايين ليلهم ونهارهم حتى صارا صفة نفسية · وبدأ بأن تصدّى لمشاكلهم اليومية التي امتصّت أعصابهم ووقتهم : فلاحان يتخانقان على أسبقيّة السقاية من النبع ؛ دوابّ أحدهم عبرت حقلا مزروعاً لآخر ؛ الآغا السابق يصطحب أصدقاءه وكلابه في رحلة صيد تتلف الموسم ؛ فلاح يريد أن يترك الأرض ويصير عاملا أو موظّفاً ؛ معلم يرغم زوجته المعلمة على البقاء في البيت ؛ زوج يضرب زوجته ؛ مراهقون يسرقون مواسم الفلاحين · مشاكل صغيرة لا تحصى ، انبثقت في وجهه فجعلته يحسّ كالعصفور العالق بالدبق :

كلما رفرف طالباً الخلاص ، كلما علق أكثر · لكن هذه « العلقة » فاضت عليه بمشاعر حادّة وغنية · منحته وعياً بأنه يصير الى شيء آخر يزداد كل يوم ويدفعه الى المزيد · شعر كأن الاضطهاد الغامض الغريب الذي ابتلي به في طفولته ، قد صار الآن طاقة خلق متفجّرة · كان في القرية يرعى قطيع الغنم والماعز والبقر ، وبيده كتاب · أراد وهو في البراري أن يلحق بحضارات ناطحات السحاب · أحياناً يأكل وجبتين ، وغالباً وجبة واحدة ، وما تبقّى فمن البرّية كالحيوانات الشاردة ·

لكم تمنّى لو قيّض له فانوس سحريّ ، أو خاتم أسطوري · اذن لأسبغ على كل مريض ثوب الصحّة والقوّة · ولأعطى كل إنسان بيتاً جميلاً مجهّزاً بكل ما يوفّر له الدفء والهناء والأمان · ولوهب الناس مالاً غزيراً ينفقونه بلا حساب · ولأتاح للجميع فرصة العيش مع الحبيب الغالي في الربيع الزاهر والصيف المثمر والنعيم المقيم · ولأبعد عن البشر الحزن والعذاب والإثم والجوع · خاصّة الجوع ، هذه الخاصية الأعظم لبني البشر · لو قيّض له مثل هذا الخاتم لخلق عالماً جديداً زاخراً بالعدل والمساواة والشبع ·

يجد المراجعين بانتظاره منذ وقت طويل · وفي ثوانٍ تمتلىء بهم كراسي غرفته الكبيرة ، ثم زواياها والفسحات بين الكراسي · وينهض في الشكل المستطيل معرض مثير للأزياء : الى جانب الشحّاطات والشروال والجلاّبية والكوفيّة والملاءة السوداء والجلباب الكحليّ ، تلمع ربطات العنق والدبابيس الكريمة والبلوزات والتنانير والأحذية والكنادر ، والوجوه أيضاً · وفي الزاوية القصوى يلمع وجه نافر الخدّين والشفتين ، وتبرق كلما انفتحت الأجفان عينان تتحدّثان بأكثر من لغة واحدة · كلّ جاء يحمل هماً ، معتكر الفؤاد مدلهمّ الوجه · وعلى نحوٍ ما ، كلّ يعتقد بأن المحافظ قادر على شطب همّه وإزالة

الشعـــور الداكن من نفسه القلقـة · إنه المحافظ ! شيء شبيه بالخـاتم السحريّ !

بعد حين ينتبه عباس الى أنه يطيل الوقت في مناقشة المراجعين · صحيح أنهم بذلك يتأكّدون من اهتمام المحافظ بهم · سيقولون ان المحافظ استقصى كل صغيرة وكبيرة ، قبل أن يدوّن على مفكّرته الاسم والمشكلة والحلّ المقترح والوقت الذي يستغرقه الحلّ · لكنه ، عباس ، يضبط في نفسه سبباً آخر : يريد لهذا الوجه المتوهّج أن يشحب تعباً وانتظاراً · لا يدري لماذا ، لكنه يريدها عندما تبـدأ الحديث أن تتخفّف مـن الشعور بأنها شيء خاص عن بقيّـة المراجعين ·

بعد أن أنهكه مراجع كان بالتأكيد يدّعي الغباء والمسكنة ، يسأل عبـاس المحافظ نفسه : أهذه هي الثورة ؟ حلّ مشاكل المراجعين ؟ أم أن ثمة أسلوبـاً ثورياً أكثر حسماً ؟ يستغرقه العمل مرة ثانية ، ثم تنبثق الأسئلة في خاطره · يشطبها ، فتبقى مع أنها مشطوبة · يلفظها · عجيب أنها ترد الى ذهنه ، وفي لحظـات كهذه · لقد انحلّت المشكلة منذ عـام ونيّف ، عندما استقرأ العمل الثوريّ ووجد له مسارين متكاملين متعارضين : الحلول العاجلة للمشاكـل المرحلية ، والحل الشامل للمشكلة الأساسية · في عهد البرجوازيّة ، كان هؤلاء ينتظرون في بهو المحافظة ساعات ، وأياماً · وغالباً ما كانوا يعودون بخفّي حنين · أما الآن فهم يقابلون المحافظ ·

هذا طبعـاً لا يكفي · لكن الثورة ، في الحقيقـة ، أمر شائك للغاية · ومربك ·

وهو أمر لا يدخل في صناعة مستوطنةٍ كلّ بيت ـ داخـل هذه البيوت

المتراصّة ، المغلقة على التاء المربوطة والتاء المفتوحة • إنه مياه تجري من تحت قدمي عائدة دون أن تحسّ بها • تعرف جيّداً صناعة المحشي ، وشيخ المحشي • ولكن لا شيء آخر • حتى أسماء الطبخات الفكهة ، من نوع « طباخ روحه » و « حراق اصبعه » و « ست ازمقي » ، لا توحي لهـا بغير العنـاء والتكشير المكفهرّ •

لقد اسودّت يداهـا من تقوير الباذنجان ، وعلى نحو ما اتّسخ نحرهـا ووجهها • وعلى الطاولة الكبيرة تراكم اللبّ الهالك وتيجان الباميا، وقشـور الثوم والبصل والبندورة ، نقيع الرز واللحمة المفشوشة دهناً ، والسكاكـين والمغارف وعلبة السمن البلدي • نصف ساعة كاملة في تقشير الثوم ، هذه المادّة العجيبة التي لا تستطاب الباميا، بدونها • وساعة كاملة في قطع تيجان الباميا، • عباس يتحدث بلا كلل عن الثورة ! لكن الثورة لن تدخـل أبداً عالم الثوم والبصل والباميا، وتريح المرأة من أكبر تعب على وجه الأرض • تقشير الثوم والبصل والبندورة ؛ دقّ الثوم مع الكزبرة ؛ فرم البصل والبندورة ؛ قطع تيجان الباميا، ؛ تقوير الباذنجان ؛ نقع الرز — هذه كلّها أعمال تحضيريّة فقط • لقد نزل من عينيها أثناء فرم البصل دموع تملأ زجاجة نيرون ، ذلك الطاغية الرومانيّ الذي يتحدّثون عنه •

والآن تبدأ المراحل المترابطة الحاسمة : قلي اللحمة ، إضافة الثوم والملح ، قلي الباميا، مع اللحمة ، إضافة البندورة ، إضافة الماء ، تغطية الطنجرة •

وبين هذا وذاك ، تجد عائدة باستمرار عملاً تقوم به • ليس فقط أن لؤي يتدحكل بين ساقي أمّه وسيقان الطاولة ، أو أن الهاتف يرنّ ، بل هذه الفوضى المدوخة في محتويات المطبخ • بعد قليل يتلاشى العالم الخارجي من بين صدغيها وتنغلق النافذة المفتوحة • وبين وقت وآخر تمدّ رسغها وتمسح حبيبات العرق

عن جبينها · المطبخ هو الغرفة الوحيدة التي لا تحتاج للتدفئة في البيت كله · عشرات المرات تنتقل هي ما بين فرن الغاز والطاولة · عشرات المرات تفتح صنبور الماء وتغلقه · عشرات المرات تمضي الى رفوف أدوات المطبخ · عشرات المرات يدور باب المطبخ ويدور ثانية · تبحث عن الملح · تبحث عن السكّين · تبحث عن البهار · تبحث عن شيء نسيته · يفور الماء وينكب على الغاز فيطفئه · تتعثّر بالكرسيّ · تجرح اصبعها بالسكين · يقع صحن وينكسر · تتشرغ باذنجانة · يحترق البصل في المقلاة ويدخّن · تمتلىء الطاولة تماماً · الرزّ · الحشوة · الملح · الماء · الفلفل · الملعقة · الحامض ·

يقرع الجرس وتدخل أمية · تقف على عتبة المطبخ مسترخية على ساق واحدة · تراها عائدة فتبتسم بإعياء · تمسح عرق جبينها : « خلصت طبختك ؟ » ·

« أم · من زمان · »

« هنيئاً لك · يا أختي ، عبّاس لا يأكل الاكل كيفما كان · »

« لا أحد يأكله كيفما كان · لماذا ، ألا يعجبك طبخي ؟ نواف رغم كل شيء ، يقول إنه لا يذوق أطيب من طبخي · »

« لا والله ، أنت طبخك طيّب · يقطع الطبخ وشغله · لا أعرف كيف تخلص طبختك بسرعة · »

« ما عندي طشم أبقى بالمطبخ · يصيبني صراع · »

« صراع وبس ؟ موت أحمر · »

« طيب عجّلي بشغلك ، واخلصي على بكير · »

« اذا خلصت بأي شيء أتسلّى ؟ »

ينظر المحافظ الى ساعته ، واذا هي تشير الى الثانية · وحقّ السماء !

من فضاء الغرفة الفارغ ، تقترب المرأة معلنة بابتسامتها أن دورهـا قد جاء بعد انتظار طويل لم تنزعج منه · شيء ما يتوفّز تحت جلده مع اقترابها · ينظر اليها بصرامة ، فتزداد ابتسامتها خضوعا · يدرك أنه صار صاحب اليد العليا ، وفي مأمن من مكائد ضعفها الشيطاني ، فيزداد التوفّز تحت جلده· يشدّد انتصابته وراء الطاولة الفخمة وقد اطمأن الى تأملها مباشرة ، مجازفاً هـذه المرة بخروج التوتّر الى سطح الجلد ومستغرقاً في تلبّسه التامّ لشخصية المحافظ : الرجل المسؤول عن مصالح الشعب المكرّس نفسه لقضيّة الثورة ·

لكنّها تقترب كثيراً · تضع يديها على الطاولة ، فيلمح أيضا ساعداهـا العاريان · هؤلاء النساء ! يلبسن المعاطف ، وتحتها بلوزات بتراء · بل هي خبيثة تعرف نقطة ضعفه الوحيدة ·

« أنت تعرف قصتي ، » تقول له · أجل ، ولكن لماذا تخاطبه بهذه الألفة الإبليسية · كأن لها دالّة عليه مبعثها تفاهم غير معلن · تريد أن تغريه ولا تعطيه · ينقلها الى المدينة ، وبعدئذ تقلب له ظهر المجنّ ·

« ماذا ؟ زوجك يضربك مرة ثانية ؟ أنذرته المرّة الماضية ، وحلف لي أنه لن يعيدها · »

« أوه ، لا · قصة الضرب تعوّدت عليها · بودّي أنتقل الى المدينة · »

« كلكم بودّه ينتقل الى المدينة · »

« أخاف من الطريق وركّاب الباص · يهجمون علي · ولكن ·· القصّة طويلة · الآن ، يمكن ، لا وقت عندك · »

« فعلا أنا تأخرت . لديّ موعد هام في هذه اللحظة . »

« هل تأتي الينا ، المساء ؟ سأحكي لك قصتي . أنا أموت رعبا . ربما يكون زوجي غائبا ، لكنه لا يطيل الغياب . تعال الساعة السابعة . »

أمام وجهه تنتصب عيناها وخداها ونهداها ، وتتهاوى بقية جسدها كأنها مستلقية على الظهر . عظيمة هي المرأة ، اذا صمّمت على العطاء . ورائع عطاؤها ، بلا حدود . وهذه أخبث امرأة شهيّة في العالم .

تمدّ يدها مصافحة ، وترجع بجذعها الى الخلف وهي تبتسم . ويمدّ يده .

يراقبها وهي تتناول المعطف ، ترفع ذراعيها لترتديه فترتفع التنورة عن الركبتين التفّاحيتين . ثم تغيب .

من ذهنه تنجلي كثافة صامتة ، ويحسّ بفراغ مريح . للتوّ يدخل طلعت بك . بلحظة واحدة يشكر عباس ذكاء المرأة الذاهبة : لو بقيت دقيقتين أخريين لأثارت شكوك هذا الثعلب البرجوازي .

يقول طلعت بك : « سيدي ، أنا كنت أنتظر انتهاء المراجعات . ووقتك ضيّق . والآن وقت الغداء . أم نزار طبخت لك الأكلة التي تحبها . أنا لا أغريك بشيء ، ولكن أم نزار هي التي طبخت . غداء عمل . ينتهي الغداء من هنا ينتهي الشغل من هنا . سيارتي واقفة أمام الباب . تفضل سيارتك ؟ كما تريد . »

كالنائم ، يقول عباس وهو ينظر الى ساعته : « بعد ثلث ساعة أكون عندكم . » وتستوي في ذهنه غادة بساقيها البلوريتين والتدفئة المركزية الناضحة من جسدها . هذا الخنزير البري يعرف أيضا نقطة ضعفه الوحيدة . والاتفاق

قائم وتامّ ، وإن يكن غير مكتوب • واذ يختفي الرجل من أمامه ، تعود اليه الأسئلة الجارحة • في البداية كان يريد إذلاله • لقد مرّ حين من الدهر صال فيه الإقطاعيون على هواهم وجالوا • شربوا عرق الفلاحين ثم بصقوا في وجوههم • اعتدوا على أعراضهم ، شخصيّاً وبالمخارز • ثم لفظوا النساء الى المبغى أو الموت • في البداية أراد إذلاله بالطريقة نفسها • لكنه سرعان ما اكتشف أن ثمة خلافاً جذرياً في القيم نفسها • طلعت بك لا يهمّه ما بين فخذي امرأته • لقد ارتاب في التسهيلات ، بادىء الامر • وظن أن الثعلب ينصب له فخاً • اذ لا يمكن لرجل فيه حسّ ، أن يسكت عن النظرات المفترسة التي رشق بها عباس جسد غادة • غير أن طلعت بك كان دائماً مرحاً ومتحرّراً وبريئاً • يعرف مدار الطبيعة البشرية ، ويرفض محاسبة الناس على نواياهم • ولكن ماذا لو صار شيء بين عباس وغادة ؟

لم يحدث شيء ، بعد ! وهذا هو لبّ الحيرة • فبعد وقت قصير ، رأى عباس في التسهيلات شركاً حقيقياً • صيد محار بلا لؤلؤ • وعرف أن طلعت بك ، الإقطاعي العريق قد سلك درباً آخر لإذلاله — هو ابن الفلاح العريق : يغاويه بزوجة ترخص الحياة لقاء الحصول عليها ، ولا يمكن الحصول عليها • ليس طلعت بك هو المانع ، بل شيء آخر لا يدري جوهره بالضبط • غادة تهديه القمصان والأزرار وربطات العنق ، وطلعت يهدي عائلة الجزادين والشكلات والعطور • وبقيت غادة شبه مستحيلة • كل شيء واضح ولكن لا شيء متحقّق ، خلا بعض المبادرات التي تزيده أواراً •

وهكذا دخل في الصراع ضرام جديد • عباس يريد أن ينتصر • يريد أن يظفر بغادة ، وأن يذلّ هذا العتلّ ، الذي مكّنته ثروته من أن يتزوّج جنيّة

تصغره بثمانية عشر عاما · لقد عرف اللعبة ، وسيمضي فيها الى شوطها الأخير ·

وفي الطريق تلسعه الريح القارسة فيرفع زجاج السيارة · عجيب مناخ هذه المدينة ـ تصفو السماء فوقها فتبترد الشمس وتهزم الريح · ينزل المطر واذا هو كالطير الأبابيل · ويأتي الصيف فتودّ الناس لو تخرج من جلودها ·

على الباب يستقبله الزوجان الناصعان · وفي البهو المترف الوسيع يتبادل الثلاثة النوادر والملح · تهيّئ لهم غادة كؤوس المارتيني ، ويتناخبون · يخبرها زوجها أن أبا لؤي دائخ اليوم من مراجعيه ، ومحتاج للراحة والطعام الشهيّ · وتبتسم المرأة لأبي لؤي بحنان حيادي · يشعر عبّاس بالتطويق : الحنان صفة المرأة غير العاشقة ، التي لا ترغب · ويدرك أنه موشك على الوقوع في الفخّ · « غلطان ، أبو نزار . » يقول مخاطباً الاثنين · « أنا من النوع الذي لا يتعب · أنت لا تعرفني · نحن الفلاّحين نزداد نشاطا بالعمل · »

يرفع أبو نزار يديه الى كتفيه : « أنا أرمي لك الطاعة · أنا يا أخي تعبان · واذا سمحت لي ، سأغيّر ثيابي وأدخل الحمام · عشرون دقيقة وأكون عندكم ، عيّن الساعة · »

وينسحب · يشعل عباس سيجارة ، وعبر الدخان يبتسم لابتسامة غادة الحنون · يقول : « أنا جائع · متى تطعموننا ؟ » تميل رأسها بالتلبية وتزيد ابتسامتها : « الخادمة تهيئ كل شيء · لا يهمك ، طلعت يعرف أن بيننا وبين الأكل ثلث ساعة · ألا ترمي معطفك ؟ » ·

صحيح · لقد نسي أن المنزل مدفأ مركزياً · ينهض متّجهاً الى المشجب ، فتدركه غادة في منتصف المسافة · يرمي معطفه ، فتتناوله وتمضي به · يهمّ

بالرجوع • كلا • ستعود هي من المكان نفسه • لقد آن الأوان • تلك القميصة البيضاء • تعود • تراه واقفاً • ابتسامتها الحنون نفسها • فيها شيء أبعد من الحنان هذه المرّة • معنى مبهم • غادة سيّدة المعاني المبهمة • تصل اليه • في ابتسامتها تساؤل عن وقفته • يقبض على ساعدها العاري النضير • « اي ! يلعن أبوك ، » تصرخ • يجذبها • يدسّ يده تحت إبطها الآخر • تغمض عينيها •

لا يدري كيف انقضى ثلث الساعة • لكنه كان كافياً لتجريدها من حواشيها الداخليّة وطرحها على السجّادة النفيسة • طرحها أرضاً فاعتنقته وطرحته معها • واستغرب أنها انشبقت معه في اللحظة نفسها • كأنها كانت تنتظره • يبهجه هذا التواقت : لقد حسب أن الوقت لن يكفي سوى له ، وصمّم على الانفراد بالشبق بعد كل ذلك الصبر الطويل ، مجازفاً بأنها ستلعنه فيما بعد • لكنهما خرجا من الزفّة متكافئين ، وهذا ضمان للمستقبل •

يقول لها وهما يسويان من ثيابهما : « متى أراك ؟ » « لا أدري • » « كيف ؟ » « وقت أريدك ، لا تكون حاضراً • اذا لم تكن حاضراً ضاع كل شيء • »

ذلك شيء جديد لم يعتد عليه • « وزوجك ؟ » تعود لها ابتسامتها : « في الشهرين مرة • » يجلس على الكنبة • لا يفهم • أهذا هو السرّ كله ؟

يدخل طلعت عاصفاً : « هيّا ، هيّا ، الأكل جاهز • »

تبقى الابتسامة على شفتي غادة : « كنت على وشك دعوة أبو لؤي • »

في غرفة الطعام ، تقدّم لهما الصحن الأول ثم تنصرف • انها تتبع نظاماً غذائياً صارماً منذ أن زادت ألفا ومئة وخمسين غراماً في الاسبوع • ويريح

عبّاساً خلاصه من حضور لم يعد ضروريّاً · لقد انتهى دور المرأة الآن ، وجاء دور العمل · وطلعت راغد في اعتقاده بأنه ضحك على المحافظ ·

وطلعت بك رجل عمليّ · يطلب اليه المحافظ أن يعطي نصف الماء للفلاحين ليسقوا أرضهم ، فيوافق : « على عيني · أيّ شيء تطلبه ، أبو لؤي · ولكن لا تنس أن القانون لا يجبرني على السماح للفلاحين باستعمال المضخّة · حتى ولو دفعوا · انما ، كرمى لك ، سأفعل ما تأمر · ولكن أنت رجل صعب ولاتحبّ التعاون · »

ينظر إمام الى ساعته · لقد تجاوزت الثالثة والربع · يشعر بالغربة في هذا البهو الجليل الصامت المترامي الأرجاء ، ولولا إيمانه لشعر بالضآلة · جالس على كنبة بنية اللون ، منتظر التماع الضوء في شبه اعتصام · لم يبلغ السيل الزبى بعد ، لكنه لن يسمح له بذلك وهو صامت لا يتحرك ·

ويقول المحافظ : « أيّ تعاون تقصد ؟ من أين للبرجوازيين مثلك أن يتعاونوا مع حكم ثوري ؟ الطرق كلها مقطوعة · »

« أخي ، الله خلق الخلق · وكلّنا أولاد بلد واحد · تريدنا أن نهرّب فلوسنا الى الخارج ؟ حاشا لله · هذا البلد بلدنا ، وهنا يجب أن نعمل · »

« بارك الله فيك · الحقيقة أنّك كلّك وطنيّة · »

« أبو لؤي ، الناس كلّهم وطنيون · نحن نحب هذا الوطن مثل غيرنا · وكل ما نعمله ، لمصلحة الوطن ، لمصلحة من ؟ دعنا ندخل في لبّ الموضوع · »

ينهض إمام ويقترب من النافذة · يزيح الستارة النفيسة وينظر الى الأشجار الباسقة الهادئة · كل شيء هنا يوحي بالجلال والمهابة · حتى الأشجار

تبدو رصينة مترفّعة ، رغم الريح السارحة · أترى سيأتي يوم يزول فيه آخر أنماط الآلهة الذي نسمّيه الدولة ؟

يقول المحافظ : « لا تنس أن مشاريعك مرتبطة دائماً بالدولة · لذلك يجب أن تحسب حساب الصالح العام · والا ، التعاون مستحيل · نحن لسنا متشنّجين · ولكن المصلحة العامة تأتي أولا · »

« هه ! يا عيني عليك · أنت تحكي جواهر · مشاريعي دائماً تكفل ربحاً للجميع · نحن قبلنا بتدخّل الدولة · والدولة على عيننا ورأسنا · ولكن خلّ الدولة تقبل بوجودنا : ومصلحة الجميع مؤمنة · »

يرتدّ إمام عن النافذة ، ويترك الستارة فتنسدل بدقّة الى مكانها الأول · ينظر الى الساعة بحركة استعراضية ، ثم الى السكرتير · لكن السكرتير لا يرى شيئاً · لا شك أنها أوراق رئاسية هامة · ولكن كيف قبل المسؤولون بتعطيل مصلحة العمال واعتبارها أمراً ثانوياً ، بل أمراً خطراً يجرّ أموراً خطيرة ؟ مبدأ اشتراكيّ أساسيّ · حقّ بيّن كالسيف المقلوعة ، يتحوّل بتوقيع الى عين زجاجية ·

« هات ما عندك ، » يقول المحافظ ·

« أخي ، أبو لؤي · أنتم متكتّمون على مخطّط التجميل لقرية (عكوبة) بدون فائدة · وغرضكم منع المضاربات والارتفاع غير المعقول لأسعار الأرض · ولكن الى متى ؟ سيأتي يوم تعلنون فيه المخطّط ، وترتفع فيه الأسعار كل ثانية · وستصير فوضى وارتجالات ، وبيوع غير طبيعية ، ومشاكل لها أول وما لها آخر · والفلاح المسكين سيضيع عقله وحقّه في الدوشة ولن يعرف كيف يتصرف · وسيقول الناس إن المحافظ غشنا ولم يقل لنا الحقيقة · لو قال لنا ،

كنّا عرفنا كيف نتصرّف بأرضنا · كنا أوصينا على موادّ بناء ، وأخذنا رخص بناء ، بعنا أرض التجميل واشترينا في مكان آخر وربحنا كم ليرة ··»

يخرج أبو نصوح حاملاً زجاجة الحليب والبيضة المسلوقة ، والى جانبيه محمود وأبو فاروق · يتّجهون الى مواقف الباصات · يودع أبو نصوح رفيقيه وعلى وجهه الورديّ ابتسامة محبّة كالحة · وبعد ثوان يودّع محمود أبا فاروق وينطلق ·

يقول المحافظ : « يبدو أنك تدرّبت جيداً على المحاضرة · تريدني اذن أن أضع خارطة التجميل في صالون المحافظة وعند مختار (عكوبة) ليعرف كل إنسان مصلحته ويستفيد · »

« لا ، سيادة المحافظ ، لا · هذه أشياء تجري بشكل غير مباشر · يطّلع عليها الناس المعنيّون ، فيستفيد أصحاب الأرض ، والمهتمّون بتقدّم البلد من ناحية العمران والسياحة ، وتستفيد أنت · »

« أستفيد أنا ؟ قصدك سوء السمعة · »

الباعة في الساحة مطمئنون الآن الى أن الشرطة لن تأتي · لم يبق من خضارهم وحشائشهم الا كل طويل العمر ، وقد راحوا يبيعونه كيفما اتفق · وهكذا تنزل الاسعار بالتدريج · جرزة البقدونس بعشرة قروش · ولكن أي بقدونس ، تقول احدى الشاريات لنفسها : أصفر ، ذابل ، مقرطم ، لا يصلح للتبولة · والبندورة تخبصت لكثرة ما مستها الايدي · والكوسى تحفر · ولم يبق من الباميا الا كل طويل العمر : القرون الضخمة الطويلة · غير أن الشاريات مع ذلك يشترين · طالما أن السعر رخيص ، فلتستفدن منه · بعد

كل شيء ، البامياء هي البامياء . وشراؤها خير من رميها للدواب . والبائع المسكين سيستفيد أيضا .

« لا ، أخي أبو لؤي . أنت تستفيد خمسين الف ليرة . عدّاً ونقداً ، وهذه هي . »

ويميل طلعت بك الى يساره فيتناول محفظة جلدية خلقة . يزيح صحن طعامه . يفتح المحفظة ويدسّ يده فيها . وعلى الطاولة ترقص الأوراق من فئة المئة . يزيح طلعت بك زورق طعام آخر ويملأ مكانه بأوراق من فئة الخمسمئة . يقول : « لو كل مستفيد أعطاك اثنين بالمئة ، يطلع لك أكثر من هذا المبلغ . »

تصمت شهرزاد عن الكلام المباح ، ليس لأن الصباح أدركها ، وإنما البغتة . أمام عيني عباس ، تتراقص الأوراق بالمعنى الحرفي . ويغدو هو عبّاساً فقط . يحس أن البدلة الرسمية قد سلّت عن جسده . ويتناول طلعت بك تفّاحة فيمسحها على ردائه الحريري ، ثم يغرز أسنانه فيها ، وينتفخ وجهه الأيمن بقضمة هائلة .

صمت . صمت تامّ .

أيّ انفعال يظهره المحافظ سيعمل ضده . أية ذكرى تظهر على وجهه عن الحفاء والعري والجوع ، وروث البقر ، ستشي بذلك الضعف الذي لا يقهر ، الضعف الخفيّ المرصود في قلب الفلاح كالطلسم . لم ينس بعد أن قريته كلّها لا تساوي خمسين ألفاً . كيف يستطيع ؟

يتمسّك بالصمت ، وقد تلبّسه خور مفاجيء مثير للحنق . لقد تطورت اللعبة على نحو درامي صاعق ، لكن ضبط النفس يبقى حجر الزاوية فيها .

وعباس قرر أن يلجها حتى النهاية · ماذا يطلع بيد ثعالب البرجوازية العفنة ؟ صحيح أنهم ليسوا أغبياء ، لكن غيرهم أذكى منهم ·

يقول المحافظ : « تعرف أني استطيع في هذه اللحظة ان أزجّ بك في السجن ؟ هذه رشوة بلا رتوش · »

فيقول طلعت بك : « أعرف · لكني أعرف أنك أذكى وأوعى من أن تفعل هذا الفعل الخالي من الكياسة · ثم هذه ليست رشوة يا أخي · أنتم الثوريين تفكيركم عجيب · في جميع أنحاء العالم ، كلما عقد طرفان اتفاقاً حرّاً وبالتراضي، يخصص أكثر من اثنين بالمئة لمن يسهّل عملية الاتفاق · هذا جزء محسوب من النفقات العادية ، وإلا ما معنى أن يتعب الإنسان نفسه في عمل الخير ؟ بهـذا يكـون ضميره مرتاحاً ، وحالتـه مرتاحة · بالعكس ، أنت تأخذ أقـل من استحقاقك · »

ينفخ إمام زفيراً طويلاً ، وقد صارت عيناه أكثر تربّصا · لكنه هادىء · سيرى من يقول (آخ) أولا في لعبة عضّ الأصابع هذه · قضية عمالية من هذا النوع لن تلفلف بالبروتوكولات وهيبة الدولة · العمّال قلّة ، صحيح · لكنهم لا يخافون أحداً · وهو سيبقى هنا حتى الصباح ، حتى يأتي الرفض المعلـن المباشر لطلبه مقابلة الرئيس ·

يفتح الباب الأيمن بهدوء · يطـلّ منه السكرتير بهدوء · يغلق الباب بهدوء · وكذلك يتجه الى طاولته بهدوء · يجلس الى كرسيه الدوّار ، ويمدّ يده الى سبعة الهواتف فيلتقط سماعة أحدها · يتكلم بصوت غير مفهوم · يضع السماعة · هذه المرة لا يتشاغل بالأوراق · يتكىء بمرفقه على ذراعي الكرسي ويطرق بلا تفكير · ثم يتخشّ ·

وينفخ إمام زفيراً طويلاً ، وقد انضغط فكّاه على بعضهما بعضاً • العملية مقصودة إذن • عملية إذلال ، وليست فقط تجاهلا • وماذا بوسعه أن يفعل ؟ هذه الدونكيشوتيات ! اذا ذهبت الى الحكومة ، لا تحمل بيديك كلمات • لاتقرع الجرس المعلق وراء باب الحكومة ، بل اخلع الباب وادخل •

مسكين طلعت بك • ها هو ذا يبرعط أمام عباس كالبرغوث المفروك • هـذا الرجل الأربعيني ، أشيب الفودين ، طويـل القامة ، زوج المرأة التي ضاجعها عباس قبل دقائق • مسكين طلعت بك ، ظن أن ثلث ساعة لا يكفي لأكثر من المنازلة والعناق • لا يفهم أن العصر عصر السرعة ، وأن الثورة هي عملية حرق المراحل • لا شك أنه سيعتبر نفسه هدّافاً من الدرجة الاولى اذا خرجت هذه الاموال من جيبه ودخلت في جيب المحافظ ! مثلما انزاحت زوجه من تحته لتستقرّ تحت المحافظ • المحافظ ، وليس عبّاساً • ولكن لا يهمّ • المهمّ ، عبّاس فعل ما فعل ، محافظاً أو غير محافظ • وعبّاس هو المحافظ ، والمحافظ هـو عباس • والمحافظ قادر على أن يبطش في أية لحظة بهذه الثعالب الوضيعة • طالما أن الثورة سوف تستأصل أمعاءه في المآل ، تجرده من كل فلس وعقـار ، تمنعه من أن يكسب قرشاً واحداً لا يعمل لأجله بعرقه ، تصادر أبنيته مثلما صادرت أرضه وتوزّعها على الفلاحين الذين سيبيعون أرضهم طمعاً في كسب عابر وسريع • هذه الخمسون ألفاً دفعة على الحساب • والمرابح التي سيجنيها الفلاّحون ، أيضاً دفعات على الحساب • بعد قليل تعود الثورة فتؤمّم الأرض والعقارات وتعيدها الى أصحابها الاصليّين الكادحين ، وعندها سيضحك هـو والفلاّحون على طلعت بك ، هذا البهلوان الذي خانته زوجته وهو في الحمّام • وسيعرف هو والبكوات الآخرون أيّ منقلب ينقلبون •

« يا عيني عليك ، » يهتف طلعت بك • « كنت دائماً أقول إنك رجـل

دولة ، على الأخص بواقعيتك وعمليّتك . » يقهقه عباس قهقهة عريضة . ليس للإطراء ، بل للظنّ الذي خاب في ذهن طلعت بأن جليسه سيتناول النقود مرتبكاً تحت وطأة شعور بالعـار . كان ظناً سخيفاً مضحكاً مبعثه نقص في الإدراك . طلعت بك ، ظن أن المحافظ ، سيأخذ النقود مثقل الضمير : وبالتالي يهبط الى مستوى أخلاقي أدنى . لقد دخلت الكرة في مرمى زوج غادة : ارتفعت النقود عن الطاولة ببرود وبلا مبالاة ، واستقرّت في محفظة المحافظ .

في الخارج يودّعه الزوجان الباسمان . يدلف الى سيارته بكآبة خفيفـة متمطّية ، شفتّت بفعل شعور بالراحة تسردق في أعماقه .

يعبر إمام البوابة غير ملتفت للشرطي القابع في محرسه اتّقاء الريح . على الرصيف يرمي سيجارته ويمعسها بقدمه . الشارع كئيب ، والسيارات تعبر عليه مثل كتل غريبة لا حضور لها . والناس ، هؤلاء الذين لا يعرفون أين وضعهم تاريخهم ، يتشرنقون داخـل ثيابهم وهمومهم ولحظات العار التـي لا يشعرون بها . لقد انهزم . منذ الصباح كان يتوقّع ذلك . وفي هذه الهزيمة طعم مرير من الهوان . كل شيء تقرر ببساطة وسرعة وحزم . لم يرف جفن . لم يتعكر مزاج . لم تهبط الطبقة العاملة من مكانها الرفيع على منصة وزارة الاعلام . ولم يعرف أبو ذر بما حدث .

ينزل على شارع هادىء ، وبزاويتي عينيه تلطم الدور والقصور . هل سيبقى الفقير فقيرا الى الأبد ؟ لقد ضجر من الأسئلة . ليس في رأسه سـوى الأمثلة والأسئلة ، ولا فعل . ما العمل ؟

يستيقظ سليمان ، وينزل ساقيه عن الكنبة الطويلة الهرئة . ينهض الى صنبور الماء فيغسل وجهه ، ثم يفتح الباب معلنا بدء المرحلة الثانية من عمل يوم آخر في حياته . ينظر الى الساحة الخالية . يدخل اتقاء الريح ، ويغلق

الباب وراءه بلا انفعالات · يجلس وراء جهاز تلفزيون معطّل ، ويفرك أنفه بظاهر يده ·

يتقدّم شيش بيش من مبنى العيادة بخطى كسولة · لم يبرح به الشوق لملاقاة مرضاه ، غير أن حدساً غامضاً ساقه الى العيادة قبل الوقت المعلن بنصف ساعة · وحدسه غالباً ما لا يخطىء · أصلي كليرة الذهب العثمانية · في أبأس الحالات ، سيكون ثمة بعض موجوعي الأسنان ، وسيتسلى بهم ومعهم ·

وقدماه على العتبة ، يراها : جالسة هناك في صدر الغرفة تقرأ مجلة قديمة · وجهها جدّيّ ومتّقد بالجمال · شعرها طائش على منسكب النهدين · ساقاها ممدودتان على طولهما ، ونعل كندرتها مرفوع باتجاه الباب · تنتبه اليه ، وتبتسم اذ تتبيّنه · يضيء وجهها بفرح صغير · ترمي المجلة وتمضي اليه غير حافلة بأحد ممن قبعوا انتظاراً له · تدركه عند باب العيادة · يقف : عيناه المضطربتان لا تمتّان بصلة الى وجهه الكتيم ·

تقول : « ممكن أجيء قبل الموعد وبدون موعد ؟ » ·

يتفرفد وجهه ويبتسم : « ممكن جداً ، يا ستّي · تفضّلي · »

يدخلان الى العيادة ، ويغلق وراءهما الباب · تقول ببشاشة وبلا خفر : « أنا أسوأ زبونة تدخل هذه الورشة · تصوّر أنك ستعالجني دون أن تأخذ مني أجرة · »

يبتسم الطبيب ويتجه الى كرسيه وراء الطاولة · هناك يشعر ببعض الحماية والتماسك · ويشير لها أن تجلس ، فتفعل · تسائل نفسها : أليس بوسع الدكتور أن يتحرك حركة أوسع من الابتسامة ؟ تقول : « هنا ، أم هناك؟» وتشير الى كرسي المعالجة · « هنا ، لا بأس · احكي لي أولا عن أسنانك · »

« آ ، أسناني • لا أشكو شيئاً محدّداً • ولكن ، قلت لحالي ، الإنسان العاقل يفحص جسمه عند الطبيب بين وقت ووقت • أحياناً يلمع ضرسي ، وأحس أن لطمة وقعت على دماغي ، ويزوغ بصري • »

يتأمّل عينيها بثبات • وتتأمّله هي بعبث عابر متفحّص • يقول : « هذا يعني أن نصف أضراسك معطوبة • »

تقهقه بفرح ، وتمدّ يديها بين ركبتيها بارتباك • ينظر اليها مندهشاً من ضحكها • ليس في كلامه ما يضحك • ولا هو قيل بقصد النكتة • ولماذا أيضاً هذا الارتباك ؟ هذه شخصية مركبة ، فيما يبدو • عفوية ولكن غير بسيطة •

وتستغرب هي : لماذا ، بحقّ الجنة والناس ، هذه السيماء الصارمة على وجهه • لقد حسبت أن الأمور مفهومة وواضحة بينهما • أم تراه يحسب أنها لم تلمحه وهو يفتح رتاق النافذة المعدنية ليتأمّلها بقميصها الداخلي ؟

ينتبه الى سلوكه الجدّي ويراه مقيتاً • هو ، شيش بيش ، ملك الطاولة ، يبدو جادّاً ؟ يشير لها برأسه اشارة آمرة ، ويقول : « الى كرسي اللوعات ، يا آنسة أسمى • » تنهض : ابتسامتها تلتفّ حوله وتخبره أنها عارفة بباعث سلوكه وغير مكترثة بالتعليق •

على الكرسي • متمدّدة على نحو يذكّر بها في غرفة نومها • كم مرّة تمدّدت هنا النساء ، ولم يكن لأي منهن معنى خاص • فجأة يمرج في داخله شوقه العتيّ اليها • أسيمكن لهذه الفتاة الطافرة أن تعيده الى فاعلية الحبّ ؟ أو تنتشله من رقدة الموت التي غارت فيها زوجته وعاطفته ؟ يخطر له أن يحضن الكتفين العبلين ويواري الوجه الحيّ في صدره • أو ينحني على الشفتين نصف المنفرجتين ويشمّهما بشفتيه •

يقترب منها بمجسّه المعدنيّ اللامع ، فيما عيناها الباسمتان تلتفّان حوله وتخبرانه أنها عارفة بكل شيء وغير مكترثة بالتعليق ٠

يدرك أن تحقيق رغبة كهذه أمر مستحيل ٠ ان أطول مسافة في العالم ، هي تلك التي تفصل بين رجل وامرأة ٠ وهكذا يمدّ مجسّه بتؤدة وينخس به ضرساً ٠ تنتفض هي صائحة : « أيّ ! » ينخس ضرساً آخر ، فتنتفض وتصيح : « أيّ ! » وضرسا ثالثا ، و « أيّ ! » أُخرى ٠

يشعر أنه امتلك نفسه ٠ تصل الى وجهه ابتسامة من داخله : « أستطيع ان أجعلك ترقصين هكذا مدة ثلاث دقائق ، » يقول لها ويده مرتدّة بالمجسّ الى صدره ٠

« أوه ، جزيل الشكر ٠ اذا أردت أرقص لك ، بس بطريقة ثانية ٠ »

« وعد شرف ؟ » ٠

« وعد شرف ! » ٠

« متى ؟ » ٠

« أي وقت ٠ إلا على هذا الكرسي ٠ »

وقد قيل الكلام بسرعة ودونما ضابط ٠ ينظر اليهـا مستطلعاً هادئاً ٠ وتنظر اليه باسمة هادئة ٠

عند الطرف الشمالي لضاحية المدينة الغربية ، ينقد عبّاس سائق التاكسي أجره ويمضي في الظلام المبارك ٠ يحسّ من خطواته أن نومة العصر قد أعادت له نشاطه ٠ لقد خشي أن يكون ثلث الساعة الجامح مع غادة قد أفقدره القدرة٠ لكنه الآن مطمئن ٠ ينزلق عبر الزاروب الغارق في نسيج الظلام مقترباً من

الباب المقصود • يجده مفتوحاً ، والضوء الشاحب وراءه يكاد يتلاشى قبل أن يصافح العين • يدخل و يوصد الباب • يعبر فسحة الدار الى حيث وقفت باسمة مضطربة • تتراجع أمامه اذ يقترب ، ويدخل وراءها •

« هات لأشوف • رق التقريصة ، » يقول محمود بغضب مازح •

« أمرك سيدي • كله من صحن فول ؟ والله نشاطك عجبة • أنا يبست رجلي ، والثانية اخضرّت • مع أني قاعد على عرش • »

يعاين محمود الرغيف على جدار الفرن الأسطواني • قبل قليل كان رقاً منقّراً من العجين ، وها هو الآن يتورّد وينفث بخاراً ككائن حي • وفي مساحات منه تنتفخ حبيبات كالنمش على الوجه • أطرافه فقط ما تزال عجينية •

« لحّق ، لحّق ، الفرن فارغ ، » يقول محمود •

وعندئذ تقترب منه كأفعى في يوم قائظ وتطوّق عنقه بساعديها العاريين الباردين • « أرجوك ، انقلني • أنا امرأة ضعيفة ولا سند لي • » ثم تبكي • تقبّله وتبكي • تقبّله من فمه ووجهه وعينيه وجبينه وتبلّله بالدمع • ولا يدري كيف يستجيب للوضع • تنتفخ في جسده خلايا وتجمد أخرى • يُلجم رغبتَه تعاطُفه المتزايد ويضرمها كون المرأة بين ذراعيه • « بودّي السترة • السترة وبس • » يدرك إدراكاً مبهماً أن دموعها تكفير مسبق عن ذنب آتٍ • ويقع في معبر السكون اذ تنفصل غريزته عـن شعوره • فبينما تدفع المرأة بحوضها الى الأمام استجابة لتوتّره ، يشعر ببرود يكـاد أن يكون عضليا في ذراعيه وفمه • برودة ساعديها تثير شعوراً بالصدود مرمياً على سطح إنسانية متنبّهة ، وآخر بالعطف متغلغلا الى أعماق خفية في ذاته الجائعة •

ينبر متضايقاً من حيادية عاطفية أوصله اليها المشهد غير المتوقّع : « خذينا

ألى مكان دافيء . الغرفة باردة . » فتصيح في : « اي ، اي . تعال . النـار شاعلة في غرفة النوم . » وتقوده .

يسدّد اليها نظرة حاسبة متهيّبة . لقد نضجت الآن . مع كل رغيف يمتلكه تهيّب جديد . تغوص يده في الفرن ، ويسدّ وجهه وذراعه الفوهة المتوهّجة . تنتر اليد الرغيف ، ويرتدّ جسمه الى الخلف . ينقذف اليه الرغيف . يلتقطه باليد نفسها .

يصيح زبون من الخارج : « أخي ، جمدنا من البرد . صار ربع ساعة وأنا واقف بالمطر . »

يقول ابو ممدوح بوقار : « بالدور ، أخي ، بالدور . البيع بالدور . »

يتعالى من الخارج صوتان في وقت واحد :

« أولادي داخوا من الجوع . حتى لقمة الخبز ؟ »

« سيادة المقيد منتظر بالسيارة من ربع ساعة . الى متى يعني ؟ »

يكبّ محمود على فوهة الفرن ، ويسحب وراء يده رغيفاً آخر . يضعه على البسطة ويتناول خرقة رماديّة فيمسح بها عرقه . هذه المرّة ينظر الى زنـده واصبعيه متضايقاً . يمضي الى رفّ صغير فيسحب عنه أنبوبة ويمسح بمعجونها مكان الحرق . يصيح جاسم من فوق عرشه : « لازم لك فتّ خبز كثير حتى تصير شغّيل فرن . » يبتسم وهو ينفخ على زنده وإصبعيه .

يقول عباس : « انتهي ! سأنقلك غداً . غداً صباحاً . بس امسحي دموعك، خلّصينا . »

« اي ، اي . خلص . لن أبكي . » تقترب من المدفأة الواقدة . تنحني

فوقها قليلا مادّة يديها وساعديها وزنديها ، وملتفتة اليه في توقّع مستجيب . تتجوّل عيناه في أنحاء الغرفة تغطية لحيرة عميقة استبدّت به . فجأة يشعر بالتعب وكأن نومة بعد الظهر لم تفده شيئا ـ لم تردّ له قواه . لقد بات واضحا له أنها لم تكن تمثّل . لكن هذه الصفقة التي أرادت عقدها معه نوع غريب في تاريخ الصفقات البشرية : جسدها ، شرط أن ينقل الى جوار بيتها ! ماذا يبقى من المرأة بعد استباحة جسدها ؟ عاهرة أو غير عاهرة ، لن تستطيع احترام نفسها بعد . وإن فعلت تكن نوعاً عجيباً من البشر . ولكن من المستحيل أن تحترم نفسها .

يرى يديها تمتدّان الى أزرار القميصة ، كأنما لتوفّر عليه عناء الخطوة الاولى . تلفحه موجة حرّ خانقة تهبّ عليه من الداخل . يشير بيده أن لا . هذه الجرأة الروحية ـ أم لعلها أخلاقية ؟ ـ تذهله . تسأله باتضاع : « غيّرت رأيك ؟ » وكأنها تسأل : ألن تنقلني ؟ هذا التحدّي والتصميم على الدمار !

« اقعدي هناك ، » يقول لها . فتفعل . « أنا بصراحة محتار . أنت تلجأين الى أذل أسلوب لتحقيق غرضك . ولنفترض أن شغلك في القرية مشكلة فاجعة ـ مع أني أتصوّر ، التعليم في القرية عمل نبيل للغاية .. »

« صحيح ، صحيح . بس كل يوم خناقة ، وضرب ، وشرشحة بين الجيران ، اذا تأخّرت خمس دقائق . والباصات ، تعرف . أحياناً السائق تعنّ على باله الشاي ويقف ربع ساعة .. المهم ، مئة سبب للتأخير . واذا التمّ الضوء ، أي واحد يفكرني شرموطة .. »

وتعود الى البكاء . يتشاغل بالنظر الى الأثاث البسيط الذي جعل جميلا بلمسات خبيثة . تتمالك المرأة نفسها . تنظر اليه .

« أنت تحيّرينني فعلا · الآن تبكين لأن الناس ، بعض الناس ، يشتبهون فيك · وبعدئذ ، لا تؤاخذيني ، أنت تعرضين لي جسدك مقابل أني أنقلك الى هنا · لا أفهم · »

« لا أطيق الخوف مع الشرف · أخــاف الاغتصاب ، من يوم تزوّجت · لا أستطيع تحمّل الخوف · »

« طيّب · هذه فهمناها · وجسدك ؟ أعني ·· أما لجسدك قيمة ؟ كيف تصلين الى هذه الدرجة التي لا يتحمّلها ··· »

« آ · فهمت · تريد أن نتكلم في الفكر الآن · في الفلسفة · »

« لا · في الأخلاق · في القيم · »

« في الأخلاق · كلّها تسميات واحدة · لكني لا أملك الأفكار الواضحة بهذا الخصوص · يا سيدي ، مسألة الذلّ · جسدي جزء مني · أعني ، أنا ، أنا ، شيء أكبر من جسدي · بالعكس ، الجسد ليس مصدر قيمة ــ صحيح الموضوع موضوع أخلاق ، كما قلت · هذا جسم ، أنسجة ، له وظائف يقوم بها · الذلّ أن يضربني زوجي · أن يكبسني الناس على رأسي ، يحتقروني ولا يروا فيّ غير جسدي · الذلّ لا علاقة له بالجسد · بالعكس ، الجوع للخبز يذلّ أكثر · كل مصائبي أني لازم آكل · طبعاً ، بلادنا متعوّدة على نسج أخلاقها من الجهاز التناسلي · ليأخذوا راحتهم · وأنا آخذ راحتي · لا أشعر بالعار · قلت لك ، لا أحسن التعبير · طبعاً أفضل النقل الى هنا بدون هذه العمليّة · في وضعي الحالي أنا ذليلة ، وأذلّ كل يوم · الشيء الوحيد الذي أملكه ليخلّصني من ذلّي ، جسمي · ليكن · وجعة ولا مئة وجعة · هذا الجسم لن يلقى الذي يحبّه ! فقط الذي يشتهيه · خلّه على الاقل يقدم لي خدمة · »

يقول عباس ، مازحا لأول مرة : « لو أن الامور تجري كما يشتهي الإنسان ، لصبح نقلك ليس للمدرسة هنا فقط ، بل لتكوني أستاذة في الجامعة · فعلاً ، الجسد والجنس ليسا كل شيء · مسألة يلزمنا وقت طويل لنفهمها · هذا الجوع لن يرتوي أبداً من هذه الثمرة · ولكن ، أنت ؟ أما عندك صبوات ، رغبات ، هكذا ؟ » ·

تهزّ برأسها نفياً · وتضيف : « رغبات عابرة · الآن مثلا ، أرغب في أن أنام معك ، اذا أردت · رغبة صادقة · يبدو أنك غير ما يقال عنك · »

يقول بأسى رجل مظلوم : « خلّي ما يقال عني على جنب · وهيّئي حالك للنقل · بعد نصف يوم يتمّ نقلك · » وينهض · يسوي ربطة عنقه بتلقائية غير ضرورية ، ويمضي الى الباب بلا إبطاء · تهرع اليه فلا تدركه · تلحق به عند الباب الخارجي · تلتقط ذراعه فيلتفت · تضمّه اليها وتفرش أصابعها على كاهله · وتذرو حرارة الشعور ثلج الإرادة من عقله المستريح ، فيرى نفسه وقد انحنى قليلاً وعانقها ·

في الزقاق يشعر لأول مرة منذ سنوات أنه مرتاح ·

صحيح أنه لم يعرف الحب بالصورة التي غمرت خياله مراهقاً وشاباً ، لكنه في لحظات كهذه يشعر بالراحة العميقة · وهل الحب في المال سوى هذه الطمأنينة النهائية الواقية من فزع الوجود ؟ يدرك أنه عندما اتسع أفق الحب لديه فشمل الناس وحياتهم اليومية ، لم يكن يمضي في المسار الخاطىء · أما ذلك الحب ــ ذاك اضمحلّ صورة بعد صورة وزال · الحبّ وهم ، نصدّقه حيناً ثم نفيق منه · تلك هي الحكمة الأزلية لحياة الإنسان · في السابعة عشرة من عمره التقى بخضرة بنت المرابع زيّود ، وكان حباً بكراً عفوياً نما مع الأعشاب

والآجام في حواكير القرية وبساتينها · كانا يلتقيان تحت عريشة لا يمكن أن يتسلّل اليها سوى الفيء والعصافير ، وهناك يضغط بشفتيه على شفتيها معتقداً أن هذه هي القبلة · ثم ما يلبث أن يحضنها محاولا التعويض عن خيبة القبلة ، ويشعر بنشوة طاغية اذ تنضوي هي بين جذعه ويديه مغمضة عينيها الكبيرتين الخضراوين · مرات كثيرة علق شعرها الجدولي بالعوسج المتشابك ، فخلّصه وهو يضحك لتكشيرتها الغاضبة ·

خلال عام ، اضمحلّ الحب الكبير · بعد الزيارة الثالثة لبيت طالبة في المدينة عرف أن خضرة لم تخلق له · لقد انجلت على حقيقتها الخافية : فتاة تحسن الحلاب والصرّ ، ولا شيء آخر · تجاوزها العصر · وتعجّب من نفسه كيف أحبّها ونسج صورتها في بساط المستقبل · بالطبع ، كان الفضل في إزالة الغشاوة عن عينيه لنائلة ، الفتاة الأنيقة الطويلة التي كانت تطرب لقراءة رسائله المدبّجة بعبارات الحب · كانت لقاءاتهما قصيرة عاصفة ، تحت المطر ، في الزواريب العاتمة ، على المقعدين الأخيرين من صالة السينما ·

وانتهى حبّ نائلة أيضاً ، فركض وراء فتـاة أصعب منالا · لقد عرف الأهل ، وقامت القيامة ، وأبعدت الفتاة الى بيت أخيها في دير الزور · وحلّت محلّها ندى المرحة التي أطعمته من الحب أولاً بأول ، بادئة بتدريبه على القبلة · ويوم قبّلها على النحو الصحيح أدرك أن دروس الجغرافيا لم تعطه صورة دقيقة واضحة عن اتساع العالم · وبعد القبلة استطعم الجسد العاري · وصار اللقاء عراكا · أراد أن يصل الى الأعماق ، وكان ذلك مستحيلا · ثم بـدأ العنف · صار يصفعها فتدوي الصفعة في أذنيه · وكان دويّاً لم يعرفه من قبل · ليس فقط لأن ندى ازدادت في عينيه جمالا وإنسانية ، بل لأن أعماقاً ثائرة في ذاته ردّدت الصدى كذئاب جائعـة · أفزعته الأصوات فركض · انتبه الى

جوعه وركض • فرّ من جوع أعماقه الى رواء اعماقها فانتطح صدره بالبوابات الموصدة • وفي مرة هوى الى الارض ، سقط • ونهض ، فأدار ظهره •

بعد قليل نسي طعم تلك القبلة ، والتي بعدها • وصار ينسى طعم القبل التالية بسرعة • وجاء يوم لم يعد يعي فيه طعم القبل • الآن لا يستطيع أن يتذكّر طعم أي شيء ، لا القبلة ولا غيرها • يتذكّر فقط أنه ركض • حتى غادة ظلت متأبّية • هذا الجسد المرمريّ • لقد لامسها ، وقبّلها ، وعانقها ، احتضنها ، ومارس معها الحب فكانت ذروة من النشوة • الآن يستنفر حواسه كلها ، علّها تستعيد واحداً من تلك الأحاسيس المفعمة التي اغتلت فيه وهو يتّحد بها • عبثاً • لكأن يده لم تمتدّ ، وشفتيه لم تعتصرا ، وجسده لم يلتصق • وكانت هناك قبل ذلك مديحة وأمل ودلال ومنى ورتيبة وسهام •• عازبات ومتزوّجات • لم يبق باب موصداً • لكنه ظل يركض • شيء ما في نساء المدن كان يسقيه فيعطشه • وشيء ما في أعماقه كان يشرب فلا يرتوي • أحب دائما أن يخضعهن ، واذ خضعن لم يرض • وظل يركض • توقف أحيانا عند محطات آمنة ، وعرف قليل الهدوء وكثير الحب • كبرت الصورة داخل وعيه ، وتحللت فيها نساء المدن والريف وعوالم الحياة الاولى • صار الركض سرعته العادية • أحيانا كان يركض وحده ، وأحيانا مع النساء ، وغالبا مع أناس كثيرين يعرف ملامحهم ولا يعرفهم • ولأنهم جميعا كانوا في حركة لائبة ، لم يستطع أن يرى ذاته أو غيره في وضع شاذ • لكنه تساءل : الى متى ؟ أية نهاية تنتظره وهو يعدو وراء الحب والمجد والحياة الجديدة ؟

يعرف الآن انه لم يحبّ أبداً • لكنه لا يعرف لماذا • حتى عائدة لم يحبّها • وحتى في ليلة الخطبة كان يعرف ذلك • يومها عاد الى غرفته وأغلق الباب وظل يتقلب على فراشه حتى الفجر • لقد وقع في الحفرة • أوقعته الشهوة

أخيرا وعصبت عينيه · لم يكن يدري الى اين يتّجه · لم يكن يدري شيئاً في الحقيقة ، سوى أن ذلك الميدان الأملس الذي انسدل الى جانبيه زندان بقمّان طويلان صار بالنسبة له حياة بأكملها · الملمس · أرقّ بشرة في المدينة · وقد أوصلته الى ما قبل انعدام المسافة ببوصة واحدة · كانت مثله راغبة ، لكن الشرف تكلم فصمتت الرغبة · أكان بقي من ذلك الحب شيء ، يا ترى ، لو انعدمت المسافة ؟ وبكت هي ـ حباً به وحسرة على شبابها · ثم قالت أم حسن : « أنت لن تتزوجها · أقطع يدي هذه ، من هنا ، إن كنت ستتزوجها · أنت تضحك عليها ، والأيام بيننا يا ابن الشيخ سليمان ، من سيطلع الكذّاب ، أنت أم أنا · »

بعد يومين اشترى خاتم الخطبة ، وربحت أم حسن المعركة ·

وكان عبد الله بن سلام والياً لمعاوية على العراق ، وقد تزوّج من زينب بنت اسحاق التي قيل انها كانت أجمل نساء عصرها · وقد رآها يزيد بن معاوية فأحبّها حتى أسقمه الحب · وعرف معاوية بحبّ ولده للمرأة وبامتناعها عنه ، ففكر أن يطلّقها من زوجها ويزوجها ليزيد · وهكذا استدعى عبد الله ابن سلام ، فلما مثل بين يديه قرّبه اليه ثم فاتحه في أن يزوّجه من ابنته ، فما كان من الرجل الا أن طار فرحا · وأضاف معاوية أنه لا ينبغي لعبد الله أن يجمع الى زواجه من ابنة أمير المؤمنين زوجة أخرى · ولم يفكر عبد الله طويلا فطلق زينب ثلاثاً · وبعد المشاورات وجد أن ابنة معاوية ترفضه زوجاً · وأن معاوية رجل متحضّر يرفض أن يرغم ابنته على زواج تأباه ·

غير أن لشيش بيش رأياً مخالفاً · الحب حالة تتجاوز مشاعر عباس ويزيد

ابن معاوية • كان هذا منذ ستّ سنوات • أما الآن ، فهو أمر مضى • الحب الآن قرارة باردة تنطفىء عليها عيدان الكبريت المشتعلة • كلا •• الحب كلمة صعبة التعريف • انه فعل ، كينونة لها حالات وتحوّلات • قبل عشر سنوات كان فعلاً مرتبطاً بفعل الحياة ذاتها • ويوم ضمّ زوجته اليه للمرة الاخيرة ، كان شعوره نفسه يوم ضمّها للمرة الاولى • تلك فترة لم تدم طويلا • أربع سنوات • ثم انطفأت كالنيزك في الفضاء المديد • ولكنها كانت كافية لكي يتذوّق طعم الحياة الأبقى ـ ذلك المذاق الزائل كحسّ والباقي كشعور • بل حتى الأحاسيس تعود له بين حين وحين بكل ريعانها الذاتيّ وتحرّكها النافذ في بدنه • إنه لا يحب تذكّرها كثيراً ، وإن فعل فهو لا يحب استعادتها • شيء ما فيها يجعلها تتسامى على العزاء الذي يتسوله الانسان البائس من ذكرياته الرغيدة • وهو يضنّ بها أن تغدو غذاء للخيال والنفس الجائعة • انها أنبل وأجمل • لقد استقرت فيه ، تغلغلت في أنسجته ، وقبعت هناك كمياه كوثرية بين طبقتي أرض كتيمتين •

بعد ذاك جاء زمان الوجع • بالطبع ليس هو أول انسان أذهله الموت • لكنه لم يكن أمام هذا الحدوث المفزع أقل فزعا على ذاته • صار كمن يرى العالم بعين واحدة ، ويبتسم بشفة واحدة ، وينام على جانب واحد • صحيح أن الانسان قبل الزواج يعيش حياة من هذا النوع ، ولكن كم هو البون شاسع • الطوفان قبل بناء السد شيء ، وبعد انهياره شيء آخر • هذه المباغتة • ذلك الانتهاء • الادراك الخنجري أن حضوراً ضرورياً قد غاب منذ لحظات ولن يعود أبداً • منذ لحظات : شعور تنكّبه مدى عامين كاملين • عامين ، وهو كلما افتقدها يشعر أنها غابت منذ لحظات ، ويدرك للمرة الاخرى بعد الألف أنها انتهت •

ثم اعتاد أحادية الرؤية والنوم والابتسام . أيقن انها ماتت وانه لم يمت . موت الحبيب لا يعني بالضرورة توقّف المحبّ عن الحياة . في تلك الفترة ائتلف مع سليمان . وجد في سخطه الدائم وحكمته القاتمة تذكيراً مفرحاً له بأنه ما يزال يحيا . تذكّر صخبه وأريحيّته وحماسه واستطالاته الأخرى ، وكل ما جعل منه الزوبعة الأليفة التي عصفت بركود العمل واللقاءات . كان سليمان دواء من نوع غريب . أمين ومخلص وحازم ، لكنه ينثّ من بين كتفيه الصلبين نسيما صقيعيا جعل شيش بيش يفرق خشية التحوّل الى مومياء . عبر سليمان ، رأى المنحدر الذي كان يتهبّطه بلا انتباه . كان سليمان في الوادي ، مستريحاً للرطوبة والظلال وحصى النهر الجافّ ، مزدرياً عناء القائظين ورعشة المبتردين في الأعالي . كان يطيل حياة متكلّسة لم يعد فيها ما يشبع جوعه المتكلّس . ولم يُفرح ذلك قلب شيش بيش الذي لم يكفّ عن الخفقان . لقد أفزعه ، وكان الفزع من نوع مختلف . ليس فزع الفقدان ، بل الموت .

صداقة عجيبة . كلها أضداد ومتنافرات . لقد أحب شيش بيش جميع ما اعتبره سليمان جدثاً ينقصه الدفن . أحبّ الكرم في عصر الاشتراكية ، وعلاقات الصداقة الشخصية في دهر علاقات الإنتاج . أحبّ البخشيش واليانصيب والمتسوّلين ولعبة النرد ، والدعوات الى الطعام منه واليه ، الشجار لأجل الدفع أولا ، السلامات الطويلة المحشوّة بالعبارات الجاهزة ، النعرة والوفاء والغيبة والنميمة .

لهذا خفق قلبه من جديد لأسمى . بقي كما هو ولم يمت . اجتاز مسافة الموت . قبل عشر سنوات ، كان تماسّ أصابعه مع تلك البشرة التي ارتحلت يرسل في جسده رعشة تستفرقه كتيار ملموس ، كمجسّ يداعب الخلايا فتضحك ضحك الأطفال . كان يسلمه لنصف غيبوبة متوهّجة ، متضاعفة الوعي

والإحساس ، قريرة على قرارة رغد أبدية . أما الآن فهو يتساءل ، على أية صورة ستكون الأشياء ، بعد هذه اليقظة البطيئة ، هذا الشروق المنير للوجه المجلّل بالحسن . كيف سيمارس صفاته وعيشه من جديد .

وقد أحبّ أن يدخل في التجربة .

طاردها من حيث لا تدري ــ أو هكذا خيّل له ــ في الشـوارع والأماكن والحوانيت . اشتهاها جسداً غارقاً في الحسّ ، واستحلاها حركة نابرة في المكان والأعصاب ، وحملها على خياله المرتحل في تكوينات تتجسّد وتشفّ وتنبثـق فتلامس الحياة . تكوينات ، حقاً . مولد جديد ، رآه أو أحسّ بـه في حشود البشر .

ولطالما تخيّلها وهو خارج من عيادته : هذه الألياف والأوتار والعضلات التي صنعت ساعديها وفخذيها وجسمها ، كان ممكناً أن تناسب صورة لغرفة التشريح ، هناك حيث يتمدّد الإنسان مجرّد جسد ملقى على قارعة السريـر الخشبيّ ، لولا ذلك الشيء الذي صنع منها كلاًّ أكبر من أجزائه وأضاف اليها الحركة والفرح والأنس ، طعّمها بجمال غير ملموس وأطلقها في العالم الحيّ . ذلك الشيء الذي ظنّ شيش بيش أنه قد استلّه من نفسه ووضعه زهرة فواحة سوداء مع باقة الريحان الأولى التي وضعها على قبر زوجته . لقد اكتشفه للتوّ ، لحظة انتبه لأسمى أول مرة . وبعد حين اكتشفه في ذاته . ثم صار يجده على وجوه الناس التي لم تصقل بعـد ، وفي حركاتهم النشطة العاثرة ، في تعاملهم العشوائي ولغتهم القديمة الجديدة وثيابهم العصرية المنسدلة على عقل متفتـح وادراك قاصر . لكنه اكتشفه . وكان سعيدا لأنه رأى فيـه نفسه .

كانت أسمى يقظته الخاصّة • لم تتبدّ له ملجأ يفد اليه عند المغيب ويرمي عليه أثقاله • كلا ، ليس هو ذلك الإنسان الذي يترنّح تعباً عند مفارق الوعي والحضارة • لقد استيقظ من سباته الدهريّ وسلك الدرب على خطّ الشمس الناهضة • لم يتصوّرها في أيّ مساء ، وإن كان يراها من مكمن العتمة • فالمساء لم يكن يليق بها ـ تلك الكآبة المتزايدة حتى الإرهاق ، وذلك الشروق المتزايد حتى الضياء • كانت مختلفة عن أمه وجدته ، ولم يعرف كيف • كانت على نحو ما ريحاً هبّت من داخله وحملته • وهو إنسان يحبّ الاجتياز ، يحبّ حرق المراحل • الحياة سبقته فرداً ومواطناً • والناس حوله ، كل يحاول التعويض عن ألف عام مضت بدون جدوى • وهو واحد منهم ، اذا ضاع في الشارع وجدته في الزقاق ، واذا تعثّرت قدمه ارتكز على القدم الثانية • وهو واحد منهم ، يشعر أن هدداً هائلاً من السنين قد هرب منه ، كل سنة تحمل نتفة من حياة وأخرى من وعي • وتم ذلك من وراء ظهره ، لانه كان طيّب القلب ، ولأن فعل الغزو الذي قام به المغول والتتار كان فعل عدم وموت •

الآن يريد تقصير المسافات بمقصّ سحريّ لا بد أن يوجد يوماً قريباً ما •

سوى أن شيئا ما عقلّه • كلما اجتاز الحدّ الاول اليها ، أحس بابتعاد الحدّ الآخر • وكلما التقى بالحد الآخر وجها لوجه تخثّر بمفاجأة حضورها وعجز حضوره • أجل ، العجز • ردة الى حالة الخدر تتجاوز شرطه الفردي الى تاريخ طويل • وتساءل : أيكون ذلك لانه شيش بيش فقط ، أم لانه عبد الرحمن ابن ••• اليماني الذي ورث عن أسلافه تاريخاً باهظاً وتلالاً من الوخم ؟ أم لأن الارض دارت بعد مولده ثلاث عشرة مرة حول الشمس قبل أن تولد هي ؟ حسنا : الزمن صار قيمة مستقلة بذاتها ، والناس يحسبونه كنوع من العملة • غير أن هذا زمن مختلف ، لا علاقة له بالقلب الإنساني • ثلاثة عشر عاما ـ

لاشيء . فيما مضى كان الاجداد يتزوجون الصبايا وهم في الستين . وكان ذلك آمرا طبيعيا ومفرحا . انها لن تصير غادة أخرى . وهو بدوره مستعد للتنازل عن خمس درجات من صفة (المتحضر) التي اكتسبها عن جدارة ، كيما يعيش سعيدا .

مثل هذا التفكير أراحه كلما أصيب بعقلة فندم للفرصة الضائعة . أعطاه القدرة على الاستمرار . الأمل خداع معقول للنفس . وهكذا ظل يحب البخشيش واليانصيب والمتسولين ولعبة النرد ، والقهقهات الطاحنة .

سليمان زمجر دائما ضد معوقات الحياة هذه . رأى أن كل ما ابتدعه البشر كان طريقا غير مرئي نحو الموت . الجسد المضطرم ، الطافر بالدعوات والجوع والشبع ، كان باستمرار حريقا يعضّ النفس التي صقلتها الحضارة . انسد مجرى الينبوع ، وبقي الماء في الداخل : خائفا ، مذنبا ، متفاقما ، ملتويا ، منخزيا . الحضارة شذبت الانسان ، هذبته ، ثقفته ، قلّمته ، وأخيرا اخترعت له حبوب منع الحمل . يقولون : التخلف . أي الشعوب على وجه الارض ليس متخلفا ؟ لقد صودرت الحرية باسم القانون ، والقانون باسم التقدم ، والتقدم باسم السعادة ، والسعادة باسم الاخلاق ، والاخلاق باسم الخبز ، والخبز باسم الحرية . باختصار : صودر الممكن باسم المستحيل . بقي فقط الوخم ، تلك الاشياء التي يحبها شيش بيش ويمارسها . كل ما يوصل أقدام الناس الى اليوم التالي ، واليوم التالي ، واليوم التالي ، وخم في النفس والجسد . وخم يفرز حيوية ونشاطا . انه الماء المستنقع في الداخل . وان يبق هؤلاء الناس كما هم يموتوا . وسيبقون ؛ شعب بأكمله . الريح التي فاجأتهم جاءت من مكان آخر ، لم توقظهم ، بل أيقظت غيبوبتهم . جعلتهم يخمنون ساعة الموت المقبلة . وحتى تجيء تلك الساعة ، ستقوم الحيويـة والنشاط بصنع معوقات جديدة

للحياة • هذا الانحلال ، تلك الألاعيب الفكرية ، التزحلق على برج من الخوف واليأس يسمونه الأمل ــ كلها ستضيف زكاما جديدا فوق الركام القديم • وسيبقى الينبوع محبوسا ، ولن يكف هذا الشعب عن الارتجاف إحساسا بالاثم والقذارة كلما شاهد عرضا عورته • واذا ما كف يوما عن الارتجاف ، وصارت الرؤية عادية ومألوفة ، يكون قد تعرّى لأجل العهر ــ ليس لأجل الحرية •

سليمان عرف هذا جيدا • مارسه أولا ، وعندما استوى عقله على العرش ، استوعبه • أكان ذلك عرشا أم هاوية ؟ لا يدري • لا فرق • غادة شعرت بالحرية ، لكنها حرية من الحياة • بعد كل انشياق ، انسلّ منها شيء غامض انسلال الروح من الجسد ، وبقي لحمها ملقى على الارض • لم يكن لفعل مهما جلّ أن يزحزحها قيد أنملة • ومن يدري كم ساعة بقيت مرخية هامدة • تلك نهاية طبيعية لبرجوازيي هذا العصر • لقد أحبت الرقص ونالت عليه الجوائز الثمينة في المباريات الكبرى • وفي السادسة عشرة من عمرها كانت ضرورية لانجاح أية حفلة • وأحبت السباحة فصارت سمكة • وأحبت الثياب فصارت فراشة • وأحبت الحرية فصارت غنية عن الآخرين • وأحبت الرياضة فصارت قصبة نهرية • وأحبت الموسيقى فصارت وترا ورعشة •

ثم تزوجت • تزوجت لتستمر في الصيرورة فصارت تمثالا • وكان لا بد لذلك اليوم أن يأتي : فجاء • لم يكن سليمان الاول ولا الاخير ، ولكن كان الثابت الوحيد • عند كل ابتداء ، تحركت بفعل قوة معمية • وعرف سليمان أن الماء الذي انحبس داخلها هاج أخيرا وضرب الجدران بقبضة دامية • وعرف كيف اتسعت الجدران وتراجعت حتى وصلت الى مسام بشرتها الرقيقة • في الايام الاولى ، كانت خمس أو ست دقائق تمضي قبل أن تخدق الامواج في جسدها • بعد شهور صارت الامواج تخدق للتو ، وصار يحس بها لحظة تطأ

قدمه العتبة • يحس بها أولا تحت جلده ، بين المسام ونقي العظام ، ويحس بها ثانيا تحت قبضته الغائرة في لحم زندها •

لكن السياق بقي واحدا في الحالتين • وكثيرا ما تساءل ما الذي ينقص غادة • وذات يوم أراه شيش بيش أسمى فعرف الجواب : ان غادة تفتقر الى روح الدعابة • تفتقر الى روح الدعابة بالمعنيين ، الفرح والمداعبة • ثم تيقن من ذلك وهو يراقبها في حميا الوصال • عندما اتجهت فورا الى الاساسيات واستغرقت فيها أطول وقت ممكن • اتجهت الى الاساسيات وكأنها تخشى الانتهاء المباغت لما يحدث لها ـ كأن ذاك الوصال آخر عملية جنسية تقوم بها ، وبعد ذلك تموت • أحبت إحكام يده على زندها ، وأحب • أحست أن وحشا متمددا تحت اللحم ينضغط فيغدو أقل عواء وأحس • أحس أنه يقبض على شيء حقيقي في ريح هذا العالم • كان لحمها شيئا حقيقيا ، وإن متحولا • جدثيا غالبا ، وأحيانا كورق الورد • وقد شد عليه بغلظة صامتة آن رآه ورديـــا في لونه ورائحته وملمسه ، كأنه رفض السماح له بأن يطفر ويتحول الى رداء نسيمي • خاف من مجهول مقتحم ، من حيوية طاعنة لم يفرح لرؤيتها تتحقق أمامه وتتحداه : جسدها ؛ الهيكل المشاد من عظـــام وعروق وأنسجة ووشائع ، صار مسكونا بشيطان عسلي كلما صافحته اليد ونغرشته الشعرات السود المتقوسة •• وقد أحب سليمان إخماد طفرات الموج لأنه أحب في البحر الهدوء والسكينة وكره العكر والزبد • وهي أحبت الإخماد ، طلبته آناء الليل وأطراف النهار ، كي تقبض على السلام بيديها المدنيتين • أرادت أن يهدأ الضراب في أعماقها ، الخلجات المنغصة لحياة يومية منظمة ومتقنة • رأت في أصابعه مخالب سفاحة ، وفي جسمه المفتل كاتماً للصوت المدوي بين عينيها ، وفي عقله الصلب جدية عرّتها من ادعاءاتها • وقد أحبت ذلك • كانت تشتهي أن تلقي في البحر دون

أن تسمع هدير أمواجه • وعبرت في زمانها النفسي الى حيث لم يعد بوسعها التمييز بين شهوة الجنس وشهوة أخرى مروعة لم تجرؤ على إعطائها اسما • هربت منها فاكتشفت أنها تسعى اليها • لمحتها للمرة الاولى ليلة الزفاف • كان ذلك قبل ثماني سنوات • يومذاك كان الناس يتحيّرون في من يمكن أن يصلح زوجا لها • كانت كاملة في كل شيء ، جمالا وثقافة وحساسية واجتماعا • ثم جاء عمّو طلمت وأقام في البيت أسبوعا • كان رجلا رياضيا ، سمح لها بمداعبة شاربيه شرط ألا تلمس الشعرات البيض فيهما • ومن جميع صفاتها أحب التي رآها الناس أبرزها وأقلها أهمية : روحها المرحة المتشيطنة • وفي نهاية الاسبوع طلب يدها • وقالت لها الأم : « لا يخطر لك أبدا أننا نبيعك • نحن في ضائقة مالية صعبة ؛ انما لا علاقة لهذا بطلب ابن عم أبيك • هو طلبك ، ونحن نستشيرك • لا غير • » وكان ذلك كافياً • في ليلة الزفاف رقصت كما لم ترقص من قبل ، وكمـــا لم يرقص أحد • كان المرقص الذي اكتراه طلمت — طلمت فقط ، الآن — غاصّاً بالمدعوين والثياب الراقية والعطور المدوخة والأطعمة الفاخرة • لكن أحدا لم يتميز مثل غادة • ليس فقط أنها لم تكف لحظة واحدة عن الرقص بفستانها الابيض وحضورها الملائكي ، بل أيضا لان عينيها الوحشيتين اللامعتي السواد صارتا نبعتين صغيرتين أرسلا خطين أصفر لم يكفّا لحظة واحدة عن المسيل •

ثم صادفها سليمان • لم تكن مصادفة حقـــا ، لكنهما اعتبراها كذلك • كانت قدرا من صنع الانسان والناس • كانت الريح قد حملت غبار الطلع والقته على الرمال ، ولم تجد الفراشة زهرة تحط عليها • وفي الحقيقة ، لم تعد قادرة على الطيران • لقد تلاشت نشوة الرقص وحل محلها دواخ وصداع • وفقدت الثياب والاناقة سحرهما ، وصار إعجاب الرجال وغيرة النساء بديلين

لغرفها الشخصي بثيابها وعطورها • والحب الذي كان في وادي أحلامها سديما غامضا غاويا ، صار الآن كلسا تذروه المراوح الكهربائية ثم يحط بعد حين على أنابيب التدفئة • من السديم الى الكلس عبرت هي • الى سرير الجنس بلا شبق • والى كؤوس الراح بلا راحة • بل كان ثمة نوع من الراحة : شعور ليلة الزفاف عادها في نهاية السنة الاولى ثم استطال أيضا فصارت له آلاف الاطراف • عندئذ بدأ الكلس يخترم ثيابها ويلتصق بالجسد • يتصمغ على الجسد • يتعضى بالجسد • وكما تقول العجائز ، فقد انحبست روحها • ويوم صادفها سليمان كانت فيها عينان فقط مفتوحتين : عينان تريان الموت الوشيك الذي لمحتاه يوم الزفاف ، وأول من رأتا : طلعت بك • شاهدتا حشدا بلا نهاية من بكوات باسم طلعت ، مصفوفين في خطوط طولانية وعرضانية ، مرتدين بدلات وشراويل وجلابيات • شاهدتا تاريخا عمره ألف عام ، اسمه طلعت بك، يجلس بين رفوف الاقمشة والنساء والبهار والأذرة ويمسك بيديه الصفراوين دفاتر التجارة • شاهدتا قوافل الجمال والحمير والبغال تنتقل بين طشقند وغرناطة ، مرورا بدمشق • تخيلتا من جديد قصص ألف ليلة وليلة ، ورأتا غادة ترفل في الدمقس والحجارة اللئيمة : غادة ذات الاطارات ـ هكذا يجب أن يكون اسمها • كل ستين عاما كانت تظهر في اطار ، أو كل شهر • وبقيت هي هي : مطية لاجتياز صحراء العمر في حالة من الغيبوبة الوحشية • كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ ، والماء فوق ظهورها محمول • وبقي الاطار هو هو : سريرا عريضا موشى يحمل ثقل الجسدين المسترخيين الى جانب أبجدية الموت •

اذ ذاك هرولت تستبقي الحياة ، فصادفت سليمان • أرسلت أبا فهد ليستدعي صنائعيا يصلح جهاز التلفزيون ، فجاءها به • مصادفة أيضا كان

مجيؤه ، وان لم يكن حقا كذلك : لقد غاب مساعده في مهمة مماثلة • وعندما دخل البيت راها أمام نافذة البهو منتصبة كالتمثال في العتم ، ومديرة ظهرها لعالم بيتها الداخلي • عرف أنها جميلة وأنها تتأمل المدينة الخضراء • وعرف أن عليه إصلاح الجهاز فورا ، لأن زوارا لا تعرف كيف تسامرهم سيأتونها ذلك المساء • قالت له ذلك ، وانصت لها • كل شيء كان جامدا ، الظلام والكلام والاجسام • واذ انفصمت نظرتاهما بلا انفعال ، داهمتها الشهوة الاخرى ولم تنتبه • ظنت أنها وجدت ملجأ • رأت في سليمان نقيضا لزوار المساء الحاملين معهم صمت الكلمات المفزع : لقد تكلم صمته اليها • واتجه هو الى الجهاز ، طلب الاذن بتحريكه فأعطي ، وأداره واقفا وراءه • ومع أنه رجل لا يتعامل بالرموز ، فقد ابتسم اذ اكتشف أن العطب ناجم عن لمبة محترقة • قال لها وهو ما زال جامدا : « قلقك يامدام ، سببه هذه • » وأراها جسما صغيرا من زجاج ومعدن بحجم الاصبع • ابتسمت ابتسامة سخط خفية : حتى هذا الانفعال الخانق لم يكن له مبرر ، لم يكن حقيقيا • وانحنى هو فوق حقيبته يبحث فيها ويفكر • ومع أنه رجل لا يتعاطى الرموز ، فقد رأى في المرأة الواقفة أمامه جهازا يمكن أن تصله لمبة سليمة بحركة الصوت والصورة • واشتهاها • انتصب • وضع الجسم الجديد في مكان القديم ، وأعاد الجهاز الى مكانه • وفيما يقول لها : « كل شيء تمام ، مدام ، » شاهد يدها ممتدة بالورقة المالية • رفض المال : « لا شيء يستأهل ، » فأصرت • أرادته أن يأخذ الورقة ، ويأخذ معها الرمز الذي رجّها وهي غير متهيئة له • من هو هذا الشخص ، بعد كل شيء ، ليثير فيها رغبة باللجوء ؟

قال لها وهو يثبت عينيه المعدنيتين إنه فعلا لا يريد النقود ولن يأخذها • وتقدم واعيا تماما بما يفعل ، فقبض على اليد الحاملة مالا وردها الى نحرها ،

فيما التقطت يده الاخرى جيدها من الخلف وهيأت رأسها للقبلة الموشكة . حدث ذلك في ثوان . وأدرك سليمان أن فحصه للجهاز البشري المتسامق أمامه كان صحيحا .

بعد منتصف الليل التالي دخل البيت للمرة الثانية . كان البهو والممر الموصل الى غرفة غادة ظلاما دامسا . وعبر السكون الطليق سمع حفيف ثوبها في امتساحه على جسدها وثيابه ، وأحس باللمبة متوهجة في ظلامها الداخلي . عندئذ عاد اليه شعور عريق بأنه سمكة يتم إخراجها من الماء . وقادته من يده الى الغرفة ، وهي ترعف شهوة نافرة : شهوة الجنس أم شهوة العرس ؟ وبينما هو يضغط عليها فتنضغط ، أحست بالاثنتين تندمجان وتمسيان حركة تتصاعد نحو ذروة انتهاء ملذة ورصاصية . وعندما ارتمت على القمة المسطحة أدركت أنها بنفسها وضعت نفسها في اطار جديد ، ولم تكن فيها خلجة احتجاج . كان ادراكا انتهى هو الآخر لتوه ، والى مكانه اندفق الظلام بأمواج متتالية لا صوت لها ومسح شاشة عينها الداخلية .

هذه الألياف والعروق والأشرطة التي كوّنت جهازا متقن الشكل ، انتقلت الى عالم آخر ـ قال عقل سليمان له . وتوقفت يداه وجسمها عن التنفس اذ تلامسا . أدرك بدون لأي أن اللمبة قد احترقت ، وأنه انتزع الصندوق من الشكل فبانت الوشائع المعطلة والاسلاك الصدئة والالوان القاتمة . شعر بنوع من التشفي الأسود ، وبحاجة ماسة الى ثيابه . نهض وارتدى ثيابه غير عجلان ، وهو ينظر اليها مجلببة بالظلمة والخمود والعار المحرر القذر . وبدأ يعود الى غور مياهه حتى لا يطاله صخب الموج .

في اليوم التالي مضى الى شيش بيش . لم يبح بشيء ، بل ولم يتكلم . لم يكن في كل ما حدث شيء مثير ولا جالب للرضى . فقط ، شعر أن صديقه

يجب أن يكون هناك ـ ليستمد منه شعورا بالامن لم يدرك كنهه لكنه طلبه · وفرقع شيش بيش قهقهته الصاخبة ، كتعليق على حالة سليمان الشبيهة باقتراب طوعي من الموت ·

ثم دخل علي في حياتهما من باب خلفي · اجتذبته ذات مساء مباراة بالنرد حامية الوطيس بينهما ، فجلس يراقب · وبينما هوبر شيش بيش وزعق وزمق ، جثم سليمان على كرسيه كسيد لا يسمه الا أن يكون مهذبا ، وعيناه تتابعان حبتي النرد في تدحرجهما واستقرارهما · لقد ملأ شيش بيش جوانب الطاولة الثلاثة رغم احتشادها بالمتفرجين ، سائلا كل مرة أي رقم أعطت حبّتا النرد · والى الجانب الرابع سكن سليمان ، الا عينيه · أحيانا ابتسم لهوبرات خصمه ، وكان واضحا أنه لا يبالي به · وراعت عليا المفارقة الصارخة بين الرجلين · كانا مثل قطبين لقطعة مغنطيس واحدة · اتصلا لانهما من فلـذ واحد ، وانفصلا لأن ·· لأن ·· لم يدر · لم يسعفه عقله التحليلي ذلك المساء· لكن جهله لم يدم طويلا ، هو الولوع بقراءة النـاس في مداراتهم المحلية والتاريخية · بعد أن انتهت المباراة ، سهروا معا · ثم كثرت لقاءاتهم ، فصار بالنسبة للاثنين كالوتر في مثلث قائم الزاوية · آنئذ ضاءت في ذهنه الصورة الجدلية ، كما سمّاها : لقد اتصلا اتصال الموت والحياة وانفصلا انفصـال الموت والحياة · رآهما نصفين متنافرين لوضع بشري واحد · هو درس التاريخ جيدا ، وافتتن بولادات الامم واندثارها وبعثها · وبخياله الرومنتيكي المتربع على حدود الوقائع والتجريدات ، أقام من صديقيه رمزا لأمة بأكملها · وهو رمز يحتوي الجميع ، خلقا وسلوكا · وسرهما التشبيه · التفت شيش بيش الى سليمان وطلب منه أن يغتصب ابتسامة واحدة على الاقل · قال انه ليس معقولا أن تمضي حياة بأكملها دونما ابتسامة ؛ وهذا هو وقتها · لكن سليمان

أصر على أنه هو رمز الحياة . ألم تنتفر الخرافة من عقله ، والاحلام الطيارة من حياته ؟ أليس هو الميكانيكي الذي احترف التعامل مع الآلة ، ونظم حياته مثل ساعة (بغ بن) فلا يعتورها الخطأ ؟ الم يرفض كل قيمة تعطل تقدم الانسانية ؟ وصاح شيش بيش : « بل أنا هو العلم ، وأنت افرازاته . وهذا النظام الذي كبّلت حياتك به ؟ كل شيء محسوب ، واحد + واحد = اثنين . وأنت لا تعرف الضحك . أنت عالة عليّ . »

وقال سليمان : « تنعم بغوغائيتك على راحتك . لا أحد يحسدك عليها . بالتأكيد ليست حالة عصبية كحالتك رمزا للحياة . أنا مطمئن . بالمناسبة ، نحن لم نناقش المؤرخ الجهبذ في آرائه . كل واحد منا رمز للموت والحياة في الوقت نفسه ، يا أخ . كل واحد في البلد ، حتى . وأخونا علي ، كيف بنيت حكمتك المقطرة هذه ؟ » .

عندئذ شبّت في علي حماسة متأصلة من النوع المميز لمن يؤمنون بحقيقة الافكار أكثر بكثير مما يؤمنون بحقيقة الواقع . وضعه السؤال في مسداه الطبيعي . أكسبه قوة اعتاد على هروبها منه في مدى الحياة اليومية الشائلة .

قال : « ستبقى لابسا درع جديتك يا سيد سليمان ؟ كريهة شغلة تصنيف الناس ، آنا معك . شغلة خالية من الشعر . الانسان يستطيع أن يكون أي شيء في أي وقت ، اذا أراد . انما أتكلم بصورة عامة . الذي سمّاه جورج انطونيوس يقظة العرب يعني بالنسبة لي ظاهرتين ، كل واحدة منهما يقظة موقتة ، مرحلية . الاولى هي يقظة العقل . العقل استيقظ ورأى الآلة ، ما يسميه الناس خطأ العلم . الثانية هي يقظة الغريزة . الاولى سخرت من العواطف والحدس والالهام ، رفضت الا الحقيقة المخبرية .. » .

وصاح شيش بيش : « هذا هو سليمان ، الكلب الموضوعي • »

قال سليمان : « اسمع ياحضرة المهرج • دعه يكمل • »

وتابع علي : « هذا النوع من المعرفة يحدد أفق الانسان ، يشطب على ميتافيزيقاه • هناك حقائق أعرض وأعمق من الحقيقة المخبرية • وسيكتشفها الناس في المستقبل وينتفعون بها ماديا • سيكتشفها الفقراء والمحبون • ومن لا يفعل ذلك ، سيستيقظ من موت قديم على موت جديد •• »

قال سليمان : « أتساءل لماذا لا تلبس الرداء الرسمي وتعظ في أحد بيوت الله • كمّل • كمّل • »

والتفت علي الى شيش بيش : « ويقظة الغريزة يا عزيزي •• بالمناسبة أنا الآن في بيت منها وأعظ عليكم • يقظة الغريزة هي أنت • أنت ترفض الموت بغريزتك ، وستظل تدفعه عنك حتى يأتي جيل يزيحه ويصنع الحياة بدلا منه • ربما حققت نجاحا ملحوظا • بصراحة أنا لا أعرف متى سينتهي دور البرجوازية الصغيرة في هذا الوطن • لكنه سينتهي • وسأجيب سلفا عن سؤال تهمّان بطرحه : الذي سيصنع الحياة هم العمال ، العمال والفلاحون وأناس مثلي لم يتسمموا بشهوة الامتلاك • انتهت الموعظة • »

قال سليمان : « عظيم أنها انتهت • لكن جمهور السامعين لن يحشو جيوبه بموعظتك وينصرف • هذه المرة سيناقشك فيها • هذه الرمزية التي تتحدث عنها ، موضة أدبية ؟ تفصيلة جديدة للقماش نفسه ؟ أنا أعرف أن جهاز التلفزيون أو الراديو ، أو محرك السيارة ، أي واحد منها ، مركب من أشياء أساسية لا تتغير • شكلها يتغير ، نعم • لأجل التحسينات • يمكن أن تصير أثخن ، أطول ، أقصر ، دائرية ، ملولبة •• ولكن تبقى هي نفسها • ليس

فيها شيء « يرمز » للحركة وآخر « يرمز » للعطالة • عندما يتعطل جزء ينزع ويستبدل بواحد جديد • وهذا هو الانسان ، والامم ، والتاريخ ، وكل هذه الكلمات التي ترددها وكأنك في حلم • انت مثل السيد شيش بيش ، الحالم والذي رأسه مليء بالأوهام • وأوهامكم تضع غشاوة على أبصاركم • أنتم ناس نصف نائمين • تعيشون بجسدكم • عقولكم معطلة ؛ واذا اشتغلت فلكي تبرر أوهامكم ، التي هي اوهام جماعة بدائيين • »

وقد أنصتنا لموعظته المضادة مبتسمين • وكان شيش بيش يهز ساقيه ابتعادا واقترابا • وقال علي : « أية حياة هي تلك التي تخلو من الاحلام ؟ الاحلام خبز الحضارة • وهي أحلام ، لا أوهام ، كما أعلنت حضرتك • عندما يحلم الناس ، ينهضون لتحقيق حلمهم • وعندما تتحقق الأحلام ، وتمتلىء الحياة بالانجازات والملبيات ، تكون دورة الحضارة قد اكتملت • أعني يبدأ الانغلاق والانحطاط • » •

وأخيرا أطلّت عليهم عينا الملك المباحثيتان • كانت أولى عباراته انذارا • قدّم لهم نفسه كشاهد على « الزمن البربري وليل الحضارة • » وحذرهم أن كل ما يتفوهون به في حضرته سيعتبر مستمسكا عليهم ، وسيندرج في رواياته المقبلة كشهادة على عصر وشعب • قال لهم ان زمن الكلام المجاني والتصرفات العشواء قد انتهى ، وأن العالم الثالث يريد رجالا يفعلون •

في ذلك المساء ذهبوا جميعا الى أم تحسين ، وربح الملك •

أمية وعائدة تقفان وسط البهو ، الاولى مطرقة ، والثانية تنظر اليها بامعان • يلتفت رأساهما لتحية علي ، الذي وقف بالباب متهيئا للتلبية • تتحرك أمية فتمسك عائدة بيديها وتوقفها • وفيما يبدو أنه مرة أخرى ، تهددها عائدة بقطيعة لا رجعة فيها ، وبأنها الى الابد لن تفتح فمها لتتحدث اليها • تذكرها

بخراب بيتها وحياتها · تطلب اليها القبول بقدر الزواج ، وتحمّل المصيبة التي يجب على كل أنثى أن تتحملها طالما عاش في هذا البلد رجال · لكن أمية ترفض : بابتسامة باهتة توارت منها الدعابة هذه المرة ، تدفع عنها يدي عائدة ونصائحها · تهرع الى الخارج · وتصيح عائدة بعلي أن يسد عليها الطريق · تهرول أمية وتدفع صدره بالاصابع العشر ، وبسرعة تنطلق الى الخارج ·

وراءها تتجرجر عائدة · تصيح بجارتها ملء جوف السلالم ، مدفوعة بذعر شخصي ، منادية الرجل المتلبد الى جانبها ، وبسرعة قدر طاقتها الى البيت المشعشع بالكهرباء · من الداخل يعلو صوتها الواقف على حافة الدمع · الكلمات نفسها ، والرفض نفسه · وتخرج أمية بحقيبتين ، تضعهما عند قدمي علي · تسحب طفلها الصامت المحرور · من الشارع يجهر زمور سيارة ، فتسرع بالنزول · ويدرك هو أن عليه حمل الحقيبتين الى السيارة ، فيفعل ·

يشخر المحرك وتنطلق السيارة · ويبقى للاثنين الشاهدين أصوات المدينة التي لا علاقة لها · يتثاقلان صعدا نحو البيت · يتوكآن على افريز الدرج ، كل بحسب حجمه ·

في البهو تتطوع عائدة لتقديم تقريرها · بتشفّ غامض ووجه أكثر غموضا ، تخبره كيف جلس نواف الى الطاولة وأجلس أمية · لقد سحب مسدسيه ووضعهما أمامه ، طلب اليها أن تختار المسدس الذي تريد أن تموت برصاصته ، صفعها كي تتكلم عندما صمتت ، أعاد عليها السؤال ، سألها أين تذهب بالمال ولمن تدفعه كي ينام معها ، صفعها لتتكلم ، وثب اليها ولبط الكرسي فسقط الشيئان ، سألها من يأتي اليها عندما تغيب في المدينة ومن الذي ترك على ظهرها آثار العض · وزعق صوتها المرعوب أخيرا ، عندما سحب

المسدس ولقمه واعده للاطلاق · لذلك اتصلت عائدة بعباس فقيل لها لـن يأتي قبل منتصف الليـل ـ طبعا لن يأتي ! ـ واتصلت بعلي الى المدرسة ، وركضت في الحال الى الباب تضغط على الجرس ضغطا متواصلا ، ففتحه نواف وهو خارج كالوحش الهائج بلا سلام ولا كلام ·

يسمعان دقتين على الباب وتدخل ابنتا نواف · تنكمش الكبرى حيـاء لرؤية علي · تسأل : « أين الماما ؟ » وتجيب عائدة : « بعد قليل تجيء · ابقيا في البيت وأغلقا الباب · » تعود الفتاتان · تلتفت عائدة الى جليسها بنظرة متكلمة · يسألها ما حقيقة هذه الخيانة ، ما دام ثمة آثار أسنان على الظهر ، فترفع كتفيها وتمط شفتيها · تتجشأ وتطلب منه سيجارة · انهـا لا تعرف الكثير · أحيانا تسمع وقع أقدام مريبا · أحيانا يظل الضوء ساطعا في غرفة أمية حتى شقة الفجر · ونواف غائب دائمـا · له في باطن دمشق عشيقات وعشيقات ، وفي كل مدينة تصل اليها طائرته · مؤخراً علق بامرأة أربعينية ، زوجة تاجر كبير ، وبابنتيها الشابتين · سكر كل يوم ، وعربدة · عليهن ينفق كل دخله · أحيانا تأتي أم إمام ومعها شباب · تغلق الابواب والنوافذ وينقطع الصوت فلا حس ولا حسيس · لكن عائدة لا تعرف الكثير ، وهي لا تتذمم أحدا ، خوف الله · على أن أمية لم تعد توحي لها بالثقة · انها تشجع عباسا ، تتصرف تصرفات ·· لا تدري ·· لم تعد مرتاحة لها ·

يقرع الجرس ، ويدخل نواف بلا دعوة : قامة ضخمة ووجه أربد · يحيّي ويجلس · تمتد ذراعاه على ذراعي الكنبة وتنفتح ساقاه · أين ذهبت هـذه العاهرة ، يسأل · عند أهلهـا ، يجيب · لتذهب ؟ ينفخ بلا مبالاة · مكان العاهرة الطبيعي هو المبغى · هل يحوي الانسان عاهرة في بيته ؟ نحن العرب ، حياتنا كلها قائمة على الشرف · تأتي بنت الف كلبة وتمرغه في الوحل · ماذا

ستقول ابنته الشابة وهي تفتح عينيها على العالم ، وبعد عامين تصير امرأة ·

يطرق · يضرب براحة يده على ذراع الكنبة ضربات خفيفة بطيئة · من وجهه الهازىء المستخف تنز مرارة صغيرة وتتجمع عند زاويتي فمه المفتوح · تبدو ندوبه أشد عمقا وبروزا كأنها علامات زمن متآكلة · يجول بؤبؤاه في محجريهما الشرسين المغلولين ، والنظارة تغطيهما بظل عكر · يغمغم دون أن يرفع رأسه : « أقول لك ؟ نحن شعب تميد بنا الارض ، فنظن أننا نتحرك · »

لكن عائدة ترفض الأمر كله · ما من أحد يرضى لهؤلاء الاطفال مصيرا كالذي يصنعه وأمية لهم · وهي لا يخطر لها أن يكون حرف واحد مما يقوله عن زوجته صحيحا · أمية مثال الطهر والشرف ، سيدة بيت ولا مثلها في دمشق ، امرأة جميلة يحسدها عليها الرجال · فليضع عقله في رأسه ويخسىء الشيطان · بعد هذا العمر ، وثلاثة أولاد ، يجب أن تكون الحياة مستقرة مهما كلف الامر ·

يهتف : « أنا من يعرف قيمة الاستقرار يا ست عائدة ، والحياة العائلية الهادئة · لكن حظي ابن كلب · حاربني القدر مع الأولى حتى هدّني هدّا · حاربني الموت · والآن ، تحاربني الحياة مع الثانية ، وعقلي راح يطير · أنا لا مكان لي في هذا العالم ، على كثرة المحلات التي أنزل فيها · أنا مكاني في الطائرة · كل شيء معطل وفاسد ، ست عائدة · بلد خراب في خراب · نحن غرباء في عالم نصنعه بأخطائنا · اشتريت لها البيت والسيارة والاثاث ، ثريات الكريستال ، نصف مليون ليرة ، كل هذا من صنع يدي ، أنا الفلاح ابن الفلاح الذي يحتقرونه ، وكله لأجل بنت ستين ·· وهأنذا في السابعة والثلاثين ·· لا شيء ·· صفر · »

يصمت • يدير رأسه نحو لوحة طارت فيها راقصة باليه كفراشة منيرة • يضرب براحة يده على الكنبة ضربات خفيفة رتيبة • في جسده الضخم قوة متعبة ضرّسها الألم • كأنه صار ضخما فقط ليستوعب سيل القذى والعكر •

يقول علـي : « اذا سمحت لي بالتدخل •• لماذا العنف ؟ عندما يختلف اثنان ، يتركان ويمضي كل الى حال سبيله • أنتم سددتم مفارق الطرق بالعنف • »

غير ملتفت عن اللوحة ، يهز نواف رأسه • يتوقف عن الضرب على الكنبة • يقول : « العنف ! لم يبق غير العنف • العالم كله عنف • من يتفاهم مع الثاني ؟ فيتنام كلها قنابل وكيمياء قاتلة • العصابات والمخابرات تحكم العالم • كل دقيقة يقتل فيها انسان على هذه الارض • سأربّيها • ما زال عليها شيء من اللحم ، سأذيبه • يفكرون نحن الريفيين بهائم • وأنا ساعلمهم من هو الفهيم ومن هو البهيم • »

تدرك عائدة أن وقت الهجوم قد بدأ • مضت ساعة الشيطان ، تقول له ، والغضب لا يولد سوى الغضب والسقم والنقمة • الآن وقبل كل شيء يذهبون الى أمية ويعودون بها • يقاطعها نواف مستخفا : لمن تقول هذا الكلام ؟ لكنها تؤكد له أنه سيذهب ولن يترك أمية وحبهما بهذه البساطة • يقاطعها ثانية ، فتقاطعه ، وتتقاطع الاصوات ، وتنعقد محكمة بلا قاض ولا محلفين •

حسما للموقف تنهض الى الهاتف وتدير قرصه : تاكسي لبيت المحافظ عباس • ينظر علي اليها مذهولا : ماذا ستقول للسائق عندما يرمي نواف بجميع احراجاتها وراء ظهره ؟ يعودان الى الجدال • تزداد عائدة ثقة ، ونواف استخفافا •

في الشارع يعطي نواف السائق اجرته ويصرفه · يتجه الى سيارته ويفتح الباب لعائدة · وفي الطريق الى أمية ، تملي شروطها : لا ضرب ، لا تهديد ، لا شكوك · تعيد عليه القول ، وتسأله وعدا · تؤكد من جديد · يصمت هو · بين الحين والحين يزنخر ويشتم سائقي السيارات العابرة · عند باب البيت الطيني يقول لها : « بيننا حساب قديم يا ست عائدة ، أنت لا تعرفينه · اسأليها فقط ، لماذا لا تطلّقني · اسأليها · أنا أقول لك : لانها لا تتنازل عن المؤخر ، عشرة آلاف ليرة · هذا هو السبب · وأنا سأذيب لحمها حتى تتنازل · يظنون أن خمس سنوات تكفي لنهب مالي · وبعدئذ يجبرونني على الطلاق وأدفع لهم عشرة آلاف · وبعدئذ يزوّجونها لحمار آخر · »

تشجب عائدة كلامه · تضغط على زر الجرس وهي تأمره بنزع الوساوس المركبة في رأسه · تمسك جزدانهـا بكلتا يديها ، ووجهها مبتسم بالرضى للمساعي الحميدة التي تبذلها ·

تفتح لها الباب امرأة أربعينية · قامة ملأتها الاعوام بفتنة المرأة وسلبتها رشاقة الفتاة · وفي مسام وجهها البريء تلبّثت لمسات قسوة نحيلة جعلته من ذلك النوع الذي يأمر الرجال · وجه آدمي يعلم جلال الصمت ويواجه الناظرين باتزان انسان موشوم ·

المدخل وغرفة الى اليسار ، وفسحة صغيرة تتقعى فوقها السماء ، وسلّم خشبي متآكل ، فغرفتان وسلّم وغرفة · ذلك هو البيت · كل شيء عـدا الخشب ، تبن وطين · هنـاك يتصايحون ، يتصارخون ، يتزاعقون · أمية ترفض العودة الا على النعش · الأم تطلب الطلاق ، ولعنة الله على المال · أمية ترفض التنازل · أبوها يطلب منها الصمت ليتفاهم الرجال · نواف يصـع شروطه · أبو إمام يتقبل ويضع شروطه هو الآخر · يتفق الرجلان · يتبادلان

القبل على الشوارب • تصرخ أمية • يزنخر نواف • تدمع عينا الأم ، وتهم ترجو من نواف حسن المعاملة لكنها تمتنع • تأخذ بيد ابنتها الى غرفة المطبخ ليعيدا ترتيب الثياب في الحقيبتين •

بعد قليل تشخر السيارة • تعود الى الخلف وتنطلق ، فيما أم إمام تمسح أنفها وتلوح بيدها • أمية جالسة الى يمين نواف وبينهما مسافة صغيرة • يجتازون المنعطفات الضيقة صامتين مبتردين • عند استواء الشارع ، يلتفت نواف الى أمية • يفرش أصابعه وراحته على أنفها وفمها : « تتركينني يا بنت الحرام ، ما ؟ وتيتمين هؤلاء الاطفال • بنت ستين •• يطاوعك قلبك ، ما ؟ ما الخبر ؟ حملت حالها وتركت البيت • اي ، أنا ضربتك كفا واحدا • »

« مرة ثانية ، ان ترفع يدك عليّ أترك البيت • ووالله لا أعود • »

أمام المبنى وعلى الدرج ، يستمر نواف في عتابه الشرس ، وعائدة في ابتسامتها الباهتة ، والطفل النائم الغافل في غطيطه البريء • تخرج أمية حاملة طفلها •• تسرع بلا التفات وتتوارى على الدرجات الملولبة • يدخل نواف وعائدة الى غرفة الضيوف • فجأة ينضم اليهم عباس عاصفا مسبطرا • توضع الكؤوس على الطاولات الصغيرة • يستأذن نواف لارتداء منامته • تتناول أمية كأسا • قبل أن تشرب تحث عائدة على الشرب • تضحك عائدة بارتباك ورغبة • أخيرا تقرر : « لأجلك ، يا ست أمية ، سأشرب • » وتقول أمية : « اشربي نخب الخازوق الذي رجعت له • » « الله يلعن ذوقك • »

يصيح عباس : « املأوا كأسي أيها الخونة • يا الله ، أمية ، يا الله • » يدخل نواف متقلقلا ، ويتجشأ • يقول عباس : « كنتم متنابحين ، أخي نواف ؟ وعائدة صالحتكم ؟ جميل ، جميل • أرجو ألا تنسوا المعروف ، وتردّوه لنا في مناسبة قادمة • الدور لنا هذه المرة • »

ويشيل بهم ذلك الاحساس القديم باليقظة الذي لسعهم ثم مدده النهار والذيل برخيص الشجار وعنف التلقيات • يهجس في الوجوه الضاحكة والأيدي المرتفعة بكؤوس الخمر • تهزهم الطرفة الرديئة ، ويقرأون الاوراق الأدمية ويكتبون عليها قصص الحب • يبتعدون ليرووا ، ويقتربون لينبهروا • يستريحون للأرجوحة المتسارعة بين قطبي الفرح والحصار • يحسون بشيء صلب مثقل يتحلل منهم ، بجسر مهدوم يرممه الضحك • يتوارى صوت العنف الذي أرغى رأزبد قبل حين ، ليجلجل الشوق الهارب من قبضة الشر • المفضي الذي حمل أمية من بيت الطين الى بيت الثريات الثمينة يرسو في قعر الكأس ، يظل هامدا حتى عندما يرن ارتطام الزجاج بين يدها ويد عائدة • يجدون في الكابوس الذي مضى حكايـة فكهة تحكى فتغطي بالنكتـة المسلية على نزيف الزمـن والشعور • ثم يفرشون على بساط المبالغات المريح • يتذكرون أعمارهم واذا عائدة فتاة في سن الجامعة أو أكثر قليلا ، فيما يهرم عباس ، ونواف يحتفظ بشبابه • تكتشف عائدة خطأ حساباتها ، واذا هي أصغر بسنة أخرى • تؤكد أنها لولا الطبخ والاولاد والقهر الذي تتعمده الخادمة لكانت أصغر بعـامين آخرين • وتعترف أمية ، رغم احتجاج زوجها ، بجهل في أمور الطبخ ناجم عن حلم قديم بالعمـل وبالاكل في المطاعم • وفي لحظة أشبـه بانفجار أخرس ، تتراقص أحلامها القديمة على وجه باسم ولغة ساخرة ، لتغدو وجبة للتندرات• ويعلن عباس عن رحيل الرسام منه وسكنى العسكري فيه • ويقرر نواف أن همّ حياته الكبير هو شنق الفقر الذي أذل طفولته •

مرة أخرى يدركهم التعب ، فهؤلاء قوم يتعبون • يزين لهم الكرى خاتمة للراحة العائمة على بحر النار • ينطوي النضال مع اليوم الذي انطوى ، وفرح اللحظات الاسفنجية في ليل خافق بالنجوم •

ينامون قبل أن يدركهم الصباح ٠

وعند الغروب يسند شيش بيش ظهره الى جذع شجرة ٠ يريد أن يبدو عابرا غير منتظر ٠ يشعل سيجارة ، وعبر اول زوبعة دخانية يراقبها وهي تدخل ٠ جزدانها يتهدل تحت الخاصرة ، نطاقه الطويل ينسدل من فوق الكتف، وباطن ابهامها يشد على منتهى النطاق ٠ تثير قامتها فيه غبطة تتعرى حتى لتسلبه الشوق الى امتلاكها ٠ يشعر أن هذا الجمال موجود لذاته وليس للتداول، وطن ، نهر ٠ بعد لحظات سيقف الى جانب قامة الفرح هذه ويفتح صدره التابوتي لهوائها الجبلي العليل ٠

يلحق بها عند أول الدرج ٠ ينزلان ، ولا تلتفت ٠ يمسح على وجهيهما عتم القبو وصمت الاشياء ٠ لن يزور المكان أحد قبل ساعات ، فالنهار مملكة تخلو من الحب ٠ ستكون الحرية جليسهما الوحيد في الغور تحت الارضي ٠ عند آخر درجة تقف وتتفحص الطاولات ٠ يمد يده ويلمس كتفها ٠ تلتفت بلا وجل ، وتلتقي الابتسامتان ٠ « عارفة أنه أنت ، » تقول له ٠ تتحرك نصف خطوة الى الامام فتنضوي تحت ساعده ٠ يتقدمان وقد نسيا أن يتصافحا ٠ يمضي بها الى الطاولة الأقصى منتشر النفس ٠ تسأله لماذا لم ينتظرها في الداخل كما اتفقا ٠ يبتسم ولا يجيب ٠ يزيح لها الطاومة فتجلس ، ويسترخي الى جانبها ٠ يعبىء وجهها بتطليعة ثابتة مرحة ٠ تعيد عليه السؤال وتنتظر أن يقول ٠ ينقر بأصابعه على الطاولة : « قلت لنفسي ، واذا لم تجيئي ؟ سأخرج من هنا وعيون أصحاب المشرب تضحك علي ٠ لو لم تجيئي ، كنت سأضحك على حالي ٠ »

من حيث لا يدري يتلامح على وجهه سؤال موجّه لها ٠ تطرق ٠ تتناول

الكبريتة وتشعل سيجارة · يتأملها · يطول الصمت · يشعل سيجارة هو الأخر · وتعبث يداها بصفحات مجلة نسوية ·

أخيرا تقول : « اذن أنت مثل غيرك ، تخاف من الناس وسخافاتهم · » يغيض وجهها بابتسامة هازئة متسامحة ، وتتابع: « أنا أعرف ماذا قلت لنفسك· قلت على الأغلب أسمى لن تجيء · لا يمكن لبنت من بلادنا أن تعطي موعدا لشاب من أول لقاء وتفي بوعدها ، الا اذا كانت من ذلك النوع · »

« قبل أن أصرخ باحتجاج شديد اللهجة : شكرا لأنك قلت عني شاب · أنا يا بنت ، لست من النوع الذي يظنك من ذلك النوع · صحيح أنا عجوز ، شوية ، بس أنا جديد ، وأعجبك · المسألة مسألة عمر · أنا أزيدك ثلاث عشرة سنة · · »

« فهمت ، فهمت · لماذا تذكر لي عمرك ؟ أنا لم أطلب يدك بعد · »

« يمكن أنا أطلب يدك · »

« أنت أيضا ؟ » ·

يصمتان ، هي مطرقة ، وهو يحاول أن يفهم · يدركان أن وزن الجدية في حديثهما زاد على وزن الدعابة · تبقى الابتسامة وتشابك النظرتين ، لكنهما يتفحصان الألفة الجديدة التي تكونت فجاة فرحين مرتابين ·

يلتفتان الى حيث يدقدق حذاء النادل على الدرج الخشبي · يراقبان الرجل المقبل حتى يصل · بوجه مرن وكلمات مشذبة ، يسألهما ماذا يشربان · تلتقي أعينهما من جديد ، ويقول شيش بيش : « هات بيرة باردة لهذا الطقس البارد · »

يمضي النادل • وتقول هي : « أنت ذكي لدرجة الخبث • أوهمت الرجل أن جونا بارد ، أننا مختلفان • » يضحك ولكن بلا لهجة : « هذا هو الخوف الذي حدثتك عنه • » يتشاغلان بمراقبة ساقي النادل وجذعه ، ثم وجهه اذ يطل ثانية ممسوحا غائبا • على الطاولة يضع الزجاجتين والأقداح ، ويقوم بالواجب •

تقول هي : « لا أفهم لماذا تخاف • تخاف على نفسك ؟ لماذا تخاف ؟ » وتتطلع اليه بشعور مودة معاتبة ومستترة • تحس أنه طفل ضخم ، وتستطيب محاصرته •

يقول : « أخاف عليك • » ويبتسم ، ولكن لنفسه : هذه الفتاة ليست رومنتيكية • تفلت الى عينيه موجة شنفت بها ثم ترتد الى الداخل •

« لا تخف علي • فقط انزع من رأسك صورة البنت الشرقية • » وتمد الى مجلتها فتقلب صفحاتها : « أنا حادة المزاج • لكني أعرف ماذا أفعل • » تتوقف عند صورة في المجلة لفتاة باهرة الحسن كشف فستانها عن شيء من نهديها وبطنها • تقرأ :

« كلود أبي اللمع •• ضربت الرقم القياسي في تألقها بالحفلات الاجتماعية والاعراس التي أقيمت خلال الاسبوع الماضي •• وتعتبر كلود من اكثر الباحثات عن أناقتهن ، حتى أنها لا تترك عرضا للازياء الا وتحضره سواء في بيروت أو في باريس • »

« لينا سرحان •• حولت مأدبة الغداء العامرة التي أقامتها في منزلها ، والتي ضمت شلة من صديقاتها ، الى درس بكيفية اعداد أطباق شهية ••

وهكـذا طلعت كل مدعوة بلائحة تكشف سر شطارة لينـا في إعداد الأطباق والحلويات ، وفي كونها ستّ بيت ممتازة . »

يضحكان بصفاء وقوة ، كأنهما يريدان أن يطردا ارتباكهما . يصيح : « هذا أجمل هجاء اجتماعي سمعته في حياتي . » تقترب منه وقد أنست . تقول : « اسمع هذه : (ما أحلى جمالك يا عروسة . في ليلة العمر السعيدة تتجه كل الانظار وتبحث في مظهرك .) كل شيء مركّز على هـذه الليلة السخيفة . ما قبلها وما بعدها شيء تافه . (يجب أن تكوني رشيقة أقرب الى النحافة . ويمكنك أن تحققي الرشاقة خلال أسابيع اذا استغنيت عن وجبة الغداء . وهذا يعني أن يكون فطورك مؤلفا فقط من بيضة برشت ، قطعة من اللحم البارد ، جبن قريش ، شاي محلى خفيف ، عصير ليمون .) تأمّل بالله عليك . لأي طبقة يكتبون هـذا الكلام الفارغ ؟ (ويجب أن يكون وجهك متألقا . أزيلي الزغب فوق الشفاه أو لوّنيه بحيث يضفي على وجهك تألقا - الماكياج : يجب أن تكوني على دراية تامة بالماكياج الذي تضمينه فهو يختلف عن ماكياج السهرات . نظفي وجهك ورقبتك بكريم لبني . دلّكي وجهـك بكريم أساس أو كريم مرطب بحسب البشرة . ضعي طبقة خفيفة من كريم أساس بين البيج والوردي ، وأحمر خدود يسيح بالفرشاة . ضعي طبقة خفيفة من البودرة . اذا كنت معتادة على وضع رموش اصطناعية فضعيها باتقـان ثم ضعي طبقة من الماسكرا على الرموش .) كم طبقة بطبقة من الكريم ؟ أكثر مما اكتشف كارل ماركس من طبقات المجتمع ـ ما رأيك يا حضرة الشـاب الجديد ؟ » ؟

يمسكها من زندها فترتمي المجلة بينهما . يشدها اليه : « بودي أقبّلك . »

يأتي اليه جذعها رحب الشباب . يهدوء يحتوي شفتيها . يغمض عينيه ،

وترفع اسمى ذراعيها على كتفه ببطء وتطوق عنقه · تدفعهما الحركة الى مزيد منها ، فتنعصر بينهما المجلة وتتمعّج ·

ترتدّ عنه مبهورة الأنفاس · تسوّي شعرها مضطربة منضية · يعود فيأخذها اليه · تريح رأسها على كتفه · يريح رأسه على ظهر المسند الجلدي · تعتدل في جلستها طلبا للراحة ، ويغمض عينيه · تتناول المجلة ويتناول زندها بأصابعه · هي مسترخية يقظة وهو مسترخ دائخ · اختفت الآن رقاق الستارة المعدنية · زالت المسافة بين رصيف الطين ورصيف الاسمنت · والشعور الذي كان عندها حنقا ، وعنده حلما مستحيلا ، تحقّق بلا مقدمات ملتوية ، وسربلهما بطمأنينة واجدة ·

تسأله هل نام فيبتسم · يضغط على جذعها طويلا : « أنت بعيدة عن المشاعر التي يصل اليها من انحدر عمره الى الثلاثين · اذا قبلت بي فستتزوجين عجوزا لا يملك من الشباب الا تذكرة الهوية · »

« أنا لن أتزوج · سأتابع دراستي في الجامعة · سأشتغل وأكسب عيشي بنفسي · سأكون مستقلة في علاقاتي · وعندما أجد من يعجبني العيش معه أكثر من العيش وحدي ، أتزوجه وأمره الى الله · »

يفتح عينيه وينظر اليها بدعابة مستغربة · تتحرر هي من ذراعه توكيدا لكلماتها · يعطيه ابتعادها قدرة أكبر على الادراك · يشعر بحرية شخصية مريحة ، ولكن لا طعم لها : بعد كل ما جرى ، لا تطلب منه شيئا ، ولا حتى وعدا ! « كأسك · » يتناخبان · « مئة بنت مثلك ، تكون دمشق بألف خير · أرجو ألا ترفضيني كصديق ، على الاقل · »

« أمور من هذا النوع لا تقرر سلفا · ولكن المرأة بلا عمل ، بلا كرامة ·

اذا أرادت فستانا ، يشتريه الرجل - اذا أرادت لقمة ، يشتريها الرجل • هي نفسها مشتراة من قبل زوجها • خاصة اذا كانت فقيرة •• بنت آدم من الدرجة العاشرة • أنا أعرف الفقر • خلقت بين الفقراء • لكني لست ممن يموتون فقراء • »

يجرع كأسه : « مولاتي ، جئنا لهذا المكان الرومنتيكي لنتشاجر ؟ شوفي المكان ما أجمله • بيرة ، ولا أحد حولنا •• »

تجرع كأسها هي الأخرى : « لا • أسمى الرومنتيكية تراها في الغوطة • هنا كاننا لصوص نسرق شيئا لا يحق لنا • اذا أردت تعال • أخي إمام ، كل يوم جمعة يلتقي مع صديقته هناك • نمشي على التخوم بين الاراضي ، ونلعب • ما قولك ؟ » •

فجأة يتخيل نفسه ماشيا هناك ، فيقطب حاجبيه • واذا أحب أن يقبّـل أسمى ؟ يا للمهزلة ! سيكون المشوار عذابا كله • وفي وضح النهار ! وأخوها حاضر دائما ، ما شاء الله !

فجأة تقهقه هي : « اذا أردت بوسة منك ، أنا أعرف كيف أدبر حالي • دبّر حالك أنت • » ويستمر ضحكها فيختلط بقهقهة حنجرته الداوية •

« أنت أخبث امرأة في العالم الثالث ، لا أكثر ولا أقل • كأسك • أوب ! الكؤوس فاضية • »

يملأ الكأسين • تقترب منه حاملة كاسها وتضعه على فمه • يدير رأسه ليتمكن من الشرب • يهتز الكأس على فمه ، واليد التي تحمله • وفيما هي تهمّ بالكلام ، تنزلق البيرة عن زاويتي فمه وتنسكب على سترته • تبعد القدح

مذعورة • تنتش من جزدانها منديلا ورقيا وتمسح السترة • تنظر اليه وتبتسم لتكشيرته الصافية • ترمي المنديل وتهلّ باتجاهه • يتعانقان •

تنهض وتقف منتظرة • يطلب اليها أن تمضي بمفردها • ترفض • يكرر طلبه بالحاح غامض • ترى الى اصراره فتقبّله قبلة صغيرة : « خائف علي ، ما ؟» وتمضي •

يتأمل مشيتها النشطة الواثقة ، في انتصابها الأبي ودقات قدميها على الارض والدرج • الآن وقد ابتعدت ، يحضر اليه إحساسه المحايد والمتورط : انها جميلة •

ينهض • يحمل كاسه ويتفقد المكان • قبل لحظات كانت بين ذراعيه وعلى صدره ، وكان المكان غائبا • يحسو جرعات متقطعة • يخضها في فمه ، وعيناه تجوسان بين العتم الخافت وأضواء المصابيح الكامنة • يحمل نفسه بغير ما شيء متعين في ذهنه وقد خوت من حوله الاشكال •

يقولون في الأرياف ان المحبة ثلاثة أشكال : حلوة ، وحامضة ، ولقّانة • لا ريب أن معرفتهم بالحساب ليست شيئا يمكن الفخر به • غير أن كلامهم عن القلب الانساني أعذب بكثير من أغنية اذاعية يدعي مؤلفها أن « عشق الروح مالوش آخر ، لكن عشق الجسد فاني • » ويبدو أن شيش بيش قد ارتد في فترة ما من حياته الى ثنائية الاغنية • هناك عالمان ، يجب الاعتراف بذلك ، عالم الروح وعالم الجسد • قد يحدث أن يتداغما بالحب •• ويطرق مستعيدا صورا متلاحقة عن تلك التي ماتت فحلل موتها حياته الى عناصر متضاربة • أي سحر كان فيها واستطاع أن يوحد الوجود ؟

يقول سليمان مجيبا عن سؤاله للمرة العاشرة : « الحب أساسه الجسد •

وللحب مساحة صغيرة من حياة الانسان ؛ الباقي للعمل والانتاج ·· ما بالك ترهقني بالاسئلة ؟ »

« أنا أرهقك ، يا ابن الزانية ؟ ماذا أفعل اذا كان دماغك الميكانيكي مضادا للتفكير ؟ وهذه الاجوبة التي تعطيها · كلها تعاريف · عرّف بما لا يزيد عن سطر الكلمات التالية : الحب ، الاشتراكية ، العروبة · »

ينتبه الى نظرة سليمان الوادعة المتسائلة : « ماذا ؟ لو يراك الملك يوجه لك سؤاله المعهود : لماذا هذه النظرة الغرابية ؟ حديث الحب ثقيل على قلبك ، مسا ؟ » ·

« أنت عاشق يا ولد ؟ أراك هذه الايام قابلا للاحتراق والحرق مثل حمض الكبريت · »

« آه يا عزيزي · قل لي هل تحب غادة ؟ »

« طبعا أحبها · »

يميل شيش بيش رأسه ويتفحّص عيني صديقه منفرج الشفتين · يحس سليمان بوطأة نظرته فترتجف جفونه ويضع يديه في جيبي بنطاله ·

« تحبها ! » يقول شيش بيش · « كيف يعني : تحبها ؟ ·

« أوه ! احبها يا أخي · تعرف أني الاقيها كل أسبوع ، وأحيانا بلا موعد · معي مفتاح البيت · »

« وبعدئذ ؟ » ·

« وبعدئذ ، ماذا ؟ » ·

« أعني ، بعد أن تمارسا الحب ؟ » ·

« اسمع لأقول لك · شعور الحب مثل ماء يتجمع في بركة · بعد فترة تمتلىء البركة ؛ افتح لها مصرفا ، وانتهينا · أنا بركتي تمتلىء كل أسبوع · »

« الله يلعنك ويلعن بركتك · أنت مثل أسمى لست رومنتيكيا · لا أعرف ما الذي يجمعني بك · »

« سوء حظك ، لا شك · »

لقد عانق أسمي وقبّلها · الموضوع ليس موضوع بركة ـ يا لهذا التشبيه المريع ! انما كيف يقنعها بالزواج · يقولون إن الزواج في هذه الايام مؤسسة فاشلة ، والناس لا يعرفون لماذا يحبون ولا لماذا يتزوجون · اذن ؟

وهو قول يبصم عليه عباس وأمية : ليس هناك كائن أكثر مدعاة للرثاء من محب أو متزوج في هذه البلاد · واذا كان الانسان الواقع في احدى هاتين الورطتين ذا حساسية من درجة ما ، صارت درب حياته مفروشة بقشور الموز ·

على أن الشاطر هو من يعرف كيف يتفادى الانزلاق ـ بعد أن يتزوج طبعا · لهذا جاء حسن وأمه من حماه · يدخل حسن رزينا متهدل الاطراف · واذ ينحسر بالجلوس على الكنبة ، تظهر أم حسن حاملة نفاضة سجائرها · للتو تبدو على الوجوه ملامح محكمة طارئة · سكوت مستغرق في ذيل البنطال ، أو ياقة السترة ، أو العيون الحزينة ·

يلقي حسن بسنارة : « ما آخرة هذه الحالة ، يا أبو لؤي ؟ »

ويرمي عباس بسنارة مقابلة : « كما ترى · حالة غارقة في التعاسة · ولازم أن نضع لها حداً · »

يحرك حسن سنارته في قلب الماء : « ما الحل ، برأيك ؟ » ·

يتسع البحر أمام عباس فيمتطيه ، والكلمات سفينته : « الآفات عادة تبتر الى متى نظل نساوم ؟ هذه حالة مستعصية · وليس للانسان أكثر من عمر واحد يعيشه · »

ينتر حسن سنارته بعزم : « اذا كنت وصلت الى قرار نهائي ، قل لنا ما هو · نحن مستعدون لأي حل تقترحه · »

يمضي عباس سابحا الآن : « كما قلت لك ، هذه حالة مرض · كل يـوم تُذبح انسانيتنا بأمور تافهة تكبر وتزداد حتى تصير كل شيء في حياتنـا · أنا غير مستعدّ لأن أعيش متهماً ومنتّصاً · اما انا رجل في هذا البيت ، وإ ما ننتهي من حيث بدأنا · لماذا كل هذا الشقاء والضياع والغربة ؟ » ·

ثانية ، يرمي حسن بسنارته : « هناك كلمة فاصلة ، لماذا لا تقولها ؟ نحن من جانبنا لا نقول شيئا · هـذه الكلمة التي تلمح اليها ، هي عندنا أبغض الحلال الى الله · »

فيندفع عباس بغير تردد : « نعم ، أنا أفضل الانفصال · وكما تريدون بالنسبة للأطفال · يبقون عندي ، يبقون عندكم ، لا فرق · »

« هذه أمور ، يا سيـادة المحافظ ، نحن لا نفهم فيها · المحامي يعـرف التفاصيل · ما دمت تتكلم في الطلاق · »

« نعم ، أنا أتكلم في الطلاق · لم تعد لهذه الحياة قيمة تجعلنا نتستر

عليها • حياتي صارت خالية من كل التوقّعات • لم يعد للغد أي طعم سوى الهرب من اليوم • مجرد رتابة يومية وضيق وغربة • انا لا أؤمن بالتوازن • في التوازن لا شيء يرجح • أمة بأكملها ، من المحيط الى الخليج ، تحترق • بسبب التوازن والخوف من ترجيح الكفة • نحن غيّرنا تركيب البلد في السياسة والاقتصاد • الحلقة المفقودة هي تغيير التركيب الاجتماعي • وأنا أريد أن أصل الى القاع ، الى الصفر • نحن ، توقّفنا عن النموّ • وخسرنا ما حققناه لاننا توقفنا • وفوق ذلك ، مطلوب مني أن أضيّع حياتي في التفاهات : غازلت امرأة ، لا لم أغازل ؛ اتصلت بفلانة ، لا لم أتصل ؛ وكل يوم استجوابات غبية وانهيارات • شجارات لا تنتهي • وكل يوم يصيبها مرض جديد دون أن تشفى من القديم • تريدني أن أكون العاشق نفسه الذي كنته قبل اثنتي عشرة سنة • لا أتزحزح بوصة واحدة عنه • »

من البهو يصل اليهم شهيق عائدة الهستيري • يسكتهم • يشعلون سجائر • تنهض أم حسن الى ابنتها • تطلق زفيرا مضغوطا بالدمع ، فيما تدير كتفهــا المثقل الهرم للرجلين الجالسين بلا حراك • ويجثم على صدر عباس ذلك الضيق الخانق الذي التف حول رئتيه بفعل مدار مغلق وإبليسي •

لا الروح ولا الجسد ؛ كل شيء منهار وفاقد وزنه • ويشرح علي : لأن كل شيء سينشأ من جديد • ويقول إمام : بل كل شيء يتكوّن الآن ، وفي كل مجال • ويتساءل سليمان : أما آن لنا أن نتخلص من غيبيات الروح وغبائياتها ؟ وتقول أمية : ولكن الروح شيء غير ما تعود الناس على التفكير فيه • وتتنهد عائدة : آه ، يا حسرة •

المشكلة ان لديهم جميعا آراء • وربما أمضوا ألف ليلة وليلة وهم يعبرون عنها • هؤلاء قوم يحبون القول • اللغــة كائن حي يعيش في لهاتهم • واذا

انصبت الاحلام والافكار فيها صارت حقائق · وحده شيش بيش يبحث عن حقيقة لا تتكىء على ازدواجية الروح والجسد · إمام يعتقد أنه يكتشفها ويكوّنها · علي يؤمن فعلا ، ولكن بالمستحيل الجميل · والملك يحكم على صندوق مهملات كبيرة ملأه بهذه الترهات ، وانكبّ يصوغ منها رواية : ليس في نيته تقديم فلسفة ! بل مرايا · شيش بيش يبحث للمرة الثانية ، بالطبع · ما يزال مشدودا الى الماضي ، يوم لم تكن تخطر على باله الأسئلة ، ولا العالم خارج ذاته التي احتوت العالم ·

وهكذا يذهبون الى الغوطة ·

للوهلة الاولى اضطرب إمام · كان في نيته أن يمتطي دراجته ، ويعرج بها الى حيث تنتظره سليمى · عندما أخبرته بعزم الدكتور على الانضمام لهم ، لمعت في مخيلته صورة محمود وتوقف برهة عن الحركة · محمود الغائب ، بكل بساطة · لأول مرة يدور بين ذهنه وذهن سليمى حوار كان يمكن أن يعلن عنه لو أن أسمى تعرف شعور صديقه المنكفئ · سألها بلا مواربة ان كانت ستقبل عرض الدكتور للزواج ، فضحت ببراءة محيّرة · « عرض ، ورفضت ، » قالت له · وارتفع حاجباه دهشة · « تريد أن تعرف لماذا أرافقه ؟ لأقول له انسي أراه وهو يراقبني في غرفة النوم من غرفته المظلمة · »

« واذا أحببته ؟ » ·

« أتزوجه · »

في الصباح يستقلون سيارة أحضرها شيش بيش · يمضون عبر الشوارع والبرودة المنعشة صامتين · يمرقون بين الحقول وأشجار الحور والجوز ، صامتين أيضا · أخيرا يلتفت شيش بيش اليهما ويعترف : « أنا منحرج · »

وللتو يجيبه إمام : « وأنا . » تقول أسمى : « الحق عليّ . كان من باب اللياقة أن اقول شيئا ، بعد أن أبدينا اعجابنا بالبرد . ماذا أقول ؟ » يضحكون .

شرقي قرية جسرين تقف السيارة . ينزلون . تنضم اليهم فتاة متوسطة الطول والوزن والحسن . « هذه سليمى ، خطيبتي ، » يقول إمام مخاطبا رفيق رحلته . يلتفت اليها : « اليوم ، نحن أربعة . وبما أن أسمى والدكتور فرضا نفسيهما علينا ، لذلك لن نهتم بهما كثيرا . يالله نفتش على الجوز . من زمان وأنا مشته شبعة جوز . »

يمشون حتى يتواروا عن الانظار . يتقدمون الى الاسلاك الشائكة ، وينفذون من بينها . يقف إمام برخاوة مستمتعة أمام الارض الجميلة بطبيعتها وبلمسة اليد البشرية . أمامهم أخدود عريض يتطاول بين أرضين . الى اليسار يتموج حقل الفصّة الناصع الخضرة ، والى اليمين سكنت أشجار المشمش العتيقة . على طرفي الاخدود تنتصب أشجار الجوز العتية الباسقة خطين فاصلين بين الحقل والبستان . منذ الخطوة الاولى يشعرون بالفرق : ها هنا مداس يختلف عن الارصفة والاسفلت . هذه الاوراق اليابسة ، التي تهري تحت أقدامهم ، تبلل أحذيتهم وأذيال بنطالاتهم بالندى وتوشيها بالنثرات .

ينحني إمام ويلتقط عودا يابسا . يقول لسليمى : « خذي انكشي الاوراق ، واذا لم يكن جوز ، يساعدك في المشي . توكأي عليه . »

« لا ؛ أتوكأ عليك . »

« يس أنا عجوز مثلك . »

تمسك أسمى بيد شيش بيش ويمشيان معا . أمامهما ينقب الاثنان الآخران عن الجوز . في الصمت الطارىء يعلو صوت خشخشة الاوراق وزقزقة

العصافير الجافلة . ومن بعيد يعلو صياح ديك بطر . الحقل مفروش بضوء الشمس ، والبستان مغطى بشبكة من تقاطع الضوء والظلال .

« هذه واحدة ! » تهتف أسمى ، وتنتش يدها من قبضة شيش بيش . تجثو على الارض فيما هو يشتم في سره الجوزة ، وتلتقطها فينحسر الورق عن أخرى. « تالفة ، » تقول مخيبة ، « هذه صحيحة ! » تضيف بانتصار . تبحث عن حجرتين تكسر بهما لقيتها ، فيتأمل رفيقها جسدها المتقوس الذي نسي نفسه . يلتفت إمام وسليمى ويراقبان . « هيا بنا ، » يقول إمام . يضربها على مؤخرتها فتنفر أمامه كظبية أليفة . « هنا حجرتسان ، » يصيح شيش بيش . تلتفت أسمى وتنتظر . لا يتحرك . « هات الحجرتين ! » يتناولهما مرتبكا . يزيل عنهما التراب بشيء من النفور . « كيف نأكل الجوزة وأيدينا تراب ؟ » يسألها مستنكرا . « أنا أسناني مسوسة . ان تخف على أسنانك ، آكل الجوزة بالنيابة عنك . » يناولها الحجرتين ويراقب انهماكها بكسر الجوزة . أمامهما يمضي رفيقاهما متطوحين . مرة ثانية يضرب إمام قفا سليمى فتنهره : « ماذا لو رأتنا واحدة من تلميذاتي ؟ » .

« سيكشفونك على حقيقتك . »

« حقيقتي ؟ » .

« نعم . أنك زعراء . »

يراقب شيش بيش أسمى وهي تأكل الجوزة ثم تمسح يديها بساقي بنطالها وتنهض . أيمكن أن يمتلك هذا الجسد يوما ؟ وهل سيمتلكه دائما ؟

تتقدمه أسمى فرحة ، ولكن خاملة الخطى . تتمبؤها الطبيعة فيتوارى اهتمامها برفيقها ، وتمشي بهدوء ممسكة بجذوع الاشجار عندما تلتفت حولها.

يضيف استقلالها المفاجئ خوفا الى خوف في قرارته القلقة · يمشي متتبعا خطاها · وتمشي مشبوكة الذراعين ·

من بعيد يتعالى فجأة صراخ وضحك · إمام وسليمى يتهاوشان لأجل جوزة · تسبقه اليها ، فيمسك بالذراع الشائل ويوقف صاحبته · ترتد اليه وتدفعه بيديها · يترنح · تركض · يثب باتجاهها · يتماسكان · يتطوحان · يقعان في الاخدود ·

فوقهما شجرة الجوز وضوء الشمس · يزحف اليها فتدرك غرضه · تبقى وتقاوم · عبثا يحاول التقاط شفتيها · تتعبه وتتعب · أخيرا يهدأ رأساهما ويستنشقان نظرة محمومة · تهوي يده على صدرها وفمه على فمها ·

يقول له جسده ، ولحمه متقاطع مع لحمها ، ان الحياة مريحة رغم كل شيء · ثم يغيم احساسه على وعيه ، وينتشر · تصير يده ريشة ، وابطها وترا · يتوارى الفضاء والضحى ، ويبقى طعم الندى والضوء · شيء من الانبهار ، ومدى من الطمأنينة · عيون مغمضة وجوارح تتفتح · وموجة شعور تشيل لتأتي أخرى وتحط على توقيعات الجسدين المختضبين حبا ·

تصل اليهما أسمى وشيش بيش · يتبادلان نظرة ، هي باسمة وهو مرتبك · تجلس على حافة الأخدود ، نصفها في الظل ونصفها في الفيء ، وتشبك يديها حول ركبتيها · ينتبه شيش بيش الى أنه صار وحيدا · تنتشر في ذهنه أسئلة وأنصاف أسئلة · يدير ظهره ويمشي في البستان · سؤال واحد يبقى ـ بصيغ متعددة : أترى ، إمام يسأل نفسه أسئلة ؟ يتوقف هكذا فجأة ، ليدرس وعيه ؟ أم أنه قوة مندفعة باتجاه تحققها ؟ تتأمله أسمى بحيادية رخوة · تنهض وتمضي اليه · تحاول أن تلاعبه فتفشل · ينظر اليها مبتسما وغير قادر على

اخفاء ضيقه . إن يتقدم منها ويقبلها ، تكن فعلته فجّة ومقصودة . لو أنهـا تقف في المكان المناسب ، ويمدّ يده الى جيدها ووجهها .. لن تمانع بالطبع .. لو فقط تتهيأ تلك المسافة القصيرة . يقترب منها بنصف تهلل ، فتدرك غرضه . تبتعد . ويقول لنفسه انه لن يمتلكها أبدا كما يمتلك إمام سليمى .

يسمعان صفيرا . يلتفتان ، واذا إمام يشير لهما بمتابعة المسير . تمسكه أسمي بيده . وبعد تخبط قصير ، يركضان بخطوتين لكل ساق .

يستأنفون بحثهم عن الجوز . العام الماضي عثر إمام وسليمى على ثماني وثلاثين جوزة . وقبيل العصر رجعا الى المدينة دائخين . ودعها عند مفرق قرية (جوبر) ورأسه يرسم في عينيه دوائر . لم تكن هي في مثل تعبه ، واذ همّت بالانطلاق وحدها قالت له يابتسامة عذبة محببة : « يجب ألا يشعر أحدنا أنه لا غنى له عن الآخر ؛ ويجب ألا نرتبط بغير رابطة الفرح . » نظر اليها مستغربا : « كيف خطر لك أن تتفلسفي ونحن في هذه الحالة ؟ أظن أننا اتفقنا على هذا الكلام . »

قالت ، وهي ما تزال تبتسم : « صحيح . بس أحيانا يصيبني نوع من الخوف . أفهم أنه خوف موروث ، لكنه خوف . يجب أن تفهم هذه الناحية من نفسية المرأة . لذلك بودي ألا تشعر بمسؤولية أدبية تجاهي . لا أريد أن أكون عبئا على أحد ، واذا أدرت لي ظهرك يوما ، سأفهم أن لك أسبابك دون أن أعرفها . »

« يا الهي ، لهذا الكلام ! » .

ابتسمت ، بمرح هذه المرة : « ضروري أني أقوله . أحيانا أشعر .. كيف أشعر ؟ أني لازم أطوّبك باسمي . »

« هذه مشاعر برجوازية مرذولة . »

« هذه مشاعر برجوازية مرذولة . »

« تسقط الملكية الفردية ويعيش العرب . »

« تسقط الملكية الفردية ويعيش العرب . »

« روحي ارتاحي . وخلي أمك تعلمك الطبخ ، لتعلميني فيما بعد . والجمعة القادمة نلتقي عند البرلمان ، الساعة .. الساعة كم ؟ ».

ثم التقيا عند مبنى المجلس النيابي السابق . قررا أن يجربا واحدا من كهوف العشاق . فبعد كل شيء ، هما عاشقان ومحسوبان على القرن العشرين . وعندما دخلا من الباب الصقيل اندفعت الى أنفيهما موجة من دخان فرضت على إمام عطسة داوية . لحسن الحظ لم ينتبه له أحد ، الا بعض من ذوي الحساسية البالغة كانوا أقل عددا من أن يهتم بهم . أمسك الاثنان بيدي بعضهما بعضا ليتلمسا طريقهما في العتم الرومنتيكي ، ثم انزويا حول الطاولة الوحيدة الشاغرة . تفحّصا المكان بحذر وانكماش ، والتقت نظرتاهما فابتسما بصفراوية . مسح إمام أنفه بيده وأطرق . ونتشت هي من محفظتها منديلا ورقيا : « خذ ، هنا يجب أن تكون مهذبا . » تناول المنديل وطواه بعناية فائقة حول أنفه ، ثم نف فيه نفة صريرية . مرة أخرى استدارت نحوه الرؤوس القليلة .

ماذا يتناولان ؟ سليمى طلبت زهورات . ابتسم لها النادل ابتسامة مضيافة مزدرية ، وأعلن أسفه . قال إمام وهو يتحسس جيبه : « هات بيرة ، اذن . » وألقى بساعديه على الطاولة . « أي نوع ؟ » سأل النادل بدماثة . جاءت الفرصة ، قال إمام لنفسه ، والتفت الى سليمى : « أي نوع من البيرة تفضلين ،

يا آنسة ؟ » عندئــذ فرقعت ضحكتها ثم تلاشت للتو • واستـدارت نحوها الرؤوس القليلة • » بيرة وطنية ، من فضلك • »

« عملتها بي ، يا ابن الحرام • من قال لك اني مختصة بأنواع البيرة ؟ » قالت له بعد ذهاب النادل • ضحك • » ولماذا لم تقــل : مدام ؛ طالما أردت الفخفخة والرسمية ؟ أم تشك في قواك الكادحة ؟ » •

أخيرا استطاعا رؤية معالم المكان • كان العتم أبرز محتوياته ، واللمبات المحجبة • على الطاولة نتأت زجاجتا بيرة ، لمس احداهما فاقشعر بدنه • على أنه استطاع أن يفرغ محتوياتها في الكاسين • حوّمت ضحكة على وجهيهما وهما يتناولان الكاسين • واذ طأطأ فوق بيرته ، تمكنت منه الضحكة وانسلّت من أنفه هواء نثر قطرات منها على الطاولة • تضايق • ونظرت اليه سليمى مشجعة متسامحة • قال : « الظاهر أني لا أليق للمدينة • » واحتسى شيئا من البيرة ، ثم تفحّص المكان بارتياب •

سألها : « ما المفروض أن نفعل الآن ؟ » •

قالت : « نقعد بطريقة مختلفة عن اجتماعات اتحاد العمال • المفروض أن تقترب مني وتغازلني • لو كنت تقرأ شيئا غير السيد كارل ماركس والسيد ابن خلدون ، شيئا من الادب الحديث ، مثلا • الثوريون يلجأون لمحلات من هذا النوع ليتخففوا من ضغط الحياة والمجتمع • قالت لي زميلتي ان زوجهـا سقاها كوكتيل هنا ، وغازلها كما لو كانا مخطوبين • يعني مثلنا الآن • وأنت مسنود على الطاولة مثل واحد يتوقع الاعتقال بين لحظة والثانية • »

نظر اليها متسائلا • قال : « لا أعرف أنت جادة أم مازحة • كلماتـك فيها نبرة • ووجهك •• هذا العتم الثوري يمنعني من رؤيته • أردأ اجتماع

في اتحاد العمال ، يوم يكون شغلنا اصدار بيان تأييد للسلطة ، أقل حموضة من التخشب هنا . كأسك . »

لكنها لم تقنع . احتست بعض البيرة ، وسلحفت نحوه . أولجت رأسها بين ذراعيه وخاصرته ، وأرخته فوق فخذيه . أراح يده على كفلها وأخـذ يتفحص الجو المتفلف حوله . شعر بنوع من الغباء ، اذ لم يستطع أن يدرك كيف يجلب العتم والدخان مسرة لأي من الناس . صحيح أن مثل هذا المكان آفة برجوازية ، ولكن من تراه يجبر أحدا على الاحتقان بها ؟

ملأ كأسه مرة ثانية ، وجرع نصفه . قال لسليمى دون أن ينظر اليها : هكذا يتقبرك الانسان البرجوازي الطفيلي ، في بلادنا . »

غمغمت هي : « ماذا تعني ؟ »

« هؤلاء ... لا أدري أي شيء يجذبهم الى كهف مثل هذا ، ونحن بالكاد خرجنا من الكهوف . يقعدون هنا .. وشرب البيرة وغيرها .. والمغازلات الدميمة . معظمهم صامتون أيضا . والزمن يمر بين سيقانهم . لا فرح ولا انتاج . بلادنا بلاد الشمس ، ونحن نهجر الشمس الى الظلام . أية أحاديث يتبادلونها ؟ لا شك أنها كلها سوداوية . »

بعد لحظة صمت غمغمت سليمى : « كيف عرفت ؟ » وسألها : « عرفت ماذا ؟ » « أنها سوداوية . » « يعني ، المفروض أن كل واحد يسعى لتحقيق غاية . أو تلبية رغبة . والغايات والرغبات .. ولا أكثر منها . أقصد ، الناس يشعرون أن الحيـاة كلها تنقص حياتهم . نحن العـرب شعب جائع للخبز والحرية ، ولأن نكون . ماذا في حياتنا ؟ ولا الحد الادنى من الكرامة والشبع . اذا لم يتحركوا لتحقيق غايات ، ليتحركوا على الاقل لإشباع رغبة . »

وفي ليلة رأس السنة يحضرون الوسكي والشمبانيا والجن والنبيذ • والمناسبة اثنتان في واحدة : العام الجديد وبيت عباس الجديد • وداخل زاوية من البيت لا تعبرها الاقدام ، يضعون المسجلة وكومة الأشرطة • أغان شعبية وفيروزية ، ومئات التسجيلات الراقصة • بالتدريج يفدون ، ويجلسون على الكنبات ، كل يحمل شوقه الخاص النازف من جوع مزمن • زوج وزوجة ، على الاغلب • وثياب للسهرة أتقنت صنعها بيوت الأزياء • تسريحات تنوعت كتنوع المروج والشلال • روائح تعبق من أجساد وردية وتندس في الأنوف المتنبهة • وغادة تتلألأ بالتايور الكشميري الداكن الزرقة • صدرها العاجي يتأفق عاريا حتى الثديين كأنه أُنير من الداخل •

توضع الطاولاتُ الصغيرة بين الكنبات • وتتعاون النسوة في نقل الطعام اليها •

ثم يبدأون الشرب • الا أمية : تنزوي في ركن مهمل قرب المسجلة وتتطوع للاهتمام بالأشرطة • يهتف أبو تغلب : « نخب تحرير فلسطين يا شباب • » فيهيّج نخبه الحناجر • ترتفع الأيدي بكؤوسها ، وتتجرع الأفواه من منعشات القلوب • يسأل أبو نزار عباسا : « متى ينقشع الغبار عن النصر ، أبو لؤي ؟ » يضع عباس كأسه ويتناول السيجارة : « متى قال لنا القادة : عليهم • » وتسأل أم غطفان : « لماذا لم يأت السيد نواف ، ست أمية ؟ » تغمغم أمية بنصف ارتباك : « عنده طيران الى روما ولندن • لم يجد أحدا يقود الطائرة عنه • » تبتسم النسوة ابتسامات سرية وادعة • تمد أمية يدها الى المسجلة • ترفع الصوت بتؤدة • تتأمل علبتي الشريط في دورانهما الأبله البطيء • تصيح أم أحمد : « تسلم يداك ، يا ست عائدة • أي طبخ هذا ؟ والله في باريس لا يطبخ مثله • ما شاء الله • كل محشية قطعة فنية • » يقول عباس : « أنا رسمت لها

الاشكال على الورق • » تقول غادة : « عباس ! لا تزوّدها على عائدة • عائدة فنانة • » يؤكد طلعت : « أنا شخصيا أبتهج لشكل الطعام أكثر مما أبتهج لرسوم بيكاسو • ما هذا بيكاسو ؟ رأس امرأة في ظهرها • ساق ثور بين قرنيه • عيون في الصدر • فن الرسم هو صناعة الواقع بأشكال جميلة • وفي أفضل حالاته ، ترينه على مائدة الطعام» • يصيح أبو تغلب : « نخب السيدة عائدة ، سيدة المجتمع وربة البيت الممتازة • » تضحك عائدة خجلا • تعلق نظرتها بعباس مضطربة وسعيدة • ويجرعون من كؤوسهم بحماس •

ثم تزدهي رؤوسهم بالصور ، وحناجرهم بالكلمات والضحك • بازدياد الشرب تزداد حرارة اللقاء ، ينفرش فوقهم نسيج الأصوات والدخان ، كثيفا متقاطعا • وينفرشون بالأنخاب والأطعمة على مد الزمن المثقوب • الفرح والمرح ؛ والاعمار بيد الله • ولهفة ضاحكة سوداء الى نكتة تسيل على الرمل • نفوس متشقّقة تتسقط ديمة تجعل صبّارها طحليا • وتدور الزجاجات على الأقداح الفارغة فتملؤها • تدور الأقداح على الشفاه ، والشفاه على دعابة أو ملحة أو خبر • أبو أحمد يطالب الزعماء بكشف الحقائق للشعب ووضع حد للارهاب • أم غطفان تقسم على أن عمرها ثلاثون عاما فقط ، ثلاثون وخمسة أسابيع ، لئلا يصير كذب • يؤكد لها اسماعيل أنها تبالغ : سيدة مثلها لا يمكن أن تتجاوز الخامسة والعشرين ولو بعد مئة عام • فهي قد خلقت للشباب الدائم •

أخيرا ترفع غادة صوتها : « فيروز ، يا جماعة • خلّونا نسمع • » يسمعون • يدفئهم الصوت الرهوي الملائكي • فيروز بنت جلدتهم ، ضميرهم الحضاري • أغانيها تترنم بالحب الشفيف وأشواق الفلاحين والناس البسطاء • تعلي أمية الصوت • تعقد ذراعيها تحت صدرها • تبتسم ، للجميع ولا لأحد •

؛ يطلبون من عائدة أن تغني ، ترافق فيروز · الى متى تتكتم على صوتها المخملي ؟ تنطلق منها ضحكة مبتورة · تهم غادة بالالحاح فتخرج منها جشأة · يقول أبو غطفان : « احداكما ، أو كلاكما · يالله · » تعتذر عائدة بأيمسان ثقيلة · تتوجه الألسن الى غادة · يقول عباس ملغزا : « يا الله ، غادة ، كرمى لطلمت · يا الله · » تغنج ! ويزداد الالحاح · يمارس طلعت سلطاته الزوجية ، فيفشل ·

تعلن أم غطفان أن الحر في البهو لا يطاق · يقترح عباس جذلا : « تخففوا من ثيابكم ، تخففوا · » يطوف عليهم واحداً واحداً · يبهره زندا غادةوانبثاقة صدرها اذ ترمي عنها سترة التايور · يمضي بحمله الى غرفة النوم ويعود · يتجه الى المسجلة : « ما رأيكم ؟ آن أوان الرقص ، ما ؟ » تسرع أمية الى ايقاف المسجلة : « أنا أغيّر الشريط · » « أمية ، أنت منزوية بغير حق · لا شرب ، ولا كلام ، ولا شيء · ما رأيك أن تكون أول رقصة معي ؟ » « مع الأسف ، أنا لا أرقص · » « أعوذ بالله ! نحن كلنا هنا عائلة واحدة ! » « لا تتعب نفسك · » من بعيد تراقبهما عائدة ؛ تكون في وعيهما ·

يعود · تصدح الموسيقى الراقصة · يطفىء الضوء · تفاجىء الظلمة الجالسين · يصيحون · تضيء نواسة برتقالية · تحيل وجوههم القريرة الى ظلال · تزيح ثقل الضوء عنهم · تمنحهم شجاعة إضافية ·

عباس يطلب أم أحمد للرقص · تبتسم آسفة للعمر المتقدم والسمنة المنيدة · يرفض ادعاءها · تنهض : « عليك أن تحركني ، يا عباس ، مثلما تحرك الشوربة · » « ولو ، يا أم أحمد ! أنت تقولين عن نفسك هذا الكلام ؟ أنت قصبة نهرية · » « لا نهرية ولا بحرية · بودي أشجّع الصبايا بس · » يتجهان الى وسط البهو · يتماسكان · يهدأ الآخرون في تأمل باسم منتظر ·

يفاجأ عباس بمرونتها • رغم جهله بالرقص ، يحس أنه يرقص حقا • تنزل أم أحمد جفنيها في نصف اغماضة • ينتقع وجهها بابتسامة خفيفة •

تنتهي الرقصة : تصفيق صاخب • تبدأ أخرى • ينهضون تباعا • ثوان ، واذا هم جميعا يرقصون • يستبيحهم الرقص • الشريط طويل والألحان موصولة بعضها ببعض • لا شيء الآن ، سوى النغم والخطى المسحوبة ببطء • أصابع أم غطفان تنفلت من يد اسماعيل وتصعد الى كتفه • ويده تنزل الى خصرها • ذقن أم تغلب تستريح على عنق أبي غطفان ، وذقنه في شعرها المديد • أم أحمد وأبوه متعانقان • أبو تغلب يحاول أن يمسح عرقه • تبتسم له عائدة وتترك يده • وجه أمية يبين ثم يختفي • نجوى وطلعت يتحركان باتقان وابتسامتين متباعدتين مهذبتين • عباس وغادة ينسحبان ببطء شديد • ينتحيان المكان الأعتم • تبدأ يده سياحتها المتشنجة الهادئة • هذه المرة تنزل تحت التنورة • تتكور ، وتنبسط ، بسرعة واختصار • ثم تنبسط • ثم تسيح •

المطبخ أكبر غرفة في منزل إمام السرياني • وهو المكان الأروح : ليس لأنه مزدان بالرفوف والمصاطب ، بل لعكس ذلك تماما • يجلسون فيه على كراسي الخيزران ، ويشعرون أنه أفضل من غرفة الضيوف • أفضل حتى من قصر المعظم •

تمد لهم أم إمام بساطين مصنوعين من قصاصات الملابس ، وفوقهما سماطين مليئين بالخضار • يتربعون وبأيديهم أدوات الطبخ • يفرزون الخضار ، ويبدأ توزيع العمل • من يقشر البصل ؟ تصيح أسمى : « محمود يقشر البصل ، ويفرمه • » وتسأل الام : « لماذا محمود ؟ هذا شغل نسوان • » يعلو صوت إمام : « اسمعوا ، وأنا أوزع عليكم الشغل • أنا ومحمود نتولى أمر البازلاء •

وسليمى وأسمى تعملان تبولة . وأنت يا ست امي ، تطبخين الرز . » تقول أسمى : « اي . سليمى تفرم خضرة التبولة ، وانا أغسلها بالماء . » تعترض سليمى : « لا . أنت تبوّقين الخضرة ، وأنا أفرمها . » تنهرهم الام : « اطلعوا من مطبخي . أو اشتغلوا من قلب ورب . » يقول محمود : « هذه مباراة بين الرجال والنسوان ، من يجهز الأكل أولا . مع أن طبخ البازلاء أصعب . » تقمّر أسمى وجهها : « ما شاء الله ! » .

وسرعان ما يستغرقهم العمل . بعد قليل تنسحب الام وتتركهم الى حيث جلست أم خلف في غرفة الضيوف . وفيما إمام يفصص البازلاء ، يفرم محمود البصل وتدمع عيناه . كذلك تدمع عينا سليمى . ينهمكون في شغلهم ، ويرين صمت . ينظر إمام الى سليمي وهي تجز باقة البقدونس وقد أولجت شفتيهما بين أسنانها . يعرف أن كل ما في ذهنها الآن هو هذه الباقة والسكين الصماء . يخرج صوته ناحلا هادئا ويغني :

البنت دي قامت تعجن في البدرية

والديك بيأذّن كوكو كوكو في الفجرية

ينضم اليه محمود ، ويتابعان الغناء :

يالله بنا على باب الله يا صنايعيه

يجعل صباحك صباح الخير ياسطه عطيه

يعيدان المقطع وقد أصابهما الطرب . تبتسم الفتاتان ، وترددان القفلة :

صبح الصباح فتاح يا عليم والجيب ما فيه ولا مليم

بس المزاج رايق وسليم باب الأمل بابك يا رحيم

وفي لحظات تتنافر أصواتهم الفرحة في سماء المطبخ الوطيئة ·

ينتبه محمود الى نشيش اللحمة فوق النار فيثب اليها · يضع مزيدا من السمن ويحركها · تتناول سليمي وعاء الخضرة المفرومة وتقدمه لأسمى : « تفضلي ، اغسلي · » « وأنت ؟ » « أنا سأفرم البندورة ، وأنقع البرغل · » ينهض إمام حاملا صحن البازلاء · يهمس لمحمود : « البازلاء أولا ، أم البصل ؟ » ينظر محمود الى الفتاتين الغافلتين : « هس ، لا ترفع صوتك · لا أعرف · نضعهما معا ! وبعد دقائق نصبّ الماء · » « لو كنا نطبخ البامياء ، كان أسهل · »

أخيرا يجهزون الطعام · تكشف أسمى الغطاء عن طنجرة الرز ، فتهب بوجهها زوبعة من بخار : « آه ! رز عظيم · » تطفىء النار وتسرع الى رف الصحون · تمسح سليمي الطاولة الخشبية · ينادي إمام الوالدتين من فوق الافريز ، ويعود : « خلوا لأبي كمية كافية ، وخاصة من اللحمة · » يضحك محمود ، وتهتف أسمى : « وأية لحمة · أوقيتان لسبعة أشخاص · اتركوا له حصتي من اللحمة · »

يقبلون على طعامهم بشراهة واستغراق · يمرعون أرغفة الخبز ، ويغرفون بها من صحونهم · تراقبهم الوالدتان وهم يسكبون من الطنجرتين حتى يفرغوهما وقد نسوا أنفسهم ·

بعد الغداء يكتشفون أن لا حاجة تقريبا لتنظيف الصحون : لقد مسحوها بخبزهم وألسنتهم · رغم ذلك تشمّر أم خلف عن ساعديها وتمضي الى المجلى ·

ويكون شيش بيش قابعا وراء رقاق الستارة · الى جانبه قدح الوسكي ·

لم يكن دمه في أي يوم من النوع الذي يطيق الانتظار · وقد دار في عروقه ألف مرة حتى الآن ، حاملا في كل مرة مزيدا من الحرارة بسرعة أكبر · واذ أوشك عقربا الساعة أن يتعامدا ، أيقن أنها لن تجيء ·

سأل نفسه ماذا يفعل · سينهي كأس الوسكي ، ثم يمضي الى علي المنتظر في المقهى · سيتلاقيان في مرحلة الاياب ، وسينتقم لهزيمته السابقة في اليوم الفائت · يا للزمن التعس ! علي ، يغلبه بالنرد ! لا بأس ، لا بأس · لكل جواد كبوة ·

يرن الجرس ، فينتفض · يسحب الكرسي بعيدا عن النافذة · يهرع الى البهو فيجد أسمى تبتسم وتغلق وراءها الباب · يصل اليها مادّاً يديه ، مسرع القلب أكثر مما هو مسرع القدمين · ترفع يديها الى كتفيه ، وقبل أن تلقي براسها على كتفه تغمض عينيها وتطلق زفيرا طويلا · « أتعبك الدرج ، » يقرر بالنيابة عنها · يطوق خصرها وتطوق خصره ، ويمشيان متلاصقين الى غرفته · في وسط الغرفة تنفلت عنه وتتفرج · تشاهد السرير ، تلتفت اليه بنصف ضحكة : « بهذه السرعة ؟ » يهم يسألها أية سرعة · يمتنع : ينبهه سؤالها الى أمر لم يخطر على باله ، ويبتسم في خاطره : ربما مر قرن من الزمان قبل أن يفهم المرأة · لقد ظن أنه ربما في المرة القادمة يتمكن من أن يمارس معها الحب · وها هي ذي تقترحه بمباشرة مربكة · يشعر أن من حقه هو أن يسألها : بهذه السرعة ؟ يقول : « هنا الجلوس أفضل · »

تجلس على الكنبة وتضع ساقا على ساق · يطلق ارتباك وجهه في خاطرها سؤالا مضادا لا يفصح عنه وجهها الناضح بالعافية : أتراه يعتقد أنها فتاة رخيصة ؟ لا تستطيع أن تفهم كيف ينزلق رجل مثله الى أفكار من هذا النوع · ما دام راغبا ، وهي راغبة ، لماذا اللفّ والدوران ؟

يقترب منها متشجعا بسؤالها ويمد ذراعه · تعطيه يدا رخوة وتستمر في تفحص الغرفة · تتفادى محاولته بسؤال حرج : « كنت تشرب الوسكي ، أيها البرجوازي ؟ » يضايقه الوصف والنبرة العابثة · يضايقه أكثر اجوامهما المفاجيء ، ويشعر أنه أساء لها من حيث لم ينتبه · يسألها : « أصب كأسا لك ؟ » فتهز رأسها بالنفي ·

يقبّل يدها · ويضغط بأصابعها على صدره · للحظات ينث من قامته شوق مصفي لها وجوع عتيق · وتدرك هي بلمحة خاطفة أن شعورا صادقا عكرا يخدق ويخندق بين عينيه وصدره · تنهض وقد ركلت تحسسها بعقلها وتستقبل ذراعيه وجسده وفمه ·

بعد قبلة منهكة ، يسحب كنزتها عن جذعها بيسر ، ويفك زر القميص الأعلى · تمد يديها وتتابع التحلل · خلال لحظات يتعريان ·

تقول له : « انتبه ، أريد أن أبقى عذراء · » بلا مبالاة ، وبشيء من المناكفة ، يسألها : « لماذا ؟ تعرفين أنه ·· لم يعد لذلك الشيء قيمة · » وفيما يفرك وجهه في حقل شعرها ، يريحه شعور مضيء بأنها ما تزال تؤمن بقيمة ذلك الشيء · تقول : « لأن من حق الرجل الذي سأحبه أن يجدني عذراء ·· اذا كان يريد · »

تخزه كلماتها · واضح اذن أنه ليس الرجل الذي ستحبه · ولكن ما قيمة هذا التمييز ؟ انها بين يديه · هذا الحلم المستحيل ، الذي كثيرا ما صار كابوسا، يصير لحما ودما · ليس ثمة يقظة من أي نوع تجعله يتلاشى ·

لكي يتأكد يعانق الجسد المضرج عناقا أبلغ احتداما · ويروح عنهما شعورها بأنه لم يعد متضايقا ، أنه تقبّل رغبتها بالبساطة التي أرادتها ·

ينتشيان مثنى وثلاث • تغمره سعادة شابها الخوف فقصرت عن التوغل : هذا الجسد كله ملك جسده ، ولكن الى حين • لا يعي الامر جيدا ، بل يحسه • لذلك يزداد ولوغه • يهجم على اللحظة ليقتنصها أبدا : وفي اقترابه يـزداد ابتعادا عن المركز • يرتوي ولا يرتوي • تستريح خلاياه وتبقى مرمضة •

من حيث لا يدري ، يبدو كل شيء لوعي أسمى المسترخي ولوعا ودفقة وجد • لحظات تنتهي ، ثم تأتي لحظات مختلفة ، لكنها الآن تنفتح في قرارتها على مدى من الارتواء • في بادئ الامر شعرت بالارتباك والغباء • لم تدر ماذا تفعل • استجابت دون أن تعرف كيف ، وحاولت أن تعرف فاضطربت • حاولت أن تقلد حركاته ، ثم ضحكت من نفسها • أخيرا اندفقت ، حملهـا الفرح • هذا الفرح القصير جاءها محملا بأكثر مما تحتاج •

لذلك تثب عن السرير كهرّة نشطة • قبل أن تصل الى الكنبة تتمطى ، ثم تتناول ثيابها فترتديها كأنها وحيدة في غرفتها • الحب ، اذن ، شيء ممتع ، تقول لنفسها • والانسان يمتلك مناجم فرح : فقط لو يحسن الدخول اليها • وجبة طعام شهية ، قبل قليل • والآن وجبة حب أشهى •

تنتشي من جزداتها مشطا وتقف أمام زجاج النافذة الثانية •

يراقبها شيش بيش مغتبطا لتيقنه من أنه الرجل الاول في حياتها • يتتابع في مخيلته شريط من الصور عن حياتها في هذا البيت وقد صارت سيدة له •

فجأة يسألها : « ما تزالين غير راغبة في الزواج ؟ » تقهقه بقوة ، وتسأل : « ما الذي تغير ؟ » يربكه السؤال • يراه غير وارد • ماذا بعد ممارسة الحب ، وهي فتاة ليست رخيصة ؟ تقول : « نتزوج لأننا مارسنا الحب ؟ أهذا ضمان كاف لحياة سعيدة ؟ قلت لك أول مرة : عندما أرى العيش معك أفضل مـن

العيش بدونك ، أتزوجك • » يتساءل متحيرا : « نحن مارسنا الحب ! لماذا لا نتزوج ؟ » وتجيب هي : « مارسنا الحب ! فلماذا نتزوج ؟ » •

فجأة أيضا يصيح : « اسمعي لأقول لك • هذا كله شيء خيالي • في بلادنا ، لا أحد يقبل بهذا المنطق • أنت لا تقدرين خطر تصرفاتك • هذا كلام مثاليين ، وسيوصلك الى المشنقة • الحياة أشرس من أن تتسامح مع لهو القلب الغرير • »

تقاطعه ، وهي ما تزال تسرح شعرهـا أمام النافـذة : « على مهلك ، يا دكتور • انا أيضا سريعة الغضب • مشنقة أو غير مشنقة ، أنا لست المرأة التي تتزوج بسبب الخوف • وأنا عارفة اني أدمّر الممكن لأجل المستحيل • أنا جوعانة للحياة ، يا دكتور • جوعانة ولا أعرف أين أجد خبزي • أعرف أني لا اريد أن أصير ملكية لأحد » •

« أي كلام ! جئت الى هنا بمحض اختيارك • وستروحين بمحض اختيارك • من يتحدث عن الملكية ؟ »

« نفسك الداخلية • »

« أنا ؟ عجيب كلامك ! أنا أعرض عليك الزواج تعبيرا عن الحب ، لا أكثر ولا أقل • هذه النافذة على الأقل ، تعرف أني أحبك • »

« أعرف • كنت تبصبص منها الي ، وأنا بقميص النوم • »

« كنت تعرفين ؟ »

« هم ! أنتم الرجال مغرورون كبار • وجئت اليك بنفسي لأنك تحبني • وسمعت أنك ستخطبني • ماذا تريد أيضا ؟ »

« طيب •• أنت بنت عجيبة • ساعات ، اشعر معك أن كل شيء على ما يرام • وساعات ، أشعر أنك بعيدة عني • في طرف العالم • »

« أنا شعوري لا يتغير • وهو أننا بعيدان عن بعضنا بعضا • أنا بنت فقيرة ، جائعة • وأنت شبعان •• »

« أنا شبعان ؟ أنا أحسدك على هذا الجوع الذي تحكين عنه • »

« الجوع للخبز هو الجوع الأول • الأهم • وبعدئذ أنت حققت ذاتك • عندك رغبات تريد اشباعها ، وغير هذا لا ينقصك شيء • أنت تنتمي الى وسط اجتماعي يعرف أنه شيء مهم ، متكون ، راسخ • نحن الفقراء •• كيف أعبر لك ؟ الخبز والشخصية • نحن بلا شخصية • نحن كمية وبس • اذا تزوجتك ، سآكل والبس وأنام على حسابك • اذن سأبقى بلا شخصية •• »

« يا إله السماء ! ولكن حريتك ستكون كاملة ، وشخصيتك كاملة ، وكل ما تريدين ! »

« كيف اكون حرة وأنا أتناول منك لقمتي ؟ »

ينظر اليها مندهشا : « ولكن هذا •• ولكن هذا قانون المجتمع في بلادنا ! »

تجلس على الكنبة ، وتنظر اليه مبتسمة : « قوانين المجتمع في بلادنا ، كلها لا تعجبني • أصلا عندنا الزواج مؤسسة عفنة فاسدة ، لا تحقق لأحد شخصيته ، ولا حريته • خاصة حريته الداخلية • »

« يعني أنك لن تتزوجني أبدا ؟ »

« بالعكس • أنا غايتي الزواج • ولكن بشروطي أنا ، وليس لأنه كما يقال : زوج من عود خير من قعود • »

« لا أفهمك اطلاقا ، اطلاقا • »

« وأنا لا افهم ، كيف ان جدول ماء يتدفق على الطبيعة ، تحاول انت ايقافه وحجزه . »

« الانسان يتحقق بالزواج . يحفر مجرى ثابتا لحياته . وليس أنه يذهب هدرا . »

« قولك هذه الدقائق الحلوة التي قضيناها سوية ، نوع من الهدر ؟ بالنسبة لي كانت لحظات لن انساها . »

« لا يبدو عليك أن كلامك صحيح . لبست ثيابك بسرعة عجيبة ، واعتبرت الأمر كله .. لذة عابرة . »

« أنت يا دكتور عقليتك قديمة . تفكيرك هو اما أني أقبل الزواج منك أو أني بنت فلتانة . لذة عابرة اذن ؟ رأيت كم نحن نختلف ؟ ولا يحق لنا أن نتزوج ؟ »

« لا أفهمك اطلاقا . »

ويكون ذلك نهاية المطاف . يتحاوران ويتجادلان ، بفرح وحرارة وجدية وسخرية . وأخيرا تودعه . بصراحة وبساطة تعلن له أنها لن تلاقيه بعد الآن . « لا فائدة ، » تقول له . ويردد هو ببلادة صاحية : « خذي مظلتي . المطر قوي في الخارج . » « هاتها . أين هي ؟ »

يمضي الى غرفة أخرى ويعود بالمظلة . تتناولها وتبتسم : « سلامات . » تتجه الى البهو فالباب ، وبعد ثوان تغيب . يسرع الى نافذة الغرفة الأخرى ويثبت عينيه على الشارع .. يراها تخرج من المبنى وتدخل بين خيوط المطر . تمشي على الرصيف ، تقف ، ترفع وجهها نحو السماء ، وتتقدم في الشارع الرئيسي .

يسند جبهته على الزجاج ، وتشرد عيناه على الشارع الهامد تحت شرانق المطر .

بعد حين يضيق صدره بالبيت الوسيع • يحمل نفسه ويمضي الى سليمان • يفاجأ الآخر بوجوده أمام واجهة المحل الزجاجية • يستقبله بتكشيرة مرحبة ، ويتناول خرقة يمسح بها يديه • يدخل شيش بيش ويقول :

« اغسل يديك القذرتين ، وتعال معي • » ويتثاءب •

يخرجان • ينصت سليمان لحكاية صديقه بفضول ولكن بهدوء • ليست هناك امرأة مستعصية : كان هذا رأيه دائما • واذ يسأل شيش بيش : « ما رأيك ؟ » يبتسم ببلادة وادعة : « رأيي أنك مجنون • وليس هذا هو البرهان الأول • »

ينظر اليه شيش بيش شزراً : « ما علاقة جنوني بالقصة ؟ »

« لو لم تكن مجنونا لما طلبت الزواج • انسان تصح له علاقة حرة من هذا النوع ، يختار السجن ؟ بعد أن تنام مع المرأة ماذا يبقى منها ؟ الناس موهومون بالعلاقة بين الرجل والمرأة ، وهي أقل العلاقات أهمية • الرجل والمرأة ، لن يكون أحدهما بالنسبة للآخر أكثر من ضجيع • أي محاولة للزيادة تزوير للطبيعة البشرية • فقدان للحرية • »

« يا إلهي ! أنت إنسان مرحاضي التفكير • »

« يا لطيب رائحتك ، أنت • »

« أنا أعرف ماذا يبقى من المرأة بعد أن تنام معها • أعرف حق المعرفة • »

« هذا جزء من أوهامك • الذي يبقى منها صور ذهنية تضعها أنت • »

ويهز شيش بيش رأسه نافيا : لا يمكن لهذا القول أن يكون صحيحا • متأكد من أنه غلط • ويصفن قليلا بانشغال تام • يرفع رأسه شاملا الشارع

بنظرة عمياء : « بالنسبة لأسمي ، لا أعرف • ولكن •• أشعر أني أريد ان تكون الى جانبي حتى النهاية • انا احبها • »

ويود سليمان لو يضحك ، لكنه يمتنع مراعاة لشعور صاحبه •

يدفع علي الباب ويدخل • يزنخر ويقف ناظرا الى الوجوه المصطلية بالخمر • يجلس على الكرسي الذي هيأوه له • يتناول كأس شيش بيش ويجرعه • يصيح شيش بيش : « كيلو عرق ، يا أبو معروف • جاءنا السيد بالوع • سمعت أخبار صاحب الجلالة ، يا سيد بالوع ؟ جلالته أنهى كتابة رواية تتابع اكتشافات المفتش الأعظم للنفس البشرية • ولكن كيف ؟ من خلال شخصيات لا هي مريضة ولا هي سوية ، لا هي استثنائية ولا هي تافهة ، لا نبيلة ولا وضيعة ، انما مرتبطة بشرطها الاجتماعي • كل منها ياكل وينام ويتزوج ، ويموت • له مسرات صغيرة وأمجاد أصغر ، وله عنعنات ومخازي صغيرة • ويتنطع لمشاكل الأمة العربية • »

يصيح الملك بوجهه : « انتظر ، يا ابن قطة فاسقة ، حتى تطبع الرواية ، وبعدئذ اشتغل بالنقد • »

يضحكون • يجرعون الخمر بهدوء ويتحدثون بصخب • يقول الملك بهدوء : « المشكلة أنه لا توجد نساء في هذا الوطن • » وهكذا يفشل سليمان في جرهم الى الحديث عن الامبريالية والصهيونية • يقول الأمير : « قبل يومين ، تلقفتني سيدة • قالت : أستاذ أدهم ! اشتقنا لك ! فتدحرجت باتجاهها • كانت الغرفة مطنفسة بطنافس مراكشية ، ومزدانة بالوسكي • والى جانب السيدة جلست بناتها الثلاث المراهقات ليرقبن كيف سيغازل عمو أدهم الماما • تقبرني !

أطرف شيء ، أن البنت الأولى شقراء والثانية سمراء والثالثة بيضاء · مما يشير الى ذوق الأم الفني · »

يضحكون كرة أخرى · يقول الملك : « واضح أن الاتجاهات المصيرية للسيدة المصون كانت انتقائية ومتنوعة · أي لون ستعطي لابنتها القادمة ، عمو أدهم ؟ » « عمو ، يا ابن النجسة ؟ يلعن أمك بذيل بقرة منتفخة · » يقول سليمان : « ستة عشر · ستة عشر آدميا في تسعة أمتار مربعة · » يصيح شيش بيش ساخطا : « ما هذا يا أبو معروف ؟ حبتا فستق ، وثلاث حبات بزر ، ونصف جزرة ! هات يا أخي ! هات لنا شيئا نتملح به · » يأتيه أبو معروف وئيد الوجه والمشية : « أنا قلت ممنوع عليك الأكل هنا · منذ يومين أكلت حضرتك وأكلت ، حتى صرت تحشر اللقمة في فمي بدلا من فمك · »

يقهقهون · يتناول الملك يد أبي معروف ويضرب براحته على راحتها · يقول أبو معروف : « ومع ذلك ، تفرجوا عليه · كله ، وبهذا المعطف ، لا يزن ستين أوقية · هذا من غضب الله · » يصيح شيش بيش : « لا تغلط · هذا دليل المبقرية يا أبو معروف · أنا مخ يحرق الغذاء ذكاء · لست مثل سليمان القانوني ، كل وجبة بكيلو غرام زيادة وزن · » يقول أبو معروف : « يحرق الغذاء ؟ خله يحرق الامبريالية والصهيونية · أترك الغذاء للفقراء الجوعانين · »

يضحكون · يشربون نخب أبي معروف ، ويضحكون · يأتيهم بمزيد من العرق ، وبصحن تبّولة يختطفه شيش بيش فورا · أخيرا ينجح سليمان في بدء حديث عن سد الفرات · يقاطعه الملك بأبيات لشاعر عربي قديم · يرتلها بصوته الاذاعي ، واذا بامرأة ندر مثالها تتكون في مخيلاتهم · امرأة شهوة وحلم ، بريئة من العيوب والنقص · يرد الأمير بأبيات أخرى : المرأة نفسها بكلمات مختلفة · يتقفاه الملك · يصلان الى التفاصيل : صورة فريدة للعين

والفم والشعر والأنف والعنق و ... ثم يصيح الملك : « ابحثوا داخل رأسها يا نخاسين . كانت زوجتي مثلما وصفتم . » يقول شيش بيش : « اذا كنت معقدا من زوجتك ، يا جنـــاب الملك ، ضروري أن تعقـــدنا نحن من النساء قاطبة ؟ » يقول الملك : « يا ابن الحليب الدنس ، أقول كلامي لتعرفوا أن المرأة كائن حي وليست مـــا وصفها شعراؤكم . نظفوا أدمغتكم الزنخـــة . » يقول شيش بيش : « دماغـــك مصاب بعسر هضم . ويستحسن أن تأخـــذ شربة . أو الحقنة أفضل ؟ » يقول الملك : « وأنت انكشفت وتعريت . أنا أرى خمسة ثقوب كبيرة في ثقافتك . »

ينهض علي . يزرر معطفه : « أين تذهبون غدا ؟ » يقول الملك : « اذا أصرّ المطر على السقوط ، كما هو حال العالم ، لن نذهب الى أي مكان . » يقول علي متثائبا : « نلتقي في المقهى ، اذن . سلامات »

تفتح له الباب الخادم الصغيرة . يفاجئه الهدوء المطبق . يلـــج الى البهو . يقف اذ يرى أمية على احدى الكنبات وبين يديها لؤي . يلتفت الرضيع اليـــه ويبكي . يقول : « أين القوم ؟ كيف أفاق هذا ؟ » تقول هي : « خرجوا قبـــل ربع ساعـــة للكاف دو روا . ولؤي أفاق قبـــل خروجهم . الناس يقولون : مرحبا . »

« مرحبا . وكل عام وأنت بخير . يقترب منها ويصافحها مضطربا . ينظر الى عينيها الوديعتين ويحتقن صدغه . يمسك بيد الصغير ويرفعها الى وجهها . ينبر الأصابع على ذقنها ، فيرتد رأسها الى الوراء وهي تبتسم . يمد ظاهر اليد على وجهها بمسحات خفيفة . تنحي رأسها ثانية وتقول : « ترى لؤي يضربني أم أنت ؟ »

تدخل الخادم وتجلس. يقول منسحبا: «أنت مصرة على حمله؟» «متعودة.» يجلس على كنبة قريبة. يقول للخادم: «يا آنسة، هل نستحق منك فنجان قهوة؟» تنهض الفتاة الى المطبخ، وتنهض أمية الى غرفة النوم. ترد الباب لئلا يدخل الضوء فيفيق الصبي.

يسمع صوت السرير اذ تضع عليه حملها. ويسمع صوته اذ تحركه لينام الصغير. ينهض، يدخل الى الغرفة ويوارب الباب. يراها وقد مر شريط الضوء النحيل قرب وجهها. كأن الشعاع العابر قد وقف على أهدابها، وأن عينيها تضيئان في عتمة المكان الشاملة. لوهلة يخيل اليه أنهما أضاءتا وجهها أيضا. وترده عن جرف الشوق نظرة خوف فيهما وانتظار مزمن. يقترب منها نافض القلب ولكن بلا توان. يحتضن وجهها وتلفح يديه حرارته. لحظة وينفر وجهها بهزة عنف. يحتضن الوجه من جديد، ويقترب فتنتفي المسافة. تشد يديها على الجدار. تحرك رأسها يمين يسار، بلا توقف. يدني وجهه فيقع فمه على أنفها. ينفرك وجهها بين يديه. يقبلها.

يضمها وتضمه. تمسح ماء عينيها بوجهه ورقبته. تضع أصابعها على صدره وتبعده. تطرق وينسدل شعرها. تدخل الفتاة فجأة: «تريدون القهوة هنا؟» يقول هو مخاطبا أمية: «الولد نام. تعالي نشرب القهوة.» يخرج الى البهو ويجلس. تتبعه. تجلس على كنبة ملاصقة. تجلس الفتاة في الجانب المقابل. يخرج علبة الدخان من جيبه. يقترب منها ويمد العلبة: «سآتيك بعد نصف ساعة الى البيت.» «أنت مجنون.» تتناول سيجارة. يشعل عود كبريت: «بعد نصف ساعة. سأوقظ الجيران كلهم اذا لم تفتحي.» «لا تتعب نفسك.»

يتوهج في عينيه الحادث المفاجيء الغريب فيسهو مـن الطنين المدوي في

رأسه · كأن انسانا آخر قد فعل ما فعل ، وذاق طعم الفم الندي خلال عراك الشوق والرفض · يحدق الى الخطين المستقيمين بين أذنيها وذقنها ، والى الفم المفستق ينفرج لحظة لاحتساء القهوة ثم ينضم كبرعم زنبق ·

ينهي قهوته ويمضي · ينظر الى ساعته ، ويسألها عن الوقت : الواحدة · ويمضي ·

تطرق باسمة وساخرة · كيف حدث كل ذلك ؟ لا شك أنه الآن قد صدق ادعاءات نواف · وكيف سينظر اليها اذن ؟ الساعة الواحدة ! وكأن الأمر مفروغ منه · فجأة تحس كأن شيئا يتحرك على شفتها وداخلها · تسرع الى رشف بقية القهوة · تنهض وتودع الفتاة الغافية ·

في بيتها تسائل نفسها ما الذي سيحدث لها · تشعر بالبرد فترتدي ثوبا اضافيا · أهو منزلق أم حب حقيقي ؟ ترن في أذنيها كلمات أسمى الواعظة لها بأن تعشق وتعيش حياتها كما تريد · تتساءل أي نوع من الرجال هو · وتشعر بثقل هائل يستقر في داخلها · لن يكون هناك سوى قصة أخرى من قصص الخيانة الزوجية ·

يصعد علي بلا عزم · أمام الباب يقف فلا يسمع غير الوجيب يقرع قلبه وأضلاعه · يتنهد : يجب أن يخفف هذا الخفقان والا سمعه الحارس الليلي · ينقر على الباب نقرتين وينسحب الى زاوية الدرج · يسمع صوت الباب وهو يفتح اصبع فيعرف أنها أمية · يتقدم · يطوق خصرها ، فترده عنها ، ويحملها بين يديه · تشبك أصابعها على منكبه · تشير له نحو الغرفة · وهناك تهبط عن يديه · ينزع معطفه ويرميه على الأرض ·

ترجوه أن يعود الى حيث كان · وتختنق بالبكاء · تستحلفه أن يمضي ،

فلا يراها بعـــد ولا تراه • تسـأل ما الذي يريده من امرأة ضعيفة فقـدت حتى القدرة على المقاومة • سوف ينتهي كل ما بينهما من صلات عندما ينطلق الرصاص ذات يوم ويصيب أحدهما أو كليهما •

ينصت اليها بغير دهشة • يسمع الصوت الآخر وراء كلماتها ، الصوت الراعش الطري ، ولكنه يدري أن ليس بوسعه مقاومة هذه الدموع • انـه ضعيف ، وهو يعرف ذلك • وبين الشوق وخوف الايذاء ينعدم منه الفعل • وتراه واقفا وسط الغرفة ، ثابتا فاتح الساقين ، فترتمي عليه • تقبله في كل مكان من رأسه وعنقه ، وترجوه أن يذهب • تهم تطير ، فيرفعها بين يديه الى صدره • تلتف عليه بجسدها كأفعى بشرية • تنجبل في محيط صدره وظهره وزنديه • بتدرج غافل ، يجلس على الديوان ويجلسها • تنهض عنه الى السرير • تسحب بطانية سميكة وشرشفا • تبسطهما على الأرض • تسحب مخدة وتضعها على الطرف • تجلس • تطوي ساقيها وتمد ذراعيها حول الركبتين •

يتمددان •

من زجاج النافذة المعشق يتسلل اليهما ضوء الليل • يضيئهما ويلفهما بالغموض • تصير العتمة حولهما ضبابا • والأرض صلبة ، والسكون جامح ومثير • الأبواب مغلقة ، والليل والمدينة • وتأوهات النفس المؤتلقة تلفظ صدأ السنين •

ترمي يديها وراء رأسها مطلقة آهتها الأخيرة • يسألها فتومئ أن أجل • ينحسر الى الشرشف ، وتسرح عينـاه الى لا مكان • يرسل يده على مراعي السماء • تصل الى الوجه ، وتقف لتبتل بالماء التازح نحو الأرض • بحيادية يسأل : « أنت تبكين ؟ »

لا تجيب • نظرة عينيها لا صقة بالسقف ، ترفعه الى أعلى عليين ، تنثره في الفضاء ، ثم تجمعه وتفلته ، فيهوي الى الجدران الأربعة ويستقر حيث كان •

ثم تبتسم ويصمتان • في الشهيق والزفير ، يحس بأضلاعها تنأى عن موضع أصابعه وتعود : « أعجبك ؟ » تسأله • يقول : « ممتاز • لا زيادة ولا نقصان• » « نواف يقول لي : ليس في دمشق رجل ينظر اليك كامرأة ، أنت كتلة عظام • » « في بلادنا يحب الرجال اللحم • الجمال عندهم مقيس بكمية اللحم • احساسهم بالجمال ضامر ، وبالشهوة متورم • أنت جميلة بالمليمتر ، بتناسق الأعضاء • كأنك منحوتة بالازميل • »

« أنا تمثال يعني ؟ » « أنت أجمل •• أجمل من جميع البنات والنساء • »

لكن التذكرات تفيض في خاطريهما • ويحتضنهما كالنهر شعور بمعانقة الحياة واختراق كثافتها البيضاء • يتلاصقان • يضمان الشكل والمادة والملمس واللون ، الحرية • ينفردان في المدينــة والعالم قطعتين من الطبيعة ، هنـا في غرفة منسية ، حيث لا خوف عليهم ولا هم يحزنون •

يغمض عينيــه على الإبط ، يتوغل في جبهته شميم الأعشـاب النحيلة الخرنوبية • تمخّض صدره التنفسات • ثم يسترخي مسلما نفسه للأرض والجسد الأموي ، وصمت الساعة الثالثة من ليل مرتدّ •

تمد يدها وتمشط شعره • يقول : « يوم رأيتك للمرة الأولى شعرت أنك مخلوق نافر ، موضوع في غير مكانه • ثم صرت أراك في بيت عباس ، وكل مرة أفقد من نفسي تماسكا معينا تجاهك • لم أشعر من قبل بهذا الضعف اللذيذ أمام امرأة • لم يخطر لي أني قد الاقي قبولا عندك • كنت أظن أنك تميلين

لعباس · وبعد أن عرفت نوع حياتك تفاعلت في نفسي أشياء · ولكن خفية · وكان يصيبني حزن قاس ؛ كيف تزوجت هذا الكائن العجيب ؟ »

تبتسم : « في البداية كنت اعبده · كنت أرى أنه العالم · وأنه قادر على كل شيء · كل كلماته أصدقها · كل آرائه أؤمن بها · وطلباته البّيها بجنون · كنت مجنونة به · تركت دراستي لأجله · كان عمري ست عشرة سنة ، بدأت أشعر بالكمد من قسوته · كنت منسحقة أمامه ، فلم أقف وأطالب بحقوقي · وبعدئذ صار يغيب عن البيت · صار يأتي في الصباح · أمسك يده عن مصروف البيت · من أربعمئة ليرة شهريا الى مئة وخمسين · مع ان دخله يزيد على ثلاثة آلاف ليرة في الشهر · من التهريب والواسطة والرشوة · صار يتهمني أنا · كلما كثرت علاقاته مع النســاء ازداد استبدادا وغيرة · ثم حرم علي فتح الشبابيك ، وصار يمر بالطائرة ليرى الشبابيك · وأخذ مني مفتاح البيت · وبعد ألف يا ويلاه ، سمح لي بزيارة عائدة ·· »

« لكنه ضابط · كيف يعمل في الطيران المدني ؟ »

« هو الذي طلب · جاء بمئة واسطة · يخاف من الموت · من فترة طويلة والحديث يكثر عن الحرب · وأيضا الطيران المدني أربح · تكفيه قطع الثياب والجواهر والمسدسات ، والوسكي والدخان · وكل سفرة له أجر اضافي · كل مدينة له فيها صاحبة · موجود في كل مكان ؛ وأنا سجينة في البيت · لو أني تابعت دراستي لكنت الآن في الجامعة · »

« صحيح أنه يهددك بالمسدس ، ويكون مليئا بالرصاص ؟ »

« مسدسات · ويملؤها أمام عيني · لكنه جبان · في البداية كنت أصدق تهديداته فيغمى علي رعبا · الآن ، أخاف أن يخطىء مرة وتطلع الرصاصة ·

مع أنه لا يضع اصبعه على الزناد . وأنا أتظاهر بالخوف الشديد حتي لا تزيد تهديداته عن الكلام . من يعرف ماذا يصير اذا استحكمت حيوانيته . أحيانا يرفعني بيديه ويضربني بالأرض . كانت صحتي أفضل . الآن ، أربعة وخمسين كيلو مقابل مئة وخمسة وستين سنتمتر . حتى عقلي صار وزنه أخف ؛ والا ما خليتك تدخل البيت . »

تمد يدها وتمشط شعره : « حل وقت الروحة . » تحضن وجهه بيديها وتشد عليه . تقعد . ينهض هو : « متي أراك مرة ثانية ؟ » « عندما لا تكون سيارته قدام البيت ، اتصل بالتلفون . اذا كانت سيارته موجودة، فاياك ! » « تعالي لأبوسك . بردانة ؟ » « لا ، أنت شوفاج . » « لم أحس بالبرد . » « ولا أنا . »

يتعانقان بهدوء وقوة . يزنرها بيديها ويقبل الشفتين معا . يحملها ويلفها على صدره وخاصرته . تنزل عنه الى حيث ملابسها فترتديها . كذلك يفعل هو .

في اللقاء الثاني ، ينقر على الباب مرتين ، دون أن يرتد الى الزاوية مبتعدا عن ضوء مصباح الشارع . الحفيف نفسه مرة أخرى . ويد ترد المزلاج الى الخلف بتأنّ حذر . تنفتح الدرفة بالقدر الكافي فيلج منه الى عتم الرواق القصير . يغلقان الباب ويمسك بيدها . يضمها اليه ، وهي لا تتحرك . يقبلها . يتفحص وجهها : « ماذا جرى ؟ »

تطرق صامتة لثوان . تقول : « علي أرجوك . اتركني لحال سبيلي . أرجوك ، محبة بالله . أشعر أني أهوي الى باطن الارض . هذا شيء لا أقدر عليه . »

« كيف اتركك ، وأنا أحبك ؟ »

« تحبني ؟ يا إلّهي ! يا علي ، لا ، لا ! أرجوك · ان كنت تحبني ، اتركني يستحيل أن أتابع معك · »

يضطرب ، ويخذله ضعفه القديم أمامها · يهم بالكلام فتضع سبابتها على فمه · تمسك بيده وتسحبه الى الغرفة · جهاز التلفزيون مضيء بلا صوت ولا صور · وفي الزاوية اليمنى مدفأة ترسل ضوء لهيبها · يطفئ الجهاز ، ويبقى ضوء اللهب مرتعشا على الارض والجدار · يجلسان ·

« علي ، هذه علاقة مدمرة · لا أستطيع ، من داخلي لا أستطيع · هذه أشياء رهيبة · أنا لست من هذا النوع · »

« أي نوع ؟ »

« يا إلّهي ! هذه خيانة زوجية ، أنت تعرف · »

« لا أعرف أبدا · على العكس ، أنت حبيبتي وأملي · أنت تخونينني معه · »

ترتمي على صدره بين الضحك والبكاء ، وتمسك كتفيه بيديها : « لا · أنا زوجته بحكم القانون · أرجوك ، علي · اتركني الآن · فورا · »

« أنت ملكي بحكم الطبيعة ولست لأحد غيري · هذا القانون وجد لتنظيم المجتمع · لكن المجتمع لم ينتظم · ازداد خرابا واستبدادا · ماذا تظنين ؟ قوانينك وأعرافك هذه ، ستزول بعد مئة سنة · سيأتي شيء جديد ، سيكون الناس أحرارا · ولن يضطر أحد لأن يعيش حياتك · تصوري مجتمعا من هذا النوع ، كل شيء فيه قائم على أساس الحرية والاخلاق الجديدة ، وقولي بعدئذ

كيف لا يحق لك أن تعيشي منذ الآن حياة ستصير حقيقة واقعة بعد زمن قصير • أنت تتنازلين عن عقلك • »

« سوف أجنّ بدون تأخير • أنت أفكارك طائرة مثل أختي أسمى • علي ، هذا كله جنس • حب جسدي • لن أتابع معك • »

« أين الخطأ ؟ لماذا الجسد زنخ ومقرف بهذا الشكل ؟ لا أحد يعرف الحب الحقيقي اذا لم يعرف الجسد • لأن الجسد بوابة الروح • من لم يدخلها لم يدخل ملكوت الروح • »

« ولكننا لا ندخلها • نحن نرمي أوساخنا عليها ، هذا كل شيء • يا إلهي ! ستبقي تناكفني حتى الصبح • وبعدئذ يبقى لي عذاب الضمير • »

« وهذا الفرح ؟ السلام والطمأنينة ؟ كيف ندفن حياة ولدت فينا فجأة ؟ »

ينهض اليها ويضمها بشراسة • ترتد عنه : « أبدا • أرجوك ، اترك البيت • » وتكون لهجتها واصلة الى طرف الجرح ، حيث يقف العقل ملجما وتتحكم العاطفة •

« لماذا أشعلت المدفأة اذن ؟ »

« أحسست بالبرد • »

« لم تحسي به المرة الماضية • »

« يا ربي ، يا علي • أنت تعذبني • هذه لهجة أعداء • »

يبدأ بنزع ثيابه • المرأة الشرقية تحب أن تغتصب ، يقول لنفسه • تتمنع وهي ترغب ، لكي لا يقال إنها رغبت ، وبالتالي انها عاهرة • وهي لا تعرف أنها تتعهر عندما ترغب وتتمنع ، لأن الصدق مع النفس هو الصدق •

تنظر اليه وهو ينزع كنزته مرتاعة ملتاعة • تشعر انه ينزع ثيابها ايضا • تندفع اليه وتمنعه • يضمها فترتد عنه • يتابع نزع ثيابه • تضع يديها في حجرها وتهتف مقوسة الكتفين والجذع : « علي ، لا يا علي • أرجوك • ان كنت تحبني • لا أستطيع • لماذا لا تفهم ؟ لن أتركك تلمسني • البس ثيابك • لن أتركك تلمستي • سأهرب من الغرفة • »

ويقطع عليها الطريق بيده ويضم ظهرها الى صدره • تتخلص منه بهدوء غريب وترتمي على الديوان • تبكي •

يكمل نزع ثيابه ويقترب منها • تنوح هي موجوعة ونصف مكتومة الصوت • يروح يجردها من ثيابها ، فيرفع يديها عن عينيها لتعودا اليهما • تشعر أن مدماكا في داخلها يتهاوى ، أن ملايين العيون تنظر اليها ، وان عينيها تعجزان عن النظر • يجردها من ثيابها ، وفجأة تغمض هاتين العينين المنكرتين فيرتفع من صدرها ثقل مرهق تقول : « ليس على الديوان • تطلع أصوات من هنا • »

تقوم ترتب اللحاف والشرشف • يحملها ويستلقيان •

يتداعى سد مأرب • ويندفع من ورائه السيل عنيفا وجارفا • ينهار الحبس ، وينساح منهما سيل الهجرات ويغمر أرضا مشتاقة للسيول •

تتجوهر في حبها • تغدو سيدة العطاءات • يغيب عنها حضور الحراس والحاملين مقصا ومطرقة • تنسى أنها في غرفة سرية • يزيدها الاقبال اقبالا ليبعد عنها الردة والانكفاء • ويتلقى دفق أمواهها كنبعة أنضبتها الشمس والرياح • يدرك أن للحياة مجدا ، ومن يدينونه هم الخاسرون : الذين يمضغون

الزمن والقات والحنظل ويظنون أنفسهم طاهرين • يبيعون كلاما ويبتاعون كلاما ، وحياتهم تمضي باسم الخلق القويم •

تتمطى في صلبيهما العافية • يتحدان ويجدان • يرفدان نهرا فجره القلب البشري منذ القدم في الوادي المكتظ زمنا وعظاما •

يقول لها في الهدوء : « بودك تطردينني مرة ثانية ؟ » فتبتسم • ترفع حاجبيها • تشد شعر صدره • « ما الذي دخل في عقلك لتصرفيني ؟ » « عائدة كانت السبب المباشر • قالت لها الخدامة • حلفت لها واستنكرت • ووقت ألحت علي بالأسئلة ، رحت أبكي وأنا أحلف لها • حلفت لها أني لن أراك حتى في بيتها • خبيثة عائدة • لئيمة • كنت ، هه ! ناوية أعترف لهـا بكل شيء لتصدق أني لن أراك بعد • وتذكرت شكلك يوم رأيتك أول مرة • كنت جافا وثقيلا ، مهموما بلا سبب • ويومها قلت في نفسي : سأغيظه • »

« لكن بكاءك قدام عائدة اعتراف صريح • »

« كيف ؟ »

« طبعا • وحلفانك أنك لن تريني بعد ، يؤكد أنك رأيتني قبل • والانسان لا يبكي الا آسفا أو مذنبا ، وخاصة اذا كان طفلة صغيرة مثلك • وفي الحالتين •• لو أن عائدة تفهم أكثر قليلا لكشفت سرك • يجب أن تزجريها وتمنعيها من الاسئلة • »

« سألتني من يومين مرة ثانية • حلفت لها وقلت : جنيت ؟ اذا تابعت الاسئلة سأحبه • غريبة عائدة • كانت متلهفة لمعرفة السر • وفي نفسها حركة تأخذها وتجيء بها • كأنها كانت تتصور نفسها في وضعي • »

« كيف ، وهي على ما تقولين تعتبر عملك غير محترم ؟ »

« وهل هو محترم ؟ »

« عدنا ؟ »

« لا ، لا . » وتمرغ وجهها بصدره . « اذا عرف ، أفرغ مسدسه في . لا مزح هذه المرة . »

« يبدو أنك لا تدعين الحب ، والا لما بكيت بحضور عائدة . »

« بكيت لسبب غير ما قلت . لأني خفت أن تنقطع علاقتنا ولا أعود أراك . أنت لا تعرف كيد عائدة . اذا تأكدت ستلمح لنواف حتى يفهم . عائدة غيورة من كل شيء ومن كل انسان. وربما قتلك. هؤلاء الفلاحون لا يتساهلون في حكاية الشرف . ونواف على جبنه ، أحيانا يفقد السيطرة على أعصابه . »

« صحيح أنتم تحتقرون الفلاحين ؟ »

« نحن ؟ الفقراء لا يحتقرون الفقراء . ولكن لا تنس المثل : أعوذ بالله من فلاح اذا تمدن . أيها الفلاح . نواف لم يعد فلاحا ، أصلا . »

« وانا لم أعد فلاحا ، ولست شيئا آخر . لا يستطيع الانسان أن يبقى فلاحا في هذا الزمان . الفلاحون قوة معطلة لم تدخل مرحلة الفعل . اذا بقي الفلاح فلاحا يموت في الجهل والقذارة والاعتماد على القدر . وعندما يخرج يضيع : لمن ينتمي ؟ غالبا ما يتبجح بأنه ما يزال فلاحا . وله أخلاق الفلاحين السمحة . هذا كله كذب . تملق وادعاء ، ولا يخفى ما فيه من فوقية وعجرفة . صاروا هجينين ، لم يعودوا فلاحين . كل من خرج عن طبقته يضيع . »

« حكيك ، تقريبا مثل حكي أخي إمام . إمام يريدني أن أطلق نواف .

قال لي يمكن أن تشتغلي عندنا في معمل • بس أبي لا يتحمل الفضيحة • لو طلّقته واشتغلت بالمعمل ، كنت فتشت عنك واصطدتك بالسنارة • لأني سأكون حرة • وأقرر مصيري بنفسي • وكانوا سيقولون هربت من فلاح وعلقت بفلاح ثان • ولن أبالي بهم • وكنت سآتي من المعمل ، أرمي ثياب الشغل وأقضي نصف ساعة كاملة قدام المرآة لأتهندم وأظهر مرتبة • وأتدلل عليك فلا أعطيك بوسة الا بصعوبة • واطبخ لك وأغسل ثيابك • وتأخذني الى السينما والمنتزهات • مشاوير في البلد • وكنت سأرى في أضيق الحواري مكانا واسعا وجميلا • وأتعلق بيدك حتى تخفى من تعبها • »

توقف حديثها فجأة وتعانقه • كأنها شعرت أنها يجب أن تلتقط هذا الفيض الفضي لئلا يهرب • تقبّله وتجري يديها على جذعه • تهجم عليه وتلتقط تدويرة كتفه الايسر بأسنانها • تغمغم بأصوات لا يفهمها • تتنامى في حلقه صيحة يهم باطلاقها ويمسك • يشتد غرز الاسنان في الكتف مثيراً ومؤلماً • تلتصق شفتاها الصغيرتان بالكتف المتوهج ، تشدان عليه كأنما تمتصان برتقالة • « ان تشربي دمي تصيري أختي • » تميل جيدها على الزاوية بين الكتف والرقبة • يسلم نفسه للضوء القادم من جسدها • يعتقل شفتيها كأنه يسترجع دمه • ويأخذ بها متجدّد الأنس بعطاءات حواء ، محتمياً بأضلاعها الخافقة وخلاياها المتّقدة حبا • تتعلق به وهو بين يديها وتزدهر فيه ، وهي بين يديه ويتطهر فيها • • وفي سكون الغرفة الابهم وغطيط المدينة ، يتوحدان نفسا لنفس ، وقامة لقامة ، حيوانين يرعيان حشائش الجسد • ثم يرتميان كسيل بلغ امتداده الاقصى ولامس حدود الافق الارضي • تهس التنفسات فوق صدريهما، ورويدا رويدا تخفت مسلمة جسديهما المشبوحين لسكون الغرفة وتنقير المطر على زجاج الشباك • يسمعان صوت المطر ويستردان حضور الاشياء •

« جيد أنك أشعلت المدفأة · » ويجلس · ينظر الى هذا الخلق السحري المتمدد أمامه وضوء اللهب يسقط عليه ، الى هي وقد أغمضت عينيها وثنت يديها وراء رأسها ، وعلى وجهها تنفو ابتسامة الرحمة · تعبث اصبعه بأنفها : فتتسع الابتسامة · تجلس · تنهض فتتفقد ابنها النائم على سريرها · تحنو عليه كأنها تود أن تلمسه ، ولا تفعل · تعود الى الديوان وترتدي بعض ملابسها وتستلقي · « هل الناس كلهم تعساء ؟ » تسأله فجأة ·

يجيبها ناهضا عن الشرشف : « كل من عرفت ، على الأقل · ليندون جونسون نفسه ليس سعيدا · »

« لماذا ؟ »

« لأن زوجته أذكى منه ، وشخصيتها أقوى · »

« ونحن ؟ »

« نحن تنقصنا الحرية · »

« صحيح · نحن مثل دودة القز · ننسج شرانقنا وننحبس داخلها ونموت قبل أن نصير فراشات · »

« لا · نحن سنصير فراشات · ولكن ليس الامر سهلا · في أعماق كل واحد منا كائنان ، واحد عبد والثاني طاغية · وهذا طبيعي ، طالما أن وطننا لم يفتح عينيه منذ ألف عام على مؤسسة ديمقراطية واحدة · اذا احتجنا لاحد تزلفنا له واستعنّا بالواسطة · واذا احتاج لنا ننتفخ بالخيلاء ونعامله كأن شريان قلبه تحت رحمة سكيننا الحادة · نحن لا نحترم القلب الانساني ولا الحاجة الانسانية · أشواقنا مدعوسة بالاحذية ، وصبواتنا مسيجة بألف قانون تافه يمنع تلبيتها · واذا لبيت ، تلبي بطريقة لصوصية معدومة الرضى · »

« لماذا هذه المحاضرة الطويلة ؟ »

« لا أعرف · عندي رغبة في الثرثرة · عشت ثلاثين سنة لم أعرف الرضى · وما أزال احس بالجوع لكل الاشياء التي تمنيتها · وفوق هذا أشعر أني مطالب بواجبات لا أعرف لماذا ومن أين جاءتني · نحن لا نكاد نشبع الخبز ونعلم أولادنا القراءة والكتابة ، ومع ذلك علينا أن نحارب استيلاء اسرائيل على بلادنا · لماذا اسرائيل ؟ وما الذي خطر ببال هؤلاء ليأتوا من وراء البحـــار ويدقوا أبوابنا بالرصاص ؟ »

« تعال اقعد هنا · تعرف أن أمي فلسطينية ؟ مــاذا ذكّرك باسرائيل ؟ يقولون إن المعركة قريبة وإننا سننتصر · »

« هذا الشيء الصغير المسمى اسرائيل · علينا أن نتخلى عن حاجاتنا ، حريتنا ، خبزنا ، نغطي على أمراض مجتمعنا وأرواحنا ، نمسخ حياتنا لأجل هذه المعركة · واسرائيل طارئ تاريخي عابر · لا يمكن أن يعيش · ستزول يوما ، حتى ولو لم نحاربها · مئة مليون انسان نحن ، وزيادة · ومع ذلك نعيش أنصاف بشر بسببها · »

« أنا لا أذكر اسرائيل الا قليلا · أيام الاعتداءات على الحدود ، وضرب القرى والمخيمات · معقول أنها ستهزمنا ؟ »

« يتحدثون عن معركة ·· منذ عشرين سنة · الحقيقة هي أننا أقمنا توازناً بين المعركة واللامعركة ، بين الدائم التاريخي والطارئ التاريخي · (المعركة ستقوم) يقولون · لكن هذه السين لا تنفصل أبدا عن الفعل · توازن ضاع فيه كل جهد وكل عمل · كل شيء الا الكلمات الجميلة · »

« يقول أخي إمام إنّ المعركة في المعمل · كل شهر ياتي الي بورقة مليئة

بالارقام . هذا الشهر زاد الانتاج كذا ، والعمال يقرأون كذا وكذا . ويبربس على المتقاعسين . »

تنحني اليه وتقبله : « حان أن تذهب . بعد قليل يطلع الفجر . »

ينهض بخفة . يرتدي ثيابه . يتخاصران ويمضيان الى الباب الصامت . يضمها وتدسّ يدها تحت معطفه .

تفتح الباب فيندفق الهواء وصوت المطر . يخرج . عند منتصف الدرج يلتفت ويلوّح بيده .

في المساء تصير المدينة جسدا متقلا كثيفا . وفي الليل تنام قريرة الخاطر ، آمنة مطمئنة . تواري خوفها من الآل والصلصال ، من الزمن الهارب والشوق المحرور . على أفقها تتلامح وحشة الآفل والآتي . والسكون يلفها كرداء مرهوب ، والحركات لا تنقطع . سكون مبهم خلّفه تواري البشر وراء الابواب المغلقة . والصوت أجش تتركه فوق علب الاسمنت محركات العالم الحر . من احدى النوافذ تنبعث أنغام مزمار غجري وتنتشر فوق الشارع الهامد . في مكان ما يدور ذراع معدني قصير فتهب من تحت ابرته أجمل هندسة للاصوات أقامها البشر . تنظر الفتاة من وراء الستارة الى الليل الآتي . يسترخي محمود في غرفته والى جانبه كوب الشاي . تنفك أوراق صفراء عن أغصانها وتنتهي . يتقوس جذع امرأة ويداها غارقتان في الصابون والماء . تضرب أسمى في الشوارع راجعة الى بيتها . يقبع بائع الخردة في حانوتـه منتظرا رزق الله الحلال والحرام . يتناول علي أبو عبد الله وزوجته وأولاده عشاء يسيرا . يسمع لفيف من الناس نشرة الاخبار بانتباه ونصف انتباه وبلا انتباه . تستبيح يد محمومة نتوءات جسد محموم . تهوي يد غضبى على وجه محكوم شاحب .

تتراقص ألسنة بلهب الكلمات • تفيض دمعتان وتنفرج شفتان • يتطاير وحل عن قدمين حافيتين • يزدحم مقهى (الروضة) بمئتين وخمسين من رواده • ينكب محرر الصفحة السادسة على عمل كاد يفوت أوانه •

والمدينة جسد مثقل كثيف ، علبة ساخنة تسترخي في حضن الجبل •

في مكان ما أيّ حادث يمكن أن يحدث ، أية كلمة يمكن أن تقال ، أية خاطرة يمكن أن تطفو على السطوح المضاءة •

ويقول الرئيس جونسون لجلسائه اللطيفين : « أرى أن الديمقراطية في اليونان لم تعد شيئا مريحا كما هي في بلاد العم سام • ما رأيك يا سي• آي• إي ؟ »

يقول سي• آي• إي• في جلسته ، جفنه لا يطرف ووجهه كتيم ، ونظرته جامدة متحفزة • يقول : « أعتقد ، اذا جرت الانتخابات ، أن المعادين للديمقراطية الحقيقية سيفوزون بعدد لا بأس به من المقاعد • وهناك خطر مؤكد في ذلك على العالم الحر • »

يقول الرئيس جونسون : « هذه نكتة غير مسلّية • تصوروا الحلف الاطلسي وفيه دولة يضم برلمانها عددا من الوطنيين الحمقى • ماذا سيحدث لوجودنا الضروري في الدول المجاورة ؟ لن ينجح أي عمل لنا في الشرق الاوسط ، بالدرجة التي نريد • قد تهدد مصالحنا هناك أيضا • مشروعاتنا المقبلة في الشرق الاوسط تتطلب أن يكون اليونان دولة مسالمة خالية من المشاغبين • في رأيك اذن ، أن مصلحة اليونان تقتضي تغيير نظام الحكم ؟ »

يقول سي• آي• إي• وعيناه الخثرتان ما تزالان تتوقعان حدوثا مفاجئا مجهول المصدر : « نعم ، سيدي الرئيس • »

يقول وزير الخارجية : « لدينا في الجيش أصدقاء جيدون ، يؤمنون بالديمقراطية • »

يلتفت اليه الرئيس : « وهؤلاء الفتية ، قادرون على القيام بعمل دون إهراق دماء ؟ »

يقول وزير الدفاع : « طبعا • فالامر كله لا يتعدى عملية تبديل في نوبة حراسة • وسيكون جون بول سعيدا باستضافة الملك الشاب وعروسه • »

يقول سي• آي• اي : « هل ستكون هناك ردود فعل ؟ »

يقول وزير الدفاع : « الاسطول السادس موجود • لنا هناك قلاع عائمة على مياه البحر المتوسط مهمتها حفظ السلام • »

يقول الرئيس : « ونحن سنشجب الذين خرقوا الاعراف الديمقراطية الى أن يرسخوا أنفسهم ويضعونا أمام الامر الواقع • اذن أنتم واثقون من وجود فتية قادرين على انقاذ اليونان ؟ »

يتدافعون بالمناكب والايدي ، وأحيانا بالارجل والاحذية ، ووجوههم مشرئبة باتجاه الباب والواجهة • يمسحون العرق عن جبهاتهم ويطلقون شتائم وتأففات • أيديهم ممدودة منذ ربع ساعة على الاقل ، وفي كل منها القطع النقدية المناسبة • تتصاعد أصواتهم نافدة الصبر : كيلوين ، أبو نصوح : كيلوين من فضلك : يا سيد ، نصف كيلو ، لو تكرمت : الدور ، يا اخوان ، الدور : ثلاثة كيلوات ، يا أبو نصوح • أحدهم يوقن أن نصف الليرة الذي دفعه لتلميع حذائه قد ذهب هباء منثورا • ينسحب الى خط الدفاع عن أصابع قدميه • يرافقه آخر ، وينسحبان الى مؤخرة الحشد • من فوق الرؤس يرتفع فتى حمله رفاقه ومد يديه ولسانه : « رغيفين بس ، يا أبو نصوح • » باحدى

يديه يتناول الرغيفين ، وبالأخرى يناول ثمنها · يغوص في الحشد · يرتفع فتى ثان : « رغيفين ، يا أبو نصوح ، بس رغيفين · » يتكرر تبادل الخبز بالنقود · ويرتفع فتى ثالث ·

يستسلم المتأخرون منتظرين انحسار الموجة ، ليتقدموا فترا فغترا · يتأملون الفتيان الاربعة في ابتعادهم الصاخب ومحاصرتهم لفتاة طويلة قصيرة الفستان · من الخلف تدرج عربة يدفعها بكسل كهل متقوس الظهر · يتوقف عند الحشد المتذمر وينادي : « بطاطا ، بخمسة وستين ! بخمسة وستين البطاطا!» ينتظر · يعيد ترتيب حبات البطاطا ببطء وهدوء · يفتح الراديو الترانزيستور، ويصغي مستمتعا بصوت (شادية) المغناج ·

بحذاء الرصيف الثاني تقف سيارة فارهة · ينز لمنها رجل مؤطر الوجه ، مختبئ العينين وراء نظارة سميكة سوداء · يتقدم من الفرن ويقف في المؤخرة مترفعا مزدريا · من الراديو يعلو تصفيق الجماهير منضبطا مع ايقـاع الاغنية ، وصاعدا بحالة الطرب الى هستيريا مدنفة · يمر صبيان تصف مستوري الجسمين فيمسحان ظهريهما بزجاج السيارة الداكن · يستلقيان على مقدمتهـا · يتناطحان بالرأسين · فجأة ينشب بينهما عراك ودي شرس · يتماسكان بالأيدي· يتلاطمان بالسيارة والارض · يسقط أحدهما تحت الآخر ، ويطلق سبابا مقذعا ·

يناول أبو نصوح ذا النظارات السميكة خبزه · تستدير العيون الى الوجه المتقع الممتنع على الانفعال · ويستدير هو باتجاه السيارة غير عابئ · تنكفئ العيون خوفا من العاقبة · يلطم مواطن جميع من حوله وقد قرر الهجوم · الى اليمين يمسك خياط القمصان بخرطوم أزرق ويرش الماء أمام حانوته · يخرج رجل من بين الحشد حاملا خبزه وعرقه · تقف امرأة محجبة أمام العربة ،

وتتفحص حبات البطاطا · يصيح البائع : « بخمسة وستين ، التفاح ! » ويقول المذيع : « طائرات العدو تقصف قرية أردنية في الخليل ودباباته تدمر ما بقي من بيوتها ·· تدشين أول خط للانابيب بين كراتشوك وطرطوس ايذانا ببدء أول استثمار وطني للنفط في العالم الثالث ·· » يجيء دور المتأخرين فيتقدمون الى الصف الاول · والاول بينهم يضع النقود على المنصة ، ويغض الطرف عن سرعة أبي نصوح في الوزن · يختطف كيلوات الخبز الثلاثة · يتقهقر مستسلما للطمة على خاصرته ودعستين على قدميه · ويقول المذيع : « الثوار الفيتناميون يخوضون معركة ضارية في المرتفعات الوسطى ضد قوات الاحتلال الاميركية ، ويشددون حصارهم لقاعدة دانانغ ·· »

في المقهى تلمع أسنان عربي بك فوق هامة بسام بك المتدنية · تفرقع احدى حجارة النرد بصوت ثاقب · يستقيم قذال بسام بك ، وتطرق عينا عربي بك · اليهما يجيء شيش بيش · يحيّي ويجلس · يشهر بسام بك يده أمام جبينه ، ويمدها فيصافحه · تلمع أسنان عربي بك وتبرق عيناه الزرقاوان · مطأطئا ، يقول بسام بك : « أهلا ، أبو محمد · » يقول شيش بيش : « أرى المعركة حامية الوطيس · ما النتائج ؟ » يقول عربي بك : « هذا الرجل ، الله يصلحه ، كامل · بس لعبه ناقص · لا تزعل مني أبو وائل · » تحت الطاولة يرتب بسام بك حبتي النرد بين أصابعه على النحو الذي يريد · يرمي الحبتين بلطف · يقول : « أنت ، لولا أنك تتلاعب بالزهر ، جولة واحدة لا تكسب · ولا نصف ربع جولة · » يقول عربي بك : « ما حيلتي يا أبو وائل ؟ الله سبحانه وتعالى خلقني هكذا · لا أستطيع ، هذا قضاء الله · »

ويقول المذيع من راديو المقهى : « طائرات العدو تقصف قرية اردنية في الخليل ، والدبابات تدمر ما بقي من بيوتها ·· تدشين أول خط للانابيب

بين كراتشوك وطرطوس ايذانا ببدء أول استثمار وطني للنفط في العالم الثالث ·· الثوار الفيتناميون يخوضون معركة ضارية في المرتفعات الوسطى ضد قوات الاحتلال الاميركية ويشددون حصارهم لقاعدة دانانغ ·· »

يثب شيش بيش الى حيث جثم المذياع العتيق الضخم على طاولة قيّم المقهى · يقتعد كرسيا وينصت · يقول المذيع : « ارتكب العدو الصهيوني صبيحة هذا اليوم مجزرة مدبرة تنم عن الغدر والبربرية · فقد قامت الطائرات الصهيونية في الساعة الثامنة والربع بقصف وحشي متواصل دام حتى التاسعة لقرية السموع الآمنة في جنوب الخليل · وفي الوقت نفسه اخترق بساتين القرية أرتال من الدبابات ، أشعلت النيران في الاشجار ثم توجهت الى القرية فقصفت حواريها قصفا مركزا استمر حتى الحادية عشرة · وتقول وكالة الصحافة الفرنسية إن الطائرات والدبابات المعادية قد مسحت القرية مسحا وسوت بيوتها بالارض ، وبعد ذلك قفلت راجعة ، مخلفة وراءها أشلاء وخرابا وحرائق · هذا وقد تقدم الاردن بشكوى عاجلة الى مجلس الامن طلب فيها عقد جلسة طارئة لبحث العدوان الاسرائيلي الآثم · وتقول التقديرات الاولية إن عدد القتلى يبلغ العشرات وأن عدد الجرحى يتجاوز المئة ، فضلا عن دمار القرية بأكملها · »

بغير مقدمات يتقدم الامير ويجلس قرب شيش بيش · يفرش على الطاولة صحيفة اليانصيب ، ومن جيبه يستل رزمة من الاوراق · يتناول الاولى ويمررها بحذاء أعمدة الارقام الرابحة ، جبينه مقطب وحاجباه متكرتشان · يطلق شتيمة ويمزق الورقة بأناقة الى ثماني قطع· يتناول الثانية · يراقبه شيش بيش نصف ذاهل ، والاوراق تمر على أعمدة الصحيفة ثم تمزق وترمى · أخيرا يرفع الامير رأسه وينظر الى صديقه · يرفع حاجبيه بسرعة خاطفة كمن يقول : لم نربح

شينا • يسأله شيش بيش : « أنت مثل الحكومات العربية ، تراهن على الاحصنة الخاسرة • » يقول الامير : « المشكلة أن الاحصنة نفقت • والآن جاء دور البغـال • »

ينهض شيش بيش الى صديقيه الكهلين ويتابع مراقبته لهما • يسترخي على كرسيه كمن اعتاد على المراقبة ، وتوقع التحركات الافضل والتوزيـع الادهى للحجارة • يسأل عربي بك : « دكتور ، الى متى يظل الاسرائيليون يضربوننا ونحن ساكتون ؟ » يبتسم شيش بيش ولا يجيب • يقول بسام بك : « الحديث عن المعركة على قدم وساق ، أخي - الاسرائيليون حاشدون جيوشهم على حدودنا • »

فجأة يقف الى جوارهم أبو هيثم متخشب الوجه والجسم : « ماذا تشربون ، يا سادة ؟ » يلتفت اليه عربي بك : « أنا ، هات لي ليمون بدون دود • » ثابتا في وقفته يقول أبو هيثم : « عصيرنا في العادة بدون دود • » يقول عربي بك : « صحيح بالله ! هات ثلاثة اذن • » ينحني أبو هيثم تعبيرا عن موافقته على الطلب ، ويمضي بخطى كسولة ضجرة •

يصيح بسام بك مملناً نصره المرحلي : « أنت لا تعرف اللعب • أنت لاعب ، أنت ؟ » ويميل الى شيش بيش ليخصه بالحديث : « أخي ، من يوم ما حطّ فكين جديدين ، ونحن عاجزون عنه • » ينظر اليه عربي بك بجدية منذرة • يحملق الى وجهه هنيهات • يقول : « أنزعهم ؟ أنزعهم ؟ » ويرد الآخر: « لا ، دخيلك • لا تتغلب • بفكين ومخيف لنا ، كيف بدون فكين ؟ » •

ينصرف اهتمام شيش بيش الى الصبايـا والنساء العابـرات الشوارع • أمامه يمشين ، كل في وهج عالمها الخاص • يعزله الأسى والشرود : أعلى هذه

البشرات الدافئة دائما أن تلوح ، وعليه أن يصبو ؟ يتذكر أسمى ويتمنى فقط لو بقي له هذا الوطن الصغير الجميل ٠

ويعلن المذيع : « وتقول وكالة الصحافة الفرنسية إن الطائرات والدبابات المعادية قد مسحت القرية مسحا وسوت بيوتها بالارض ٠ وبعد ذلك قفلت راجعة مخلفة وراءها أشلاء وخرابا وحرائق ٠ هذا وقد تقدم الاردن بشكوى عاجلة الى مجلس الامن طلب فيها عقد جلسة طارئة لبحث العدوان الاسرائيلي الآثم ٠ وتقول التقديرات الاولية إن عـدد القتلى يبلغ العشرات وأن عـدد الجرحى يتجاوز المئة ، فضلا عن دمار القرية بأكملها ٠ » عندئـذ يهوي رأس أم خلف على راحتيها وتجهش بالبكاء ٠ هذا الكابوس متى ينتهي ؟ تميل اليها أم إمام وتمسك بكتفها : « فاطمة ! فاطمة ! » لكن أم خلف لا تستجيب ٠ تبكي بهدوء وانكفـاء : « أعرف كيف يحرقون القرى ، » تقول لصاحبتهـا « أعـرف كيف يحرقون القرى » ٠ وتود أم إمام أن تقول شيئا : « ضروري هـذا البكاء ؟ » «ماذا أفعل ، اذن ؟ » وبعد هنيهات يتسلل صوت عبر الراحتين البيليتين : « لو مرة يجيء خبر بالعكس ٠ مرة واحدة ٠٠ » وتحاول أم امام أن تهدئ خاطرها فتنغص بالدمع ٠ بعد قليل تسمع صوتها وهو يتمتم : « ترى ، ألن نعود أبدا ؟» ٠

أشرطة الأوراق الملونة تتصالب في الرواق النظيف فوق الرؤوس الصقيلة واللافتات الحماسية تكسو الجدران ٠ الأذنون يروحون ويجيئون بتعجل هياب ٠ المدير يمسح المكان بعينين قلقتين ٠ أبو قاسم يمسح أرض البهو للمرة الثالثة وينتقل الى الدرج ٠ مـن البوفيه ينبعث صوت (شاديـة) المغناج ٠ يقترب المدير من أبي قاسم ، وجهه شاحب وثيابه متهدلـة ٠ يشير اليه هنا وهناك أن يمسح الزوايا ومقرنصات حاجز الدرج ٠ ينفذ العجوز التعليمات لاهثا ٠ يثور حنق المدير ، لكنه يترفع عن اظهاره أمام الآذن ٠ يترك مكانه فجأة ويسرع الى

المستودع : « الكراسي ! » يصرخ بالأذنين زاجرا : كيف ينقلون الكراسي دون أن يمسحوا عنها الغبار • ينسل أحمد الى المناسل ويرجع بخرقة نظيفة •

يعود المدير الى البهو ويسأل أبا صياح هل جاء المدرسون • يأتيه الجواب بالنفي • يهز رأسه كربا • يفك ربطة عنقه • يتهدل مع ثيابه باتجاه غرفته • امام الباب يرى عليا واقفا • يحييه ويهز رأسه : « أنت الوحيد الذي جاء حتى الآن • المدرسون بكوات • يصلون سوية مع الوزير • » يدخلان الغرفة • يقول علي : « وأنا جئت لاعتذر ! عن المشاركة » • يحملق اليه المدير غير مصدق : « الوزير آتٍ ! » « أعرف • وأنا سأنسحب لئلا أحرجك • سيسألنا عن مشاكلنا في المدرسة ، وهو لا يتوقع أية شكوى جدية • هل تتوقع مني السكوت عن موضوع تفسيرات التاريخ ؟ يجب أن تشكر انسحابي لأني سأنجيك من وضع محرج • » « لا • تحدث مع الوزير ، اذا أردت • تحدث معه كما تريد • أرجوك، كيف تترك ؟ » « قل لي ، متى تعين مديرا للتربية في دمشق ؟ » •

يبتسم المدير • يدور حول الطاولة ويجلس على كرسيه الدوار • يدخل بسام بك والاستاذ أنطون • تبدأ الاحاديث الجدية : مشاكل المعلمين : الكتب المدرسية ، المناهج ، الرواتب فالرواتب • يدخل الاستاذ عدنان فيكرر اقتراحه بتخصيص سيارات تنقل المعلمين من مدارسهم واليها أسوة بموظفي الاذاعة والتلفزيون • ومع الاستاذ عبد الرحمن تترقرق مشكلة مستوى التدريس الذي تدنى بشكل محزن • ومع الاستاذ سليم تزوبع مشكلة الامتحانات • وبعد دقائق تمتلئ الغرفة بالمدرسين •

أمام طوفان الحاجات والاحتجاجات يضع المدير ساقا على ساق ويثني ذراعه على الساق العليا : يوم يصير مديرا للتربية سيحل هذه المشاكل جميعها • يثبت نظرته على الطاولة بانتظار اعطاء الكلمة له • وأخيرا يلقي خطابا • ينسل

صوته الشحيح متلبسا باللغــة العربية ونضال المعلمين • يغدو وجهــه جليلا ، وترشح تقاطيعه بالكبر وجسامــة الضمير ، فيضع المعلمين أمــام مسؤولياتهم التاريخية • فجأة واذا جــو الغرفــة خاشع وخطير • يصمت المدرسون وتصمت مشاكلهم • ويكتشفون أن عليهم واجبا مصيريا في هذا الظرف المصيري : كبس الجرح بالملح وابتلاع السكين لأجل المعركة • وأية مشاكل تقف أمــام تحرير الارض المنتصبة ؟

في البهو يسمع علي صوت المذيع : « بشكوى عاجلة الى مجلس الامن طلب فيها عقد جلسة طارئــة لبحث العدوان الاسرائيلي الآثــم • وتقول التقديرات الاولية إن عدد القتلى يبلغ العشرات وأن عدد الجرحى يتجاوز المئة ، فضلا عن دمــار القرية باكملها » •

« ما هو نائب الفاعل ؟ » تسأل سليمى تلميذاتها الصغيرات • تنهض فتاة مهزولة شاحبة الوجه وترفع يدها • يتهلل وجه سليمى فرحـا بهــا • « تعالي هنا » وتشير اليها أن تتقدم فتقف أمام الطالبات • لكــن الفتاة تتلكــأ وتزداد شحوبا • تلتفت اليها بتوقع معترف بتفوقهــا • كذلك تفعل سليمى • ويبدو على وجه الفتاة قلق غامض ، تضارب بين الرغبة والعجز • ثم تزوغ نظرتهــا ويهوي جسمها على المقعد •

تنتفض سليمي من خلف طاولتها وتهرع الى الصبية • عندما تصل اليها تتيقن من حالة اغماء • تتعاون والطالبات فيخرجنها من المقعد ، ومن الصف • يسرعن بها الى غرفة الاسعافات الاولية • هناك تنعشها بالماء والضرب الخفيف على وجهها ، فيما تتدلى الصغيرة بين يديها كغصن ذابل •

أخيرا تفتح عينيها • تجلسها سليمى على كرسي • تناولها كوبا من الحليب

فتمسكه الفتاة بكلتا يديها وتشربه دفعة واحدة • تبتسم بلا ارتباك ، كأن مسا حدث لها تكرار ممل لحادث ممل اعتادت عليه • تسألها سليمى : « أنت تعبانة يا نجوى ؟ » وتهز الفتاة رأسها باستحياء : « جوعانة • » « لم تفطري ؟ » « ولا تعشيت » • « كم واحد أنتم ؟ » « تسعة ، والبابا والماما •• » « تعالي معي » •

تمسكها بيدها النحيلة وتمضي بها الى غرفـة المديـرة • هناك تنتظران انصراف الاخريات • دقائق وتبقى النسوة الثلاث وحدهـن • تقول سليمى : « هذه نجوى،التي أنذرناها أن تشتري صدرية رسمية ، أغمي عليها في الصف•» وقبل أن تتكلم المديرة تقول نجوى : « بابا لا يشتري لي صدرية لتفصلوني من المدرسة • » تتابع سليمى حكاية ما عرفته من الفتاة•وتسأل المديرة:« خبز ! لم تأكلي كسرة خبز عند الصبح ؟ » تقول نجوى باضطراب:« نحن تسعة أولاد • » وتصمت الاخريان، لتخمّنا نتائج تناول الخبز ، وتستوعبا هذه المأساة المضحكة • اعادة لموجز ما ورد فيها من أنباء • طائرات العدو تقصف قرية أردنية في جنوب الغليل ودباباته تدمر مابقي من بيوتها••تدشين أول خط للانابيب بين كراتشوك وطرطوس ايذانا ببدء أول استثمار وطني للنفط في العالم الثالث •• الثوار الفيتناميون يخوضون معركة ضارية في الهضاب الوسطى ضـد قوات الاحتلال الاميركية ويشددون حصارهم لقاعدة دانانغ •• زعيم يساري يوناني يطالب الحكومة بالاستقالة واجراء انتخابات عامة » •

تقبل أم النضر جليلة ولامعة الوجه • على رأسها تجثم كتلة مضفورة مـن الشعر الفخاري ، وجيدها الأتلع يزدان بقلادة فوسفورية الضياء • تمتـدح أصناف الطعام وترتيبها ، وتدعو لأم لؤي بسلامة اليد • تبتسم عائـدة بطرب خاص • تعلن عن استعداد المائدة لاستقبال الضيوف ، وتطلب اليها وهي سيدة البيت ، أن تتلطف بدعوة الضيوف •

تفتح أم النضر ضلفتي الباب ، وتناديهم • يقبلون الى غرفـة الطعام •

ترجو عائدة من أبي النضر الجلوس على الكرسي المتوسط • يهز أبو النضر رأسه علامة الامتنان • باصبعيه يتناول نظارته التي لا لون لها • يمسحها بمنديل ورقي • يجلس العقيد مفتوح الساقين • يتكئ بمرفقيه على الطاولة • لحظات وتكتمل اللوحة : أم النضر تتولى السكب،العقيد يتذكر مقالا عن التربية في سورية قرأه مترجما ولا يعرف أين ، أبو النضر يهيئ لنفسه كأسا من الوسكي فيتذوقه ويهز برأسه علامة الرضى ، عباس وعائدة يجلسان الى طرفي الطاولة •

يقول أبو النضر : « نحن في سورية ، سنضع أجهزة التربية تحت سلطة الدولة وإشرافها • بعد عشرين عاما من الاستقلال ، نجد أن مصادر تفكيرنا وثقافتنا وتربيتنا مصادر غربية • وهذا يتعارض مع مبادئنا وعروبتنا • يهدد أصالتنا القومية • لذلك،وبكل بساطة ، قررنا ، اعتبارا من أول العام الدراسي القادم ، تعميم مناهج وزارة التربية على جميع المدارس الاهلية والتبشيرية »•

يهتف العقيد : « أم لؤي ، تكرّمي علي بكأس • حمّسني أبو النضر للشرب • »

تنهض عائدة • ويتابع أبو النضر : « نحن نشعر أن بأعناقنا مسئولية تجاه الجيل الناشئ تفوق مسئوليتنا تجاه الجيل الحاضر • الجيل الحاضر تكوّن تقريبا ، وانتهت مشكلته • الجيل الناشئ هو الذي سيصنع الحضارة العربية والانسان العربي • هو الذي يجب أن ننمي فيه الأصالة الثورية ونغذّيه بالفعالية الثورية » •

يهتف العقيد : « اي والله ! تسلم يدك ياأم لؤي • أبو النضر ، تكرّم علي بزجاجة الوسكي ، من فضلك • »

يناوله أبو النضر الزجاجة غير ملتفت اليه • يقول : « في ذهني فكرة

عمرها عشرون سنة : اذا استطعنا أن نجعل البون الحضاري بيننا وبين أبنائنا معادلا للبون الحضاري بيننا وبين آبائنا نكون قد صنعنا معجزة تاريخية » ·

يقول العقيد : « عفوا منك ، أبو النضر ، تكرّم علي بالثلج · عدم المؤاخذة » ·

يناوله أبو النضر سطل الثلج اللازوردي غير ملتفت له ·

يقول عباس : « فعلا · كما يقال ، نحن في سباق مع الزمن » ·

يبتسم أبو النضر : « وهو سباق في مصلحتنا · لاننا أمة مقبلة على الحياة كل يوم يشتد ساعدها أكثر · لكن هذه المهمة لا يصنعها أفراد معينون ، مهما بلغت قوتهم · يصنعها التراكم المتزايد للعمل اليومي · مقولة ماركسية مسلّم بها · وهكذا بالأساس تبنى الحضارة · الاقتصاد والتربية والفنون · »

تقول عائدة ، وقد رأت أن عليها المشاركة في الحديث : « سمعتم الأخبار ؟ الاسرائيليون مسحوا قرية أردنية عن بكرة أبيها · لم أسمع التفاصيل ، الموجز بس · »

يقول العقيد : « سيظلون يمسحون ، حتى تمسح أمهاتهم عن وجه الأرض ذات يوم · »

يقول أبو النضر : « بعد أربعين عاما ينتقم العربي فيقال له : تعجّلت »·

يقول العقيد :« العربي صبور · يتحمل · يملك أصالة الجمل في الصحراء· تحملنا اسرائيل عشرين سنة ، والاستعمار الغربي مئة سنة ، والعثمانيين اربعمئة · لكننا هزمنا الأعداء دائما · وسنهزمهم · نخبك ، أبو النضر · »

وفيما يرفع الرجلان كأسيهما بمودة وثيقة، يلصق محمود وجه الترانزستور بأذنه ويمضي في الشارع الحافل . يجفله زمور سيارة زعــق خلفــه بغضب ، فيقفز الى الرصيف . يعيد الصاق الترانزستور بأذنه . يمرق بين هذا وذاك ، يلف حول عربة ، يتحمل دوسة على حذائه الخلق ، وينتقل الى السموع فدانانغ فأثينا فواشنطن ، ويحط أخــيرا في الباص المحشو بالركاب وقوفــا وجالسين . هناك يرمقه جيرانه بفضول . يتظاهر باللامبالاة ، ويحكم الصاق الترانزستور جيدا . يحمحم أحدهم ويقول متشجعا رصينا : « أخبــار ؟ سمّعنا . » يفلت محمود قبضته عن جسر الباص المعدني ويعلي صوت المذياع . وبدون مقدمات يلف الباص كوعا فينطرح محمود على جيرانه . يمسكون به ويعيدون له توازنه، ولانفسهم توازنهــم . يقول أحدهــم : « وأي خبريــة ! العمى بعيونهــم ، وحوش ؟ » ويقول آخر : « سيدي ، رح خرمشهم أنت خرمشة بس . جماعــة صاروا بطرانين . »

يقول ثالث : « وكل النهار حديث عن المعركة ! » « اذا نحن قعدنا ساكتين، هم لا يقعدون . »

ويقول الملك وهو يهوي بقبضته النحيلة علــى زجــاج الطاولــة : أفيقوا يا أخــوة السبايــا . شوفوا الاسرائيليين لا يبلعوا الزرع والضرع . » يشعل سيجارة بيد معروقة ووجــه كظيم . يرشف بعض القهوة . يضع راحته علــى وجهه ويطرق . يتدفق الدخان من منخريه بقوة وكثافة وينسفح على زجــاج الطاولــة .

ويقول الأخ أبو العبسي : « حقيقة لا ينكرها أحــد : التشريع العمالي في في قطرنا ، أرقى تشريع عمالي في العالم . ضمانات قانونية ، وصحية ، ونسبة أرباح عالية زيادة على الاجر . لا يستطيع أي رب عمل أن يسرح أي عامل . »

ويعلق الاخ منصور مازحا : « سوى أننا لم نصرف شيئا من هذه الارباح ، وقد لا نصرف أبدا ٠٠ » يقول الاخ أبو العبسي : « ماذا تريد اذن ؟ » يقول امام : « أنا أستغرب حديثك عن التشريع العمالي في قطرنا ٠ صحيح أنه تشريع يحفظ كرامة العامل وحقوقه ، ومع التغاضي موقتا عن مسألة الارباح ولكن التشريع بذاته ليس اشتراكيا ٠٠ » تسري همهمة ولغط واحتجاجات ٠ يصمت إمـــام هادئا منتظرا ٠ وتصل أغلبية المجتمعين الى قرار غـير مباشر بادانــة رأيــه ، فترتاح خواطرهم ٠ يقول : « هذا التشريع قائم على أساس وجـود طرفـين ، عامل ورب عمل ٠ مهما كانت حقوق العمال محفوظـة ، يبقى هناك رب عمـل يملك أدوات الانتاج ، أو أداة الاستثمار بالاحرى ، الدكاكين والافران والمقاهي وأعمال البناء ٠ التشريع لم يلغ رب العمل كظاهـرة اقتصادية واجتماعية ٠ والعامل بحسب هـذه القوانين يكرس عامـلا وليس مالكـا ، حتى في المنشآت والمصانع المؤممة ٠ العامل عامل وبس ، لا يملك ٠ وانما هـو أجـير ٠ بقيت العلاقة البرجوازية قائمة ٠٠ بين العامل ورب العمل ، وبين العامل والحكومة ٠ وأنا لا أعرف أين الرقيّ في هذه العلاقة ٠ » يصمت الأغلبيون بحنق ٠ ويقول الاخ شبلي : « صحيح ، ولكن وضعنا في الوقت الحاضر أفضل بكثير من الوضع السابق ٠ » وتتعالى همهمة موافقة ٠ يتمطّى ، كـأن الاجتمـاع قـد وصل الى نهايته ٠ يفتح المذياع : « وتقول التقارير الواردة من جبهة القتال إن الثوار الفيتناميين الذين يحاصرون القاعدة العسكرية الاميركية داناتغ قد صاروا على مسافة ثلاثة كيلومترات منها ، وأن صواريخهم قد دمرت اليوم طائرتين جاثمتين على أرض المطار وأربع طائرات هيلوكوبتر ٠ كمـا دمرت عـددا من المنشآت العسكرية هناك ٠ »

وفي زمن ما يفيقون ٠ يفيقون على الدهشة والحـزن ٠ تتملئ أعينهـم

بالكلمات ، وأفئدتهم بالمرارة ، وأفواههم بالصمت · العدوّ ما يزال هناك ، على مسافة ما يدركونها ولا يدركونها · وبينه وبينهم نقاط حراسة ومخافر لا يستطيعون اجتيازها · يقول المذياع إن الحكمة تقتضي الانتظار ، فالذي يرونه من العدو ليس الحقل الاول المزروع ألغاما · يقول إن العدو الممتد طولا حتى واشنطن يتصيد خطأ استراتيجيا ليجعل منه كارثة تحل بهم · كلام صحيح ذلك الذي يقوله المذياع · وهم يصدقونه · في الصباح والمساء ، في الضحى والليل، في الفرن والمعمل والمطبعة والمدرسة ، في البيوت والحدائق والشوارع الحاشدة، في البطون الفارغة والمتخمة والعقول الغافية والمفيقة ـ هناك دائما المذياع ·

وفي زمن ما يفيقون · ونشرات الاخبار العربية كثيرة · ليس ثمة إحصائيات ، بالطبع ، لكن سليمان يعتقد أنها تقارب المئة يوميا · ثم تأتي التعليقات السياسية ، والافتتاحيات السياسية ، والخطابات السياسية ، والمؤتمرات السياسية ، والبيانات السياسية · ترنّ كلها على غشاء الطبلة ثم تنتشر أصداؤها بعد حين · صحيح أنهم يشاركون ، ولكن في الاستماع فقط · يعرفون ما حدث ، وان كان غيرهم يصنعه · يفهمون كيف تتحرك الأجهزة ، وتسافر الاسماء اللامعة · يشاهدون كيف تتضخم الأحرف على صفحات الجرائد وتختفي ، وكيف تتأرجح الابراج العالية · غير أنهم يتفرجون : لان لديهم بساطا مديدا من أوقات الفراغ · يتفرجون بأعينهم وآذانهم وأنوفهم ، على المهرجانات والطنين والفضائح · ودائما يبقون واثقين من أن أحدا لا يستطيع أن يبلغهم ـ الى الأبد ·

وينمى الى علمهم أن الحرب ستقع لا محالة هذه المرة ، وأن المسالة جدية لا مزح فيها · ثم يرتسم على وجوههم ذلك النوع الكهين من الابتسام الذي يقول ولا يقول · يناقشون النبأ كحقيقة وشيكة الوقوع ، يقلبونه ظهرا

لبطن ، تعلو نبرة أصواتهم ، يحتدم شعورهم ، يستغرقون في الاحتمالات ، يجعلون الاحتمالات أرقاماً والارقام حوادث ، يصيرون علماء في الجغرافيا العسكرية وخبراء في فنون القتال ، يتشعب الكلام وينسون موضوعهم • ثم يتذمر أبو إمام من ارتفاع سعر السكر ، من اختفائه وتهريبه • صار الآن يحسب حسابا لكاسة الشاي قبل أن يشربها ـ وبعد أن يشربها أيضا • يقولون إن الشاحنات تنطلق عبر الاراضي غير محتفلة بالحدود والمخافر وشرطة المكافحة • أحيانا تدور معارك طاحنة ، ويسقط قتلى • وأحيانا تتم تسوية بالتراضي من نوع ما • باختصار : ان دمشق الخالية تماما من السكر مليئة به •

يقول علي لأمية : « الحياة سلحفاة • تتقدم بطريقة مضجرة •• وتثير الرثاء : لان كل هذا الذي نتصارع لشأنه سيبتلعه الزمن ذات يوم • وسننظر حولنا متأسفين على الجهد الذي بذلناه لنصل الى أشياء بديهية ـ قيم وعلاقات انتاج •• لو تصورنا حالنا ، أنا وأنت، بعد خمسمئة سنة مثلا ، ستكون البشرية في تلك الايام اعتادت على أن الرجل والمرأة لا يمكن أن يكتفيا بعضهما ببعض، وأنه لابد من عشيق وعشيقة • سيكون الخبز والحب ملكية سهلة للجميع ، والحرية التي لا تؤذي أحدا وتحقق ذات الانسان • لن تكون هناك أسرار ولا خفايا ، وسنكون أنت وأنا قادرين على الذهاب أينما أردنا ، والزواج مسألة اختيارية وبس • سينتهي الارهاب • »

ترفع رأسها عن كتفه باعتذار : « طلع الضوء • »

يقبلها وينهض : « دائما نفترق عندما يطلع الضوء • »

ثم تجيء الانباء عن حادث ما حدث في اليونسان • يعرفون أن السياسيين المحنكين ، وبهلوانات السيرك الديمقراطي النيابي ، لم يعودوا يتفمون • تقول

لهم نشرات الاخبار ان الفوضى والتلاعب بمصالح الشعب قد بلغا حدا لم يعد السكوت عليه ممكنا • وتقول نشرات الاخبار ان أيدي غريبة قد تركت قفازاتها في مكان الحادث واختفت • وتقول أيضا ان ما حدث لم يكن مفاجأة كبيرة • وأيضا ان النظام والعمل الجدي سيشقان فورا طريقهما في حياة الشعب اليوناني العريق • وأيضا أن المئات قد اعتقلوا ، بمن فيهم الموسيقيون والفنانون والادباء • وأن الرشوة والتسيب السياسي والاداري سينتهيان مرة والى الأبد• باختصار : ان الكولونيلات قد ارتدوا ملابس مدنية فوق مسدساتهم ، ثم امتطوا الدبابات وتقدموا من قصور الدولة • ويلصق محمود وجه الترانزستور على أذنه ويقول : « يا مغيث • الله يجير اليونان من هالدوامة • »

قبيل الغروب تقول سليمى : « تصور ! انقلاب في اليونان ! »

يتمتم امام : « أين الغرابة ؟ تظنين أن اليونان محصنة بتعويذة ؟ » •

« لا • ولكن اليونان ! الحلف الاطلسي والديمقراطية الغربية وكل هذه الاشكال ! واليونان حليفة الاميركان ! لماذا العسكر ؟ » •

« عسكر اليونان ، يامعلمتي ، هم الاحتياطي الاخير • احتياطي نَفَسه متقطع ولكنه متجدد • لذلك يمكن الاعتماد عليه ريثما تترتب الامور هناك • بورجوازية اليونان توشك على الانهيار بسبب عجزها وتبعيتها المفضوحة • هناك خطر حقيقي على الاميركان من نمو حركة وطنية تربط مصالح اليونان بمصالح شعوب المنطقة المجاورة • لذلك جاء الاميركان بالعسكر • بالعسكريتاريا ، مثلما سماهم بعض الناس ، لانهم فئة متكونة ، قوية ، جاهزة للقمع وتتطلع للانتقال من بورجوازية صغيرة الى بورجوازية صحيحة ، ولكن غير ملتزمة بالحد الأدنى من مبادئ الديمقراطية الغربية • وهكذا يتم ضرب الحركة الوطنية في

اليونان عن طريق العنف المباشر ، أو عن طريق انتحال شعاراتها • لا نعلم • سنرى ما سيجري في اليونان • »

وتكون عبارة إمام الرصينة أضخم اهتمام ممكن ببلاد العم أرسطو• انقلاب عسكري ، هذا كل ما في الامر • سيتسلى الناس بحديث الاعتقالات والصمت دون أن تخطر لهم المقارنة بين الاسكندر الكبير والكولونيل بابادوبولوس • وسوف يتفرجون على كركوز وعيواظ الى أن تشرق شمس انقلاب عسكري جديد • ثم تغيب اليونان عن نشرات الاخبار ، وتتوارى الى إحدى زوايا الذاكرة البهمة • وتطفو فيتنام ، وتغوص وتطفو ، بحسب شطارة شعبها • وفي الاقاويل المتكاثرة عن الحرب المقبلة ، يحلو لهم أن يصوروا البلاد وقد صارت فيتنام ثانية • لا يعرفون بالضبط كيف جاءهم مثل هذا التصوّر ، ولا يتساءلون • ففي تلك البلاد الواقعة عند مشرق الشمس ، يضرب العم سام على قفاه • وفي هذه البلاد الواقعة عند الظهيرة ، يمكن أن يضرب العم سام على قفاه • هناك يموت العشرات كل يوم دفاعا عن حريتهم ووطنهم ، وهنا يمكن أن يموت أكثر من ذلك • هناك يحمل الناس البارودة بيد والمعول بيد ، وهنا يهيئون أنفسهم لمثل هذه الازدواجية • أمور مسلّم بها • والسياسات تؤكدها • حتى أبو إمام يقول : « نحن من بني آدم ، وهم من بني آدم • مثلنا مثلهم • وأكيد أنهم يشتكون من فقدان السكّر مثلنا • »

وشيش بيش يحاور أسمي : « أنت تفتقرين الى حس بالماضي •• »

فتقاطعه : « أوه ! كم عندي ! انما هو حسّ اشمئزاز • ما هو الماضي ؟ في حياتنا هنا ؟ •• »

فيقاطعها : « الناس تعبوا آلاف السنين لتقوم مؤسسة الأسرة ، وأنت تعتبرينها صفرا على الشمال •• »

فتقاطعه : « مؤسسة الاسرة العظيمة هذه ·· في بلادنا ·· تعود الى ما قبل التاريخ ·· الاسرة تقوم لأن المرأة عبدة حقيرة ·· »

فيقاطعها : « يا إلّهي ! أنت تتكلمين عن عالم آخر · أنا لست من هـذا النوع · أنا أتزوج لأني أحتاج ·· »

فتقاطعه : « هها ! يحتاج ، قال ! أنت تتزوج لأنـك تريد أن تتأكـد أن المرأة لك ، ملكك · »

« أنت انسانة ، عندك أفكار موتورة تشوش عواطفك الطبيعية · »

عندئذ يصمتان ، هي محدقة اليه وهو مطرق بعناء · يجمجم وكأنه يخاطب شخصا آخر : « أين الخطأ في أن تكون المرأة لي وأكون لها ؟ أريد أن أتزوجك لأن حبي لك أعاد الي الحياة · صرت أشعر بطعم للأيام ، هو طعم شفتيك · صارت حواسي مستيقظة على أمور ·· كنت من قبل أعلـق عليهـا بسخرية · عندما سمعت أن الاسرائيليين دمروا قرية السموع ، تذكرتك فورا · تمنيت أنك بين يدي · »

تثب اليه وتطوق كتفيه بزنديها وتقبله · « أظن أني أحبك ، لعنة الله علي ، » تقول له ووجهها ينفرك بياقـة قميصه · « لكـن ·· تصور اني أنـا الدكتورة وأنت الطالب في الجامعة · كنت تسمي هذا زواجا ؟ »

يجد نفسه عاجزا عن رفع يديه وتطويق هذا الجسد الذي أخرج روحه من سباتها · يقول : « لكن ·· حتى في المجتمعات الاشتراكية ، الناس يتزوجون · »

ترتد عنه وتجلس الى جانبه : « اي · تلك مجتمعات اشتراكية · هنـاك لكل انسان شخصيته ، رجل أو امرأة · هنالك لا توجد أنماط · يوجد أفراد

متحققون تجمعهم بيئة جديدة مشتركة • الأزواج ، بينهم تكافؤ اقتصادي • هنا ، مجتمع اقطاعي برجوازي يجب تغييره أولا • »

مرة أخرى يجمجم وكأنه يخاطب شخصا ثالثا : « لماذا نختلف الى هذه الدرجة ؟ » •

وتجيبه بتقريرية مثيرة : « لأنك أنت حققت ذاتك وصرت برجوازيا • أنا أريد أن أحقق ذاتي وأظل بروليتاريا • ولا تنس : نحن من جيلين مختلفين فعلا ، وليس فقط من طبقتين مختلفتين • في هذه الايام ، خمس سنين تعادل ثلاثين • »

تعلن نشرات الاخبار أن مجموعة ممن يسمون أنفسهم فدائيين أغاروا على نادٍ لضباط اسرائيل فنفذوا حكم الموت في ستة وجرحوا ضعفي العدد • عندئذ يتم التطابق وتنتفي الالتباسات• ثم تجيء التفاصيل من خارج الراديو ووكالات الانباء : كانوا أربعة ـ أحدهم وقف عند المدخل وتصنع الانتظار المتسكع ـ دخل الثلاثة متحدثين الى الحارس بالعبرية ـ توزع اثنان منهم في مكانين مشرفين وهيئا رشاشيهما ـ توجه الثالث الى منصة الرقص والغناء ووقف أمام مجهر الصوت متكئا على رشاشه ـ كانت الاوامر بالعبرية قد صدرت من الاثنين الآخرين بأن أية حركة تعني الموت ـ وقال الرابع فيما قال ، مخاطبا جمهوره: لقد اغتصبتم أرضنا وشردتم شعبنا وفرضتم علينا تحدي الموت أو القتال ، ونحن قبلنا التحدي • ما حدث بعد ذلك يسهل تصوره ، وان كان فيه طعم لا يستمرئه دائما عقل الانسان •

هؤلاء هم الفتية المغرورون ـ يهتف الملك ـ الذين ركبوا المحيط الاطلسي يوم كان بحرا للظلمات ، وسافروا في الخطر والمجهول • كانت روح عروة بن

الورد فيهم وقلب موسى بن نصير ، وكان العالم ميدانا يمطرون عليه حبات رمل أخصبتها كيمياء النفس البشرية • موجز القول : ان مأساة الانسان في هـــذا العصر هي انهيار كل مطلق صنعته البشرية • والمطلق لعبة جميلـة ، نقطـة ارتكاز ، مقدرة فذة على الاستمرار ، علو فوق جدران الحياة اليومية ، مناعة ضد السقوط في المجد والملكية • هو نوع من الايمان يمنح شعورا بالامن ليس فقط أمام عيون الدولة ، وانما أمام الكوارث الاخرى كلها • وهؤلاء الاربعة الذين تقدموا من الموت ، تقدموا من المطلق • هكذا النفوس الكبار • عندمـا تغدو الحياة صغيرة يكون وداعها ولادة • هؤلاء عانقوا مطلقهم بالموت ، أمـا هـو ، صاحب الجلالة ، فيعانق الموت بالحياة الصغيرة •

يشعر في تلك اللحظة أنـه فعلا صغـير ولا يساوي شيئا • لقد كبر قليلا بفناء الاربعة ، سوى أن فرقا صغيرا يبقى هناك بينه وبينهـم • لكـي يتخـذ الانسان قرارا في هذه البلاد ، وخاصة قرارا بالموت ، لابـد وأن يكون قـد تشكل على نحو ما • لابد وأن تكون الحياة قد اكتسبت معنى يستطيع أن يوجه تصرفاته ومواقفه حتى ولو كان فيها خسارة عظمى • أو أنها حفرت في ضميره وعلاقاته بالعالم مجرى لا سبيل الى الارتـداد عنه • والملك يعرف أن التشكل والمعنى والمجرى مجرد ألفاظ ـ كلام ـ سديم • وليس في هذه البلاد من يضاين حتى النهاية • أصحاب القضية يصاحبونها حتى تصير صحبتها خسارة • ثـم يستقيلون ، أو يشتمون ، أو ينصرفون الى ملايينهم المستحية •

ينتهي محمود من رواية النبأ بالقول : « اذاعة لندن ذكرت أن (الارهابيين) الاربعة قتلوا • » عندها ترفع أم خلف ذقنها عن عصا المسحة وتبتسم ابتسامة سعيدة دامعة • لقد أخبرها محمود من قبل عن أعمال الفدائيين • وتصورتهـم كيف تسللوا في الليل البهيم فقطعوا الطرق علـى سيارات العدو وفجروهـا ،

وكيف أوقعوا دورية معادية في كمين فأرسلوها الى بارئها ، وكيف دمروا مصنعا حربيا ورموا مستوطنة بالصواريخ ونسفوا سكة حديد أو قطارا . وفي كل مرة من هذه المرات القليلة كانت الخبرية تضيء في خاطرها قنديلا عتيقا ثم تتوارى الى احدى زوايا الذاكرة النافلة . وتسأل نفسها ، ترى ، هل تعود يوما .

وترى الآن أمامها صورة جديدة . الارض التي سقاهـا أبو خلف بدمـه صارت مع الزمن شاشة داكنة . التلال الخضراء والسهول النضارية ، الينابيع ونهر الاردن ــ وكلها كان ملعبا للصبا وحبة قلب ــ ابتعـدت رويدا رويدا ، أوغلت في البعد والعتمة ، لكنها لم تتركها . وهاهو الدم يضيئها من جديد . الصورة ليست لنادي الضباط الاسرائيلي ولا لحادث الموت . انها مزيج متضارب من وجوه شرسة وأزهار برية ، تتلامح وتتداخل وجها بعد زهرة ، ووجها في زهرة ، ودفقة من نجيع ، ولهبا منتشرا .

قرية السموع ونادي الضباط : سفر قديم وسفر جديد . يتساءل إمام : « نحن نائمون أم مفيقون ؟ » ويمد لسليمى شريحة بصل فترفضها . « اذا لـم تأكلي فرمة بصل ، كيف أبوسك يامعلمتي ؟ »

« أنا بنت مهذبة ، ولكن اذا كان بودك بوسة ، أتساهل معك . »

يقول محمود : « كيف يعني ، أستاذ إمام ، نائمون ومفيقون ؟ »

« من عشرين سنة ، أرضنا محتلة وعزيمتنا فائرة لتحريرها ، ولم نطلق رصاصة واحدة بهذه الطريقة ، واذا قامت الحرب ، سنأكلها ضربة للعمى . »

« هات بصلة أيها السيد الاشتراكي . »

« فعلا . ومع ذلك أقول لبناتي كل يوم نحن العرب مثل فيتنام . »

« هذا كلام جرائد . نحن غير مستعدّين . أي حرب تعني هجمة أمبريالية جديدة موفقة . »

« لكن حادثة نادي الضباط ليست كلام جرائد . »

« في فيتنام طبقة كادحة تقاتل . شعب تخلص من آفات تخلفه . »

« ما معنى الحديث عن الحرب اذن ؟ الجميع يقولون ، الحرب قريبة . »

« اذا قررت اسرائيل الحرب يكون هناك حرب . من عشرين سنة واسرائيل هي التي تحاربنا ، ونحن نقول ، غدا نحاربها . »

« خذ بقية البصلة معلمي . أنا اكتفيت . »

« اسرائيل حاشدة نصف جيشها على حدود سورية . »

« حكي .. كله حكي . المهم ألا يختفي البصل اذا قامت الحرب . »

« ولا الرجـال . »

« ولا الراديو والجرائـد . »

« أطلب لكم قهوة على حسابي ؟ »

« عظيم ! للمعلمات أيضا دور في المعركة . »

ويقول المذيـاع ان الرئيس جونسون وليفي اشكـول استقبلا الصحفيين وسط خمائل حديقة البيت الابيض ، وكان وجهاهما مشمشمين بالابتسامات والرضى . ويقول انهما ردا على الاسئلة بأجوبة تفوقها غموضا . وكان آخر ما قاله رئيس الوزراء الاسرائيلي إنه يشعر بالاطمئنان فالاسطول السادس هناك (ويعني قرب الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط) .

ويقول المذياع إن الرئيس عبد الناصر أرسل كوكبة من جنده فتمركزت عند حلق خليج العقبة في شرم الشيخ مستعيدة بذلك أرضا مصرية، وأن الاسطول السادس يتحرك شرقا الى وجهة غير معروفة · ويقول ان أسطورة اسرئيلية، اسمها موشي دايان، قد حملتها المظاهرات الى وزارة الدفاع · وأن المسئولين الاميركيين، وكذلك البريطانيين، ينصحون بضبط النفس بغية حل الأزمة بالطرق الدبلوماسية · وأن الاتحاد السوفييتي حذر اسرائيل من مغبة العدوان على العرب · وأن الجنرال ديغول أعلن أن بلاده ستقف ضد من يبدأ الحرب · وأن الدول الاسلامية والثالثية ستقف الى جانب العرب ··

يصيبهم الارتباك والحيرة والتوقع والخوف · لقد قال المذياع أكثر مما بوسعهم ابتلاعه · يبدو لهم أن عيون العالم قد تحولت اليهم منتظرة حدوث أمر رهيب ـ هم الدراويش الذين يحبون شيئا من البهار في طعامهم وقليلا من الهيل في قهوتهم · يشعرون ببعض الخيـــلاء : إن لهم أهميتهم، رغم كل شيء، وحضورهم · يرون الى ذلك الجزء من وطنهم، الذي غاب عن العين واليد منذ عشرين عاما، كحبيب أحس فجأة أنه قاب قوسين أو أدنى من لقاء حبيبته المفقودة · تمتلكهم رهبة ويستبد بهم شوق · ذلك الجزء كان بعض جسدهم، ومكانه ما يزال فجوة في الخاصرة اعتادوا عليها ولم يقبلوها · على نحو مـــا سيعود الآن ويملأ ذلك الفراغ · لا يعرفون كيف سيحدث ذلك الالتحام، ليست لديهم فكرة · أمر رهيب سيحدث · ربما في الليل الداجي · أو في غفلة قصيرة · ثم ينجلي عن شمس الحق الساطعة · ماذا سيحل بالعرب ؟ ماذا سيحل باليهود ؟ ذلك كله متروك لأيام ما بعد الحرب · المهم الآن أن حقا قد اغتصب سيستعاد في ميدان القتال ·

ويخرج عباس من وزارة الدفاع حاملا كتابه بيمينه · يمتطي سيارته الى

البيت صامتا حازما • هناك يرمي ثيابه المدنية على أرض الغرفة ، ويرتدي ثيابه العسكرية • بين لهفة عائدة المتوجسة ونظرات أمية الهادئة المحببة ، ينتقل من غرفة الى أخرى لغير ما سبب مؤكد • يمشي بخطوات قوية وعيناه تتفحصان محتويات البيت المألوفة • أخيرا يتناول عدة الحلاقة وثيابا داخلية فيضعها في حقيبة صغيرة • « أنا نائم اليوم في الوحدة • وصباحا نروح الى الجبهة • » ودون أن ينظر الى أحد على التعيين يشعل سيجارة ويجلس على كنبة • لأمر ما تجلس السيدتان ، صامتتين وتنتظران ما لا تعرفان ماذا • يبقى علي واقفا ، ويداه في جيبي بنطاله • الثلاثة ينظرون الى الوجه الذي صار الآن مقطبا ومستغرقا في تفكير عميق • تطرق عائدة وتطلق زفرة حرّى • عباس وحده يفهم أنها زفرة احتجاج وغضب صامت : أهي صفر على الشمال في البيت كي يطلب اعادته الى الجيش دون استشارتها ؟ وماذا لو قامت الحرب فعلا ؟ يقول علي : « لا يعجبني هذا الصمت • » ويحس عباس أن الكلمات تعني سؤالا عما يفكر به • يقول : « كلها مظاهر - عبد الناصر لا يريد الحرب ، اذا أردت الحقيقة • » ويضيف بعد صمت قصير : « هذه فرصة تاريخية • جونسون أعلن أن أميركا ستكرس جهودها في الحقل الدبلوماسي فقط • هذا يعني أننا نحن واسرائيل وحدنا في الميدان • فرصة ذهبية • » تسأل أمية : « تصدقون جونسون ؟ أخي إمام يقول ، أميركا يستحيل أنها لا تتدخل • وأن الحرب مخطط لها في واشنطون • » يقول عباس وهو يطفيء سيجارته : « اذا بقيت أميركا على الحياد ثلاثة أيام •• تحسم القضية • لكن عبد الناصر لا يريد الحرب • وأعتقد أنه غير واثق من النصر ، حتى • الازمة كلها استعراضات • »

عند العصر تذهب سليمى الى صالون المزينة • تستقبلها الاختان العاملتان بودّ حار وزخّة من كلمات العتاب • تجلس على الكرسي ، وتأتيها صبا بأدوات

التزيين • تتابع الزبونة المجاورة حديثا انقطع موقتا ، فتراها سليمى للمرة الاولى • تحاول أن تتبين ألوانها الاصلية فلا تستطيع : الشعر أشقر وفضي وخرنوبي ، والاصباغ سميكة كأنها طبقة من سماد •

تقول السيدة إنها منذ يومين اشترت أربعة جزادين صيفية بألفي ليرة ، وفي الاسبوع الفائت اشترت ثلاثة تايورات من لون البيج والبترولي والعصفري• ولانه لم يعد ممكنا لبس الثياب بدون اكسسوار ، فقد اشترت أطواقا وأساور وبروشات بخمسة آلاف • « تعرفين أنها مثل الكحلة على الرموش •• بدونها تظهر الواحدة مثل الفلاحات • »

تعلن صبا بنوع من المجاملة : « الاسعار صارت فاحشة ، يا لطيف اللطف •» لكن السيدة تعرض عن التعليق بترفع مشمئز : من يتكلم في الاسعار ؟ وتقول صبا مدارية الموقف : « مؤكد أن زوجك اشتراها من باريز • » وتهز السيدة رأسها بالنفي ، وقد ازدادت ضيقا • لماذا باريز وأسواق دمشق أقرب ؟ الرحلة الى باريز تكون للاستمتاع بالثقافة والحضارة ، وخاصة المطرب جوني موليدي • السيارة ، التي كلفت مئة وخمسة وأربعين ألفا ، تقلهم الى هناك : يوم في تركيا ، ومن هناك على اليد الشمال الى اليونان ، فيوغسلافيا وايطاليا ، ثم سويسرا وفرنسا • رحلتان في السنة للشتاء والصيف •

وتنهض فتتأمل شعرها مليا وتتحسسه ببنانها الرخص • قبيل مغادرتها تكرر دعوتها للاختين أن تزوراها لتريهما جدران غرفتها المطلية بالذهب •

من زاوية غير ملحوظة تنهض غادة وتحل محلها • تقول لصبا : « لو تعرفين أصلها وفصلها ؟ » وغادة هي التي تعرف • حوادث من نوع زواج ابن العائلة من خدامة البيت لا يمكن أن تنسى بسهولة • وهذه المتبجحة تنسى أن أمها

كانت تلك الخدامة • ولكن غادة لا تود أن تسرف في الحديث • انها تشكر الله • تبوس يدها وجها وقفا وتشكر الله •

تهتف صبا : « يا سلام عليك يا مدام غادة • هكذا الاصل • »

عندئذ تقرر سليمي أن تسريحتها قد انتهت ، وتودع الحاضرين بأدب جم •

في الصباح التالي تمضي الى مركز مراقبة الامتحانات • ويدخل علي الى قاعة الامتحان في مدرسة أخرى • هناك يتفحص وجوه الطلاب الربداء وساعته البطيئة • وقت تافه وقتيل ، لا شيء يصنع فيه • ان تسأل ما هو الشغل الاغلظ على القلب ، يكن جوابه : مراقبة الامتحانات ـ في المدرسة وخارجها •

ويدرج سليمان الى حانوته • لسبب ما يغير اليوم خط سيره ، ويتجه الى ساحة الشعلان • هناك يلتقي بالمشهد المألوف : عربات نضدت عليها حبات المشمش والخوخ الاخضر والدراق والاكدنيا والتفاح ، والى جانبها البقدونس والنعناع والفجل والبصل الاخضر والفليفلة والهندباء والطرخون والباقلاء والفول والبامياء والفاصولياء • يقول لنفسه : يا لهذه البلاد الخصيبة الحافلة بما لذ وطاب من ثمر وخضار وبقول • ويقرر شراء كيلو كامل من المشمش • يتهيأ للمماحكة مع البائع • يحاول انتقاء الحبات ، فيمنعه الرجل الواقف قربها كهرّ حذر • بسرعة يدرك الاثنان أن الكلام لن يجدي • بسرعة أيضا تمتد الايدي الى الحبات ـ اثنتان منها تنتقيان الكبيرة ، واثنتان تنتقيان الصغيرة • يمتلئ كيس الورق وتهوي به كفة الميزان فيتوقفان •

على مسافة مترين منهما يتكرر الصراع بين أم خلف وأم إمام وبين بائع البامياء • لقد قيل لهما إن الخضار في ساحة الشعلان أرخص ثمنا وعودا ، فقصدتا اليهـا مبكرتين • لكن خيبتهما كانت مزدوجة • ويقول البـائع :

« ما حليتي يا خانم ؟ الله الوكيل ، أفيق الصبح من شقة الضوء ، وأنزل الى الضيعة · اذا كانت الاسعار في الضيعة ذاتها تطير العقل ·· نحن نشتري ونبيع ·· » وتسأله أم خلف : « ما عندك أرض خاصتك ، يا ابني ؟ » فيهز رأسه ويطلق من منخريه دفقة هواء · تختطف أم إمام كيسي الورق المليئين وتهتف : « يا الله يا فاطمة ، نشتري اللحمة ونرجع للبيت · »

وفي مكان آخر من المدينة ، يباعد محمود ما بين ساقيه ويفرغ زجاجة الحليب في جوفه · يكشر أبو نصوح عن أسنانه البيضاء ، ويزيل غطاء الزجاجة· أخيرا استطاع محمود وأبو فاروق اقناعه بشرب الحليب · يراقبانه وهو يفتح فمه أمام الحليب الدافق ، مزدردا بعضه ومفلتا البعض الآخر على وجهه المبثور · يتوقف عن الشرب ويمسح وجهه ، ثم يولج فم الزجاجة في فمه · يضحك رفيقاه ويصرخان ، لكنه لا يحفل بهما · يتناول محمود بيضته المسلوقة وينتظر · يقول لأبي نصوح ، وقد فرغت زجاجته : « هات لأشوف ، أين بيضتك ؟ من يكسر بيضة الثاني يربحها · » يقول أبو نصوح : « أنت اضرب بيضتي · » ويطبق عليها بأصابعه وراحة يده · تنكسر بيضة محمود ، فيصيح صاحبه : « غشاش ! لم تضرب الرأس بالرأس · أنا فهمان عليك · كل حصتك ، أخي ، وأنا آكل حصتي · »

وفي هذا الصباح يستيقظ الرئيس جونسون باكرا ·

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة ينمى الى علم علي أن الامتحان قد تأجل · عندئذ يفرك راحتيه جذلا ويهرع الى المدير · على وجه الرجل الصغير يشاهد امارات اضطراب بليغ يتفاقم بين الرعب والنشوة · تلتقي الاعين في نظرة صمت جامح ، وينبس المدير بهدوء : « قامت الحرب · »

الاغتسال من خطيئة ما ، لم يرتكباها ولكن لحقت بهما ٠

وكان يا ما كان أن قامت الحرب ٠

في ذلك الصباح تغير كنه دمشق ٠ انسل الى الشوارع شبح مخيف أبيض ضوأته شمس حزيران الساطعة ٠ المدينة القريرة الرصينة ، خرجت من نوم اليقظة لتلج يقظة الذهول ٠ بعد عشرين عاما تنهض عن صدرها كتلة قهر لم يستطع المذياع أن يزيحها ولا الامل ٠ لوهلة توقفت الايدي عن الطباعة وفرز الخضار كي تفتح باب الجسد للفرح المقهور أن يدخل ـ كي تفتح الراديو على أنباء الطائرات الاسرائيلية المتساقطة ، وجيش الاردن المندفع الى جبل سكوبس ٠

في البيت الطيني الناضح قيظا تجثم أم إمام وأم خلف حول صينية الباميا وقد توقفت أيديهما عن العمل أو كادت ٠ صامتتين متوترتين ، تنصتان الى الاخبار والموسيقى العسكرية من محطتي دمشق والقاهرة ٠ ينسحب على بث القاهرة صوت كوشيش البحر ، فتلتقط أم إمام مذياعها وتضعه على أذنها ٠ يقطب حاجباها وتجمد خلجات وجهها ٠ اليها تنظر أم خلف ، ينتهي الوشيش ، فتنزل يدها بالجهاز : « كلمات حماسية ٠ الاخبار بعد شوية ٠ » تتناول أم خلف السكين من جديد ، وتدير شفارها حول رأس قرن الباميا : « البطاريات تعبانة ، » تقول مواسية أم إمام : « صناعة بلادنا ، هات يدك والحقني ٠ » « لا ٠ هذا تشويش من العدو ٠ هذا جزء من الحرب ٠ على أيامنا ، كانت الحرب ضرب سيوف ، بارودة عتيقة وخرطوشات رطبة ٠ هالايام ، طيارات ، ورادارات ٠٠ اسمعي ! »

لا تأتيهما نشرة الاخبار بجديد ٠ وتعلن أم خلف أن الوقت ما يزال باكرا ،

فلم يحدث أن ربحت بيوم واحد ـ هذا مستحيل • تهز أم إمام رأسها بهدوء لتؤكد صواب ما قالته صديقتها • وتنصرف الاثنتان ببطء وصمت مفاجئ، الى عملهما ، فيما الاناشيد الحربية تتالى من المذياعين • ينأى بهما البال الى تلك الربوع ـ الى الشوارع الضيقة والبيوت العتيقة حول تدويرة الميناء ، والى رابية ليست شيئا يذكر حتى على الخرائط المجسمة • الى ذلك المكان ، الآخر ، المختلف ، البعيد • تتوغل في رأسيهما الذكريات وتشخص أعينهما الى الصينية فلا تحس بها • وتغدو حركة الايدي آلية رخوة • بعد عشرين عاما يحين وقت العودة • فجأة ينبس صوت أم إمام وكأنه قادم من وراء ستار : « كيف يا ترى صارت حينا ؟•• كيف نترك دمشق ، ونرجع ؟ » لكن أم خلف لا تجيب • تسمعها ؛ تنظر اليها كأنها لم تسمع • أجل : دمشق • لو أنها عاشت في نابلس ، لكانت العودة الى الجليل حتمية أيضا • وكم تبعد دمشق ؟ رمية حجر • ولماذا هذا الحزن ؟ تحس كأنه يتسلل من جسمها ويخرج ، ولكن ليس قبل أن يرمي ظلا على خاطرها • « أنت حزينة ، يا فاطمة ؟ » تسألها صديقتها ، ثم تضيف بصوت خافت ، كأنها تفسر حزنها : « مات لنا ناس كثير • » عندئذ تنشم أم خلف ، وبسرعة تتناول منديلها فتنف : « والله لا أعرف ، هو حزن ؟ هو فرح ؟ حزن ، بس غير شكل عن الحزن • بعد كل هالغيبة • ترى هل نعود ؟ »

تدلف اليهما الحاجة كاترين ، وتحيي بصوت متهدج : « لقيت باب الزقاق على حاله مثل كل يوم • لكن اليوم غير كل يوم • قلت أدخل وأشوف أم إمام ، الاخبار عندها • »

تنهض أم إمام بحيوية ، وتقدم للحاجة كرسيا مخلعا : « تفضلي ، حاجة • يا عيب الشؤم منك •• »

تقاطعها الحاجة : « لا والمسيح • أقعد معكن وأشتغل شغلكن • »

ولا تنتظر • تتخذ مجلسها بين المرآتين وتمسك بالسكين • وفي اللحظات التي تمضيها أم إمام سعيا وراء سكين ثالثة ، يغطي الصمت حوار النسوة الثلاث ، كل مع نفسها : ها هي الحرب أخيرا ؛ واذا كانت مساحتها أوسع من مدى المدفع وعلو الطائرة ، فهي قد وصلت الى هذا البساط والضمائر العتيقة •

تسأل الحاجة عن إمام ـ الصليب يحرسه : هل قال شيئا عن الحرب • ويأتي الجواب ملتويا : إمام غير راض عن هذه الحرب • يعتقد أنها فخ • خطة فظيعة لضرب العرب • كيف يقول ذلك وهو الشاب الفهيم ؟ محمود متحمس للحرب • وكذلك ميخائيل : « يا ستي طلعوها اشاعة ومشوها علينا ـ انه العرب رجال بالحكي بس • الله يرحمه ويرحم موتانا أجمعين ، أبو مخائيل طلع مع جيش الانقاذ وما معه غير البارودة • معلومك سنة الـ ٤٨ كانت الحرب تدور بالعصي • بس أبو مخائيل وصل للقدس • وانضم لجماعة الشهيد عبد القادر الحسيني • اذا صار حكي عن الحرب ، خليهم يحكوا عن عبد القادر وأبو مخائيل • كيف وقفوا ، كمشة رجال ، وكل فترة الحرب وقفوا بوجه الصهاينة ، الصهاينة كانوا هاجمين بودّهم القدس ، وعبد القادر وجماعته بوجههم مثل الصخر • ووقفوا ووقفوا ، وما قدر الصهاينة يأخذوا اصبع من القدس • تقولين لي الجيوش العربية ؟ قالوا بالراديو انه الحرب مشوار ـ وصحيح مشوار : ما راحوا ليحاربوا ؛ راحوا ليقولوا حاربنا • بس عبد القادر وجماعته وأبو مخائيل حاربوا • لو بس أعطوهم بواريد • »

تدخل الحاجة أم مصطفى ويداها على بطنها • تحييهن بصوت لا يتناسب مع نحولة جسدها • وقبل أن تنهض اليها أم إمام لتقدم الكرسي ، تجلس الى جانب أم ميخائيل ، وتتناول السكين • « حلفت بالله ، خالتي أم مصطفى • أنت

اقعدي مرتاحة ، » تهتف المضيفة الباسلة • ترنو اليها أم مصطفى بعينين خلت أجفانهما من الاهداب ، ولا تأبه لها : « كنت أقطع البامية قبل ما عينك تشوف الدنيا ؟ » يقول صوتها الاجش : « على كل حال الملقط والمراية معي • طلعت لي شعرة جوا الجفن اليمين ، ولازم أنتفها • معلومك الشعر الجواني يضرب على المقلة مثل الابرة • اي• كان حديثكن عن الحرب ؟ اسألوني أنا عن الحرب• قبل خمسين سنة علقت بين العرب والعثمنلية ، يابنتي • الله كتب على هالبلاد أنها على طول تحارب • وكان أبو مصطفى وأخـي أبو حسين ، الله يرحمهم ويرحم موتاكن ، مع الرجال وقت طلعوا يلاقوا لجيش الامير فيصل • فيصل الله يرحمه ، جاء من مكة الشريفة ، وصار ملك العراق بعد كم سنة • وكان بوده يوحد العرب ، بس الحلفاء ما خلوه ، الانكليز والفرنساوية ، ولاقـوا لـه ، ومشوا معه حتى كش العثمنلية من كـل سورية ، ووقتها كانت سورية سورية وكانوا يسمونها الشام ، غير شكل عن هالايام ، ما بقي غير ربعها ، وسنة ١٩٢٠ طلع أبو مصطفى مع يوسف بيك العظمة ، أبو حسين كان أعطاك عمره ، طلعوا لميسلون ، وحاربوا جيش الفرنساوية وضربتهم الطائرات ، واستشهد يوسف بيك ، الله يرحمه ، وحاربوا بالثورة السوريـة الكبرى ، وثورة الفلاحين بعد عشر سنين ، ومع جيش الانقاذ بعد عشر سنين ثانيات • اسألـي أبو مصطفى يحكي لك ، بس ، الله ياخذ بيده ، ما عاد يحكي مثل أيام زمان ، ولا يسمع ولا يشوف • بس ذاكرته قوية ، خزاة العين • أحسن من المسجّلة • »

عند ذلك ترى أم إمام أنها مضطرة لإيجاز الأنبـاء المفرحـة • فالطائرات المعادية تسقط ، والدبابات تحترق ، والجيش العربي يتقدم • يفوتها أن ترحب بالنسوة اللواتي قدمن أثناء حديث أم مصطفى • ولا ترى في الأمر شططا • انها الحرب ، ولا ينبغي للقلوب المؤتلفة أن تتباعد كي تتبادل التحية •

تقول امرأة : « الله ، الله ، ياأم خلف · فكرك مشنول · »

« والله ياست أم نبيل ، بودّي أعزمكن لضيعتي بالجليل ، صوب صفد · »

تهتف أم امام : « لا والله أنا بودّي أعزمكن · حيفا فيها بحر ، ولازم أم مصطفى تسبح في بحر فلسطين · »

تتعالى ضحكاتهن بطبقات مختلفة وجرس واحد : جرس الحلم الخائف الذي أردن قبوله كحقيقة وشيكة · تصيح أم مصطفى بجدية : « لا يابنتي · نصل للبحر وبس · أنا أغرق في شبر مية · مية البحر أصعب من الشعر الجواني عالعين · نصل ، وأمد رجلي في البحر ، وبس · لأقول : وصلنا لبحر حيفا · »

يتعالى الضحك من جديد · وتتساءل احداهن : « أم خلف ، ياترى ، تترك الشام بعد هالعمر ؟ » ·

تقول أم خلف : « آ ، والله ، ياأم منصور · يمكن أنـي أشتاق للشـام ، وأجيء أزورها ، بعد ما ضيعتنا يعمرها رجالنا ،وكل واحد يسكن في بيته · »

تقول احداهن : « رجلنا على رجلك ، يا أم خلف · وأنت يا أم إمام· نزور الارض معكن ونقعد بضيافتكن سبعة أيام·» تقول المرأتان الفلسطينيتان بصوت واحد : « ألف أهلا وسهلا · » وتتابع أم إمام : « والشرط أني أطعمكن بامية في حيفـا · »

في الليل يتعانق علي وأمية جامحين ساكنين · تلتصق القامة بالقامـة ، وتنفرش الاصابع والذراعات · لا صوت - لا نأمة · حتى شهوة اللحم تعرى من تلك اللهفة المضنية التي تغرق في لجتها الحنان والشفافية · هذه المرة لا يشعران أنهما يسرقان شيئا ، ولا يقلقهما خوف مستتر من أن يفاجآ في وكر فرحهمـا الغامق · ينتصبان ، وكأنهما تحت شلال من الضوء السائل يهمي عليهما ثـم

يتغلغل في الأنسجة • وتعبر وهلة يغادرهما فيها الاحساس بجسديهما والمكان الذي احتواهما • يهيمن عليهما حنين رقراق وغامض وهادئ ، يشيلهما الى فسحة كانت من قبل ملكا للخيال واذا هي الآن ميدان للشعور : ان هناك فرحا أكبر ، كنها خاصا اسمه الوطن ، وهما الآن يضمانه بجسديهما • والشعور يلد شعورا ويغتلي ، فيزداد العاشقان التصاقا ، أو يحاولان : المسافة بينهما انتفت وهما يريدان مزيدا من اللقاء •

وتلك ليست المرة الاولى التي يتسع فيها الجسد الى مدى النفس • مزيد من اللقاء يدفع أمية الى الحركة • « هرستني ، » تقول له ، وترمي جبينها على نحره فتتحلل من طوقه • « نحن مثل حمامتين زاجلتين ، » يقول لها ، « تتجهان الى عشهما الممنوع • هل ستنتهي الحرب ونشعر أن أمور حياتنا عادت الى مجاريها الطبيعية ؟ » •

يسحبها برفق الى الديوان • يجلس ، وترتمي الى جانبه مطوقة عنقه بذراعها ومسترخية على جانبه الايسر • يقول : « لو تنشب حرب من هذاالنوع بين الانسان وذاته • » تبتسم وتفرك وجهها بصدره : « من يا ترى سينتصر ؟ » يقول : « تضحكين علي لأني بدأت أتفلسف • » يمد يده الى أذنها فيشدها ، وترفع وجهها الى وجهه فتقبله • لكنها لا تستطيع منعه من التفلسف ، ولا تتابع• يقول : « يجب أن تقوم الحرب على جميع الجبهات • بين العرب وأعدائهم ، وبين العرب والعرب ، وبين العربي وذاته • كيف تمكّن إنسان مثل عمر بن الخطاب أن يصنع دولة ، لولا هذه الحرب التي كانت تدور في داخله ؟ » •

عناوين جريدة محلية :

تصميم كامل على خوض المعركة حتى النصر (مانشيت أحمر) •

العصابات بدأت العدوان على المتحدة •• فانقضّت الجيوش العربية لتنهي أسطورة اسرائيل

••• حتى شوارع تل أبيب (مانشيت أحمر)

القوات العربية تنطلق على طول الخطوط الامامية لتطهير فلسطين

نسورنا البواسل في سورية والمتحدة والعراق والاردن يسقطون ١٦١ طائرة للعدو

الجيش الاردني يحتل جبل المكبر في القدس ويدمر ٥ مستعمرات (مانشيت متوسط) •

القوات العربية في سيناء تتصدى لقوات العدو وتلحق بها الهزيمة

نسور الجيش العربي السوري دمروا مطارات العدو وأشعلوا النار في مصفاة حيفا •

وقالت الجريدة :

أصدرت العصابات الصهيونية صباح هذا اليوم حكما على نفسها بالاعدام حين تجرأت على الاعتداء على حدود الشقيقة الكبرى •• الجمهورية العربية المتحدة • وما أن أذيع نبأ هذا العدوان حتى اشتعلت جميع الجبهات العربية ، وتصاعد النسور العرب الى الجو ، من جميع القواعد والمطارات العسكرية في سورية والمتحدة والعراق والاردن ، يدمرون أوكار العدو •• وشهدت سماء فلسطين أروع أمثولات البطولة ، حيث انطلق النسور البواسل فدمروا مواقع العدو ومنشآته وتركوها طعمة للنيران ، ونسفوا خلال ذلك مصفاة البترول •• في حيفا • فقد حاولت طائرات العدو أن تهاجم مطاراتنا وقواعدنا فتصدت لها

النيران العربية من الارض والجو ٠٠ في سورية والمتحدة والاردن ، وكانت حصيلة ذلك حتى الساعة الخامسة من مساء اليوم تدمير ١٥٨ طائرة للعدو ، أسقط منها ست وثمانون في جبهة الجمهورية العربية المتحدة واحدى وخمسون في الجبهة العربية السورية وثلاث وعشرون في الجبهة العربية الاردنية وطائرة أخرى للعدو في لبنان ٠

وفي نفس الوقت شنت القوات العربية البرية هجوما واسع النطاق على مختلف الجبهات مع فلسطين المحتلة ٠٠ وفيما يلي وقائع اليوم الاول للمعركة :

في غرفة المستشفى يتوزعون على مقربة منه ٠ رأسه مغلف بصفائح بيضاء وكذلك ساعده الايسر ومنكباه ٠ تركته أسمى عند الضحى ، بعد أن أصرت غادة على الاعتناء به ٠ عدد من العساكر والممرضات يتبادل المجيء بطريقة اعتيادية ، كل يدور في الغرفة الملأى بالجرحى حول نقطة تثبت عليها عيناه ٠ ثم يقترب بطريقة مألوفة موجّهاً ابتسامة محبة ومساندة الى الشكل المسنود على السرير ، الى عينيه البراقتين الحيّتين ٠ يحاولون أن يرسلوا له شعوراً بأنه مثل بقية الجرحى ، وزيادة يسيرة في الاهتمام ٠ هذا هو النابالم اذن ٠ هذا الستار من البياض اللاهب الموتي ، المنسدل على صور مريعة ٠ قال لهم شيش بيش ان النابالم مثل العلق ، سوى أنه لا يمتص الدم بل يحرقه ٠ اذا مددت يدك بفعل الغريزة لتخمده ، احترقت يدك ٠ واذا مسحتها على صدرك ، أيضا بفعل الغريزة ، احترق القميص والصدر ٠ درويش ـ وهذا هو اسمه ـ لم يفكر بالنابالم وهو يحمل بارودته ٠ كان ذلك حسن نية منه يعادل الغباء ٠ فكر أن الاسرائيليين سيهجمون ، وأنه سيلاقيهم ببارودته ٠

شيش بيش يجلس في المقصف ٠ عجيزته على كرسي ، وساقاه على أخرى

ويده على ثالثة • الى جانبه ينتصب كأس من الشاي الحار على طاولة معدنية • هناك يصيح بالنادل لغير ما سبب ، ويزعجه ويراضيه • فجأة تدخل غادة بثوبها الابيض فتقطع استرخاءه الداخلي • يقول لنفسه : لك جسد من نابالم ياسيدة غادة • تتبعها أسمى وطبيبان آخران • ويزعق شيش بيش بالنادل : « هيِّئ الشاي ، يامتصوف الرقبة • ماذا تنتظر ؟ » تقول غادة بابتسامة واهنة : « أنا بودي قهوة • بدون سكر ، من فضلك • » وتجلس منكمشة مطرقة • يقول شيش بيش : « تضايقت من منظر النابالم ؟ » فتنظر اليه بضراعة : « أرجوك ، يادكتور ، أي حديث ثان ، » « ولكن يجب أن تتعودي على مناظر من هذا النوع • ما نزال في أول الحرب • والحرب يمكن أن تستمر أسابيع ـ اذا صمد الاسرائيليون • » تهتف أسمى : « دكتور ، السيدة غادة ما يودها حديث عن النابالم • »

ينزل ساقيه عن كرسيهما • ويرفع يده عن الثانية • يجلسون معا • يتساءل الطبيب الاول : « تقول أسابيع ، معلمي ؟ زعماؤنا يقولون أيام • ٤٨ ساعة ، حتى • » يطوي شيش بيش عضلة خده الايسر ويرفع رأسه اشارة نفي : « أظن الاسرائيليين أقوى مما نتصور • لا أعرف كيف ، ولكنهم أقوى • ولا تنس أن الاميركان معهم • زعماؤنا يحبون اللغة المجازية ، لا أكثر ولا أقل • » تقول أسمى : « على اي حال، اذا حكمنا من عدد الجرحى ، الحرب خفيفة حتى الآن • » يقول الطبيب : « أبدا ، هذا يعني أن جيشنا يتقدم • »

يدخل ممرضون آخرون وممرضات ، فرادى ومجتمعين • يتوزعون على الكراسي ، وتسرع اليهم فناجين القهوة والشاي • فجأة يغدو المنتدى العجوز مليئا بالحياة • الحيطان المهرمشة ، والابواب المشروخة ، والارض الصلبة

القاتمة ، تحتويهم وتحفل بهم • الحديث عن الحرب ، والحرب في مكان اخر ، والحديث متقطّع وجماعي • يبتسمون • يضحكون • يصيحون • ينصتون •

تنظر غادة الى ساعتها وتنهض : حان وقت الاعتناء بالجرحى مرة أخرى • تنهض بصمت وكآبة • في الخارج تلفحها الشمس الحادة فتضع نظارتها وترنو الى دمشق • يعبر سليمان في ذهنها كالبرق ويختفي ـ سليمان بقوته العمياء المميتة غير الخارقة ، وتوجهه المباشر القصير نحو الجسد •

شوارع دمشق تبقى في ذهنها • الارصفة بأشجارها الجميلة • والحدائق الصغيرة ، العامة والخاصة • ولكن ، ماذا بوسع الاشجار أن تفعل في مكانها الراسخ سوى أن تنمو وتشيخ ؟ واذا هي اقتلعت ، فكم تراها تعيش بعد اقتلاعها ؟ •

وفي الشوارع أناس غادون رائحون • قليلون ، غير أنهم هناك • وقلتهم تحضر الى خاطر علي شعوراً بتغير مفاجئ • لا يهتم كثيرا للموضوع • يهز كتفه قليلا ليثبت عليه جيدا نطاق الساموبال • يمشي لا على التعيين • يتحسس الرصاصات في جيبه ، وفي المخزن • يحصيها مرة أخرى : خمسون رصاصة • تقع عينه على السمان وهو يهم باغلاق حانوته • يحيّيه ، فيرد الرجل التحية ويقف مرتبكا • يبتسم بارتياب وتهيب •

يدرك علي أن هذا الوجه المرتبك يتستر على خوف وفقدان ثقة • يقول : « عندك دخان ؟ »

ويسرع الرجل الى الاجابة : « لا والله ، خلص • »

« خلص ؟ ! »

« اي والله • كل شيء ، ما شاء الله ، خلص • »

« ماذا تعني ، كل شيء ؟ »

« كل شيء • الرز •• السكر •• الشاي والبن • علب اللحمة والسمنة • كل شيء • »

« هذه كلها خلصت ؟ مع أنك تجلب كميات كافية ! »

يطمئن الرجل قليلا لبراءة الحوار التي اتضحت من حامـل السامو بال يبتسم بارتباك : « سيدي ، جاء الجيران ، هذا أخذ خمسة كيلوات وهذا عشرة • نحن نشتري كيلو أو كيلويين من الشاي والبن • خلص كل شيء • الدنيا حرب • »

« الله يعطيك العافية • »

يعود الى نادي نقابة المعلمين • يجلس قليلا ويراقب لاعبي النرد ، ثم يتحول الى لاعبي الشطرنج ، ثم الى لاعبي الورق • يشعر بالرغبة في الخروج • يسأله جاره : « تعرف أين وضعت ساموبالي ؟ » فيهز رأسه هزة قصيرة : « سيدي ! خذ أي ساموبال ، يمشي الحال • » « ولكن ، نحن أخذناها بحسب أرقام • » « لا يهمك • لن يحتاجوا لها في المستقبل • »

يحمل ساموباله ويخرج • عند الحديقة الصغيرة تقف الى جانبه سيارة جيب • يطل منها رأس إمـام ويحيّيه • يتقدم منه مسرع الخطى متسارع الوجيب • « تجيء معي الى اتحاد العمال ؟ أكيد أنت ضجران • » يفتح الباب بحذر مرتبك: هل يعرف إمام ؟ ويدخل بحيوية مفاجئة : هذا الوجه الوديع خال بالتأكيد من الأسرار • يشعر بحضور إمام كزوبعة لطيفة تلفّه فتطرح من رأسه التساؤلات •

يقول إمام وهو يحرك السيارة : « مشتاق لصديقك الدكتور ؟ ما اسمه ، شيش بيش ؟ » ٠

أوه ! اذن أسمى حكت لـه عن محاولـة الخطبة المجهضة ٠ « لا ، أنـا مرتاح منه ٠ »

« هو الآن في المستشفى العسكري ، مع أسمى أختي ٠ »

« أرجو ألا يموت أحد بسبب معالجته له ٠ »

« هذه اشياء اولية ٠ إيقاف نزيف ٠ تضميد جـرح ٠ فحوصـات ٠ حتى اسمى تعرفها ٠ »

« أين كنت ؟ »

« كنت الآن في معمل التبغ ٠ وقبلها في معامل ثانية خارج البلد ٠ يجب ألا يتوقف الانتاج على الأقل ٠ اذا لم يزد ٠ كنت في معامل عدرا ودمر والميدان ٠ العمال ، روحهم المعنوية عالية ٠ العمل ماشي مثل الساعة ٠ وزعنا عليهم بواريد وذخيرة ٠ قالوا انهم سيعملون بيد ويحملون البارودة بيد ٠ وقلت لهم ، لا بل اعملوا باليدين وعلقوا البارودة بالكتف ٠ مـاذا تعملون أنتم ، في نقابة المعلمين ؟ » ٠

« وضعنا أنفسنا تحت تصرف مجلس النقابة ٠ أعطونا سامو بالات وتركونا ٠ هذه الحرب ليست لنا ، كمـا أرى ٠ حـرب جيوش ٠ حاليا المعلمون يلعبون الورق ، والشطرنج ٠٠ شافوا حالهم في وضع غير طبيعي ٠ »

يتوقفان عند مبنى اتحاد العمال ٠ وفجأة ينتبه علي الى ازدحامه بالناس ٠

يقول امسام : « ناس كثيرون ، ما ؟ يريدون أن يحاربوا ياسيدي • ولكن أين هــو صديقي الجامع ابن أبو خلف ؟ » ينظر الى المدخل فلا يراه، والى الجوانب•

يظهر في تلك اللحظة رئيس الاتحاد • يتقدم خطوتين ثم يختفي بين الحشد المتفتت حينا والمتشكل حينا آخر • يغادر إمام وعلي السيارة ويقفان علــى حافة الدائرة المتموجة • يسمعان رئيس الاتحاد : « عندنا جيش قوي يحارب • العرب كلهم يحاربون • وهو يقوم بمهمته خير قيام • نحن معركتنا في المعامل ، في تأمين حاجات المواطنين اليومية والاساسية • معركتنا في الحفاظ على الجبهة الداخلية ، الحفاظ عليها هادئة ، متماسكة ، متراصة ، صامدة • »

يصيح محمود : « ولماذا وزعتم البواريد ؟ اذا لم تكن لنا علاقة بالحرب • »

يقول رئيس الاتحاد : « البواريد وزعت على العمال بس • نقابة المعلمين مثلا ، أخذت ساموبالات ــ هذا هو كل شيء • »

يصيح محمود : « العدو يضرب أهدافــا غــير عسكرية ، والجيش كلــــه في الجبهة • »

« أرجوكم ، ياإخوان • نحن في حالة حرب ، والاوامر هي الاوامر • القيادة تعرف شغلهــا • والآن ليس وقت المحاسبة الديمقراطية لترتيبات القيــادة في معركة التحرير • عودوا الى معاملكم وأعمالكم • هذا كل شيء • »

يسمعون في كلماته نبرة انذارية فيصمتون • واحدا بعد الآخر يتفرقون. يمضي هو الى سيارته غير ملتفت الى أحد ويجلس الى جانب السائق • ينسحب إمام الى زاوية خلفية لئلا يلمحه الرئيس • دقائق واذا بالشارع العريض خــال الا من ثلاثة رجال مقطبين •

يمسك محمود ساموبال علي ويقلبه بين يديه متفحصا : « يقولون انه يحمو بعد خمسين طلقة . »

« لذلك لم يعطوني اكثر . معي خمسون طلقة بالضبط . »

« اريد أن أعرف كيف ستقاتل بهكذا آلة . »

ينضم اليهم إمام .

يقول علي : « لن نقاتل . الا اذا حدث المستحيل ، وقصّر الجيش في القتال . »

يقول إمام : « ما يزال قلبي منقبضا من هذه الحرب ، وعقلي غريبا عنها. العرب مستعدون لها حقا ؟ أهي حرب عربية ، أم من طرف واحد ـ الطرف المعادي ؟ » .

وكان ياما كان أن استمرت الحرب يوما ثانيا .

موجز الاخبار :

القوات العربية السورية تحرر مستعمرة شرياشون وتنطلق لتحرير سهل الحولة .

أميركا وبريطانيا تشتركان فعليا بالعدوان مع اسرائيل .

انتصارات رائعة للقوات العربية على جميع الجبهات .

مدفعية الجيش العربي السوري تدك مستعمرات العدو في طريق زحفها وتدمرها .

القوات المصرية في سيناء تتسلم زمام المبادرة وتتوغل داخل الارض المحتلة.

معارك ضارية بالسلاح الابيض في القدس ٠٠ والقوات العراقية تواصل تقدمهـا ٠

العراق والكويت يوقفان ضخ النفط ٠٠ والمتحـدة تغلق قناة السويس ٠

بدأت تتهاوى مواقع العدوان الصهيوني تحت ضربـات القوات العربيـة الزاحفة علي دروب التحرير والعودة ولن تتمكن الصهيونية مـن وقف الزحف العربي الهائل على كافة الجبهات ٠ وسيستمر كفاحنا المسلح حتى سقوط آخر حجر من الوجود الصهيوني العدواني المجرم ٠

عند الصباح تنتتشر عناصر الشرطة العسكرية أمام مبنى عادي في شارع صغير ٠ يصعد شرطيان عتليتان الى الطابق الثاني ويرن أحدهما الجرس رنتين قصيرتين ٠ بعد قليل يفتح الباب ويطل من ورائه وجه فتاة صغيرة ٠ « أبوك في البيت ، عمر ؟ » ٠

ترتبك الفتاة : « لا ٠ راح ٠ راح من ساعة ٠ »

« قولي له نريد أن نحكـي معه كلمتين ٠ »

تنظر اليهما بعينين جامدتين ، تستدير ، وتولي هاربة ٠

يدخلان وراءها ٠ يمشيان خطوتين ويقفان أمام الباب الموارب الى اليسار ٠ أحدهما يدفعه بمقدم حذائه ٠ يمسحان البهو بنظرة فيريان أمية أولا ـ ثم جثة نواف مسترخية في ثيابها العسكرية وعينيه مصوبتين اليهما : وجهـه معتقل بتوقع مستطير وقبول راكد ، وذراعاه مرميتان على ذراعي الكنبة ٠

« احترامي ، سيدي ، » يقولان له بدون احترام ٠

ينهض : « ممكن أمشي معكم بدون كلبشة ؟ »

« ممكن سيدي • بس خذ معك اللوازم » يقول احدهما •

« أنا جاهز ، » ويتناول حقيبة صغيرة •

عندئذ تصيح أمية : « نواف بريء ولا علاقة له بالتجسس • »

« نحن ، يا خانم ، لا علاقة لنا ببراءته ، » يقول الشرطي نفسه •

ثم يخلو البيت منه • ويصير غيابه الحالي فراغا وصمتا ووحشة • ومن المذياع ، يوقظ الآذان نشيد حربي مفعم بالقوة والفداء • بعد قليل تفد عائدة، وتستطلع عبر كلمات المواساة أسرار الاعتقال •

وبعد قليل تموت زوجة حمدي الببش مصعوقة • ويهرع الزوج وأولاده وقريباته وأقرباؤه وأصدقاؤه وجيرانه الى حيث أم صالح مسجاة في المطبخ على ظهرها ، وحملها التاسوعي جاثم داخل جثتها كرابية صغيرة •

لا أحد يعرف كيف ماتت زوجة حمدي الببش • يقول أحدهم : « كان معها قلب ، الله يرحمها • » بالطبع ، الجلطة داء غدار • لكن العبارة تشير الى ماهو ابعد • بعد الولادة الاخيرة ، حذر الاطباء الزوج من السماح لزوجته بالحبل • قلبها ضعيف ، قالوا له • الحبل والولادة يعنيان موتها المحتم ، وربما موت الوليد أيضا • ولكن أنى له أن يتدارك الامر • اذا شاء الله صنع طفل في رحم أم صالح ، فكيف لابي صالح أن يحول دون ذلك ؟ لقد صبر شهرا وشهرين وثلاثة • ولكن ، وبعدئذ ؟ المرأة خلقت للنكاح ، وأم صالح ما يزال بوجهها ضوء • وهكذا حبلت المرأة للمرة التاسعة ، وقال حمدي الببش : «قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا • »

وأحدهم يقول : « ليست هذه هي الحقيقة عن موتها • الحقيقة هي أنها

أرادت أن تطحن اللحمة بالمطحنة الكهربائية • كيف صار احتكاك ؟ لا أعرف • أدخلت الذكر بالانثى ، وولعت شرارة •• يارب نسألك العفو • »

وتهز امرأة رأسها : « الحقيقة هي أن أم صالح أجهدت نفسها في الشغل • كانت ، الله يرحمها ، امرأة لا تطيق الراحة ، وتتعب من الجلوس • لـم تنتبه لنفسها أنها تعبت • وعندما وصلت الى باب المطبخ ، وافاها قضاء الله • »

أقاويل ، رجم وتخمين ، يقول أخو الفقيدة • أخذوهـــا ، الصبح ، الى الدكتور عبد الوهاب • كانت متحلّة الجسم ، ودقات قلبها ضعيفة • الدكتور قال ، يلزمها تخطيط قلب ، وأرسلهم للدكتور بشورة • الدكتور بشورة كـان غائبا • حملوها الى الدكتور سعدوني • هذا الاخير ضحك منهم • ما بها شيء ، قال • شوية عفونة في المعدة • ويمكن أن الحرب أثرت على أعصابها • وأعطاهم وصفة • عادت الى البيت وماتت •

اخيرا يتجرأ أحدهم ويعلن : « ياجماعة ، انقلوا المرحومة للمستشفى •• » ويسكت قبل إتمام جملته •

تتلاشى الاصوات دفعة واحدة مخلفة وراءها صمتا منذرا • ينقطع البكاء ، وتغفل الاذهان عن المرأة بين ساعدي الموت • مستشفى ؟

عندما يموت الانسان يغسل جسده ويصلى على روحه ، ثم يوارى القبر • هذه هي سنة الحياة • واذا كان وجه أم صالح لم يظهر لأجنبي خلال ربع قرن، فكيف يوضع جسدها بأكمله بين يدي الاطباء والجراحين ؟ والجميع يعرف أبا صالح : رجل مؤمن ومتمسك بدينه • الشرف ! والوطنية أيضا : في عز دين الحرب ، تحمل ميتة الى المستشفى ، والجرحى من أبطال البلاد لا يجدون سريرا !

تقول أم خلف انه يجب اجراء عملية جراحية لاخراج الولد • الأم مضت ،

أضروري أن يمضي الولد أيضا ؟ لكن صوتها يضيع في شهقة مفجوعة تند عن أخت الفقيدة ، شهقة أعلنت أن الاخت لم تعد تستطيع كتمان شعورها بالفاجعة. وفي عويل متفجر من قمة صوتها ، تهرع نصف متعثرة الى الجثمان البارد ، تنطرح عليه ، تغمره بالقبل والعناق والدموع . أمام المشهد الموجوع تنهمر دموع الآخرين التي انحبست طويلا ، وتتصاعد الآهات والأنات وكلمات الوداع الحزينة .

ويدور علي بين شوارع (أبو رمانة) وتفرعاته ، حاملا رشاشه . منذ الصباح فارقته بهجة التحرير ولحقت به كآبة الحرب . يمشي بطيئا ، تارة يتأمل الرشاش ، وأخرى يتأمل الاشجار . وتارة يمسح باصابعه على الجسم المعدني الداكن الموكل بالموت .

وتقول أم خلف : « ترى هل نعود ؟ » وتنفرش أصابع محمود فوق رفوف الاحرف المعدنية ، وتلطمها لتصنع منها كلمات صنعتها الحرب . وينادي بائع الصحف : « آخر أخبار المعارك ! آخر أخبار المعارك ! » وتنطلق من مجهرات الصوت كلمات الأذان . وتمرق شاحنة عسكرية بسرعة مفزعة . ويتدافع الناس أمام واجهة الفرن . ويتفقد طلعت بك قبو بيته المخصص للمؤن . وتجلس أمية في البهو ساهمة العينين .

عناوين صحيفة دمشقية :

الفدائيون يزرعون الرعب في الارض المحتلة (مانشيت)

المدفعية الاردنية تدمر منزل شازار رئيس دولة العصابات في القدس المحتلة وتسقط ٢٢ طائرة للعدو رغم استمرار الامدادات والدعم العسكري للعصابات من أميركا .

المدو يتقهقر على كل الجبهات ·

الجيش العربي السوري يجتاح سهل الحولة (مانشيت أحمر)

القوات الاردنية في جنين والقدس تنتقل الى الهجوم (مانشيت متوسط) ·

العدو يخلف قتلاه في الشوارع ·· والدروع الاردنية تلاحقه ·

قوات المتحدة الصامدة في الجنوب تصد العدوان بقوة وتمزق ٧ فرق من المدرعات والمشاة ·

جيش التحرير الفلسطيني يلتحم في معارك ضارية مع العدو فيقطاع غزة·

موجز الاخبار من اذاعة دمشق :

أمام الضربات العربية القاصمة بدأ العدو يتقهقر علـى كـل الجبهات ، وتلاحق قواتنا الباسلة فلوله المهزومة رغم اشتراك الطيران الانكلو ـ أميركي بضرب المواقع العربية بعد أن فشلت الهجمات الصهيونية بهذا · وقد واصل الجيش العربي السوري زحفه داخل الارض المحتلة في سهل الحولة وهو يزرع الدمار في المستعمرات الصهيونية التي يواجهها في طريق زحفـه · كمـا انتقل الجيش العربي الاردني في جنين والقدس الى الهجـوم وبدأت مدرعاتـه تتعقب فلول العدو المتراجع بعد أن كبدته القوات الاردنية خسائر فادحة · هـذا وفي الجنوب مزقت قوات الجمهورية العربية المتحدة سبع فرق من المدرعات والمشاة للعدو وألحقت بها خسائر فادحة في الوقت الذي تلتحم فيه قوات جيش التحرير الفلسطيني في قطاع غزة بمعركة ضارية بالاسلحة الخفيفة والسلاح الابيض مـع العدو ·

تعليق سياسي من اذاعة دمشق بعنوان : معركة العالم الثالث :

الحقيقة التي تحصدها الدول الاستعمارية من خلال عدوانها على الشعوب هي التي تبدو اليوم في حرق السفارات الاميركية والبريطانية وملحقاتها في العواصم العربية والعالمية ، وهي التي تبدو في حرق الاعلام الاستعمارية وحرق المصالح البترولية وغير البترولية • الحقيقة التي تحصدها تلك الدول الاستعمارية هي في الضربات التي تلقتها أمريكا في الفيتنام وهي التي يلقاها الحلف الاستعماري اليوم في الوطن العربي وفي فلسطين المحتلة بصورة خاصة • ومع ذلك فان الامبريالية لن تقف سوى موقف اللامبالاة من تلك الحقيقة ومن كل الحقائق المماثلة لها في العالم لسبب بسيط هو أنها تدخل في طور الانتحار • هي تجاه يقظة عامة للشعوب ، يقظة في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ،ولهذا تجد نفسها أمام أحد أمرين : إما أن تتخلى عن مواقعها الاستعمارية وترجع الى حدودها وإما أن تضع العالم كله في معركة طويلة الأمد تستخدم فيها كل ما وصل اليه العقل الانساني من تكتيك الدمار • واختارت منذ زمن بعيد الحل الثاني، الحل الذي تعاني الشعوب وطأته اليوم ويعاني منه شعبنا العربي • لقد اختارت أن تبيد الشعوب لترث الارض بعدها وخصّصت كل ما تملكه من حقد وسموم ونيران لهذا الغرض •

وكذلك اختارت الشعوب أن تدخل المعركة ، معركة الحياة أو الموت مع المستعمرين أعداء الجنس البشري • وأصبح كل شعب اذ يسدد رصاصة الى الامبريالية فانما يسددها باسم شعوب العالم الثالث أيضا وكل ثوار آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية • ومعركة الشعب العربي حاسمة وحادة معا لأن الامبريالية حشدت لها جميع الامكانيات المادية والدعائية ، وتأمل أن تقهر بنا كل الشعوب التي تتحرك وأن تصل من ذلك الى خنق كل ثورة الشعوب •

لذا فان شعبنا العربي يعرف دوره العظيم في هذه المرحلة التاريخية ، وفي

هذه الايام القاسية التي يمر عليها ٠ انه الآن ، في يقظته المسلحة ، ينسف القواعد الاستعمارية وفي مقدمتها اسرائيل ، ويضع حدا نهائيا في أن يجعل من وطننا قاعدة عدوانية على الشعوب ٠

سيكلفنا ذلك كثيرا وقد تدخل في المعركة الشعوب الثائرة والشعوب المحبة للسلام ولكننا سندفع الثمن ٠

وكان ياما كان أن استمرت الحرب يوما ثالثا ٠

في المستشفى تمتلئ الأسرّة بالجرحى والمشوهين ٠ النابالم ! النابالم ! صيحة تجمدت في الوجوه المحروقة ٠

والجرحى : تضمد الشقوق والثقوب في أجسادهم،ويطلب اليهم أن يعودوا الى بيوتهم فيرفضون ٠ منذ عشرين عاما ، يقولون ، وهم يحلمون بالتحرير ٠ خلال عشرين عاما صارت فلسطين العالم ، أو على الاقل مركز العالم ٠ كانوا يحملون الهم ولا يحملونه ، واليوم توغلوا فيه ٠

يشعر شيش بيش بوطأة النعاس والتعب ٠ يسمع الى مماحكات المرضى وطلباتهم الغريبة ، فيبتسم ويتأملهم واحداً واحداً ٠ يفك تصالب ساقيه ويمدهما ٠ تلمحه أسمى من زاوية الغرفة القصوى وتبتسم له ٠ بعد قليل تأتيه مسرعة وبيدها ميزان الحرارة : « ضعه في فمك ، » تقول له ٠ يرفع عينيه مستغربا ، لكنه يطيع الاوامر ٠ تتحسس جبينها براحتها فلا يتحرك ٠ يقول ، وميزان الحرارة في فمه : « يدك تكفي لان ترفع حرارتي ٠ » يفاجئه عبوسها ٠ تقول : « حرارتك مرتفعة سلفا يادكتور ٠ » « صحيح ؟ من كثرة البطالة حتما ٠ قاعد هنا مثل ذكر النحل ، لا شغل لي ٠ » « بالعكس ٠ أنت تعبت فوق اللازم ٠ أنا رأيي انك تقعد في بيتك وتداوي حالك ٠ » « هذا

مستحيل طبعا · » « لماذا ؟ عندنا عدد كبير من الاطباء · وغادة وسليمى تشتغلان بعشر ممرضات · » « صحيح شغلي قليل ، انما وجودي هنا ضروري · »

تستمر الاناشيد الحربية والبلاغات العسكرية ، ويستمر عربي بك في مناكفة بسام بك · ويقطع أبو إمام عهدا أن يمتنع عن شرب الشاي حتى تنتهي الحرب ، ثم تنسال من فمه كحبّات المسبحة شتائم رفيعة مقذعة يرسلها الى الاغنياء والمحتكرين : « لأجل هذا قال سيدنا المسيح انه الجمل يفوت من خرم الابرة والاغنياء لا يمكن أن يدخلوا الجنة · » وتستمر حبات النرد في تدحرجها وماء النراجيل في قرقرته · سوى أن المدينة تبدو فجأة مدينة للفقراء · لقد اختفت السيارات الخاصة وراكبوها ، مثلما اختفى السكر والرز · واختفت أيضا اشاعة التجسس ·

وراء طاولته في مبنى الجريدة يكتب الملك :

الوطن العربي يشهد اليوم بداية الزحف الكبير على مواقع القوى المعادية · انه اليوم الذي انتظرته جماهيرنا العربية طوال عشرين عاما لمحو عار النكبة ولتصفية مرتكزات الاستعمار واحتكاراته في الوطن العربي ·· وطالما أن المعركة قد تفجرت فلن تنجح أية قوة في وقف اندفاع الشعب العربي نحو أهدافه في التحرير النهائي الشامل ·

ولابد للعدو الصهيوني أن يدرك أن أحلامه ومطامعه سوف تتبدد بأسرع مما يتصور لأن الشعب العربي المعبأ المسلح هو غير ذلك الشعب الذي كانت قلة امكاناته المادية تكبل ارادته وتحول دون مشاركته في المعركة ولان زمام الموقف الآن هو بأيدي هذه الجماهير · ان البركان المتفجر في أعماق الشعب العربي ، ذلك البركان الذي حاول المستعمرون اخماده ، قد انطلق ليدك كل قوى

العدوان ٠٠ ولن تستطيع أساطيل بريطانيا وأميركا أن تغير مجرى المعركة لصالح قاعدتها الصهيونية ليس لان كل شعوب العالم المتحرر تقف الى جانبنا في هذه المعركة فحسب ، ولكن لان جماهيرنا العربية قادرة على ابادة الوحش الاستعماري بعنف لا يمكن أن يقل بحال من الاحوال عن العنف الذي تباد به شراذم المعتدين في الفيتنام ٠

لقد انتهى عهد التهديد بالغزو والعدوان وبدأ عهد الهجوم الفعلي ٠ لقد انتهت عهود الشكوى الى المنظمات الدولية وبدأ عهد انتزاع الحقوق بالتضحية والنضال ٠ فلطالما انتظر شعبنا هذه المعركة ولن تستطيع أية قوة ، بالغا ما بلغت سطوتها ، من كبح جماح المسيرة العربية الزاحفة الى تحقيق أهدافها المصيرية ، ولن يجد الاستعمار واحدا في الوطن العربي يوقع معه معاهدات هدنة كما حدث عام ١٩٤٨ ، لان الشعب العربي في شتى أقطاره هو الذي أعلن الحرب اليوم ، والشعوب لا تهادن ولا تتراجع ولا تقهر ٠

ولن تكون نتائج هذه المعركة بأقل من تصفية كافة القواعد والاحتكارات الاستعمارية ٠ فلن يبقى خليج العقبة هو الممر الوحيد المغلق في وجه الاستعمار ولكن الوطن العربي كله سيصبح بقعة مغلقة على النفوذ الاستعماري من أقصاه الى أقصاه ٠

هذه حرب ضد الزمن ، ضد التكلّس داخل الحدود، ضد السلبية والانحطاط والخوف ٠ وليمتلئ العالم بثورات الشعوب ، ولتنفجر كل يوم فيتنام جديدة على أرض المسروقين المستضعفين ، ولتلتهب أرضنا العربية برسالة أمة خالدة ٠

في الليل يمضي سليمان عبر الشوارع ٠ لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، الا ليتبين السيارات العابرة ٠ أمام الباب يقف والظلام دامس ٠ جنون ٠ من ياتي

الى عشيقته في ليل الحرب ؟ وسليمان ليس معتادا على طرح الاسئلة ٠ انه رجل بلا حيرة ٠ لقد نظم حياته بدقة ، حتى جعلها مثل الساعة ٠ كل شيء مضبوط ومعروف ومقرر مسبقا ٠ لكن شعورا غير معهود داهمه عند المساء ، وجعله يصل الى نتائج بلا مقدمات ! وهذا ما يحيره : نتائج بلا مقدمات ! فجأة شعر أن هوة قد انشقت بينه وبين غادة ٠ بالطبع ، ليست الحرب هي السبب : الحرب قضية عامة ، والحب شأن خاص ٠ في الحقيقة ، ليس ثمة سبب ٠ كل شيء على ما هو ٠ كل شيء في حياتها باقٍ كما كان ، وفي حياته ٠ ولكن ، لماذا هذا الشعور ؟

منذ أول خطوة خطاها ، وحتى وقف أمام الباب يلتقط أنفاسه ، وهو يقلب الامر في أروقة ذهنه ٠ أمام الباب يصل الى نهاية حاسمة : انه شعور عابر ، ليس له أساس منطقي ٠ لعله الشوق الى الجسد ، أو حاجة من هذا النوع ٠ ويتناول المفتاح بتؤدة فيرد المغلاق دونما صوت ٠ ينصت برهة ثم يفتح الباب ٠ يدرك أن البيت خال من ساكنيه ٠ بالطبع ٠ وهل يبقى طلمت بك في مدينة لا تبعد عن الحرب أكثر من مئة كيلو متر ؟ لقد هرب كما هرب أمثاله ٠ أمواله في بيروت ومصالحه في دمشق : اذا ضربت مصالحه بقيت أمواله ٠ يهرب لان قضيته ليست التحرير ٠ الذي يبقى ويحارب هو المرتبط بالارض ، ذو الجذور الذي تحاول الامبريالية اقتلاعه ٠ ليفعل ما شاء ؛ المهم أن تبقى امرأته هنا ٠

يتقدم بهدوء واطمئنان ، ثم يقف ٠ يعرف اتجاها واحدا فقط في هذا المنزل الفسيح ٠ ما هذه الرغبة الطائشة في تفحص البيت كله ؟ يتقدم الى غرفة غادة ، يغلق وراءه الباب ، ويضيء المكان ٠ يسمع صوتا مريبا فيطفيء الضوء ٠ يلبث هادئا متوقعا ٠ يسمع الصوت ثانية ، وكأنه لا يسمعه ٠ أخيرا يخرج مواء متوسل من وراء الباب ٠ يخرج هو ، وللتو يحس برأس الحيوان الاليف ، ثم

بجسده ، متمسحا بساق بنطاله • يدخل ثانية ويمضي الى باب الشرفة ، والحيوان يتبعه • ينصت قليلا ليتأكد من خلو المكان ، ثم يفتح الباب •

في الشرفة يجلس على كرسي من عيدان الخيزران ، ملفلفا بالصمت والليل ومحاطا بجرار الازهار والنبات •

قبيل الساعة الثانية تطل عليه غادة بطيئة الخطى • تجلس على الكرسي الثاني بعد تحية قصيرة ودودة • أمن زمان هو هنا ؟ كلا • ألم يخش أحدا يراه ؟ يعرف أن حي الاغنياء هذا قد خلا منهم • انها على كل حال مجازفة • ما هي أخبار المستشفى ؟ الأسرّة مليئة وهناك عدد كبير من الجرحى والمحروقين • هذا يؤكد أن أخبار الحرب ليست مفرحة ؛ لقد قال منذ البداية إنها حرب خاسرة • هي في الحقيقة غير مهتمة بذلك ؛ شيش بيش يقول ان النصر حليف العرب ؛ لكنها لا تتابع أخبار المعارك لانشغالها بالمحروقين • تعرف فقط أن هناك جنودا يقاتلون •

يرتد اليه بقوة أكبر ذلك الشعور المنذر • ولانه لم يعتد على حالات قلق من هذا النوع ، يحمل كرسيه ويقترب ، فيجلس لصق غادة • للمرة الاولى تبدو له انسانة ، ولها كيان • وتتفرس في وجهه ، تبتسم بحنان صاف عميق خال من الشهوة • لا يستطيع استيعاب نظرتها : انها نظرة غامضة • هذه الرقة والدعة ، وهذا النأي المفاجئ • لقد تكلم اليوم أكثر مما تكلم في لقاءاتهما كلها • رغم ذلك ، يشعر بفاصل رقيق متين يقف بينهما شفافا صعب الاختراق • وترى الى حيرته ، فترسل أصابعها في شعره القليل القصير • تحاول أن تقول شيئا ، أي شيء ، فلا تجد في ذهنها لغة • ويرتبك هو • يشعر بشيء من التوفز ، اذ ليس من عادته الارتباك • أيكون هذا هو الحب ؟ ماذا لو يرتويان من الجنس

الأن ؟ ويدرك ادراكا غامضا ، ربما لاول مرة ، أن الارتواء لن يثقب الفاصل الناهض بينهما · وها هو يسأل أسئلة أيضا ·

تتأمله غادة ، وابتسامتها لم تفتر بعد · لأول مرة أيضا ، تشعر بلذّة في مراقبته · لذّة شخصية تنبثق منها وترتدّ اليها : تراقبه وتراقب نفسها ، وتتكئ على شعور مريح بأنها تراه ـ تراه من مسافة كافية رغم التصاق الكرسيين · ينساح فيها حنان لا حد له ، يبلغ مبلغ الشفقة : هذا الانسان البائس الذي يحب هذه الانسانة البائسة · تعرف أنه رغم استقلاله واعتداده بنفسه ، متعلق بها الى درجة لا يستطيع أن يدركها · وها هو أمام لحظة انفصال ، يعيد حساباته علّه يكتشف كيف اضطرب العالم المستقر وتغيرت مواضع أجزائه ·

وسليمان ينظر اليها طوال الوقت ، مرتبكا ممسوح الوجه ، رازحا تحت وطأة الشعور بأنه تقلص بفعل نظراتها الوديعة الى طفل صغير · لقد كان بينهما اتفاق غير مكتوب ينص على التبادل والتواصل · لكن حقيقة غير مجلوة تبرز الآن وتنقله الى مكان أبعد من مدى الاتفاق · أيكون هذا هو الحب الرومنتيكي الذي تحدث عنه شيش بيش ؟ تنبثق في ذهنه صور متلاحقة للقاءات الجسدين ، ويشعر أنه وغادة قد التحما الى الابد باسمنت اللحم والدم ·

يقترب منها ويرى أنها تقترب منه · قبلة هادئة طويلة : قبلة غادة الجميلة الطرية التي ما زالت كذلك ، والتي صارت وديعة ؛ وسليمان الطاغية الذي عاد طفلا محتاجا · الشفاه فقط ؛ الايدي تبقى في أماكنها ، والكرسيان لا يصدران أي صوت ·

تقول له إنه قد آن الاوان لان يمضي كل منهما في طريق · تلك الايام

صارت الآن تاريخا ـ ربما كان ضروريا ومطلوبا ، ان لم يكن لاخماد جذوة لافحة خانقة ، فعلى الاقل لاجل السقوط الى الدرك الاسفل والارتطام بالقاع ارتطاما موقتا ٠

اية يقظة ، يسألها ٠ وتقول انها يقظة النابالم : اللحم الذي لم يعد لحما ، والنفس التي لم تعد نفسا ، لان صاحبهما حمل في ذاكرته وطنا وترابا وراح يقاتل عنهما ٠ وما علاقتها هي ، ألا يكفي أنها انهكت جسمها اعتناء به هو وبأمثاله ؟ كلا ، تريد أن تحمل شيئا راسخا مثلما حمل غيرها ، شيئا غير جسده هو ٠ انها تكره القسوة ، والكلمات الكبيرة أيضا ٠ غير معتادة على استعمالها ٠ لكن الحقيقة هي ما تقول ٠

ينظر اليها صامتا ٠ اذن الحرب هي السبب ٠ « ما كان يخطر لي أن الحرب ستغيرك ٠ نحن معتادون على سماع أخبار الحرب ٠ دائما توجد حرب في مكان من العالم ٠ وكنا نتوقعها عندنا منذ وقت طويل ٠ اقصد أنها شيء مألوف ٠ وحتى لو تأثرت بها ، فلماذا قطع العلاقات الدبلوماسية بيننا ؟ »

ستقطع علاقاتها بكل شيء ، تقول له ٠ لم تعد قابلة للحوار العقلي والا لشرحت له ٠ قبل عشر سنوات ، قبل زواجها ، كانت تنهك مستمعيها ومحدثيها معا ٠ ولكن ذلك العهد مضى ٠ لا تعرف ماذا ستفعل بالضبط ٠ ربما تصير ممرضة ٠ ستخلد الى نفسها وتفكر ٠ لقد رفضت أن تذهب الى المصيف مع طلعت ٠ ستبقى هنا ، في المستشفى والبيت حتى تنتهي الحرب ، وبعدها تتخذ قرارا ٠

ترى الى حزنه الصامت المتجلد ، فيزداد قلبها انفغارا ٠ « أرجوك لا تحزن ، » تقول له ، « أنا الآن احبك أكثر من أي وقت مضى ٠ صدقني ٠

لكن ، لا تزعل ، لم أعد أريدك . انت بالنسبة لي تاريخ أريد أن أنتهي منه . وسأنتهي من أشياء كثيرة غيره . »

« أفهم . أنت صرت شيئا آخر . صار لديك رؤيا ، وستعيشينها . هـذا يبعدني شخصيا عنك . أنا لا أؤمن بالرؤى . أعتقد أن الامم تنهض بالعلم والتكنولوجيا . نحن ، مصيبتنا الرؤى . »

« أنا لا أتكلم من هذه الزاوية . لا تجعلني أوسع مما أنا . رغبتي هي أن أصير ممرضة ، مثلا ، أن أرى نفسي ويكون لي شغل . »

« ولكن ، بصراحة ، لا أفهم ما علاقة هذه الاشياء بعلاقتنا . أنت تضعين نهاية لعلاقة ما زالت قابلة .. للحياة . »

تهز راسها بشرود وهي تتأمل الشجيرات المؤصّصة : « ليس في حياتي أي شيء قابل للحياة . أرجوك ، لا تحزن . أرجوك ، ساعدني على المضيّ في تنفيذ قراري . يمكن .. أنت لا تعرف كم أنا حزينة . »

« لماذا الحزن ؟ المسألة مسألة حرية ، بالأساس . من ناحيتي ، لا أعتقد أني يمكنني مساعدتك ؛ اللهم الا أن أحمل حالي وأقول بخاطرك . »

بغير ضجيج ، وبقليل من الاسف ، تهوي مداميك شيّدها طاغوت الجسد . تغور في بحر من الرمال . هذه المرة ، يشعران أنه ليست اللعبة وحدها ما احترق ، وانما الاشرطة كلها والوشائع .

عناوين جريدة دمشقية :

لن يتوقف القتال (مانشيت أحمر)

وقف اطلاق النار لن يتحقق قبل زوال اسرائيل

العرب لم يضعوا بعد كل امكانياتهم في المعركة

خطة العدوان بهجوم سريع ٠٠ ثم التوقف عن القتال ٠٠ لن يكتب لها النجاح

الجيش العربي السوري يقوم بتطهير آخر جيوب المقاومة في الحولة

مدفعيتنا المضادة تسقط للعدو ٩ طائرات في الاشتباكات الدائرة اليوم

قواعد المتحدة تحطم الهجوم الصهيوني (مانشيت)

الصواريخ العربية تحيل ألوية العدو المدرعة الى رماد في سيناء

محاصرة دبابات العدو قرب العريش ٠٠ والطائرات الاميركية تحاول استكشاف المعركة

الجيش الاردني صامد ومدفعيته تقصف قلب تل أبيب

بيان من المذياع :

جنودنا البواسل في كل الجبهات العربية يشتبكون مع العدو ٠٠ يصبون جحيم نيرانهم على عدوهم ٠٠ انهم يكتبون النصر للامة العربية ٠٠ جنودنا البواسل يقفون اليوم على خط النار يلقنون اسرائيل درسا في البطولة والفداء ٠٠ جنودنا الابطال أقسموا على أن يحققوا النصر ٠٠ أقسموا على أن يعيدوا الارض السليبة ٠٠ أقسموا على أن يقضوا على عصابة الغدر الصهيونية ٠٠ أيها المواطنون ، استولت قوات الجيش العربي السوري المظفرة على سهل الحولة وتقوم بتطهير آخر جيوب المقاومة للعدو شرقي الجليل ودمرت مواقعه في تل النصر وأبادتها ابادة كاملة ٠٠

من تعليق سياسي اذاعي :

ان شعب الفيتنام يتعرض منذ زمن طويل الى طن ونصف طن من قنابل الوحش الاستعماري في الدقيقة • ونحن نقارع الوحش الاميركي والبريطاني معا • وهو مستعد لان يجرب كل تكنيك الدمار الذي يملكه في ربوعنا • وعلينا ان نحسب حسابا لكل ذلك •

لقد بدأت جيوشنا البداية المشرفة ، وهي مستمرة حتى آخر جندي ، وشعبنا سيمسك بمعركة التحرير بكلتا يديه ويستمر حتى آخر قطرة من دمائنا•

في المساء قدّم عبد الناصر استقالته للناس ، وقال لهم : « ان هذه ساعة للعمل وليست ساعة للحزن • » أعلن أن العرب هزموا في الحرب ، ولكنهم قادرون على بناء الاشتراكية وتحقيق النصر • قال إن ثقته غير محدودة بالتحالف القائد للعمل الوطني والمكون من الفلاحين والعمال والجنود والمثقفين والرأسمالية الوطنية ، وأن المهمة الاولى في هذه المرحلة هي ازالة آثار العدوان •

في الذهول الابكم الضريحي الشامل المفجوع ، يدور سؤال كرقاص الساعة في أذهان الناس : كيف حدث أن هزم العرب ؟

قال عبد الناصر ان الهجوم الجوي بدأ من الغرب ، وكان متوقعا من الشرق والشمال • من أين انطلقت الطائرات المعادية ، والبحر رخو جدا بالنسبة لاقلاعهـا ؟

وتقول أم خلف : « ولكن العرب هجمت فوق كل شبر من البر • جيش من مصر ، وجيش من سورية ، وجيش من الاردن ، وجيش من العراق • وقطعوا البترول عن الاميركان • فكيف هزم العرب ؟ »

وقال المذياع ان الجيوش العربية مزقت الوحدات المعادية ، وصادت طياراتها كما تصاد العصافير • كان قد قطع النشيد الحربي ليعلن أن طائرة أسقطت ، أو دبابات أحرقت ، أو منطقة حررت ، أو كتيبة أبيدت ، أو تل أبيب قصفت ، أو مصفاة البترول في حيفا دمرت • وقال المذياع إن تدخل الاسطول الاميركي السادس وسفينة التخريب اللاسلكي (ليبرتي) لن يفيد اسرائيل شيئا ، وأن الوحش الاستعماري سينعم فقط بصمت القبور •

قبور من ؟ يتساءل أبو إمام صامتا • بعد أربعة أيام من الانتصارات ، يتقدم عبد الناصر باستقالته • حقا ان العرب صاروا يحبون النكتة ويحسنون صنعها • فوق الموت ، غصة قبر ؛ استقالة ، قال ، استقالة •

هزيمة ، ثم استقالة ؟ أمران لا يعجبان شيش بيش : « من يقف بوجه الاميركان بعد انتصارهم ، اذا ذهب عبد الناصر ؟ »

تقول سليمى : « لا يهمك • سيقوم الشعب في كل مكان ويقول له : ابق ؛ فيبقى • »

ينظر اليها بلهفة ومفاجأة : هناك أمل ، اذن ، في بقاء عبد الناصر ! الشعب ! كيف نسي الشعب ؟ الشعب يريد عبد الناصر •

وعلى الكنبة المذرّعة يجلس سليمان • للمرة الاولى تخلو غرفته من الآلات والمفكات والاشرطة • يسحب احدى يديه من تحت ذقنه ، ويسكت المذياع مستغنيا عن نشرة الاخبار • في ضحى ذلك اليوم الذي رقص فيه شيش بيش طربا لنبأ الحرب ، قال له ان العرب سيخسرون المعركة • يتذكر كيف أنه صمت بعدئذ ، وكيف انفجر شيش بيش بوجهه ، ونعته بالبوم والغراب والعميل ، وكل شيء عدا كونه زرقاء اليمامة : تلك الجاهلية التي حذّرت قومها من الموت المقبل

علي أوراق الشجر · واذ صمت شيش بيش قال له بهدوء : ما دمت انت خير ما أنتجته هذه الامة ، فالهزيمة واقعة فيها لا محالة · »

والأن انتهى كل شيء ·

وهو لا يريد أن يعرف كيف حدث ما حدث · بل انه يشعر بنوع من الحنق لهذه التفاصيل الغرقاء التي تعطيها اذاعة لندن عن اليوم الاول للحرب ·
لذلك أخرس المذياع · هذا شعب بلا رسالة ، فكيف ينتصر ؟ شعب يعتقد أن كل شيء في حياته مضبوط وفعّال مثل الساعة ، سوى أن حكّامه ليسوا في مستوى المسئولية ؛ وأنه خير أمة أخرجت للناس ، سوى أن الظروف والاستعمار قد أناخا عليه · شعب بلا رسالة ، رغم وجود الرسالات السماوية الثلاث بينه · بلا ايمان · لا يحركه هدف عظيم ، فكيف ينتصر ؟ النخبة منه غوغانية وجامحة الرغبات ، والبقية حثالة ·

لا أحد يريد حقا أن يعرف · بل انهم يريدون ألا يعرفوا · ويا ليت أن أم خلف تغمض عينيها في هذا الليل الادهم ، ثم تفتحهما في الصباح لتفيق على الحقيقة المؤكدة المريحة : أن العرب لم يهزموا ، وأنها ستعود ·· يوما · وأم إمام تريد غدا سريعا يحمل لها نبأ رجوع عبد الناصر عن استقالته : اذا تداركنا هزيمة ، تداركنا الاخرى · وغادة تضع جبينها على راحتها ، وتبكي · وأسمى تحس بزوغان ودوخة وحرقة تحت أجفانها ، فتمسك بافريز الشرفة وتحدق بقوة في ليل دمشق المثقوب بأضواء الكهرباء ·

ويسترخي علي فوق الديوان مطرق الرأس ، فيما تطوق أمية ساقيها بيديها وترخي وجهها على ركبتيها · في العتم الفضي يلمع جيدها وعيناها الساهمتان · كان اللقاء مديدا ، متشبثا ، بلا قوة ، رخوا ولكن ملتصقا ؛

غلغل فيه شعور أخوة شفيف فترقرق ، وانسلت منه اللهفة والضرام • واذ بدآ يرميان ثيابهما ، رافقتهما سكينة باسمة أوقفها الشوق عن التمدي • رفعت أمية يديها تنتظر انتهاءه ، وتعانقا ، فتفتحت السكينة وصارت حزنا : بهدوء ، واستمرار ، ورسوخ • كأن شيئا فيهما يتحرك ، وهما ساكنان • وعند الخلجة الاخيرة ، أدركا أنهما حزينان ، حزينان بلا حدود ، أنهما انتهيا ـ ربما الى الابد • لذلك دفن وجهه في المخدة ، ودفنت عينيها بين أجفانها • لم يقولا شيئا • حتى أنهما لم يلهثا • وجاء وقت الراحـة ، ولم يكونا متعبين • ولم يكونا مرتاحين أيضا • لم يكونا في حاجة الى شيء بعينه ، ولا راضيين • لا حالمين ولا مستيقظين • فجأة تبدد منهما الحلم ، واعتكرت الحقيقة •

كانا حزينين فقط •

وعلى مقربة من وعيهما تمشّى سؤال هادئ الملامح : كيف انهزم العرب ؟ في البداية انتصر العرب وانتصرت اسرائيل • ثم انهزمت اسرائيل وانهزم العرب • ثم انتصر العرب وانهزمت اسرائيل • ثم انتصرت اسرائيل وانهزم العرب •

تسأله بلا انتظار : « سمعت أن أم صالح ماتت ؟ »

فيهز برأسه • وينتبه الى مكانه في الظلمة ، فيقول : « سمعت » ويضيف : « لا أحد يعرف كيف ماتت • هل تعرفين ؟ »

« ماتت لانها يجب أن تموت • كان قلبها معطوبا ، والذي قلبه معطوب لا يعيش طويلا • »

ثم تصمت • لقد أفلتت الكلمات حاملة معاني أكبر مما تتسع له • وهي لم ترد أن تعلن ذلك •

عندئذ يتأكد أن شيئا ما قد حدث لها : مع أن العالم لم يتغير كثيرا لحدوثه · هذه الشدة ·

يقول : « كنت أتوقع أن هذه الحرب ستميت جميع القلوب المعطوبة · لكن الذي حدث هو أنها سحقت القلوب الحية · كنت أتوقع أن تحمل معها تغيرا باتجاه المستقبل ، شيئا من النوع الذي يجعل موت أم صالح حادثا ضروريا · لكن الام ماتت ودفن معها جنينها · ظننت أننا بعد الحرب سنلتفت الى مشاكلنا الاساسية ، نستبدل أخلاقنـا وعلاقاتنا · سنتمكن ، أنا وأنت من الجهر بحبنا ، واعلانه ناموسا مقدسا لان المستقبل جاء · ولكن الذي حدث »

الذي حدث هو أن عبد الناصر استقال ، وأن الجماهير خرجت الى الشوارع· أن الاسرائيليين والعرب انتصرا وانهزما ، ثم انهزم الاسرائيليون وانتصر العرب ، وأخيرا انهزم العرب · وأن عبد الناصر استقال ، وأن الجماهير الرافضة احتشدت في الشوارع ، في الليـل والشوارع · الذي حدث هو أن الجماهير انتصرت ·

ينتبه الى أمية وهي تتكلم : هذه الشدة · « الذي حدث هو أيضا أن علاقتنا بلا مستقبل · »

تقولها ، وتصمت متوجفة من المتابعة · لا تعرف تماما لماذا : تخشى أن تفاجئه بهذا القرار المتعب للقلب ؟ أم تخشى أن تفاجئ نفسها ؟ يسيطر عليها طبعها الارنبي لحظة ، ثم يشتد فيها شعور معاكس : « لا أستطيع الاستمرار ، » تقول له ·

« هذا شعور موقت ، على أي حال · نحن لن نهزم دائما · »

« لا ، لا · قبل الحرب بزمان · الحرب أوصلته للحافـة بس · كان في

ولكن وضعنا غير طبيعي • »

« الاوضاع في بلادنا كلها غير طبيعية • »

« أرجوك يا علي • لا يمكن ان تلغي كل شيء في حياتنا لان المستقبل سيغيره • »

يشعر أنه حوصر ، أن حجته ضعفت رغم ايمانه القوي بها : « ولكن لا يجوز أن نسمح للاوضاع بتقرير حياتنا • »

« الاوضاع والمستقبل •• وهذه الكلمات الكبيرة يا علي •• دوختني بها • أريد الحاضر ، الحاضر • أنا لن أعيش ألف سنة • الاوضاع قررت حياتنا وانتهى الامر • أنا أم لطفلين ، وزوجة ، وزوجي في السجن • »

« زوجك ؟ فكرت أننا خلصنا من هذا العائق النفسي • ألم نتفق على أني أنا زوجك ؟ » ويبتسم •

« اتفقنا وكان اتفاقنا هوائيا • »

« واتفقنا على ألا تخونيني معه ؟ » ويبتسم أيضا مغالبا ضعفه •

عندئذ ترفع رأسها عن ركبتيها ، تنزل ساقيها الى الارض وتبسط راحتيها على السرير : « أوه ! كرمى لله • أخونك معه • وأخونه معك • وأنا ؟ ألست شيئا غير أني مرتبطة بواحد منكما ؟ أنا ، ماذا أنا ؟ ماذا أنـا ؟ أخونك معه وأخونه معك ، وأنا ؟ ألست أخون نفسي معكما أنتما الاثنين ؟ حتى الآن ، لم أحقق شيئا معك • ولا في المستقبل • ياضيعة هذا الحب •• هذه النخلة الجميلة التي ولدت في قبر • »

وتشير بيدها الى الغرفة ٠

هذا صحيح ، يقول لنفسه ٠ إما أن ينمو الحب وإما أن يذبل ٠ ولقد نما في هذا المدار الصغير حتى ملأه ٠ الحب لا يقف عند حجم معين ٠ لا يستطيع أن يمتلك أبعادا ثابتة : انه شيء كبير ، كبير ٠

ينتابه حس بالضآلة ٠ هذا الشعور ، وهذه الافكار العظيمة عن المستقبل٠٠ أكبر منه ٠ انه عاجز عن أن ينجز شيئا ٠ ولولا أن البشرية قد أنهكت نفسها عبر آلاف السنين لتخط له أسلوبا للتصرف ونماذج للعيش ، لما كان أفضل حالا من انسان بدائي ٠ لقد امتنع عن الحاضر ورفضه ٠ اعتبره زمانا عقيما وزائلا ٠ وماهو يجد نفسه الآن مثل من يدخن سجائر الآخرين بحجة أنه لا يدخن ٠

ترى أمية الى استغراقه فيعضها الندم ، والى ضعفه فيدهمها البكاء ٠ لكنها تدرك أن كل ما بينهما يمكن أن ينهار بلحظة واحدة ، انه شعور بلا قوام ٠ ماذا يبقى منه بعد خروج علي من الغرفة العاتمة ؟ الغرفة : في النهار تحس أنها شيء خاص ، غامض ونافر ، وفيه سر جميل ٠ لكنها مطوقة بغرف ميتة ٠

وأمية لا تحب الأسر الموتي ٠

والذي حدث أن الحرب لم تنته ، والعرب لم يهزموا ٠ وكان ياما كان أن نشبت الحرب أخيرا بين سورية واسرائيل ٠

في الصباح تشيل دمشق بقضها وقضيضها ٠ تهدر الهزيمة والفرح في قلوب الناس اذ يصدر بلاغ عسكري جديد ٠

وفي الصباح تكتب الجريدة :

انتصارات جديدة في الجبهة (مانشيت)

طائرات العدو تتساقط بغزارة تحت نيران مدافعنا المضادة

ابادة سرية كاملة من مدفعية العدو وتدمير مستودع لذخائره ·

٤٦٠٠ أسير صهيوني ·· يصلون الى القاهرة (مانشيت أحمر)

يوم حاسم على جبهة سيناء

الدفعة الثانية من القوات الجزائرية وأسراب الطيران دخلت المعركة

تفاصيل جديدة عن اشتراك أميركا وبريطانيا في العدوان

اذاعات العدو تعترف :

قوات المتحدة تقوم بهجوم ساحق مضاد

أعلنت القيادة العامة للقوات المسلحة في الجمهورية العربية المتحدة أن أن القوات المسلحة قاتلت أمس ···

وفي المساء تكتب الجريدة :

اسرائيل تواصل عدوانها مستهترة بقرار مجلس الامن الدولي

طائرات العدو تواصل غاراتها على مواقعنا وعلى قناة السويس ومدفعيتنا تسقط طائرة ميراج

تدمير ٩ دبابات للعدو شمالي الجبهة وكافة دباباته التي حاولت التقرب من القطاع الاوسط ·

المعركة مستمرة (مانشيت أحمر)

قواتنا تصد عدوانا صهيونيا صباح اليوم وتقصف مستعمرات العدو وتجمعاته

أرتال العدو .. حاولت التقدم باتجاه الجبهة فدمرتها قواتنا بكاملها

مدفعيتنا تقوم بضرب مرابض العدو (مانشيت)

المعركة ليست خاطفة .. وسنستمر لاننا نقاتل العدو الصهيوني وقوى العدوان في العالم

وصول الفوج الاول من القوات السودانية

بلاغ من اذاعة القاهرة :

أتمت قواتنا المسلحة أمس انسحابها الى الضفة الغربية من قناة السويس، وبرغم ايقاف النار الذي التزمت به الجمهورية العربية المتحدة وأبلغته الى مجلس الامن فان قوات العدو الاسرائيلي الذي تسانده قوى الاستعمار ما زالت حتى الآن تواصل هجماتها ضد قواتنا في غرب قناة السويس كما أن الغارات الجوية على منطقة السويس ما زالت مستمرة في حين تواصل قواتنا المسلحة أداء واجبها المقدس دفاعا عن أرض الوطن .

بلاغ عسكري رقم ٥٦ من اذاعة دمشق :

بالرغم من أن قواتنا توقفت عن اطلاق النار حسب قرار مجلس الامن فقد بدأ العدو في تمام الساعة التاسعة والربع في شن هجوم على مواقعنا ..

عناوين جريدة محلية :

تقرير أوثانت : أميركا لم تتوقف اطلاقا عن شحن الاسلحة الى اسرائيل

اقرار من مجلس الشيوخ الاميركي : (مانشيت)

دخول أميركا الى جانب اسرائيل بالمعركة جعلها تبدأ بالعدوان وهي مطمئنة

نداء مكرر من اذاعة اسرائيل :

أيها الجندي السوري ، اذا أردت العودة الى أهلك وذويك سالما ، بادر الى رفع راية بيضاء ووضع يديك على رأسك عندما يتقدم منك جيش الدفاع الاسرائيلي ·

وكانت اذاعة العدو قد لخّصت كل ما حدث بكلمات قليلة · يقول عربي بك ان الطيران الاسرائيلي استيقظ باكرا في الصباح الاول من صباحات الحرب، واشرأب كالطير الأبابيل فوق طائرات مصر الغافية في مرابضها ، وقصفها بحجارة من سجّيل فقأت أعينها · وهكذا انتصرت اسرائيل ، وانهزم العرب ·

« منذ اليوم الاول ؟ مستحيل ! » يقول بسام بك ·

« نعم سيدي · منذ اليوم الاول · »

« هكذا ، هكذا ، عينك ، عينك ؟ »

« عينك أنت ، أبو وائل · أنا عيني ما لها دخل · »

« أنا بحياتي ما مر عليّ شبيهك · هذا وقت المزح ، بشرفك ؟ »

« تريدني أن أبكي ؟ هه· سأبكي· هزيمة ، ويطلع خلقك ؟ واحدة تكفي · »

« الآن ، خلّ المزح · وماذا قال الاسرائيليون ؟ »

« أبا ايبان ، تعرفه ، وزير الخارجية · قال انه سيقعد على دبابة ، ينتظر مجيء الزعماء العرب اليه · »

« هكـذا ! اي ، فشر ، سيدي • العرب لن يموتوا • بس والله ، هزيمـة شنيعة • وغيره ؟ »

« أبو وائل ! قالوا لك إنني بالـع راديو ؟ اسمع الاخبـار بنفسك • أنت مواطن مثلي • »

« والله انشغلت ياأبو نزار • ما سمعت غير أخبارنا نحن • »

« سيدي ، والاميركان وأوروبا الغربية ، يرقصون في الشوارع • يقولون ان الحضارة انتصرت علـى البربرية • أنطوني ايـدن شمتان بعبد الناصر • وليندون جونسون بعث برقية تهنئة لليفي اشكول • »

« طبعا • يهنئون بعضهم بعضا • »

يقولون : أف ! ويلتفتون حولهم بحثا عن شيء لا يعرفون ما هو • شيء آخر ، مختلف ، حلو وناعم ومالح ولذيذ وحامض ودسم ، زاهي الالوان ، جميل الشكل ، عليل الهواء ، رطب ودافئ •• شيء من النوع الذي يملأ عالم الهوى في ألف ليلة وليلة •

ويقول محمود : « الآن فهمنا • حكومة أميركـا وحكومة اسرائيل ربحتـا الحرب • العرب انهزموا • الرابح الأكبر هو أميركا • والرابح الاصغر هـو الحكومات • المهزوم الاكبر هو العرب • »

في الفلاة ، على التراب البركاني الأسود المرشوش بالحصى ، يحمل عباس بارودته ويسير بوجه الافق الشرقي المتعرج • بينه وبين خط السماء الأدنى كتلة جسيمة من الظلام • لكن عينيه اعتادتا على النفاذ في هذا الجسد الداكن الذي لا شكل له • ولو أن ضوءا يفجئه الآن على غرة ، فسترتفع ذراع عباس

الى عينيه وتغطيهما • يسير الهويني ، ويسير • وراءه ، تنبثق من بعيد أصوات متقطعة لطلقات نارية • ليست الاصوات ، بل معرفته بالجغرافيا ، ما جعله يتأكد أن المعركة ، بقايا المعركة ، تقرقر وراءه لا أمامه • لقد دلته الارض على نفسها وأرشدته • هذا هو يومه الخامس بدون نوم • لولا الجغرافيا لما استطاع أن يعرف أين هو ومن هو • تعطلت الملكات والحواس والقوة البدنية، ولم يبق غير الذاكرة : الهزيمة وهذه الأرض •

يتذكر كيف هوت قنبلة من احدى الطائرات وسقطت على مبعدة أمتار من مخبئه • خمسمئة كيلوغرام • وكيف تغطى المخبأ بركام من التراب واللحم والعظام • العريف ممدوح ، والجنديان خالد ومنير ، وربما الملازم موسى • وعندما خرج بعد دقائق وتفحص مكان القنبلة ، وجد فجا عميقا هائلا ملأت المياه الجوفية نصفه •

تلك هي الأرض • لو أن الحرب تبدأ من جديد الآن ، فلسوف يخوض معركة حقيقية ، لامبارزة بالسيوف • معركة الارض ، لا معركة الكرامة والشرف والثأر والبطولة ، وهذه الكلمات التي صارت جوفاء لانها لم ترتبط بالارض • الكرامة هي الارض • الأمور توضّحت الآن • الحرب ؟ لم تكن هناك حرب • كانت لعبة جهنمية ، محبوكة كعقل الكتروني ، مثل مسألة حسابية منتهية لم يبق منها سوى تسجيل النتائج النهائية • وقد قبع في مخبئه كل تلك الأيام ، يتفرج على الضرب والطرح والقسمة والجمع • وفي مساء اليوم الرابع من الحرب ، عرف حل المسألة : انه مهزوم • لا شك أن أميركا شيء قوي ، هائل ، جسيم ومفزع ، شمشون أعمى ، وعلى رأسه قبعة ، بنت الحرام ! كيف رتبت كل شيء ، ونجحت في كل شيء •

على أية حال لقد بقيت الثورة • وهذا هو المهم • العدوان حقّق هدفا :

احتلال الارض ، وفشل في تحقيق الثاني : اسقاط الانظمة العربية التقدمية • بقيت الثورة ، والثورة ستسترد أنفاسهـا • تسترد الأرض ، تصنـع الإنسان الجديد • تقيم العدالة • تقضي على الامبريالية •

من بعيد يلمح بيتـا • ينظـر الى ساعته فيعرف أن الفجر مختبئ وراء التلال • يتجه الى البيت • في البداية انتصر العربي • هو نفسه توغل مسافـة خمسة عشر كيلومترا في أرض فلسطين • ثم اكتشف الفخ المحتم المتربص بين التلال • وكانت الطائرات طوفانا سمائيا ، جحيما تفصّد من كل اتجاه • وهكذا عاد الى مواقعه الاولى ، وقبع يسمع الراديو ويتفرج على الحرب • على نحو ما لم تكن حربا • كانت تحدث حوله ، فوقه وأمامه ، والى جانبيه ، ولكن ليس في متناول يده • وماهو ذا : محارب مهزوم لم يحارب • ويسأل نفسه حانقا ، لا مستفهما : كيف هزم ؟ هؤلاء الامبرياليون شنوا عليه حربا ولم يتركوا لـه فرصة للحرب • كانت أشبه بمـا حـدث للملك سيف بن ذي يزن ، يوم وقف مذهولا وسيفه جامد بيده ، فيما تصطـرع حوله عشرات الآلاف من الجن وتتعالى صراخات مروعة وقعقعة رهيبة ، حتى هبط اليه عيروض لاهثا وأبلغه بنهايـة المعركة • يومها انتصر الملك سيف • واليوم انهزم عباس : لم تكن الجن الى جانبه ـ كانت كلها ضده ، وتأتي من أميركا الجاثمة على صدر البحر المتوسط • لقد أراد أن يقاتل ، لكن أحدا لم يبرز له • كان بالضبط في مثل حالة حافظ ابراهيم الذي قال :

لا تلـم كفي اذا السيف نبا   صح مني العزم والدهر أبى

يلمح في الظلام زولا يقف قـرب البيت • يقف • يظـل الزول واقفـا • يعاينان بعضهما بعضا باسترابة ووهن • يفكر عباس : مـاذا لو أنه عدو ؟ في هذه المنطقة ؟ مستحيل • من السخف أن يشهر سلاحه ويأمر الآخر برفع يديه •

وماذا لو أن الآخر فعل ذلك ؟ مستحيل أن يكون عدوا . لم يتكلم حتى الآن . هذا يعني أنه عدو . ولكن عباس نفسه لم يتكلم . وما الفائدة من أن يقتل أحدهما الآخر ؟

يتقدم بالتعب نفسه . ويظل الزول شاخصا اليه . عندما يصير على مقربة من الغرفة الاسمنتية يضيق ذرعا بوقفة الزول الصامتة . يتحسس قدميه المتورمتين ، ويقرر التخلي عن حذائه العسكري لمن يجيء بعده . منذ ربع قرن لم يمش حافيا . ولكن .. يا لهذا الشبح المثير للاعصاب ! لو أنه يتحرك ، لعنى ذلك رغبة في عدم الاقتتال . وماذا لو كان عدوا ؟ ليتحرك ، هذا الأبله ! البيت على بعد أمتار ، والسماء ضاءت بالفجر ، فليتحرك . ماذا لو أنه عدو فعلا ؟ سيكون في هذه المنطقة مثل خشبة عائمة على بحر . سيكون .. ويبحث في ذهنه عن كلمة مناسبة ، فيعيا . أجل ـ لقد أتعبته الحرب ، مع أنه لم يحارب . صح منه العزم والدهر أبى . كيف هزم ؟ : صح منه العزم والدهر أبى . يمشي . ما باله محرور وساخر بهذا الشكل ؟ على أي حال ، الثورة بقيت ، وهذا هو المهم . تعيش الثورة .

يظل الآخر واقفا محدقا ، وعباس يتقدم . هو أيضا يحمل بارودة . يتحقق عباس ، والمسافة بينهما أمتار ، أنه ملازم صديق . يقترب منه شاعرا بالأنس للقائه ، بالخزي أيضا ، ثم فجأة يقف . أمام الملازم يرى عسكريا جاثما في حفرة صغيرة وقد شبك أصابعه فوق رقبته .

« ما هذا ؟ » يسأل .

« احترامي ، سيدي . ضابط عدوّ ، سيدي . »

« ضابط عدوّ ؟ كيف وصل الى هنا ؟ »

« قال ان معركة صغيرة نشبت بين مفرزته ومفرزة من جيشنا ، سيدي • وعندما أراد الانسحاب وجد نفسه مضطرا للانسحاب شرقا • ثم حل الليل ، ولم يعد يعرف وجهته بسبب الاختباء المتكرر • ضاع ، سيدي • »

« ضاع ، أخو القحبة ، اذن ؟ »

« نعم سيدي • مع أن معه خارطة • لكنه قال انه لا يعرف الارض •• »

« لا يعرف الارض • »

« لذلك ضاع • »

« هذه هي الكلمة المناسبة : ضاع • فعلا • »

« قال ان الضياع حالة رهيبة • »

« هذا صحيح • مثل خشبة عائمة على بحر • بأي لغة تحدثتما ؟ »

« بالعربية ، سيدي • سألني ان كنت ضائعا مثله • »

« وماذا أجبت ؟ »

« بصراحة ، سيدي ، أنا مهزوم ، لست ضائعا • »

« أنت عبقري • »

« شكرا سيدي • ماذا نفعل بـه ؟ لا نستطيع أن نأخـذه معنـا • ربمـا غدر بنا • »

يهز عباس رأسه ويبتسم • يلتفت الى الاسرائيلي : أمن أجل هذا دخـل الحروب ؟ أهذا هو الذي هزمه ؟ هذا الذي يخاف ، يركع ، ويمكن قتله بسهولة،

ولعل له حبيبة ، أو أنه مشتاق الى أمه ، باختصار : هذا الذي دخل الحرب مثلما دخلها عباس نفسه • نقلته آلية عسكرية مثلما نقلت عباسا • ودخل ميدان القتال دون أن يقاتل • وبعد أربعة أيام ، انتصر هو وانهزم عباس • وعندما التحم في قتال حقيقي مع عدوه ، ضاع • وهاهو الآن ، ليس بينه وبين الموت سوى متر واحد وخمس ثوان •

يخاطب الاسرائيلي بالعبرية : « لا ترفع رأسك • تعرف أننا خسرنا معركة ، وان لم نخسر الحرب • أمامنا مسيرة ثلاثة أيام • سنصنع من ثيابك أمراسا مفتلة نربطك بها عند اللزوم • وستمشي أمامنا الى أقرب مخفر • هذا حل • والحل الثاني هو أن نقتلك ، خاصة وأن الحفرة هذه قبر مناسب لك • اقترح عليك أن تختار الحل الاول • ماذا قلت ؟ »

« أمشي معكم • »

عناوين جريدة دمشقية :

أدلة جديدة تكشف الاشتراك الفعلي لأميركا وبريطانيا في العدوان الصهيوني

أسرار العدوان الثلاثي الجديد (مانشيت أسود)

سيتحول الوطن العربي الى مقبرة للغزاة (مانشيت أحمر)

الذي حدث هو أن دمشق هزمت • خمسة آلاف سنة من عمر الحضارة ، أطلقت عليها النار • يالسخف تلك المقالة النارية التي بشرت بنصر تاريخي قبل ثلاثة أيام • فها هو الملك يدور عبر الشوارع ذاهلا مكلوما • وهاهو ذا زمان عاشوراء • المدينة التي عمرها خمسة آلاف سنة هزمت • أذلت • مدافع العدو زأرت في آذان سكانها فهشت على أحلامهم وأبعدتها كما يبعد الذباب عن

العسل • القنابل سقطت عند أذيالها فلطخت الثوب القشيب بالوحل ، وعفرت الوجه الهادئ البدوي بالعار •

وكيف يا امرأة عمورية تحمّلت كل هذا ؟ لقد صرخت فدوت صرختك في أعماق الصحراء • ناديت على البدو فجفلت الاغنام والجمال والخيل • رفعت أعناقها في الفضاء ، وشنفت آذانها تستجمع الصوت ـ ففاتها الصدى • ولبّاك ألف معتصم مسترخ ومعتصم • كانوا قد فرغوا لتوهم من قراءة (الف ليلة وليلة) وتلمظت شفاههم لذة الحلم الرامح في أعينهم الزائغة • لكنهم وثبوا عن الديباج الى ظهور الخيل والجمال والاغنام • وخرجت يادمشق تودّعينهم بالمزاهر والاناشيد الحربية والبلاغات • لذلك بقيت شفاههم تتحرك وأعينهم زائغة • وبدلا من أن يتركوا الليالي العربية . زرقوها في دمائهم ودماغهم • وعندما وصلوا الى عمورية ، كان جند الروم قد وصلوا الى دمشق •

وكيف يادمشق تحملت كل هذا ؟ لقد كشف الغطاء الآن • لن تكفيك عطور الجزيرة العربية ولا مصخرة اليمن كي تستردي رونق محياك العريق • هذه الشوارع حزينة بلا حس • النهود نافرة بلا بهاء • الافواه صامتة بلا جلال • النفوس متكلمة بلا لغة • هذا الياسمين يضوع بلا جاذبية • هذه الزوايا والتكايا والمغارات تغط تحت أغشية العنكبوت • بيوت الطين والخشب أعشاش للبق • الحمّامات التركية والنراجيل والنرد وحلقات الذكر هي الثآليل المنبثّة في جسدك العريق • من صلبك ، لا من صلب غيرك ، ينزلق القار ممزوجا بالحليب الصافي • داخل جمجمتك المغطاة يزدهر العار • تحت النمش الوردي يتجمع الصديد •

وكيف يا دمشق حبلت بكل هذا ؟ أيتها المدينة الصغيرة الهاجعة في حضن الجبل • كيف اتسع رحمك لهذه الهزيمة النكراء ؟ اذا كان وليدك الجديد

عملاقا ، فأية آلات ستقيس حجمه في المستقبل ؟ سوف يمشي الملك عبر شوارعك، وظل هذا الكائن الخانق يحرمه من شمسك الصحراوية الدافئة . وسوف يمسك بيد ابنه الصغيرة ، وفي طريقه الى طبيب الاسنان يحس أن غلالة معدنية سوداء قد انسدلت بين اليدين المتعانقتين . ويوم يكبر الطفل ويصير شابا ، سيسأل : كيف خذلتم دمشق ؟ كيف هزمت دمشق ؟ لماذا لم تقاتل دمشق ؟ وسيجد عنقه مطوقا بربطة عريضة وضاءة ، نسيجها ذل موروث وهزيمة دميمة .

يا أرض خضراء الدمن . يا حلما مراوغا لا ينفضّ . يا جسدا مثخنا بلا عناء . يا أما ثكلتها نفسها . يتعجب المرء من كبريائك العربية المهيبة ، وتطوحات الرمل والبساتين بين فخذيك . ترى من أين دخل التتار الى مخدعك وأنت غافية؟ من (باب شرقي) أم من (باب توما) ؟ من أين الصيلبيون ؟ والترك ؟ والرجل الأبيض ؟ والصهاينة ؟ وأنت ما زلت تنبضين ياقلب العروبة . وأبوابك السبعة مشرعة دائما ، للريح والاصوات والروائح ـ يا موطن آدم وحواء قبل السقوط وبعده .

الآن نشرب ماءك العذب فنتذوق طعم الحنظل . نمشي في الشوارع ونحن نشعر أننا ثقلاء عليها . ونتساءل لماذا لا تنشقّين وتبتلعيننا . هذه الاشجار الجميلة الباسقة ما تزال تظللنا ، نمشي في فيئها الليلي ونحن في طريقنا الى موائد القمار ومشانق الزمن . تركنا أبوابك مفتوحة وكنا نرى الاعداء يتربصون بك . لقد زلزلت الارض زلزالها ، وسألت العناصر ما لها ؟ انه الاعصار ، الهزة الارضية .

أخيرا يسترخي الملك على سور حديقة ، ويوكئ ذقنه على ذراعه . ضوء الشمس اللاهب يغلله ويسبح في الفضاء كسديم قديم . هذه هي الشجرة التي اعتاد أن يدعوها عشيقته . لها أربعة سيقان ـ وليس فقط اثنتان ـ تتفرع

من مكان واحد ، أفقية في البداية ، ثم تنعطف باتجاه السماء عارية حتى منتصفها • في القمة تتداخل الأوراق والأغصان وتنتشر كهالة خضراء • ذلك الاعصار لم يقتلع دمشق ، والهزة لم تبتلعها •

وها هو شيش بيش يقبل من أول الشارع ، رافع الرأس حثيث الخطى • كأن شيئا لم يحدث له • كأن دمشق ما تزال كما هي ، لم تتغير في ناظريه • كأن الهزيمة قد حلت بغيره • للحظات ، ينتاب الملك تشوش محير : كيف يرفع شيش بيش رأسه ، وقد انحنت الرؤوس ؟ صحيح أنه من صنف الناس الذين لا يطيقون حمل الهموم ، ولكن ليس معقولا أن يتسع جوفه لجبل هزيمة يبتلعه بهذه السرعة • وهو يبتسم أيضا !

يصل شيش بيش ويلطم بمقدم حذائه حذاء الملك : « ما لك ؟ قاعد مثل واحد من صعاليك العرب • »

يتأمله الملك متفحصا جامدا • يرى الى فمه وهو يتحرك : « صار شيء للأولاد ؟ ماذا حدث ؟ » ماذا حدث ، ياابن السبايا ، يقول الملك في سره • « أولادك ، امرأتك ؟ آ ، ابنك ، يوجعه ضرسه • متأسف • علي واجب • علي أن ألعق جراح أشقائي المهزومين • ولو أني في الحقيقة زيادة هناك • قصدي ، لو تركت المستشفي ، لما مات أحد متأثرا بجراحه • في الحقيقة أنا عملي ممرض هناك • ياضيعان برتيات المحبوسة وحليب السباع • اه ! ما لوجهك مثل اليوم ؟ ماذا حدث ؟ » •

« شيء بسيط • حدث أن بلادنا انهزمت • »

« آا ! هكذا اذن • أخونا واجعه قلبه على البلاد • أسمي من هذا الرأي• بس يا عبيطين ، البلاد ما انهزمت • انهزم حكامنا الاجلاء• البلاد باقية•والناس

باقية • انهزمت الحكومات ، وحتى الحكومات باقية • أين الهزيمة ؟ لحسن الحظ ، عبد الناصر رجع عن استقالته • والا لكنا بقينا بحكومات لا تعرف كيف تستر عوراتها • عبد الناصر ليس من النوع الذي يقبل بالهزيمة • لكني لا أفهم سبب حزنك • لن يتغير شيء عليك • بعد الهزيمة ستبقى مثلما كنت قبلها • ستبقى محررا خطيرا في جريدة خطيرة ، تصدر في بلد الامجاد والنضال والثورة • بالنسبة لنا نحن ، الهزيمة كلمة • ما علاقتنا نحن ؟ الراديو هو الذي أعلن الحرب ، وأذاع الاناشيد الحماسية ، وبعدئذ أعلن الهزيمة • ما علاقتنا نحن ؟ الراديو هو الذي انهزم • هه هه • أنت زعلان على حكوماتنا لأنها انهزمت ؟ » •

« أنا زعلان على أمي • وعلى أبي • الذي أورثني وطنا مستقلا أحبه • ومكانا في هذا الوطن • وعلى هذه الشجرة • تطلع اليها ، كم هي جميلة • زعلان ، طبعا زعلان • بودّك أن أرقص لأرض احتلها للاعداء ؟ » •

ويجهش ببكاء مباغت • وتندفع يداه الى عينيه فتغطيهما • يسترخي شيش بيش الى جانبه مرتبكا ساخرا : دموع صحيحة ، وحزن ومرارة ، وكل هذه الاشياء ! ماذا يفعل لهذا الصديق الحبيب الى قلبه ؟ ويصمت حتى تنسحب يدا الملك كاشفتين عن ابتسامة صغيرة •

يقول شيش بيش بصدق : « لا أفهم هذا البكاء • الجميع يبكون ، كأن كارثة حلت بالعالم • »

« يا ابن السبايا ، كارثة ، نعم كارثة • ماذا تظنها ؟ كركوز وعيواظ ؟ »

« أنت تتكلم مثل أسمي : مجنون مطبق • نحن شعب ، يا ملك الزمان •

ولا أرى ما يمنعنا عن هزيمة أعدائنا واسترداد أرضنا وحقوقنا · نحن شعب مقاتل أساسا · ولكن يجب أن نعرف من نقاتل أولا ، ثم كيف نقاتل · »

« اذا أتيحت لك فرصة القتال · حبيبي ، هذه الحرب أسقطت ادعاءاتنا ، ومواقفنا · قبل قليل ، أيـام ، كـان موقفنا استرداد أرض ١٩٤٨ · الآن ، ازالة آثار العدوان · يعني استرجاع أرض ١٩٦٧ · ولتسترد هذه الارض ستخسر الوطن كله · من يستطيع أن يرد الارض للعرب غير أميركا ؟ ولقاء أي ثمن ترد لك أميركا الارض ؟ قل لي · لأجل سواد عينيك ؟ » ·

« لا أفهم ما دخل أميركا في الموضوع ! أميركا عدوتنا ، وخططت للحـرب مثلها مثل اسرائيل ·· وها أنت تفترض أن أميركا سترد الارض للعرب ! ونحن مـا شغلنا ؟ » ·

« الاسترخـاء والفرجة · »

« أنت غير معقول اليوم · كأنك لم تسمع بفيتنام ، ولا بكوبا ، ولا ·· »

« كرمى لله ، كرمى للشب ··· كفوا عن تقمص فيتنام · كلما ضربنا على قفانا مرة ، قلنا : فيتنام · يا أخي ، قليل من الحياء ينعش قلب الانسان · »

« الله يلعنك ويلعن قلبك · أنت لا ينعش قلبك شيء · لان عقلك مخـدر بكلوروفورم الهزيمة · »

« يا ابن الفاعلة ، كيف لا يكـون عقلي مخـدرا بالهزيمة ؟ لو أن زلزالا ضرب هذه الارض ، لما اهتزت مثلما هزتها هذه الحرب · »

« لم يهتز أحد سوى الحكومات وعقلك · أنا أراهن أنـك خـلال أسبوع ستعود الى أم تحسين ، ويكفهر وجهك الكئيب فوق أوراقك ·· »

« أنت انسان بليد الحس ، خامد الشعور • عالمك هو عالم الأسنان النخرة واللثث المتورّمة •• »

« وأنت مصاب باليرقان في عقلك •• »

« يظل عقلي أفضل من عقلك السريري المغبغب • »

« اذا كان قصدك القدرة على السفاهة والفظاظة فهذا صحيح • أنا لا اجاريك في سوقيتك • »

وينهض • يدير ظهره للملك ويتابع سيره ، هذه المرة مطرق الرأس •

قبل يومين انعقد بخار حام مماثل فوق رأسه ورأس أسمى • تلك المجنونة• العذبة • والمريرة أيضا • كلهم يتفلسفون ، وفلسفتهم بالونات منفوخة ، يطلقونها في الهواء ثم يخافون منها • وهاهو ذا الملك أيضا • هذا الأحمق • يصر على أن ما حدث كان كارثة من كوارث الطبيعة • قبل أسبوع كان العدو فقاعة• اليوم ، قنبلة ذرية • ان شيئا لم يتغير • سوى أن بعض الروائح الكريهة فاحت في الجو • هذا الشعب لم يهزم • شيش بيش لم يهزم • ولكنهم ألبسوه ثوب الهزيمة وقالوا : امش في الشوارع مهزوما • وهاهم يندبونه • تلك هي روح عاشوراء • يصنعون الشهداء لا لشيء الا لكي يندبوهم • المصيبة هي هذه الجدية القاتلة في استيلاد مشاعر متضخّمة • ويطعنون أنفسهم بالخناجر أيضا• ما يحتاجون اليه هو مزاج أقل جدّية • شيء من روح الدعابة ، ورمية نرد موفقة • قالت أسمى إنها لن تتزوج أحدا من هذا الجيل المهزوم • ما شاء الله• كاهنة معبد بعل ! ستكرس نفسها للاشياء العليا • ماذا حدث ؟ قبل الحرب كان الجيل في المقاهي • وبعد الحرب ، سيبقى في المقاهي • ومع ذلك يقولون لنا اننا انهزمنا • وأسمى تقول ان طاقما كاملا من التفكير ونماذج العيش قد انهار •

صحيح ، يجب أن نتعلم شيئا من الهزيمة · لكننا نحن لم نهزم · سوف تركل الحب والزواج وانجاب الاطفال بسبب هزيمة لا ناقة لنا بها ولا جمل · وهي تزدري كل ما حققته الأجيال الجديدة من تقدّم : يجب أن يبدأ شيء من نقطة الصفر · أي شيء؟ انها حتى لا تعرفه · كل إنجاز يجب أن يُرفض ا اندحار البرجوازية تعتبره صفرا · هذه هي آراء أخيها المغرور · ذي التواضع المتعجرف والبساطة المصنوعة ، ثوري وينطرح على صديقتهكحيوانات البرية · حتى أنها ليست خطيبته · مرحبا ثورة !

فجأة يملأ رئتيه بالهواء ويزفر · انه لم يعتد على هذا الحجم من المرارة · الهموم كانت دائما شيئا ثقيلا على قلبه ، حملا لا قبل له بحمله · صحيح أنه ينفعل بها ، ويتحمس ويثور ، ويعلو صوته الى السماء · ولكن الى حين · فاذا لم تنجل ، أدار لها ظهره ومضى · ولأن الهموم ذات طبيعة حرون ، كان غالبا يدير لها ظهره · ذلك هو الحل الأفضل · خاصة في هذا العصر المتشابك المرهق · الامبريالية ، واسرائيل ، والتحرر ، والاشتراكية ·· من ترى يستطيع انزالها في جيوبه ؟ لقد خلق الانسان للفرح والحب ، لأكلة فول دسمة مع مقبلاتنضيرة · لغسلة في الحمّام البلدي · سيران في الغوطة · مباراة نرد حامية الوطيس · أما أن يأتلف مع الهمّ ، وينطح الرواسي ، ويدقق في كل شيء ، وكلما انفتقت درزة يخيطها ·· كيف بالله يقبل هؤلاء على تضييع حياتهم وارهاق أنفسهمبهذه الجدية ؟ وما بالهم كأن صاعقة أصابتهم ؟ هزيمة ، قال هزيمة ! فليلعق الوغّاؤون زبد أفواههم ، ويتركوا لنا أفراحنا الصغيرة · حتى هذه الموطوءة غادة ، صارت جدية ، وقررت تغيير حياتها فيتّمت سليمان البائس · وهذه ساحة الأمويين لم تتغير · لا شيء يغير ساحة الأمويين · ليست لها علاقة بالهزيمة وهاهي السيارات تمر عليها مثلما مرت عليه إغاظات أسمى والملك · إنه باقٍ ·

كهذا الشعب • وهذا التاريخ • ونهر بردى والغوطتين ورمال الصحراء • وهنيئا لغيره تلذّذهم بالحزن من هزيمة ضرورية •

وتكون أمية مطرقة الرأس ، وكذلك علي • جاء ليطمئن عليها وعلى الأولاد ، ويسأل ان كانوا في حاجة الى شيء • لذلك لم يكن ثمة خوف من التشكك • منذ ثلاثة أرباع الساعة يجلسان صامتين تقريبا ــ هذه المرة في البهو وفي رابعة النهار ، ونور الظهيرة يتدفق فيصل بعض ضوئه اليهما • منذ عهد بعيد لم يجتمعا في الضوء ، منذ لقائهما الحميم الاول • وهاهما في الضوء مرة أخرى • وبين الضوئين مسافة حلم سوداء ، استترت تحت ليلها الأغبر زهرة حب سوداء شمّا رائحتها الزكية وهما مغمضا العيون • في الصمت أرسلا كلاما كثيرا وتفوّها بالقليل • عندما اتصل بالهاتف وقال انه سيجيء ، صممت على أن يكون اللقاء أخيرا • ثم رأته على العتبة ، وجهه كامد وعيناه مشوقتان ، فعرفت أنها لن تستطيع • عرفت أنها اتصلت به الابد • لكنها ظلت صامتة • حيّا ، ودخل ، وسلّم على الاولاد ، ثم انصرف الاولاد • وجلسا • غمغم أنه فكر طويلا بكلمات الليلة الاخيرة ، وصمت •

وبقيا صامتين • كان الفراق حاضرا ، وكان أثقل من الموت •

قالت لنفسها ان الفراق محتّم • وآنئذ هزّها هلع مريد • ولأنها تنوء بثقل الهموم ، اندفع خيالها المقهور الى صورة مألوفة لبيت صغير يضمّهما معا • وتمدّت بها الصور بقدر ما نفذ اليها الهلع • بيت مفروش بأرائك الخيزران ، وسرير عريض وخزانة واحدة • تدخله الشمس ، على الأقل من احدى جهاته • وفي ركن من البهو توضع المكتبة ، وطاولة صغيرة يصحح عليها أوراق تلاميذه أو يكتب • وهي ستأتيه بفنجان القهوة • تضع الفنجان الى يساره ، ثم تعانقه من الخلف وتقبله دون أن تلهيه عن عمله • وقد يترك عمله لبضع دقائق

ويجلسها على حضنه ، أو ينهض فيختطفها عن الارض ويلف جسمها حول صدره وظهره ، كما كان يفعل ، آه ، كم ان ذلك جميل .

ولكن .. أتراه يتزوج مطلّقة ؟ وهكذا عاد اليها الهلع . قال انه فكر بكلمات الليلة الأخيرة . جاء يعلن النهاية إذن . كيف خطر لها أن تطلب ذلك الطلب ؟ كان بوسعهما أن يستمرّا الى ما لا نهاية . أية أنانية منها ، وأي غرور أن ترغب في أن تكون مخلوقة لها كيانها . في الفترة الأخيرة ، صار ترتيب لقائهما صعبا . وكان ذلك بتعمد منها . لقد دأبت على تأجيل الموعد ، مرة ومرتين ، وعلى الاعتذار بأسباب معظمها مختلق . وفي مرة قالت إن نواف في البيت ، ولم يصدقها . عرف أنها تختلق الأعذار . دق الباب بالطريقة نفسها ولم تفتح . يا لذلك الليل كم كان مروعا ، ونواف مستلق على ظهره يتظاهر بالنوم وينتظر دخوله .

واذا تزوّجا ؟ لن يتغير في حياتها شيء.ستبقى عالة عليه . سيختلف الوضع قليلا ، لكنها ستظل عالة عليه . يطعمها ويكسوها ويكون مسئولا عن البيت ـ يعني سيداً مطلقاً له . أوه ، إنه سيدها المطلق ، غير أنها لن تحبّه بحرية ، ولن ينتبه الى انه في حاجة لها . أية انسانية في علاقة لا تكافؤ فيها ؟ صحيح أنه يحبها ، ولكن .. واعتراها وجوم مستغرق ، وطفت عليها لجّة أفكارها .

« تشرب قهوة ؟ »

« من فضلك . »

واحس بكلمتيه المدورتين تتدحرجان عبر فمه وتخرجان ككرتين من الثلج . يا لهذه الغربة المروعة ! كل ذلك لأن عليه أن يتخذ قرارا . عندما تكلمت في الفراق ، أحس أن بساطا قد سحب من تحت ركبتيه ، وأنه يهوي الى قرار

سحيق • لوهلة انتفضت أعماقه كمن لدغ فيها : انه مرفوض ، ولن يقبل بنهاية كهذه • ثم تماسك ، ورقرقت في جبينه مويجات الحب اليتيم ، فصفت سريرته وهدأت على مدّ الحزن • وكان الليل لباسا •

في النهار التالي حاول أن يهرب • كان عليه أن يتخذ قرارا ، وشقّ عليه اتخاذ القرار • هل يتزوج مطلّقة ؟ وأحس كما صدمة من شيء لا مادة له هزت بدنه • لم يكن من قبل واعيا بهذا السؤال • وأحس بضميره يتدى • قال لنفسه : ليس كونها مطلقة ، وانما لان فكرة الزواج لم تخطر له في أي وقت • وعندئذ ازداد ضيقا لانه ازداد كذبا • لقد حاول تبريرا لنفوره الغريزي فسقط في جرم أكبر • لماذا اذن دخل مخدعها في ذلك الليل وقال إنه يعتبرها زوجته ؟

وها هو يعود الى فخ الكلمات ومعانيها التقليدية • زوجته • ذلك يعني أنها كلّ شيء بالنسبة له • الحب واللجوء ، ونقطة المنظور على أفق الحيــاة السديمي • الاطار الحاضر غير المرئي الذي يستوعب انسياح زمانه وصبواته • ليس مقدما ومؤخرا ، ولا ورقة وتوقيع قاض شرعي • هو رفض الحاضر • لم يكن مزاحا ولا غلواء فكر • رفض فعلا كل ما وصلت اليه حياة البشر من صيغ ورأى معنى حياته الحقيقي في أيما رفض ينقذ منه الى خارج هذه الأطر الحجرية والصيغ الميتة • التجريح والتخزير للعروق المحتقنة بالصديد ، كي يفسح المجال للدم النقي أن يتقدم حاملا معه أجنة الحياة •

على أنه وقع في الاحبولة • بعد كل شيء وصل الى السؤال المرفوض : هل يتزوج ؟ وهو لا يريد أن يتزوج • لا يريد أن يستقر في مستنقع آسن • وهو لا يريد أن يترك أمية • ولا يريد أن يسبب ضياعها • ومرت فيه موجة برد قانئط : يسبب ضياعها ؟ هو يسبب ضياعها ؟ لا يريد أن يكون مجرما الى هذا الحد • لقد قبل أن يجرح ضميره هنا وهناك بفعل مواقف ينبغي أن يتخذها •

تلك المناطق المجروحة ، هي مناطق موروثة لم يستطع اجتثاثها ، ولا يهمه كثيرا أن تجرح • لكن الجرح الحاضر غار الى منطقة صنعها بنفسه : صدقه الشخصي ومعيار حقيقته • وهو لا يريد أن يعيش كاذبا • حتى عهد قريب ، كان يعيش ظلا بلا قوام مرميا على الزمان والمكان • وكان راضيا : لن يدخل في تجربة تخضعه لنواميس مرفوضة • ومن الافضل ، اذا لم تمض التجربة بحسب ناموسه هو ، ألا تمضي اطلاقا ، والا تكون • لا يريد أن يكون عباسا آخر ، أو أي رجل ، يموت في حياته مع عائدة أخرى •

ولكن ماذا يريد ؟ لو أنه يعترف ، لقال أنه لا يريد أن يتزوج أمية • أهذا صحيح ؟ وهل الحقيقة بلقاء على هذا النحو ؟ قد توجد الحقيقة في عبارة ملطفة أقل فظاعة • ليس لان ثمة مجتمعا يطالب بوثائق كيما يعترف بالعلاقات ، بل لان أمية نفسها تريد أن تحقق ذاتها ، وهو خائف من إعطائها الفرصة • تلك هي المشكلة ، وذلك هو موطن نذالته • ان انسانة تحتاج اليه لتحقق ذاتها ، وهو خائف من اعطائها الفرصة ، أو رافض • خائف أم رافض ؟ عديم الثقة أم نذل ؟ أهون الحالين شرّ • هذه التي احبها ولجأ اليها ، واحبته وغمرته بعطاءات حواء الخالدات ، أمية التي أعطت سحبه الدفء اللازم كي تسقط مطرا ، تريد حصتها من ماء السماء •

يتصور المحامي والقاضي والطلاق ، ثم المحامي والقاضي والزواج • ويحس بخواء فاغر في قلبه ، وذيول لا تمحى من حياة سابقة ، والنظرات الملغومة يوجهها له الآخرون • ثم الزواج ! مأتم الحرية وبعث المتاعب والهموم • الحب الذي يتآكل بفعل الاعتياد ومطالب العيش اليومية • الاطفال الذين سيجيئون الى هذا العالم وهم يسألون : لماذا أتيتم بنا ؟

ذلك عبء لا يستطيع سديمه أن يحتمله • وسواء أكان القرار عنوان

ويكون إمام وسليمى مطرقين • ومحمود مسترخيا على جذع شجرة جوز ضخمة • تتحرك سليمى فتطوق بذراعها ركبة إمام المنتصبة وترخي رأسها عليهـا •

يقول محمود : « كف عن نبش الاوراق بصولجانك • أثرت أعصابي • »

فيرمي بالغصن جانبا • يمد يده الى شعر سليمى المنسدل على فخذه ، ويلعب به • « هذه الغصينات النحيلة أطرى وأنعم • » تشد سليمى بأصابعها على ظاهر ساقه وتبتسم • تقول : « مضى النهار • ترجعون ؟ »

يقول محمود : « يا الله • نأكل فول في باب الجابية • »

تقول سليمى : « وأسمى ؟ »

يقول إمام : « أسمى تشتغل فدائية • عشقت المستشفى • »

« في المستشفى حتى الآن ؟ انتهى الشغل • فات أسبوع على الحرب • »

« لا • أمامها شوية خناقات مع الدكتور • تريد أن ينتهيا بلا زعل • »

« خناقات ؟ صحيح • طباعهما متشابهة ، وآراؤهما مختلفة • »

« لا • ليست خناقات شخصية • يتجادلان في الحرب • نتائجها بصورة خاصة • »

يقول محمود : « سمعتم آخر الاخبار ؟ »

يصمتان ، وينظران اليه مترقبين : « يجري الاعداد لعقد مؤتمر قمة عربي • »

« انتصرنا ، » يقول إمام • « اذا انعقدت القمة ، فرطت القاعدة • النصر الذي حل باسرائيل ، سيتحول الى نصر حقيقي • والهزيمة التي أحرزها العرب ستتحول الى هزيمة حقيقية • »

ترفع سليمى اليه رأسها ، وتتأمله مستغربة : « ما هذا الكلام ؟ كأنك أستاذ بقسم اللغة العربية • »

« تريدين أن تقولي إنك طالبة جامعية ؟ كيف يتكلم أساتذة قسم اللغة العربية ؟ »

« تحس كأن كلماتهم طالعة من عند الكوافير • »

« لا • أنا أتكلم بلغة مقشرة • نصر اسرائيل هزيمة لها ، في المآل • لان هزيمتنا يجب أن توقظ أمة العرب باكملها وتوجهها نحو النضال الحاسم ضد الصهيونية • نصر اسرائيل المذهل هذا سببه حالة الخدر التي نعيشها • والشعارات الخلاسية التي أطلقتها البرجوازية الصغيرة • الآن ، البرجوازية الصغيرة هزمت • تأكد عجزها التاريخي عن مواجهة الامبريالية وقيادة الامة العربية • واذا صح وانعقد مؤتمر القمة ، فهذا يعني أن البرجوازية الصغيرة بدأت أول خطوة في مسيرة ألف متر للارتماء نهائيا في أحضان الامبريالية • الاعظم لم يأت بعد • ونحن يجب أن نبدأ • »

يقول محمود : « هزيمة ١٩٤٨ حلت بالاقطاع المتبرجز وحلفائه وكان بعيدا عن الشعب وعاجزا عن تجنيده ، وغير مخلص أصلا للعرب • بعد اثنتي عشرة سنة استطاعت البرجوازية الصغيرة أن تحتل مساحة لا بأس بها من مسرح

السياسة العربية • وظنت نفسها قادرة على أن تتصدّر ، بعد أن سرقت أفكار الثورة الاشتراكية وسلمتها للحلاقين فصنعوا منها شعارات وضعتها على جماجمها • »

« يا سلام على التعابير القوية الجميلة • هكذا يتكلمون ، يا أستاذ إمام • وفي عام ١٩٦٧ انهزمت البرجوازية الصغيرة العربية • وهي أيضا كانت في واد والشعب في واد آخر • متى تحلّون محلّها ، يا طبقة كادحة ؟ »

« طبقة شقيّة ، لا طبقة كادحة ، » يقول محمود • « الله يعلم متى تتشكل عندنا طبقة كادحة • »

« ولكن ثمانين بالمئة من العرب جائعون • لماذا لا يخلق الجوع منهم طبقة ؟ »

« المجتمع العربي نفسه سائب التركيب • التركيب الاقتصادي سائب • لا مصانع تصنع منهم طبقة • »

« أنا غير مستعدّة للانتظار حتى تجيء المصانع ، وبعدئذ تتكون الطبقة الكادحة • أريد أن أستلم الحكم الآن ، بدون ابطاء • من سيأتي بالمصانع ، وخاصة في اقتصاد زراعي مثل اقتصاد البلاد العربية ؟ المسألة طويلة •• »

« لا ، » يقول إمام • « اذا لم يكن عند العرب مصانع تصنع الطبقة العاملة، كما يقول جناب الفصيح ، فالحرب تصنعها • خلّي فقراءك يحاربوا ، يا ستّ على طول الارض العربية وعرضها • هذا هو الحلّ • بعد أن يقيموا تحالفا قوميا من العمال والفلاحين والجنود وجماهير البرجوازية الصغيرة والمثقفين الثوريين • وهؤلاء يجب أن يبدأوا حربا عربية على الطريقة الفيتنامية • الآن فورا يجب أن نبدأ • »

تقول سليمى : « حضرتك ، من أسبوع ، مغرم باستعمال كلمة : لا • هل اذا قبّلتك ستقول : لا ؟ »

« لا • انما لا تعضّيني • نحن طلعنا مهزومين من الحرب ، ولازم أنّا نقول : لا • »

يقول محمود : « تعرف أن العرب لم يحاربوا اسرائيل أبداً ؟ منذ قيام اسرائيل وهي تحاربنا • عام ٤٨ و ٥٦ و ٦٧ • »

« هذا هو قصدي • »

وفي زمن ما يفيقون • كل بحسب أجله وأمله • ينهضون • ينفضون رؤوسهم كما تنفض النسوة قطعة قماش غبراء • لكأن النوم قد نهض معهم ، ويريدون إبعاده • أو كأنهم ، لكثرة ما أفاقوا ، داخوا • أفاقوا يوم اجتُثّت فلسطين من جسدهم عام ١٩٤٨ ، وقالوا هذه يقظتنا الحقيقية • وظنّوها نهائية • وأفاقوا يوم مادت بهم أرض سيناء عام ١٩٥٦ • وظنّوها نهائية • وأفاقوا يوم دفن الربع الخالي في القدس عام ١٩٦٧ ، وتطوّحت دمشق ، وهاج بحر القاهرة • ويظنونها نهائية •

يقول عباس : « قنبلة وزنها خمسمئة كيلوغرام ، رأيت فيها وجه الموت • » ولبرهة واحدة تخرج من عينيه المعاني التي أراد لمستمعيه أن يلتقطوها : التجربة الفريدة ، عالم الحرب الآخر ، وعباس الذي شاهد وسمع وشارك ، ونجا من الموت • لبرهة واحدة تدخل في عينيه صورة الموت وتكون جميلة ومشتهاة • لقد انفلشت أسطورته • تمرّغ مبرّره • من أين يستقطر بعد الآن ما يكفي لاحترام الذات ؟ أو على الاقل : الآخرين ؟ تخرج الصورة وتدخل عبارات التهليل والاشفاق والارتياع • ثابت الجنان كان ، مثل الرجال

الحقيقيين . يقول طلعت بك : « بصراحة ؟ أنا هربت ، ليس من المعركة ، وانما حتى من دمشق . الشهادة ، أن سيادة المحافظ بطل . » اليه ينظر سيادة المحافظ ، بشكر منظور ولعنة مستترة . وتقول أم أحمد بهدوئها الأنيس : « كلنا خفنا عليك . لماذا لم تبق هنا ؟ ليس قليلا شغل المحافظ . هذا قيام بالواجب مثله مثل الحرب . » عندئـذ تتسلّق عباساً أريحيته ، ويتّسـع : « لا تغلطي يا ست أم أحمد . صحيح نحن ما قمنا بالواجب في الجبهة ، ولكن الوطن فوق كل شيء . » تعود الى عينيه الصورة ، ويتابع بنبرة غامضة الايحاء : « صدقيني ، لو أني متّ بشظية من تلك القنبلة ، لكان أفضل . » ويتذكر بغتة أن شيئا ينقص هذا الجو الودود ، فيستدرك : غادة . لم تكن غائبة عن ذهنه تماما ، غير أنها الآن حاضرة تماما . أتراه كان يقول كلاما بمثل هذا الانفتاح لو أنها موجودة ؟ على الاغلب . بل ، بالتأكيد . بل ولكان شعر بشيء من البطولة فعلا . ثمة فرق بين فهلوية هزيلة يبذلها أمام هؤلاء ، ومنفخة يودّ بها أن يبهر غادة . تعيده الكلمات والصيحات مرة أخرى الى أصحابها ومطلقيها : لا سمح الله ! ضيعان شبابك يا أبو اؤي ! له ، يا أخي عباس ، ما لك حق ! نحن خسرنا معركة ، ولم نخسر الحرب . ويقول عباس : « المهم سيدي ، أن الانظمة التقدمية لم تسقط . هدف العدوان الأساسي ، كان إسقاط الأنظمة التقدمية . ونحن باذن الله ، سنعرف كيف نزيل آثار العدوان . »

يقول أبو تغلب : « ولكنك لم تحك لنا عن الحرب . كيف تقدّمتم . كيف تراجعتم . ماذا حدث ؟ بالضبط . »

ويتمدّد عباس : « المهم .. الحرب مضت .. المهم أن نكون واقعيين ونعترف بالحقائق . الهزيمة حلت بنا منذ اليوم الاول . من هنا ضرب الطيران المصري ، من هنا انتهت المعركة . ما بقي كان اجتياحا لارضنا من قبل العدو . صحيح

صارت معارك • الجيش المصري خاصة • لكن نتيجة المعركة كانت منتهية • أما أنا فأقول ، لو لم يتلق الطيران المصري تلك الضربة لتغيّر كل شيء • كان تغيّر وجه التاريخ • انما الحرب خدعة ، كما يقول النبي عليه السلام • »

يرين عليهم الصمت ، وتتراكم نظراتهم فوق عباس • يا للغفلة الهزلية التي أنجبت مأساة ! وترمح عيونهم فوق خارطة فلسطين المنطبعة على أذهانهم منذ أيام دروس الجغرافيا • الآن أضيف اليها مساحات شاسعة في الشمال والجنوب • الرقعة الصغيرة من الارض صارت بغتة مسافة مضنية للمعين • أهذا هو الحجم الحقيقي للعدو ؟ أم أن الوطن العربي يصغر ، وحجم العدو يكبر • وذلك كله لسبب تافه مغيظ •

في المغيب الاصفر ، بظلاله المغبرة ، وضوئه المتسحب ، وأصواته المسموعة خارج الآذان ، وغباره المرئي خارج العيون ، يقول عربي بك : « أبو وائل ، كل شيء ، ولا تكفر • تعرف أن القعدة معك حرام شرعاً ؟ لا يجوز الجلوس مع من يكفرون • »

ويرد أبو وائل متهيجا : « هذا عدل ، اذن ؟ من الارقام كلها تحتاج لجهار ، وتجيئك جهار ! يلعن • • • هكذا زهر • أخي مئة مرة قلت لك لا تمسك الزهر • ألعب مثل العالم والناس • »

يقول عربي بك : « كيف ألعب مثل العالم والناس ، وأنت تمنعني من مسك الزهر ؟ كيف أدحرج الحبتين اذا لم أمسكهما ؟ »

« بدأ أخونا يتكلم مثل الزعماء العرب • يخلق معضلة من تركيبة لفظية • أنت نجاحك مثل الاسرائيليين ، غدر وضربة حظ • أخي واجهني ، رمية حرة برمية حرة • »

« لا • خضّ الحبتين ، وارمهما • »

يخضّ أبو نزار الحبتين ، ويرميهما : « شيش جهار ، مليح ؟ ها عملت كما قلت لي • » يلتفت الى شيش بيش : « دكتور ، بالله عليك ، اللعب نظيف أم لا ؟ أنا اقبل بشهادة الدكتور • »

« الدكتور يشهد معك ، هذه معروفة • رجل يحبك ، تريده أن يشهد ضدك ؟ »

« والله الدكتور رجل محترم ، وذمته طيبة • وصلت تشكّ بأمانته هو الآخر ؟ »

« لا والله • حاشا لله ! انما الدكتور يحبك ، ونحن نعرف بعضنا • شعب عربي ، أخي الدكتور ، لا تزعل مني • »

« لا زعل • »

« شعب تهمّه الصداقة والعلاقات الشخصية ، أكثر مما يهمّه القانون ، فهمان أخي ؟ »

« فهمان تماما • »

« أيوه • ويحكون لك عن هزيمتنا أمام اسرائيل • الحرب ، اخي ، تتطلّب عقولا متحضّرة • الحرب مسألة هندسية • خذ الزوايا ، خذ الاحداثيات ، ارسم خطوطا ، تصل الى النصر • هذه هي الحرب • نحن عقلنا عقل بدوي • عصبية

قبلية بأشكال جديدة · ضع القانون والتزم به ، تنحلّ مشاكلك · حبيبنا أبو نزار يتلاعب · أخي ، قانون علي وعليك · لا · لا ! القانون له وعلى غيره · »

« أنا برايي ، يا أبو وائل ، أنك ترمي الحبتين عني · وأنا أقبل بالذي يبعثه الله · ما رأيك ؟ »

« ما زال يقول لي : يبعثه الله ! أخي رمي الزهر مسألة حساب احتمالات وأرقام كبيرة · · · »

ينظر شيش بيش الى ساعته ضجراً · كيف لا يهزم شعب لا ينضبط بمواعيده ؟ هذا الآفة ، سليمان ، كان ينبغي أن يمثل أمامه قبل ربع ساعة · يتطلع الى مدخل المقهى ولا يرى سليمان · لو يراها الآن ، ولو عابرة كالطيف · هذه المجنونة · يلتفت الى صديقيه الكهلين ، وقد استغرقتهما اللعبة وانفجار الحجارة على رقعة الخشب · يستوعب الوضع بنظرة واحدة · على اللوح الاسود الصغير ، وضعت اربعة خطوط طباشيرية بموازاة أربعة خطوط أخرى · هذا هو الشوط الحاسم اذن · من يربحه يربح المعركة · وتسرع قدمه الى لطم قدم عربي بك بالحاح : انتبه الى لعبة قاصمة ، تقول القدم للمقدم · تتوقف يد عربي بك في الهواء ، وكانت تهم بلعبة أخرى أبعد ما تكون عن حسم نهائي للموقف · تمتد اليد الى الشفة السفلى وتمسح زاويتيها · يقول لنفسه : أين هي اللعبة ، يا عربي ؟ أية حجرة تحرك ؟ كل هذا العمر ، ولم تتقن لعبة ·

ويتأكد مرة أخرى أن شيش بيش ملك الطاولة · ينهض اذ يلمح سليمان وراء الزجاج · يلتقيان عند المدخل ويسلمان · يسأله شيش بيش بتعب مفاجئ : « ما الذي أخّرك ؟ » ويقول سليمان : « الملك · أصرّ على المجيء · » « الم تقل له أن يقلب وجهه الأجرب ، ويلتعن في بطن أمه ؟ » « كلا · قال إن بودّه أن يعتذر · ورأيت الفكرة حسنة · هيا لا تكن عنيدا · ما أحلاكم وأنتم

في المطعم يلتقون • ينهض الملك رازحاً تحت ابتسامة منتظرة • ينظر اليه شيش بيش شزراً : « يلعن والدك • »

« يلعن أمك • »

« هكذا جئت تعتذر يا صعلوك ؟ »

« وهل تفهم غير هذه لغة ؟ جئت لان سليمان قال : ليس معقولا أن تخاصم شيش بيش • هذا خُلق لأن تحبه وتغفر له ، لا لأن تتربص بخطاياه • ألم تقل إنه رمز لامة بأكملها ، يا حضرة الاديب المصقع ؟ »

« هذا كلام حسن • »

« طيب • أنا جئت أعتذر • هات بوسة من هالشوارب • »

يتعانقان • يتبادلان القبل • والآخرون ينظرون مبتسمين • يتمددون على الكراسي الجلدية • الطاولة أمامهم مستطيل مجلل بكؤوس الخمر • والمساء النافر بوجه المصابيح يتدفق في المليل الاغبر ، ويلمس أبصارهم كمارد اعتمر طاقية الاخفاء • المساء القديم الجديد ، الغريب المالوف • في الصمت الغفل تولد كلماتهم وتموت ، تحضر اليهم الاشياء محمولة على رمل الخاطر • وبين اللحظات يبدلون نوع جلوسهم واتكاآتهم • يحتسون مزيج العرق الابيض ، وبعضهم يوحوح مستطيبا مذاق المزيج البرود •

ثم تتقدم ساقا الزمن الشبحيتان واحدة بعد الاخرى • تارة تزحفان وتارة تنسلان ، وثالثة تعدوان • وان الى ربك الرجعى •

في ذلك الصباح تجوس أم إمام في البيت ، تتأمل محتوياته ٠ تقف أمـام النافذة ٠ تتأمل السطوح الطينية الملتحمة وعلب الاسمنت الضخمة ، أعشاش الحمام والبشر والالواح الزجاجية العاكسة ٠ ترتد عن النافذة ٠ تتصفح المقاعد العتيقة والخشب المتآكل ، الشراشف الرخوة ، هيكل الدرج الرجراج المصأصيء ، جهاز التلفزيون الناشز بين مجموعة الأشياء البوالي : هذا هو كل ما تملك ، هذا هو إرثها ٠ حتى أولادها لا يملكون شيئا ٠ وهذا الولد الغريب إمام ، يرفض حتى أن يملك ٠ مع أن مركزه ٠٠

تنتابهـا حيرة اعتادت عليها دون أن تتقبّلها : هــذا الولد إمام : لا بيت لا سيارة ، لا أثاث بيت ، حتى ولا هاتف ، ولا قرش أبيض لليوم الاسود ٠ ومع ذلك هو راضٍ ، ورخي البال ٠ حتى لقد أدخـل في عقلها بعض الافكـار ٠ في صباها كانت تتلهف لبيت من حجارة ، فيه ستائـر نظيفة وسجادة أو اثنتان ٠ ويوم تزوجت عزمت على وضع القرش فوق أخيه لتشتري غرفة استقبال تبيض الوجه ٠ وفي مكان القرش تجمع الألم والمرارة ، ثم اليأس ٠ وشب إمام فتعلـم ألا يملك ٠٠ علم غريب ٠ وعلمها أيضا ٠ وعلم هذه المجذونة أسمى ٠ كل مافي البلد من متاع لا يهمّه ٠ انما هو متاع الغرور ٠ وهو لا يحسد أحداً ٠ ويبتسم كلما تحدثوا عن مشترياتهم ٠ هذا الولد الحبيب إمام ٠ الغريب ٠

يضيق صدرها بالفراغ ، فتتلفع بشال هـرم وتخرج ٠ الفطور جاهـز ، وليس على أبي إمـام سوى تسخين الشاي ٠ لا بأس ان تركته مـرة في الشهر يفطر بمفرده ٠ يزيدها ضيقا شريط ذكريات قديم ينبثق للتو في خاطرهـا : عام ١٩٣٨ وبعد أن أخمـد الانكليز والصهيونيون الثورة ، قتل الصهيونيون أباها واخوتها ، عام ١٩٣٨ استقرت وأمها عند أقربائهما في دمشق ، عام ١٩٤٠ انتقلت الى هذا البيت مع أبي إمام ، عام ١٩٤١ ولد إمام وماتت أختها قهرا ٠

تقول لها أم خلف : « أوه ! جئت ! » وتعود أدراجها مطمئنة الى أن المرأة الثانية تتبعها • « برد الشاي • » وتمضي بالاباريق الى المطبخ • تزفر أم إمام كمن تخلصت من عبء مرهق • تقول : « بيتكم يا أختي ، غير شيء • » وتتناول فنجانين وصحفتين وعلبة السكر • « أراك اليوم مبسوطة ، الحمد لله • والله خفت عليك من طول الهم • » تغدو الى البهو فتضع أشياءها على الطاولة • تتذكر الملعقة فتعود الى المطبخ • « وأنت اليوم متكدرة ، » تقول لها ام خلف ، دون أن تنظر اليها • « شوية • » « صار شيء ؟ » ترفع رأسها علامة النفي • « صار شيء فتحية ؟ » تنتبه أم إمام الى أن اشارة رأسها لم تبلغ صديقتها المنصرفة الى مراقبة الشاي • تقول : « لا شيء • تذكرت هذا العمر الشقي • »

تنتقلان الى البهو • وتتابع أم خلف واجب الضيافة • « البارحة حكى لي محمود عن الفدائيين • » « اي ! » « قال يمكن يطلع منهم شغل له وزن • » « كيف يعني ؟ » « قال عندهم طريقة في الحرب غير شكل • لا يعرفها الصهاينة • لا يقدرون عليها • »

وتتأملها أم إمام وهي تحرك السكر في الفنجان المليء : هذا هو سر فرحها ، اذن •

« وماذا يطلع منهم ؟ اذا الكبار فلّشوا • »

« قلت لمحمود مثل ما تقولين ، وكان جوابه : لا تغلطي ، لا تنسي قصة الارنب والسلحفاة • »

« قصة الارنب والسلحفاة ؟ كيف تنطبق على وضعنا ؟ »

« أنت اسمعي محمود يتكلم - محمود يقول ان العرب في الوقت الحاضر أعصابهم تاكلة بسبب الهزيمة • بودهم يخلصوا من الهزيمة بأي طريقة •

وأسرع طريقة هي الاستسلام • لأنه بيني وبينك ، هزيمتنا شنيعة • سنة ٤٨ انهزمنا ، وقلنا في المستقبل نحارب • هالوقت ، انهزمنا ، بس ، والمستقبل ؟ محمود يقول ، ولا حرب ممكن أنهسا تحرر فلسطين تماما ، تماما ، الا حرب الفدائية • هؤلاء قـلال • يعني شغلهم ، أول الامـر ، مثل مشي السلحفاة • بس ، بعد وقت قصير ممكن يصيروا الطاق طاقين ، ويأخذوا دورهم على مداه •»

« والله يا أختي ، أنا دائخة ، أي شيء نعمل • من قبل كانت المصيبة بنصف فلسطين • الوقت ، راحت فلسطين كلها • وزيادة أراضي عربية بقدّها مرتين • من عارف ماذا يصير في المستقبل • الفدائية ؟ أين هـم الفدائية ؟ مـن يترك عيشه ، وشغله ، وقرابته ، ومستقبله ، وينضم للفدائية ؟ الحيـاة لذيـذة ، يافاطمة ، لا أحد يتركها ليروح للموت • شغلة الفدائية تحتاج لرجال عقليّتهم غير شيء • واذا لم تصدقي ، اسألي إمام • إمام يقول انه من كـل مئة يطلع واحد • ونحن شعب تنابل • عيشة الفدائي غير شيء • هؤلاء ناس لا يعرفون الراحة ، ويعملون طعامهم وغسيلهم بأنفسهم • الصبح •• محمود نفسه يطلب منك قهوة وهـو مستريح في غرفته • الفدائي ، عيشته تعب ودوران ، ويوم يشبع النوم وعشرة لا يشبع • يشبع الأكل وعشرة لا يشبع • يواجـه المـوت كل وقت •• »

« أنت غلطانة يافتحية • اسألي ابنك إمام • ياترى ، من يصبر على الذل الذي نحن فيه ؟ لازم أننا نبدأ حالا • ونحن نخسر شيئا ؟ ما عاد عندنـا شيء نخسره • الحياة ؟ الله يلعن هكذا حياة • أنا أقول لك ، اذا قعدنا في بيوتنا ، خائفين على حياتنا ، يجـيء الاسرائيليون ويقتلوننا في بيوتنا • صدقيني • اذا نحن قعدنا ، ما بدأنا ، نخسر أكثر • ولو ! معقول أننا نسكت على الهزيمة؟»

« طيب • بس •• الناس هي الناس ! من منهم يصيرون فدائيين ؟ »

« كثــير ! »

مرة أخرى تتأملها أم إمام : هذه الزيتونة العتيقة التي لا تكل ٠

يرنّ الجرس ٠ تنهض أم خلف بخفة وهدوء ٠ أسفل الدرج تسمع حمحمة وسعالا مصطنعا ، ثم كلمة : « يا الله ! »

ويكون الوقت ضحى ، وأغاني الراديو مندغمة في الضجيج ، وباعة الخضار مستغرقين في همومهم ، ودمشق ملسوعة بالشمس ٠

« تفضل ، ياسيد حمدي ٠ تفضل ، يا أبو صالح ، » تقول له ، وتسحب الحبل فينفتح باب البيت الخارجي ٠ يصعد حمدي الببش الدرج ، وهو ما يزال يحمحم ويبسمل٠ يدخل مسلّما،ويجلس على الكنبة التي أشارت اليها مضيفته٠

سلسلة مــن عبارات التحية والعتاب والاعتراف بالتقصير والاعتــذار ٠ والاولاد بخير لكنهم يستفقدون أمهم ــ رحمة الله عليها ــ ويربكون أباهم ٠ وسؤال عن محمود ، والاخ إمام ، وأخيراً علي ٠

يقول : « ياستي ، أنا جئت ووجهي بالارض ٠ والله كاد الخجل يمنعني من المجيء ٠ أنــا مقصّر ولا عــذر لــي ٠ وأي شيء تقولينه مقبول ، وعلــى الرأس والعين ٠ »

« أما كلام ، يا أبو صالح ٠ خير ان شاء الله ٠ »

« خير ان شاء الله ٠ ياستي ، لشأن غرفة النوم التي أوصى عليهــا الاستاذ علي ٠ والله لا أعرف أين أخبيء وجهي منه ٠ »

« خير ، خير ٠ كنا اتفقنا أنها تخلص بعد شهر ٠ »

أني أقول لك · »

« قل ، يا أبو صالح ، قل لا تستح · »

« ياستي · اذا سمح الاستاذ علي ، طالما أنه لن يتزوج الآن ، واذا لم يكن بحاجة لها · قصدي ، اذا كان يؤجلها بعض الوقت · والله لأعمل له غرفةأحسن منها بمئة مرة · وأسلمها في الموعد المحدد · »

« من سيأخذ الأغراض ؟ »

« أنـا · »

« أنت ؟! »

« اي والله · اذا سمح الاستاذ علي · وأنا أعطيك قول الشرف أني أصنع له أفضل منها بمئة مرة · معلومك ، هالأولاد لا يصير تركهم بدون أم · وأنـا والله ، فكرت أن السترة أحسن · وشغلة ، اذا ما صارت اليوم ، تصيرذاتيوم·»

« من العروس ، ياأبو صالح ؟ كأن الامور مرتبة وجاهزة · »

« ياستّي ، خير البرّ عاجله · البنت من عندنا ، من الحارة · شافتها أمي واستحسنتها · وقلت لحالي أربّيها مع هالأولاد ، وتدير بالهـا عليهم ، تنستر وتسترهم · »

« على خير ان شاء الله · متى العرس ؟ »

« خير يصيبك · لا عرس ولا شيء · عارفة الظروف · من بيتها لبيتي ·»

يطرق بحزن غير متوقّع ، وقد انحبس صوته · ثم يرفـع رأسه باسما :

والله يالم خلف ، المرحومة عوّدتني على حياة مريحة . يمكن لو أن حياتي كانت صعبة معها ، ما تزوجت مرة ثانية . »

« من ناحية الاستاذ علي ، لا يكن لك فكر . أنا أحكي معه . يمكن هو نسي الموضوع . »

. أبو صالح وأمية في بئر واحدة ، لكن طعم الما ءفي فميهما مختلف ، ووضع الرأسين أيضا . في زمن مرصع بالنجوم ، موشى بالليل ، مشبوح بالسكون ، مسترخ في دمشق ، مهدهد بنسيم تموز ، محسوب على الارصفة مدلهم فيحكايات النفس ، تخرج أمية من بيتها وتمشي نصف مطرقة . تمشي نصف حذرة ، نصف خدرة ، نصف مقولبة . خاطرها يفيض ، ينبض بلا صوت . قدماها تخطوان على مرأى من عينيها . عيناها ترتدّان عن سطح الليل . أنفها مختنق في رياح من العطر . شفتاها منفرجتان ذهولا ، ومنفرجتان لئلا تلتصقا بصمغ الحمرة الكثيفة . جسدها ثلاجة . روحها حريق . جبهتها دوامة . قلبها صدفة .

أسفل الدرج ترى الباب مفتوحا ، وفي الأعلى ترى الرجل واقفا بالباب باسما متلهفا . شعره الاشقر منسرح وليس أسود أجعد . عيناه الزرقاوان هادئتان صافيتان ، وليستا عكرتين قلقتين . تمدّ يديها وتدسّهما في راحتيه المرتقبتين . تتركه يقبّلهما ، وتبتسم لشغفه واحترامه . يترك اليسرى ويتنحّى الى اليمين ، فتتأمل محتويات البهو البسيطة الجميلة . تدخل فيصافح عينيها النور : نور وردي يجثم في الزوايا القصيّة مبقيا من العتمة أكثر مما يزيح . وتصافح أذنيها موسيقى خفيفة جوية تطفو كسديم شفيف . وتصافح أنفها رائحة الند والصندل النافحة من مجامر صغيرة وعيدان نحيلة . تنسحب من يده الى أريكة رتبت للاستلقاء . تسلم كتفيها لحركة يديه الوديعة وتديرهما ، وتجد نفسها جالسة

على الاريكة ، ثم مسترخية ومستلقية وممدودة الساقين • تراه يبتسم ، ويضع قبضة يده في راحة يده الاخرى • بلغة عربية رطنة ، يسألها مـاذا تشرب • لا تضطرب • لقد أعدت نفسها للسؤال • ويسكي ، تقول له • يرفع ابهامه عاليا ويخفض رأسه • هو أيضا خمن الجواب • ينتقل الى المشرب ، وتسحب هي من شعرها حبكتين فينسرح الشعر على كتفيها وطنافس الريش الصغيرة • شيء في داخلها يحاول أن يصعد ، فتسد عليه الطريق بابتسامة والتفاتة لعوب • تهم بتناول مرآتها من جزدانها • ترى مـرآة بممسك ومشطا • تتثبّت الابتسامـة على شفتيها • تتناول الأداتين • تشاهد وجهها في المرآة ، ثم يغيم لوهلة ، ثـم تشاهده : انها هي نفسها ، أمية • وتدس المشط في جـدول شعرهـا وتسحبه الى الخلف •

تنتبه الى الرجل • تراه يراقبها نصف حالم ، نصف واجف ، يداه تحملان الكأسين الطويلتين ، وقامته الطويلة تنتصب وراءهما • هذا هو بالضبط المشهد الذي أراد رؤيته ، يقول لها • امرأة من الشرق ، مضطجعة على أريكة ، بيدها مرآة وبيدها الاخرى مشط ، مكتحلة متحمرة ، معطاة للحب • تلك التي تملأ صفحات ألف ليلة وليلة • عليها غلائل هفهافة ، تكسو لكي تعري • وفيها أبار وآبار من الشهوة المحقونة • والمياه تصعد الى الوجه نضارة وخفرا ، ودعـوة للاغتصاب • امرأة •

يقول ، وتنصت • تكاد ابتسامتها أن تصدر صوتا فرحا • تعرف أنهـا ليست كذلك ، لكنه كلام حلو على أية حال • والصورة ترفعها بأجنحة مرنحة •

تتناول الكأس ، وترفعها الى شفتيها استجابة لحركـة يـده • تحسو حسوة صغيرة • ترددها • وتحس كأن شفرات قد عبرت سقف حلقها وجرحته •

تراه يجلس الى جانبها • وتراه ينزل كأسه على المنضدة الصغيرة ، ويتناول كأسها فيضعها الى جانب الاولى • وترى يـده تمتد الى وجههـا وتلمسه وتسيح

عليه · وترى نفسها تبتسم ، وهو يقترب ، يتحرك ، وتتهيأ ، ويده تنزلق تحت إبطها ، وصدره يقترب ، وأجفانها تضيق ، وأنفاسه تلطم أنفها ·

ثم لا تعود ترى ·

وفي زمن ما ، يغدو علي الى قاعة الامتحان ، وتغدو أسمى · لقد انتهى بالنسبة لهما أمر حارق · الحب الذي لم يكن ضروريا · ولا معافى · هي كانت تعرف ، وهو لم يكن · والنتيجة واحدة · كلاهما الان يبدأ من نقطة الصفر ، مخلفا وراءه عمرا منتهيا ومستقبلا آخر مجهولا · هو يعود الى قوقعته ، وهي الى شرنقتها · هي تتقدم الى امتحان جديد ، وهو يراقب امتحانا جديدا · وفيما تنكب برأسها فوق الورقة البيضاء لتملأها بالكلمات ، يرمق هو في مروره العابر رؤوس الصغار المنكبة فوق أوراقهم · ينظر عبر النافذة الى الاشجار والسيارات ثم يستعيد نظرته · ينظر الى ساعته : لم يحن بعد التأفف من طول الوقت وثقل الانتظار · وتنظر هي الى ساعتها : بعجل ووجل : لم يحن بعد وقت التأفف من قصر الوقت ولفح الترقب ·

كذلك تنتقل سليمى بين المقاعد بخفة وهدوء · تميل الى فتاة هنا ، وتفرك بأصابعها رأس فتاة هناك · وتنظر معقودة الذراعين الى الايدي اليافعة التي ترسم كلماتها على الورق ·

وتمضي أم خلف وأم إمام الى سوق الخضرة ·

ويمضي سليمان الى حانوته ·

وتجلس غادة على الشرفة ·

ويسترخي عباس على مقعده الوثير ، مواجها مراجعيه برصانة تقتضيها الهزيمة · انه الآن أكثر تريثا ، أكثر ارتيابا وثقة ·

وتقول أم تحسين لزبائنها : « قوموا تدربوا على العمل الفدائي ، أحسن لكم • شباب ، ما شاء الله حولكم • أرضكم محتلة وأنتم تذوبون هنا مثل الشمع • »

يقول شيش بيش وهو يفتح ورقه : « نحارب لاجل حكومات لا تعرف من أبوها ؟ »

يقول الملك دافعا بقطعة نقدية الى وسط الطاولة : « العمل الفدائي ليس حربا لأجل الحكومات ، ولا تجارة بالفداء • العمل الفدائي حرب تحرير حقيقية ، تبدأ من الداخل ، في ذات الانسان وفي بنى المجتمع • أن تطمر لغما في الارض المحتلة أو تحمل بارودة محشوة ليس وحده العمل الفدائي • البداية يجب أن تكون هنا ، في منزل أم تحسين ، هنا يجب أن نطمر اللغم • وأنا خائف أن الحكومات ستنفخ هذا البالون لتمتص ردة الفعل الصحية على الهزيمة ثم تثقبه يوما ما • أنا شخصيا ، سأشارك في التدريب ، اذا صحّ لي • »

ويقول سليمان جامعا ورقه بقبضة يده : « اذا رحنا نتدرب ، كيف تدبرين أمرك ، يا أم تحسين ؟ » •

« أو هو ! أم تحسين تعرف دائما كيف تدبر أمرها • »

« كيف ؟ » •

« الزبائن كثار • وخير الله أكثر • وبعدئذ ، أنتم تأتون بين تدريب وتدريب • »

يقول شيش بيش : « هذا رائع ، يا أم تحسين • كنت دائما واثقا من عبقريتك • انما صبّي لي من هذا الزفت في هذه الكأس لنتفاهم • وأنت ياسيد عطيل ، أعطني ورقتين بدل هاتين • »

« هات الورقتين ، وحط خمس ليرات فوق الكوم • »

« سدّ بوزك • هاك خمس ليرات تحت أنفك الأعوج • »

يقول سليمان : « من هم المجانين الذين ينتسبون للعمل الفدائي ؟ يموتون مجانا • هزيمتنا الحاضرة تكريس لهزيمة كان الاعتراف بها لازما قبل عشرين سنة • كان يجب أن نقبل بتقسيم فلسطين عام ٤٧ ، لو كنا نعرف أننا شعب تنابل • في هذا الوقت صارت أكثر من هزيمة • صارت نهاية • السؤال الآن: هل ستقبل اسرائيل اعترافنا بها أم لا • »

يتوقّف اللعب • ينظرون الى سليمان نظرات قبول بجرأة اعترافية ، واستنكار له •

يقول الملك : « ما كان أحد يظن أننا سنبقى تنابل • كان موقف الرفض يومذاك صحيحا ، لكنه كان مقترنا بأمل كبير هو أن تنفض هذه الأمة نفضا ، وتجهّز لتصير أمة مقاتلة • ولكن بدون مماحكات ، ومزايدات باسم الواقعية • أنا أرى أن هذه هزيمة فقط • لكنها هزيمة وضعتنا أمام اختيارين ، تماما مثل هزيمة ٤٨ : اما أننا نفاوض لازالة آثار العدوان وللقبول بنتائجه ؛ واما أننا نحارب ، نحارب بطريقة مختلفة لا تستطيع اسرائيل مواجهتها ، وبشعب خرج من عالم ألف ليلة وليلة واتجه نحو منظور جديد • »

يقول شيش بيش : « دوّختمونا ! تريدون متابعة اللعب ، أم ننهض الآن ونسجل أسماءنا في دورة عمل فدائي ؟ » •

يقول الملك : « هذا هو السؤال فعلا • عند طاولة المسيح هذه يبدأ الاختيار • »

لكنه هذه المرة لا يقلب الطاولة · يكتفي بان يترك الورق والنقود عليها ، ويتركهم حولها ·

يشعرون أن الانتقال من الدعابة الى هذه الجدية صار حادا ، مسرفا في حدته ، سريعا الى درجة مربكة · ويسأل سليمان صديقه الساهم الجامد شيش بيش : « ماذا ، دكتور ؟ أنت أيضا تفكر في الاختيار ؟ » ·

ثم تهرع أم خلف الى إمام ملتاعة مذعورة : « سمعت ؟ قال لك إمام ؟ » فتهز الاخرى رأسها مطبقة الفم على غيظ كظيم · « آخ يا ربي ! » تقول أم خلف · « أما كفى أبوه وأخوه ؟ » وتلتفت الى صديقتها : « إمام يؤثر عليه ، يا فتحية · خلتي إمام يقنعه · آخ يا ربي ! » ·

« إمام سجّل اسمه مع محمود · »

تنظر اليها أم خلف متدلية الذقن ، والدموع تملأ عينيها الزائغتين ·

تتجه المرأتان الى كرسيين صغيرين في صحن الدار ، وتجلسان صامتتين · هكذا اذن · وبعد كل هذا العمر الشقي · ضاعت الارض ، فقام الاولاد يبحثون عنها · هل يضيع الاولاد بعد الارض ؟ قد يضيع الاولاد بعد الارض · وقد يلاقون الارض ·

على غير العادة يفد الاولاد ، ويرون الوالدتين في صمتهما · تهرع سليمى الى أم خلف ، وقد لمحت الدموع في عينيها ، وتمازحها : « كفى الله الشر ، يا أم خلف · تبكين ، وقت محمود قرّر يتزوّج ؟ » وتجهش أم خلف بالبكاء ، وللتوّ تدرك سليمى أن كلمة « يتزوّج » لم تكن مناسبة ·

يتوقفون عن التحرك · تدلف أسمى الى غرفة الضيوف وتعود بكراسي

صغيرة · يجلسون · يقترب محمود من أمه ، مرتبكا محاصرا : « هذا تدريب ، بس · ارفعي رأسك وكلميني · لأي شيء البكاء ؟ هذا تدريب ، بس · »

يقترب إمام منهما ، ويجلس بين الوالدتين : « خالة أم خلف ، أنا أعرفك مناضلة باسلة · ما هذه الدموع ؟ نحن تعلّمنا منك حبّ الارض ، والعدل والحرية والعروبة ، والدفاع عن المظلومين والجوعانين · أنت أكثر من غيرك تفهمين هذه الامور · وأنا لا أكذب عليك · تريدين أن نحافظ على حياتنا لنعيشها تحت نير الاحتلال والظلم ؟ أنت قبل غيرك تعرفين · نحن تأخرنا عشرين سنة · منذ عام التقسيم كان يجب أن يبدأ النضال العربي · ونقطة البداية فلسطين · وأنت تريدين هذا الشيء · أنت تفهمين كم هو ضروري · أم تريدين أن نعيش حياة ألف ليلة وليلة ؟ حان الوقت ، يا خالة أم خلف ، لأن نخرج من عالم الف ليلة وليلة · أنا لا أكذب عليك · نحن بعد التدريب سنتجه الى الارض المحتلة ، اذا مشت الامور بحسب الخطة الموضوعة · وأنت لازم تكوني قوية ، وتشجعي محمود ، وتشجعيني أنا · وضعنا ما عاد يتحمل المزيد من التأخير · »

وتشعر أم خلف أنها فقط بحاجة الى أن تمدّ ذراعيها على كتفي الولدين ـ لتداري ضعفها ؟ أم لتباركهما ؟ لا تعرف · ترفع رأسها ، وتلتقي عيناها بعيني أم إمام الحزينتين الراضيتين ·

وبعد أن يفيقوا ، ينظرون الى عري أجسادهم ويرتدون بدلات حربائية وأحذية ضخمة ·

في البداية

يتجمعون بحذاء مبنى عتيق · في اللحظة الاخيرة ينضم علي اليهم · ثم

يعتلون الشاحنات وينطلقون عبر الشوارع · دقائق ، واذا دمشق وراءهم · قاسيون وأقماره الجرداء الصغيرة الى جانب ، والغوطة الى جانب · تختفي دمشق · يتوارى ضجيجها · هذا الشيء العملاق يطرده من أذهانهم تقلقل الشاحنات المتواتر ، والاحساس المبهم بتجربة جديدة وشيكة ·

الروابي الخضر تستقبلهم ، الارض المرصعة بالحجارة وقصير النبات · ينهضون مع خيوط الفجر الاولى · يترادفون في الساحة الواسعة ، ثم ينطلقون · الارض والمدى والشمس والعصافير تبدو لهم أشياء مختلفة ، تلمسهم فترسل فيهم شعورا بالنضارة · بين الأخاديد والسواقي الجافة ، والتلع المرشوشة على تموج الارض ، تتحرك أجسادهم ·

يومان ويستوعبهم العيش الجديد · رياضة ، ونظام منضم ، وتدريب على فك السلاح وتركيبه · وقوف بالدور لاستلام حصة الطعام المقننة ، وارتخاء على الارض لتناولها · غسيل الأواني ، وبعض قيلولة · ثم تدريب · وتغرب الشمس فيعودون الى مهاجعهم · مذياع هنا وآخر هناك ، وحلقات صغيرة للعب الورق · وفي الساعة التاسعة تطفأ الانوار ·

مساء اليوم الخامس يجمعهم الضباط في الساحة · كل يأخذ اسمه الحركي · تعطى الاوامر أن يتخاطبوا بالاسماء الجديدة · ويرسلون الى مهاجعهم ·

يشير قائد الدورة الى إمام · ينفردان في المكتب العاري الا من طاولة وكراسي خيزران ·

يقول القائد : « أهلا وسهلا ، رفيق إمام · في الحقيقة وجودك بيننا سيساعدنا كثيرا · »

يرتبك إمام للتحية الخاصة فيصمت · يقول القائد : « انتم كثيرون هنا ·

بصراحة نحن لا نعرف كيف نقودكم • النظام والانضباط وغيرهما • هذه أول دورة ، ويجب أن تنجح مهما كلف الامر • »

« عاملونا بشدة ولا تترددوا في شيء • ضعونا أمام اختيار ترك الدورة أو الانضباط بها ، » يقول إمام مستفزّ الضمير •

« نحن نرى أن يكون الانضباط طوعيا • لا نريد أن نفرض شيئا يمكن لكل منكم أن يفرضه على نفسه • »

« ولكننا لسنا كلنا على هذه الدرجة من الوعي • بعضنا جاء ، تقريباً لانه فرض عليه المجيء • وبعضنا بسبب الفضول • »

« لهذا نريد منكم التعاون معنا • الجو الداخلي أهم بكثير من الجو المفروض • »

« فهمت • أنا مستعد • وسأبذل كل جهدي • »

صباح اليوم التالي توقظ إماما عطسة داوية عنيفة ، واذا هو جالس في سريره • يركل السرير الذي فوقه ويهتف : « انهض ، ياحضرة الفدائي • » للتو يجد أمامه قامة محمود منتصبة على الارض: « لعينيك يارفيق جحجاح • » ومع الآخرين يمضون الى المغاسل •

في الساحة يهتز صدره بعطسة ثانية • يلتفت فيراهم من جميع الاتجاهات • وجوه لم تعد غريبة ، ولم تغد مألوفة ، تقبل من جميع الاتجاهات • ينصفون ثلاثة أرتال، والرتل ثلاثة خطوط : هكذا يراهم المدرّب ، واقفا أمام كل خط ، حريصا على أن يراه نقطة أمام عينه • ثمة كتف ناتيء الى اليسار أو ذراع ناشزة الى اليمين • بيده يشير ، وتتحرك القامات حركات خفيفة • أخيرا تصير الخطوط نقاطا تطاولت بطول التسعة الواقفين في المقدمة •

العطسة مرة أخرى · تدغدغ خيشوميه وتشحنهما باحساس مثير · يحس أيضا بالدمع يكاد يطفر من عينيه · ولكن ·· أعصابك يا إمام ! يملأ أنفسه بهواء قوي · يحرك فمه وجلدة أنفه ، علّه يخفف من شحنة الدغدغة ·

« مقاتل جحجاح ! » يصيح المدرب بقوة منذرة · وعندئذ يقع الانفجار الأنفي ·

« نعم ، يا رفيق مدرب · »

« الرقصة الروسية ، أربعين مرة · »

هكذا دفعة واحدة ؟ وبعد محاولات السترة هذه ، وتفادي الاخلال بالنظام ؟ يدرك أن العيون باتت تحدق اليه رغم ثباتها في محاجرها · يهم بالخروج من الصف ليؤدي العقوبة · يقرر فجأة ألا يفعل : هذا ظلم · « لن أنفذ · »

« الرقصة الروسية ، خمسين مرة · »

من مسافة يطل قائد الدورة والى جانبيه الضباط ·

« استاااعد ! » يصيح المدرب · يدير ظهره للارتال ، ويحيي القائد المقترب · يقدم له الصف · يتبادل الرجلان كلمات قصيرة · تتحرك عينا القائد وتبحثان · تستقر النظرة على وجه إمام ·

عند المساء يقول محمود : « وأنت الذي كان البارحة يطلب منه أن يعاملونا بشدة · »

« وطلبت منه أن يعاملونا بشدة هذا المساء أيضا · »

« ماذا تعني ؟ لا أفهمك · »

« التقيت به قبل ساعة · كان يتمشى ، وخمنت أنه يبحث عني مثلما أبحث عنه · اعتذرت ، ونفذت العقوبة كاملة · في البداية ضحك ، وقال انه معتاد على هذه الحالات ولا داعي للتنفيذ · لكني نفذت · »

« هه ! نفذت ! بعيدا عن أعين الرفاق . »

« في المرة القادمة سأنفذ أمام أعين الرفاق . عجيب ذلك الشعور الذي امتلكني وأنا أسمعه يقول : أربعين مرة . يجب ألا أسمع نشرات الاخبار عند الصبح . »

« نشرة الاخبار هي التي أثارت كبرياءك السخيفة ؟ » .

« تقريبا . نشرة أخبار تشبه نشرة أذيعت قبل سنة ، وقبل عشرين سنة . صيغ وكليشيهات . وبين هذه وهذه توجد هزائم من حجم لا يصدق . الموضوع ليس موضوع تدريب ، وانتهى الامر . نحن العرب يجب أن نتغير . وأنـا فشلت في الاختبار الاول ، لكني لن أفشل في الثاني . يجب أن نتغير في نفسيتنا ، وعاداتنا ، ونظرتنا الى الامور اليومية . هذه حياة جديدة فعلا . أنا أخطأت تماما . ظننت أني نموذجي . وهذا غرور وتفاهة . عندما سمعته يقول : الرقصة الروسية ، أربعين مرة .. لعنت النظام المنضم وهذه الأطقم الذهنية العفنة . فكرت بغضب ، أن الدورة ، اذا بدأت بهذا الشكل ، ستكون تدريبا عسكريا ، أساسه العقوبة ، وتنفيـذ الاوامر ، وهذه الاشياء . لكني كنت مخطئا . »

عند الصباح ينصفتون مرة أخرى . للحال يقودهم المدربون الى الحقول . قبيل الساقية الاولى يرتج جسد إمام بعطسة مباغتة . يتناول منديله بسرعة ويمسح أنفه وشاربه . يتوغلون في حقل من قصب الذرة ، ويعبرون الى آخر محلولك بالخضرة . هناك يترافقون في ثلاثة صفوف .

من بعيد يبدون شيئا سمق من الارض ، حجارة صماء أو أشواكا أو أزهارا برية ، تهمد أو تتحرك بفعل نسيم داخلي .

في العودة يتخلف إمام بالتدريج حتى المؤخرة • وهكذا ينضم اليه علي •
« ماذا بك ؟ » يسأله •

« لا أعرف • أشعر بارتخاء • نوع من التعب • »

« ولكن ! أنت مريض ! عيناك •• كأنهما تدمعان • ووجهك أحمر • »

« مريض ؟ ليس سوى رشح بسيط • لو أني مريض كنت أحس بالمرض •»

ثم يقتنع أنه مريض • خلال فترة التدريب الثانية يحس ان غمامة سكنت راسه وأن ثقلا بخاري القوام يتأرجح بين عينيه • يعرف أنها مكابرة صبيانية ، لكنه يستمر • في جسده حقيقة اسمها المرض ، لكنه جسد متين •

بعد العشاء يقول له أحد الرفاق : « أنت تتعاطى شيئا من الرياضة البوذية يا رفيق جعجاح ؟ أراك تعافيت • »

يقول محمود : « من مقومات حرب التحرير الشعبية ، تجاهل الجسد تجاهلا بوذيا ، يا رفيق سلامة • »

يقول سلامة : « هات يا ذياب ــ هات هالراديو ، لنسمع أخبار مؤتمر القمة • »

يقول ذياب : « أنا أقترح لعبة كونكان أو طرنيب • »

يقول محمود : « لا ، خلونا نسمع الاخبار • »

يقول علي : « نسمع الاخبار ، ونلعب طرنيب • لماذا الشدة ؟ » •

في البداية

يسأل علي : « بعد أن نتدرب • وبعدئذ ؟ » •

« بعدئذ ماذا ؟ » يسأل محمود •

« من سيقوم بهذه الحرب ؟ من له مصلحة فيها ؟ والذين لهم مصلحة . سيقدرون يا ترى على أن يوحدوا هذه البلاد ويبنوا مجتمعا عربيا اشتراكيا ؟ »

« ليس بالضرورة ، » يقول إمام · « ربما توجّب علينا أن نحارب الأطقم السياسية السائدة عندنا أولا · »

« اترك هذه الرومنتيكيات لي أنا ، أخي إمام · أطقم سياسية وما لست أدري · هل تظنّها لعبة ؟ هؤلاء لن يسمحوا بحرب من هذا النوع · وأنت لا تستطيع أن تفرضها عليهم · العالم كله الآن مجتمع في منتصف الطريق · من تراه يبالي بنا ، ونحن الذين لسنا على أية بقعة من الطريق ؟ الحكومات تتفق مع بعضها بعضا بالنيابة عن الشعوب ؛ والشعوب ليست في الميزان · الذين يريدون تغيير الواقع ، مصبّرون على الرف · يمكنني أن أتصور هذه الشراذم، هؤلاء الافراد ، يحلمون بالتحرير ، التحرير الشامل الكامل من الداخل والخارج ، بينما الامبرياليون يحصرونهم عملياً في أوكار لا تتسع الا للجرذان · لا شيء يجمعهم ولا رابطة ولا تنظيم ــ واذا التقى اثنان منهم اختلفا ، تصايحا وتشاجرا · ليس عندهم قوة ولا صوت · أن يقولوا لأي شرطي : لا · هؤلاء سيقومون بالتحرير ؟ أو سيحاربون حكومات رسّختها الجهات الاربع ؟

« اذا لم تتجسّد الفكرة ، لازم على الاقل ألاّ تموت · ستبقى في زاوية من زوايا وعينا · أينما اجتمع العالم ، ستستمرّ الهويّات الطبقيّة في التشكّل داخل كل أمة وكل شعب · والأمة العربية ليست استثناء · سيستمر الصراع فيها · ولن تنهيه الحلول · سينهيه فقط العدل والحرية والوحدة الجماهيرية · هذه أمور ، أنا لا أعيد النظر فيها · بالنسبة لي ، هي مثل البديهيات بالنسبة للهندسة · وهي مقاييس · كلما أوشكت أن أعتقد أن حلا ما ، سياسيا ، عسكريا ، أو الاثنين معا ، يوشك أن يستتبّ ، تساءلت : هل هذا الاستتباب سيحل مشاكل الجماهير العربية ؟ ورجعت الى المقاييس · الفقراء لا يملكون شيئا كقاعدة مادية للثورة · لكنهم يملكون العنف · التحليل الذي قدّمه فرانز

قانون للعلاقة بين الاستعمار والشعوب المضطهدة ، سيصير بعد فترة قصيرة جدا صحيحا بالنسبة للعلاقة بين معظم شعوب العالم الثالث وأطقمها السياسية ٠ الآن هناك استقطاب طبقي في العالم الثالث ـ اذا صحّت التسمية ـ وعندما تتدبّر الأطقم السياسية حلولا للخلافات القائمة بينها ، ويستتبّ السلام على الأرض ، سيصير عندنا عالمان فقط : تجار السياسة الفاشيون والشعوب ، الاستغلال والعنف ٠ وهذا الفرز ماشٍ بين العرب ٠ في كل مجتمع ٠ حتى في المجتمعات المتعادية والمتحاربة ٠ في عصرنا ، سقطت الخرافة وحلّت محلّها الحكومات ٠ ومثلما ناضل الجنس البشري للتخلّص من الخرافة ، سيناضل للخلاص من الحكومات ٠ »

يقول محمود مداعبا : « كل هذا سيحرزه العرب من تدريباتنا على استرح واستعدّ ، وفك البارودة ؟ » ٠

فيجيب إمام خشناً صارماً : « نعم ٠ ويجب أن نتفاعل مع استرح واستعد وفك البارودة ٠ لأن البارودة هي حمانا الأخير ٠ »

يقول علي : « هذه شعارات ٠ أنت غارق في المستقبل الى درجة تنسيك الحاضر ٠٠ »

وللتوّ يقف عن التتمّة ٠ يرى في عيني إمام مزيجا غريبا من المحبة والاستنكار والتساؤل والمفاجأة والحزن ٠ يقول متابعا : « الحاضر هو هزيمة حزيران ، والردّ عليها أعمق بكثير من إزالة آثار العدوان ٠ » لكنه يتوقف من جديد ؛ وإمام يعتقله بتلك النظرة العجيبة ٠ « ماذا بك ؟ لماذا تبحلق بي هكذا ؟ » يقول متمارحا ، ثم يعروه اضطراب في الداخل ٠ ينظر الى رفيقيه متحيرا ٠ يظل إمام يبتسم ؛ واليهما ينظر محمود باستغراب ٠

يتأبط إمام ذراعه ويلتفت الى محمود : « وصلنا ، على ما يظهر • هات لنا الراديو والحقنا الى زعرورة السفح • » ثم يدفع علياً بيده ويمشيان معا • يدرك أن خطوات رفيقه مضطربة ، لأن قلبه مضطرب • واذ يتيقن من ابتعاد محمود ، يقول : « لم يكن هذا كلامك لأختي أمية • » ودون أن يرفع عينيه عن الارض ، يدرك أن توتّراً مريدا شدّ جسد رفيقه ، كبّله وعطّله • « كنت تقول لها ، وأنتما في أصدق حالة يمرّ بها الانسان ، إن كل هذه القيم والأفكار والتركيبات الاجتماعية ستزول • وما دامت ستزول فلماذا نبالي بها • وكنت أقول لنفسي : أيّ إنسان عجيب هو هذا العلي • وقد اعتقدت أنك فعلا صادق ، وتعني ما تقول • وهذا ما حيّرني : كونك صادقاً • اذ كيف يمكن أن تصل الى إيمان حقيقي بهذا النوع من الافكار •• الـ •• البعيدة ؟ والآن أنت تحيّرني أكثر • أنت أدرت ظهرك ، كما يبدو لي ، ليس فقط لأميّة ، وانما لذاتك أيضا ، ولأمتك • لماذا أنت هنا ؟ أم أنني مخطئ ؟ » •

من صميم اضطرابه ، ينفتح قدّام علي درب سهل : أن يضع جانبا معرفة إمام بكل شيء ، ويتابع من حيث انتهى الكلام ، كأن سراً لم يكشف • يحسّ بصوته وهو يتشكل في حلقه ، ويسمعه وهو يخرج من شفتيه : لا ، لست مخطئاً ••• في الحقيقة •• أنا اختلفت مع أصدقائي •• حول هذا الموضوع • اتفقنا ، أنا والملك •• الى مسافة معينة • والملك بالمناسبة ، سجّل اسمه • لكن لدورة ثانية ، بسبب مشاكل أسرته • مع الباقين اختلفت تماما • كان رأيي أن هزيمة حزيران كانت موجودة فينا أصلا ، في كل واحد منا • وأن ما حدث هو تثبيتها • صارت حقيقة موضوعية • »

يقاطعه إمام : « عظيم ! لم الزعل ؟ أفقنا الآن على عمق أبعد في واقع حياتنا القومية • ولم يعد هناك مجال للمزح : نحن مهزومون : اذن يجب أن نتغيّر ونصير مقاتلين • »

« أفقنا من جدّ ؟ صحيح أننا أفقنا ؟ » ٠

« هذا يتوقّف على ردّ فعلنا على الهزيمة : هذه الدورة ، سنتكيف معها ونمتلك نفسية مقاتلين ، أم لا ٠ »

وبعدئذ ينتقلون الى مكان آخر ٠ تحملهم الشاحنات الى خط فاصل بين الصحراء والفيحاء ٠ الرمل الترابي يستلقي بلا رائحة ولا حنين ، ينحدر في المنخفضات ، ويصعد فوق التلال الصغيرة ، ثم يهجع تحت الأفق ٠ والتراب الرملي يلتصق بالجذور المتمدّدة ، ويستظل تحت الشجر ورقص الورق ٠ هناك يهبطون ٠ قبيل المغيب ينصبون خيامهم ، وقضبان الحديد المسمّاة أسرّة ٠ تحت الأسرّة يضعون أكياسهم العسكرية ، وفوقها البطانيات والوسائد ٠ يمنحهم المكان الجديد شعوراً بتغيّر أكبر ٠ لقد نصبوا خيامهم بأنفسهم ، وبعضهم فعل ذلك بدون ذكريات : لا صورة السرير المريح عبرت أذهانهم ، ولا فنجان القهوة ولا ركوب الباص ٠ انهم الآن يعيشون فوق التراب ، بين الأشجار حيناً ، وفوق الرمل حينا ، وأعينهم تمتدّ حتى أفق التلال القصيّة ٠ ثم يتبادلون الأحاديث ٠ يتنزّهون على الأرض الرمليّة الهاجعة صوب أشجار الحور والسرو ٠ بعضهم يصنع الشاي ٠ بعضهم يلعب الورق ٠ وبعضهم يناقش المستقبل ٠ أخيراً يستبدّ بهم التعب فينامون ٠

بعد هزيع من الليل ، تدخل في غطيط واعيتهم أصوات مروّعة ٠ يتوقّف الاحساس الغافي بالسلام ويتوارى مخلّفاً فراغاً أصمّ في الأدمغة ٠ والفراغ يمتلئ بسديم مبهم وفوضى منذرة ٠ ثم تتوضّح الأصوات : رصاص يئزّ وقنابل تنفجر ، ومدافع تقصف ٠

عندئذ يفيقون ٠

يجلس إمام في سريره محاولا استيعاب الموقف · صوت مصطفى يناديه : « ما هذا يا رفيق جحجاح ؟ » يقول : « لا أعرف · لحظة واحدة لنفهم · » في ركن الخيمة الآخر يهبّ أبو زهير صائحاً : « يا ماما ! هجموا من جبل الشيخ ! يا ماما ! الاسرائيليون هجموا من جبل الشيخ ! لا يريدون الفدائيين ! » ويندسّ تحت بطانيتيه ·

تستمرّ الأصوات الصاعقة وتزداد · تخترق الخيمة كأنها تحمل جحيمها · يقول محمود : « ماذا نفعل ؟ » ويثب إمام عن سريره · فتحة نحيلة في مدخل الخيمة سمحت لضوء القمر بالتسلّل · على خط الضوء جثمت كتلة سوداء بحجم الرمانة وراحت تنثّ دخانا كثيفا ومنذرا · كم بقي لها حتى تنفجر ؟ لا يعبأ إمام بالأمر في تلك اللحظة · يتناول القنبلة ويقذف بها خارج الخيمة · يسمع صوت اصطدامها بالعمود · لا باس ، المهمّ أنها ابتعدت · لكن القنبلة تعود · تتدحرج حتى تقف تحت ذؤابة الخيمة ، وتنثّ دخانها من جديد · تدحرجت ، يقول إمام لنفسه ، اذن هناك قدم إنسان دفعتها · من ذا الذي أعادها اليهم ؟

يقول مصطفى متهدّج الصوت : « يا رفيق جحجاح ، ما هذا ؟ صحيح هجوم اسرائيلي ؟ » ·

« لا · هذا جزء من التدريب · مناورة · أمسك نفسك · »

يصرخ أبو زهير من تحت البطانية : « يا ماما ! هجموا من جبل الشيخ ! » ويعول · يصرخ بدون كلمات · يزعق · ويرتجف صوته كارتجاف جسده · ويسرع إمام الى دفع القنبلة مرة أخرى ·

عندما تنطلق أصوات الصفارات يكون إمام قد ارتدى ثيابه : « اجتماع ،

يا رفاق ، هيا · » ويمضي · يلحق به محمود حافياً · على الطريق الترابي يصرخ : « آي ! » ويحس بأشواك نارية تنغرز في قدمه · يهرول وراء إمام ، وينـدسّ الاثنان بين الراكضين والمتجرجرين ، وقـد انكشفت لهـم أسرار الاصوات ·

خلال أسبوع تظل قدم محمود معطوبة · لكنه يرفض أن يستريح في الخيمة· يشاركهم ، الا في الركض والهرولة · « هناك أساليب افضل لاظهار شجاعتك ، يا رفيق حذيفة ، » يقول له ذياب ، « تدوس على قنبلة ! » وينشم سلامة بوقار : « ما كان لقطعة معدن خسيس أن تترك وشماً على قدمي · » يقول إمام : « لا شك يا سيد حوت · ولكن لو أنها منسف ، أو خروف محشي ، لتركت وشماً على روحك الشفافة · » يقول محمود : « أفضل طريقة لأن تجعل الحوت يندفع الى تحرير الارض المحتلة هي أن تقول له : توجد هناك أطعمة شهية · » يقهقه أبو نهرو بصفاء وجلجلة ، كاشفا عن النتوأين الوحيديـن في طقمي أسنانه المسوحين · يلتقط سلامة ذراعه ، محاذراً في الوقت نفسه ألا يجرح كبرياء نضاله المجيد : « لا أعرف لماذا ترك لك الشرطة هذين السنّين المنخورين · » فتخرج كلمات أبو نهرو البدوية من بين مويجات ضحكه : « والله يا أخي ، يا حوت ، ضربوهم بأعقاب البنادق أكثر من مرة · بس لهم عمر أن يعيشوا ويأكلوا كم منسف وخروف محشي · » وتجلجل ضحكته الصافية من جديد ·

يمرّ بهم مسعود وهو يعرج · يأتي اليهم بقامته الضخمة ويبتسم · ينزلق إمام الى الارض ، ويدعوه للجلوس على كرسيه : « كيف رجلك الآن ؟ » ·

يجلس مسعود ويكشف عن قدمه · يفاجئهم الورم الواضح واللون الازرق الداكن للحم المتفخ · يقول : « تصور ! مضى أسبوع وأنا لم أخرج للتدريب

بسببها • رجلك طابت يا رفيق محمود ؟ هنيئا لك • مع أن اصابتي أخف • لا أعرف لماذا لم تشفَ • مع أني أدلكها كل يوم • »

يصمت ويصمتون • تتفحّصه نظراتهم وبلا تعليق • يقول : « أنتم ساهرون هنا ؟ قوموا نلعب الورق • رفيق إمام ! عندنا عرق جيد • قم ، خذ لك رشفة • »

يبتسم إمام • يهزّ رأسه صامتا • عندئذ ينهض مسعود ويودعهم : «تصبحون على خير • »

ويردّون التحية • يقول أبو نهرو : « تصبح على تدريب ، يا رفيق مسعود • »

الأرض متموّجة : رمل أحمر وحصى • والدريئات منصوبة • المسافة ثلاثمئة متر • يسوّون الارض تحتهم ، ويرفعون منها متكآت لرشاشاتهم • « وضعية الرامي منبطحا • » ينبطحون • ثم يئزّ الرصاص •

النتائج غير متوقّعة • قبل يومين ، أحرز محمود عشر اصابات من عشر ، وكانت بيده البارودة الروسية • اليوم : أربع اصابات فقط • إمام ثماني اصابات ، أبو نهرو ، ثلاث • وبين الرقمين تتدرج أرقام الآخرين • المشكلة أن رصاصات هذا الرشاش مثل دموع المرأة الشرقية : دمعة واحدة ويصعب التحكم بها • من المجموعة الاولى علي وحده يسجل عشر إصابات — إصابات متميزة ومنفصلة • « هذا يعني ، » يقول المدرب عبيسي ، « أن الرفيق طلحة أطلق رصاصة برصاصة ، وكلها جاءت في الهدف • »

تعبر فوقهم غيمة وتتوقّف • تتمطّى ثم تهبط مطرا • دقائق قليلة وتغدو الارض الرملية شريحة من الوحل • تتابع المجموعة الثانية اطلاق الرصاص •

وراءها تقف الثالثة ، وأفرادها يتلقّون التعليمات • وتغدو الأولى الى مكان آخر : هناك فرق بين التدريب وحالة إطلاق حقيقية ، يجب أن يعرفوه •

قبيل الساعة الواحدة ، يلسعهم شواظ الشمس ، وتمسح على جباههم ريح شرقية • تعود بهم الشاحنات الى خيامهم ، وتمضي لجلب الطعام • يستريح بعضهم ، وبعضهم يتعرّى تحت الشلالات الصغيرة التي كوّنتها انهدامات الارض قرب ينابيعها •

ينصفّون فوق الارض الوعرة ، حيث تقف الشاحنات • تدلى براميل الطعام ، وتنقل الى الوسط • يزوبع الغبار ثم يتلاشى • ويزوبع ثانية •

بعد التوزيع ، يحرك أبو نهرو الفاصولياء بقوة ويشرد عن تناولها • اليه يلتفت ذياب : « ماذا ؟ أنت تجد لذة في مجرد تحريك الطعام ؟ » بلا احتفال يقول أبو نهرو : « لا • أريد فقط تذويب الغبار في المرقة ، حتى لا يسد شعيراتي الماصّة • » يضحكون ، ويشرق ذياب بلقمته • يقول علي : « وأنت يا رفيق حوت • تريد أيضا تذويب الغبار ؟ » يقول سلامة ، ممعناً النظر في صحنه : « لا• أنا أبحث عن حبات الفاصولياء• قالوا لنا ان الوجبة فاصولياء•» يضحكون أيضا • هذه المرة ، يندفع من منخري سلامة تياران من الهواء يرفعان المرقة الى وجهه المنكبّ فوقها • ويرفع هو عينيه ، دون وجهه • يدير بؤبؤيهما في المحجرين ، ناقلا نظرته العابثة الصارمة بين الوجوه الطافحة بالفرح والحب • يدسّ الوعاء بين شفتيه ويجرع محتوياته حتى الثمالة •

في البداية

بين أشجـار الحور يتوزعـون • يرتب المـدرّب عبيسي أدواته بيديـن معروقتين متوترتين • هذا اليوم سيقوم بمراجعة سريعة لعملية زرع اللغم ،

ونبشه ، واخراجه ، وتعطيله • من يريد أن يسأل سؤالا ؟ يرفع مسعود يده : « نعم يا رفيق مدرب • ألا يحتمل أن يكون العدو غيّر نوع الألغام التي تدرّبنا عليها ؟ » « من حيث المبدأ ، هناك نوعان أساسيان ، هما ما أمضينا أسبوعاً نشرحه لكم • اذا كان العدو اخترع نوعاً ثالثاً لم يخترعه الناس بعد ، فالمهمّ أن تتعرف على اللغم وعلى موضعه بالدرجة الاولى • وبعدئذ دبّر رأسك الصغير • »

ثم يحفرون عشر حفر • « الآن ، » يقول لهم المدرب ، « ستوزع عشرة ألغام من نوعين ، على العشرة الاولى منكم • النوع الاول ألغام تنفجر بالضغط • النوع الثاني ألغام تنفجر بالسحب • من يزرع لغما ينفجر بالضغط سيتعامل في المرحلة الثانية مع لغم ينفجر بالسحب ، والعكس بالعكس • انتبهوا • أكرر : انتبهوا • هذه ألغام حية • اذا سقطت •• تسك •• راح حاملها • مات • في ألف داهية • »

يتّقد بينهم الصمت والترقب • يتقدّم العشرة الأول بتؤدة نحو الحفر • يركعون • ينبطحون • يضعون الالغام في أوكارها • يردّون عليها التراب بأطراف راحاتهم • يغطّونها بتراب جافّ ، والتراب بأعشاب يابسة وخضراء • يزحفون الى الخلف • ينهضون • يضربون أكفّهم بعضها ببعض •

يقول المدرب عبيسي : « الآن • العملية نفسها معكوسة • زائدا : تعطيل اللغم • أي سؤال عن عملية التعطيل ؟ أي خطأ يقتلكم • لا تنسوا • » لاسؤال • « تقدموا اذن • » ويندفع محمود الى لغمه : هذا تدريب حقيقي ، يريد أن يتقنه تماما وبسرعة • تجمده صرخة المدرب الصاعقة : « قف ! يا ابن القحبة ! قفوا كلكم • » يقفون • تتساقط عليه نظرات الجميع المرتقبة • « قلت : تقدموا • لم أقل : اركضوا • » يتمتم محمود : « أنا أخطأت ، يا رفيق مدرب •

ولكن لا تغضب . » « أغضب ؟ خمسة أيام وأنا أحذركم . أنتم والموت هنا تتنفسون هواء واحدا . اذا قتلك اللغم من أين أعوضك لهذه الامة ؟ أنا لست إلها يخلق بشرا ولا أستطيع أن أبعثك حيا . » « أنا آسف يا رفيق مدرب . »

يدركون أن الامر خطر . في ثوان لا يبقى لآذانهم غير حفيف الاوراق . يتراجعون بحركة غريزية . يتقدم العشرة . قبـل مواضع الالغام بمترين يركعون . يتمددون ويزحفون . يمدون أيديهم على طولها . امام أعينهم تتلوى الأشرطة النحيلة القاتلة . بأصابعهم يزيحون الاعشاب . ثم التراب . تبدو الالغام ، ثم تتعرى . تلمع كتل المعدن المظلمة . تمتدّ الأصابع . تمسك بالكبسولات . تفكها عن الصواعق . تندس تحت الالغام . ترفعها .

ويصيرون رنة واحدة تطلق زفيرا واحدا ، عندما يعود العشرة بأحمالهم المميتة . نصف تكشيرة ترتسم على محيا المدرب وتكشف عن أسنانه النضيدة . ثم يهدر صوته : « العشرة الثانيين . »

في المسيرة الاخيرة الى الضريح العالق براس الجبل ، ينضم علي الى إمام ، ويمشي الاثنان صامتين . يجتازان والآخرين سهلا وواديا وبساتين . ثم مرتفعا عموديا شاهقا تتقصم به ظهورهم . يصلان الى القمة المستوية ، ويتوقفان لاهثين منهكين .

« ماذا بك ؟ » يسأل علي ، وادع الابتسامة .

يلتفت اليه إمام بنظرة غامضة ووجه ساكن ، ثم يلتفت نحو الوادي . ويحيل الصمت السؤال الى حيرة ، فارتباك .

« ماذا ؟ » يسأله علي واجفا .

« أمية حبلى . »

تلتقي أعينهما في مدى النبأ الصاعق · يستمرّان في وقوفهما بلا كلمات · يخفق الهواء حولهما و بينهما · يلتفت إمام الى الوادي العميق الطويل ، المتعطف مع النهر الاخضر ، المحصور بين جدارين قاحلين من الجبال · وفي عيني علي . يصير وجه رفيقه الفضاء كله ·

« يمكنك أن تقتلني اذا شئت · لن أبدي أية مقاومة · »

« لا تكن سخيفا ، » يقول إمام جامدا ·

لكنه يتابع النظر الى الوادي · يحس بمذلة علي المتجلد الى يساره ، فيزداد ضيقا وحزنا · لذلك يتابع النظر الى الوادي : هناك حيث الخضرة والنهر الابديان · لماذا اختار المدربون ضريحا تنتهي اليه المسيرة ؟ ولماذا الضريح في الأعالي . على مدى الرؤية ، بينما النهر في عمق الوادي ؟ ولماذا يسأل هذه الاسئلة الركيكة ؟

« هيا بنا · »

« هل ·· هل تقول لي ·· ماذا حدث ؟ » ·

« نوّاف خرج من السجن · بدأ يستجوبها · عرف أنها حبلى · ليس منك · من رجل سويسري · اعترفت بكل شيء تقريبا · قالت أنت كنت البداية والنهاية · كانت قوية الأعصاب على غير العادة ، عندما تكلمت · أو ربما ميتة الأعصاب · »

« متى عرفت ؟ » ·

« البارحة مساء · »

على باحة الضريح يتجمعون · يربطون خوذاتهم بنطاقاتهم ويدلونها في

البئر • يشربون من الماء الآسن ، ويغسلون وجوههم • ينتشرون في اتساع المكان ، وبعضهم يلج الى داخل الضريح •

« لا أدري ماذا أقول ولكن لدي رغبة بالاعلان عن شيء • أنا جئت للدورة •• لكي أغسل نفسي من أوشالها • هذا لا يعني أن أتخلى عن مسؤوليتي •• مسؤولية الماضي الجسيمة • في الحقيقة •• لا أعرف كيف أواجهك بعد الآن •• يبدو أني فشلت مرة أخرى • »

« مسؤوليتك أنت هي تجاه نفسك وتجاه أمية • يجب أن تصدق أنه ليس في قلبي سوى الانفعال • لا حقد ولا شعور بالاهانة • أنا فقط متألم • لمصير أختي • طبعا • كانسانة • طبعا • مع أنها قد تبدأ بداية صحية في معامل الريجي • لكن أخوتنا هنا •• نحن كلنا ، هي الاقوى • »

وبعدئذ تحملهم الشاحنات مرة أخيرة • « هذا هو أهم يوم في الدورة ، » يقول القائد • « بعده ستتوجه الى الارض المحتلة ، لكن تطعيم المعركة أهم شيء • لا تنسوا : الذخيرة حية ، الرصاص والقنابل والقذائف • أي خطأ يعني الموت المحقق • انتبهوا جيدا لما أقول • أكرر : الذخيرة حية ، أي خطأ يعني الموت المحقق • ستطلق النار في المدى الذي يفترض أنكم تجاوزتموه كجماعات ، أو لم تصلوا اليه بعد • أية سرعة ، أي ابطاء ، أي خروج عن وحدة الجماعة •• يعني : الموت • أكرر : الموت • لا تركضوا • لا تمشوا • هرولوا • يجب أن تجتازوا الحبال المعلقة زاحفين عليها ، وليس متدلّين منها • لا ترفعوا رؤوسكم في أنفاق الاسلاك الشائكة ، فقد تفقأ أعينكم ، تنشطر شفاهكم أو آذانكم أو أكتافكم أو فروات رؤوسكم • لا تسحبوا البواريد أثناء ذلك على الارض • ضعوها على أذرعتكم لئلا تتلوث • حتى هذه اللحظة يستطيع أي واحد أن ينسحب ، وليس في الامر عار ولا ملامة • ليس من

الضروري أن نكون كلنا فدائيين بحقّ وحقيق · الوثوب الى جدار ارتفاعه ثلاثة أمتار يعني ثلاثة أمتار فعلا · والموت يعني الموت ، وليس فكرة عنه · اذا لم تثب تقتلك رصاصة ، أو قنبلة ، أو قذيفة · حتى الآن لم يصر شيء : معكم خمس دقائق لمن يريد الانسحاب · »

لكن أحداً لا ينسحب ·

يقترب القائد من الثلاثة الأول باسما : « رفيق جحجاح ، ما تزال مصمماً على أن تكون في الصف الاول ؟ أنا خائف عليك · في البداية يكون التطبيق حازماً تماماً · »

« لن يجرؤ على التراجع ، » يقول محمود مازحا ·

يبتسم إمام وعلي · يسوّيان بندقيتهما على ظهريهما ·

أخيرا يبدأ اطلاق النيران · يندفع الثلاثة نحو الجدار : محمود وإمام وعلي · وثبة توصل أيديهم الى حرفه الاعلى ، ثم تعلو أجسادهم زحفا عليه · وفيما يتهيأ إمام للوثوب عن سطحه ، يهوي جسد محمود مفتوح الاطراف ، ويصل علي الى القمة · تحتهما تنثّ قنبلتان دخانا · يثب إمام الى ما بين القنبلتين ، وينبض عن الارض بخفة · يهرول · يرى الى محمود وقد اندفع خارجا من البركة · يصل هو اليها · ماء قذر فائح النتانة ، وجثة كلب طافية في الوسط · يجمّع جسده ويثب · يسقط في الثلث الاخير من البركة · يخوّض في الماء والوحل حتى وسطه ، رافعا بارودته الى الاعلى · يضع قدمه على الحافة ويهم بالارتقاء · عندئذ يسمع الاصوات : مطر متفجر من الرصاص ، وقنابل تنفجر ذات اليمين وذات اليسار ، وبينه وبين محمود · ينظر الى محمود المبتعد واجفا · ينهض · يهرول · عند الأخاديد المملوءة رملا ورمادا ينبطح · يزحف · تتوحل ثيابه البليلة بالماء والوسخ ، لكن بارودته تبقى نظيفة مرفوعة · فوقه يمرق الرصاص بأزيزه الداحم ، وحوله تنفجر القنابل وقذائف المدافع ·

يا لهذه الأخاديد اللعينة ! لقد امتلأ وجهه وعيناه بالرماد والرمل · عشرة امتار ــ ثم ينهض · ينتبه الى أنه يلهث : التعب ، بهذه السرعة ؟ في البداية خشي أن يركض دون وعي منه · وهو الآن يخشى من المشي · ولكن ، ها هي ذي العارضة ·

يتسلق ، ويكتشف أنه يفعل ذلك بخفة · ليس تعبا اذن ــ مجرد زيادة في نبضات القلب · يا لمحمود الأهوج ، كم ابتعد · ينبطح على الحبل · يعقل عليه ساقيه ، ويمسكه بكلتا يديه · من طرف عينه يلمح عليّاً وهو يتقلقل متهدل الحنك · يمد يديه فيسحب بهما جسده · يا للعلو ! وماذا لو سقط من ارتفاع ستة أمتار ؟ سيكون الرصاص فراشا له ، قبل أن تكون الارض · رماة ماهرون· وماذا لو هوى جسده على غير توقع وبقي معلقا باليدين فقط ؟ ستة أمتار علوا ، وستة أمتار طولا · حسنا · ها هي ذي العارضة الثانية · ينقل جسده اليها · ومنها يثب ·

يهرول مرة أخرى · خمسة أمتار تالية ، ويقف ·

يلتفت الى مصدر الصرخة الثاقبة ، فيرى عليا متقوس الجذع · ويراه يسقط ، يتلوى ويداه تغطيان وجهه · « تقدم ! يا رفيق جحجاح ! لا تقف ! » ويتكرر الامر الصراخي من الجانب الايمن · يستدير الى خط سيره ويهم بالمتابعة · يا إلٓه السماء ! محمود أيضاً ! ويرى الى محمود وقد انحنى وأمسكت يداه بساقه · ويراه وهو يهوي الى الأرض ·

« تقدّم ! يا ابن القحبة ! تقدم ! » يصيحون به من الجانب الايمن · وترميه يد بقنبلة ·

ويتقدم إمام ، لا بطيئا ولا مسرعا ، ولكن يتقدم ·

★ ★ ★

مؤلفات الدكتور هاني الراهب

المهزومون (طبعة جديدة)

ألف ليلة.. وليلتان (طبعة جديدة)

الوباء (طبعة جديدة)

التّلال

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص. ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت